مكتبة الدّراسات الأدبيّة

٧٨

الدكتور عزيز فهمى

المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول

تحقيق

محمد قنديل البقلى

دار المعارف

هذا الكتاب

الأدب المقارن يحتاج من الكاتبين إلى جهد كبير ومعرفة واسعة وقدرة خاصة فى التحليل والنقد لا يستطيعها إلا ذوو العبقرية الأدبية الذين لهم ضلع فى الأدبين العربى والأجنبى .

وقد تجلى فى هذا البحث قدرة المرحوم عزيز فهمى فكان من واضعى الأصول النفسية والأدبية لمن يريدون أن يزاولوا هذا النوع من البحوث والمقارنات بين أدبين مختلفين . فنراه قد مهد له باستقراء واسع فقد عرض أولا للحديث عن فنون الشعر الأموى بفروعه . فتحدث عن الشعر القبلى ثم الشعر الغزلى رابطاً ما قيل هنا فى العصر الأموى والعصر الجاهلى مدللاً بالشواهد لفنون الشعر المختلفة منذ العصر الأموى إلى نهاية العصر العباسى ، ثم تحدث عن ماهية الشعر وعن التجديد جاعلاً هذا التجديد مدرسة على رأسها أبو نوّاس ثم تكلم عن أثر الفلسفة اليونانية فى الشعر العباسى وعن مقارنة الأسلوب بين الشعرين .

ص
٣٠٠

٧٤٧١/١

المقارنة
بين الشعر الأموي والعباسي
في العصر الأول

مكتبة الدراسات الأدبيّة

٧٨

المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى في العصر الأول

تأليف

دكتور عزيز فهمى

تحقيق وتقديم

محمد قنديل البقلى

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

١

أما كيف وقعت لى هذه الدراسة : « المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول » للمرحوم الدكتور عزيز فهمى ، فهذا حديث أحب أن أحدثك به قبل أن آخذ فى الحديث العام عن البحث وصاحبه .

فى زورة لى للمرحوم الأستاذ أحمد الشايب – وكنت كثيراً ماأزوره الفينة بعد الفينة – دفع إلىّ مخطوطة ضخمة تقع فى نحو ثلثمائة وسبعين صفحة من القطع الكبير ، هى هذه الدراسة ، ولم يحدثنى كيف انتهت إليه ، ولكنه حدثنى أنه قرأها وحازت إعجابه ، وتمنى علىّ أن لوأشرفت على تحقيقها وعزو كل قول إلى قائله ، ورد كل نص إلى مرجعه ، وتقويم مابها من تصحيف وتحريف .

وفى الحق لقد كان البحث قبل أن يأخذ صورته تلك الأخيرة كثير الأغلاط الإملائية مما يدل على أن صاحبه أملاه على غيره ، وكان هذا المملى عليه سيئ الأداء ، كما كان كله أقوالاً غير معزوّة إلى مراجعها ، ونصوصاً غير مشار فيها إلى مظانها ، وكانت إساءة المملى عليه إلى هذا وذاك تجعل من البحث على مافيه من نفع كبير شيئاً يكاد يُعَدّ غامضاً ومبهما لايفيد منه الملم به إلا القليل .

ولقد كانت الدراسة شيئاً جليلاً عندى ، كما كانت شيئاً جليلاً عند أستاذنا أحمد الشايب . من أجل هذا كان حرصى على نشرها .

وإذا عرفت أنى تسلمت هذه الدراسة منذ سنين أربع أو أكثر قليلاً ، أدركت كم وقتاً قضيت وأنا منكبٌ عليها لتحقيقها وكتابتها وتصويبها ، ورد كل شىء إلى أصله .

وهأنذا أطالع القراء بها راجياً أن أكون قد حققت رغبة للأستاذ أحمد الشايب ، وأدّيت

واجبا نحو العلم والتراث الأدبى ، ووفيت لأديبنا الراحل المرحوم الدكتور عزيز فهمى ببعض مايؤديه الأحياء للأموات من الوفاء ، ثم أكون آخر الأمر قد أرضيت نفسى بإنجاز هذا العمل الكبير وإخراجه للقراء فى صورة طيبة ليستمتعوا به كما استمتعت .

٢

وأحب – قبل أن أدخل إلى موضوع هذه الدراسة – أن أعرِّف بصاحبها فمعرفة المؤلِّف يجب أن تكون أسبق من معرفة المؤلَّف ، فقد تلقى المعرفة الأولى ضوءاً على المعرفة الثانية ، فعمل المرء صورة من حياته بجميع مظاهرها ، ولكى تتضح لك تلك الصورة يجب أن تتبين أنت صاحبها .

وعلى الرغم من أن المرحوم الدكتور عزيز فهمى كان معاصراً فإن تقصى تاريخ المعاصرين اليوم من الصعوبة بمكان وبخاصة هؤلاء الذين بغتهم الموت فى ريعان الشباب .

ويبدو أن حياة المتقدمين كانت أيسر على الجامعين من حياة المعاصرين بدليل ما نجده للمتقدمين من تراجم وافية تجمع الصغيرة إلى الكبيرة ويتناقلها مترجم عن مترجم بإضافات وتعليقات ، فإذا نحن أمام تراجم وافية مستفيضة لايكاد يغيب منها على القارئ الباحث شىء ، بل كثيراً مانشكو ثقل هذه التراجم وما فيها من حشو واستطراد .

وعلى العكس من ذلك لانجد للمعاصرين هذه العناية الحافلة . بما بين أيدينا ، فيمضى الأديب المعاصر أو الشاعر أو الكاتب أو غيرهم ممن لهم شأن وبال ، فلا نجد بين أيدينا مرجعاً يترجم تلك الحياة لهؤلاء أو يكشف عنها ، اللهم إلا بعض سجلات تحتفظ بها الهيئات والنقابات والصحف أوملفات الحكومة إن قدّر للشخص أن يكون موظفاً ، وهذه كلها إن وجدت لاتكاد تغنى شيئاً لأنها من القلة بحيث لاتفصّل الحياة تفصيلاً يغنى ، ولعل هذا هو الذى دفع – أخيراً – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أن يعدّ سجلاً للمعاصرين يجمع فيه ماستطاع جمعه من أصوله الموثوق بها .

وقد رأينا نفراً من المؤرخين الذين عنوا بتلك الدراسات التأريخية للأفراد يجمعون شيئاً من هنا وشيئاً من هناك عن المعاصرين ، وهذا – كما نرى – شىء ليس فيه استقصاء ، وإنما هو كلمات غير وافية مستوحاة من سجلات غير وافية ، وكم عانى قبلى من الذين عرضوا لترجمة

شخص من المعاصرين مثل ما أحسُّ أنا ما أعانيه وأنا أترجم للمرحوم الدكتور عزيز فهمى .

لقد عاصرته وقرأت له حين كان يكتب فى البلاغ كلمات تكاد تكون منتظرة يوماً يوماً أو أسبوعاً بعد أسبوع ، ولم يكن عزيز كاتباً اجتماعيًّا ، وإنما كان كاتباً وقف نفسه على الحياة السياسية ، وكان يكتب فى الأدب ، ولقد كانت كلماته الأدبية أقل من كلماته السياسية ، لقد كان عزيز حزبيًّا ينتمى إلى حزب الوفد ، وكانت معاركه صاخبة لاتكاد تهدأ ، وكتّاب هذا الحزب ومن جملتهم عزيز لايكادون يهدءون أيضاً .

ولعل الذى رمى بعزيز فى أتون السياسة وفى الحزبية أن أباه المرحوم عبد السلام فهمى جمعة كان من كبار شخصيات هذا الحزب بل رئيس مجلس النواب ، لم يغب عن رئاسته دورة من الدورات التى كانت لحزب الوفد (الحكومة) .

ولد عزيز لهذا الأب الغارق فى السياسة إلى الأذقان ، وكان مولده فى مدينة طنطا سنة ١٩٠٩م ، وبذلك نعرف كم كانت سنه عندما شبت ثورة ١٩١٩ ، وإذا عرفنا مشاركة أبيه فى السياسة منذ نشبت هذه الثورة ، عرفنا غذاء عزيز الثائر ، فلقد كان غذاء سياسياً بحتاً ، رضعه واستساغه وطعمه وهو صبى واستزاد منه وهو ناشئ ، وكان أبوه من ورائه يشركه فى الرأى ويلقنه كل مايهم الوطن ، وما يهم كل مواطن ، فكانت هذه هى حياة المصريين جميعاً ، عاشوا لوطنهم تلك الحقبة السياسية المريرة ماقبل الثورة يعدون ، وما بعد الثورة يتابعون . ولقد كان والد عزيز رجلاً من رجالها ، لهذا كان ألصق من غيره بالثورة إعداداً ومتابعة ، وكما كان الوالد كان الابن ، ومن شبّ على شىء شاب عليه .

هذه الرعاية السياسية من الأب ملأت عزيزاً بتلك النزعات السياسية وجعلته ذا حظ كبير يفوق حظ الناشئين الذين عاصروه .

قضى عزيز فى مدرسة طنطا الابتدائية أربعة أعوام ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية فى تلك المدرسة التحق بمدرسة طنطا الثانوية ، ويبدو أنه لم يلبث بها طويلاً وتركها والتحق بمدرسة الجيزة الثانوية وحصل منها على شهادة البكالوريا فى سنة ١٩٢٦ ، أو ١٩٢٧ ، لا أكاد أجزم ، فما بين يدىّ من مراجع لايعطينى بياناً محدداً ، ويعنينى هنا أن أشير إلى أن حصول عزيز على البكالوريا كان فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ، وهذا العمر إذا قيس بأعمار من زاملوه ممن حصلوا على هذه الشهادة فى فرقته يعد عمراً مبكراً ، والحاصل عليها فى مثل هذه السن يعد من النابهين المجدين .

وإذا عرفنا أن الثورة التى نشبت سنة ١٩١٩ ، كان قد مضى عليها نحو سبع سنوات أو ثمانى سنوات عرفنا كم من السنين شارك عزيز فى تلك الثورة ، فلقد كان للطلبة حين ذاك — طلبة المدارس الثانوية ، وطلبة المدارس العليا بل طلبة المدارس الابتدائية مشاركة فى الثورة ، فهم الذين كانوا يتظاهرون ، وهم الذين كانوا لايهدءون ، ولايهدأ لهم بال ، ويتعرضون لرصاص المستعمرين وبطش الحاكمين والسجن والتعذيب .

وما من شك فى أن عزيزاً كان واحداً من هؤلاء ، بل كان بارزاً من المبرزين فى ذلك الميدان ، شارك بنصيب كبير فى جمعيات الطلبة ، وفى كتابة المنشورات وفى التحريض وفى إلقاء الخطب الحماسية ، كما يقول بعض عارفيه .

والنزعات الوطنية إن لم تساندها نزعات أدبية لم يكتب لأصحابها التصدر والتزعم حتى يؤيد البيان الوجدان ، ويكون القول المبين إفصاحاً عن الوجدان المتين .

ولقد رزق عزيز فهمى حظًّا من الأدب موفوراً وهو فى صباه إلى جانب حظ من الوطنية غزير وقد أشرت إلى أسبابه ، فلقد كان خطيباً تشهد بذلك خطبه التى لايزال صداها فى آذان معاصريه من طلبة مدرسة الجيزة الثانوية ، ولقد كانت له كلماته التى نشرت الفينة بعد الفينة فى الجرائد حين ذاك . إلى جانب هذا وذاك ملكة الشعر ، فلقد كان شاعراً موهوباً وهو فى سنى حياته الأولى ، ويبدو أن الوالد كما غذاه بوطنيته غذاه بأدبه أو على الأقل فتح له صفحات الأدب يتغذى منها ويرتوى ، إذ بعيد أن يرزق ملكة الشعر شاعر فى هذه السن المبكرة إلا إذا سبق ذلك تدريب للقريحة . بمحفوظ من الشعر كثير ، وقصيدته التى قالها فى صباه ، وإن كنا لاندرى على وجه التحقيق متى كانت ، ولكنها على أية حال لم تعدُ السنين الأولى من مرحلة التعليم الثانوى تشهد بشاعريته ، تلك القصيدة بعنوان : « يافتاتى » ويقول فيها :

سلام الله مالكة الفؤاد وكل تحيـــة دون المقام
سلام الله يا أختى سلامٌ سلامٌ من أسيرك فى الغرام[١]

ولعل حب عزيز للأدب مع وجدانه الوطنى هما اللذان رسما أمامه الطريق لكى يلتحق بكليتين معاً ، كلية الحقوق وكلية الآداب ، وهما كليتان تجمعان بين نهجين متقاربين ، نهج الفكر ونهج البيان ، ويبدو أن عزيزاً أراد أن يكون رجل فكر ورجل بيان يمكن الفكر للبيان ويدعم البيان بالفكر .

---

(١) الديوان ص ١٧ من طبعة دار المعارف

التحق عزيز بكلية الحقوق بعد حصوله على الثانوية العامة (البكالوريا حين ذاك) فى سنة ١٩٢٦أو ١٩٢٧ ، وفى العام نفسه انتسب إلى كلية الآداب ليجمع بين دراستين – كما قلت لك – يمكنان لموهبتين هما : موهبة القانون وموهبة الأدب .

حتى إذا ماكانت سنة ١٩٣١ ، تقدم عزيز لامتحان ليسانس الآداب أولاً ثم ليسانس الحقوق ثانياً ، وكان هذا البحث الذى نقدمه للمطبعة اليوم : « المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول » هوما يسمى فى الاصطلاح الجامعى بأعمال السنة ، وكان الأستاذ المقدم إليه هذا البحث هو الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو الذى أهدى إليه عزيز هذا البحث بقلمه .

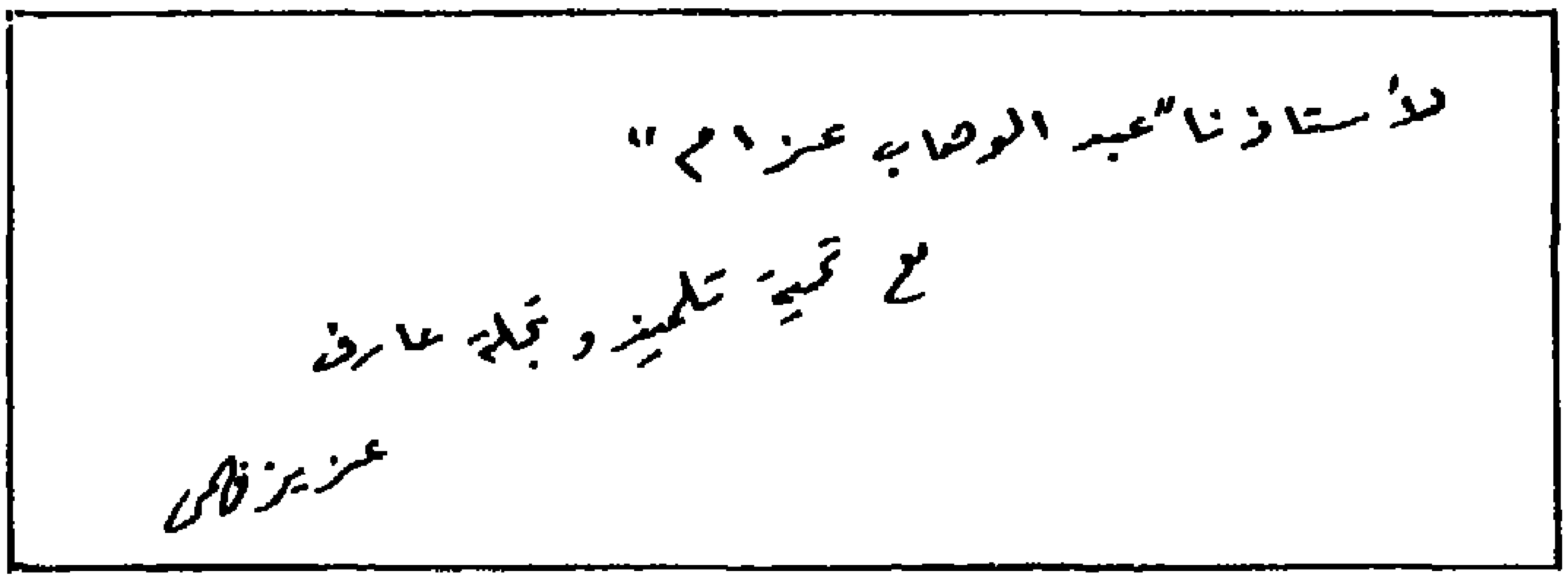
لأستاذنا "عبد الوهاب عزام"
مع تحية تلميذ وتجلة عارف
عزيز فهمى

وما إن حصل عزيز على هاتين الإجازتين معاً ، إجازة الآداب ثم إجازة الحقوق حتى شدّ الرحال إلى باريس يريد أن يحصل على مزيد من علم فى هذين الحقلين معاً : حقل الحقوق – أى حقل السياسة – وحقل الآداب .

ويحقق عزيز فى سنة ١٩٣٨ إحدى هاتين الرغبتين فيحصل على دكتوراه فى القانون فى تلك السنة ، وكان موضوع البحث الذى حصل به على هذه الإجازة – إجازة الدكتوراه هو : « الامتيازات الأجنبية ومعاهدة ١٩٣٦ » .

وهذه لفتة تسترعيك إلى ماكان عند الرجل من وطنية ، وما كان يشغله من أمر مصر ومستقبل مصر .

وفى باريس دفعه طموحه أن يجمع بين دراستين أيضاً ، دراسة القانون ودراسة الآداب ، تماماً كما فعل فى مصر غير أنه فى هذه المرة حصل على إجازة القانون قبل حصوله على إجازة الآداب ، فإذا هو يحصل على دكتوراه فى الآداب من السوربون بعد حصوله على دكتوراه فى القانون ، لاندرى فى أى سنة كان ذلك على وجه التحقيق ، ولكننا نكاد نجزم أنه كان قبل

نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ .

وشبت الحرب العالمية الثانية فاضطر عزيز أن يتخلف فى فرنسا أعواماً ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد إلى مصر فى سنة ١٩٤٨ ، يحمل هاتين الشهادتين : دكتوراه فى الحقوق ودكتوراه فى الآداب .

وفى مصر غرق عزيز فى الحياة السياسية إلى الأذقان ، وشغلت وقته ، فكان الكاتب المناضل ، تنشر له صحيفة البلاغ مقالات متتابعة لايكاد يمضى يوم دون أن يكون له مقال . وتتحدث المجتمعات السياسية عن مواقفه المشهودة ، فما إن يقبض على متهم سياسى حتى يكون عزيز أول المدافعين ، وما تكون محنة فى أى بلد عربى يرزح تحت نير الاستعمار إلا كان عزيز أول المدلين فيها بآرائه ، يشارك فيها بالدفاع عن المظلوم أو بقلمه الجرىء إذا كان الأمر لا يحتاج إلا إلى ذلك .

وشارك عزيز فى مجلس النواب سنة ١٩٥١ منتخباً عن دائرة الجمالية ، فكانت له فى هذا المجلس جولات وصولات تشهد بها مضابط المجلس حين ذاك ، وتدلنا فى صراحة على أنه لم يكن ذلك الحزبى الذى ينطوى فى حزبه بل جعل حزبه ينطوى فيه ، فكان صاحب الرأى الذى يعتقده ، لا صاحب الرأى الذى يجبر عليه ، وحسبنا أن نشير إلى موقفه الجرىء فى دفاعه عن حرية الصحافة ، وكان الوفد – وهو الحزب الذى كان ينتمى إليه عزيز – يريد أن يقيدها .

ولقد كان عزيز إلى جانب جولاته فى القول صاحب صولات فى الميادين التى كانت تستأهل التضحية ، وكأنه لم ينس شبابه الأول أيام كان طالباً يعرض حياته للتهلكة فى خروجه على رأس المتظاهرين ، من أجل هذا رأيناه يشارك فى معركة القنال ضد الإنجليز فى سنة ١٩٥١ بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ .

ولم يطل الأجل بعزيز بعد ذلك كثيراً ، ففى سنة ١٩٥٢ سقطت به سيارة كان يستأجرها ذاهباً بها إلى الفشن ليحضر قضية كان عليه أن يدافع فيها ، فمات عزيز ونجا السائق ، وكتب لمصر أن تفجع فى ابن عزيز عليها كريم عندها هو « عزيز » كانت آمال كثيرة معقودة عليه لو امتدت له الحياة .

٣

هذه حياة عزيز كما أملتها علينا المصادر المجملة التى وقعت لنا ، ولكنها على إجمالها تعطينا فكرة جلية واضحة عن عزيز وطنيًّا وسياسيًّا وخطيباً وشاعراً ، وكان بودّى أن أسوق إليك نبذاً مما كتب لكى أجلو لك الرأى والفكر عند عزيز ومنطقه وأسلوبه ، ولكنى رأيت ذلك يطول بى وبك ، وأنا أجتزئ هنا بشىء من شعره فهو يدل على الكثير من كتاباته ، وأنه كما عاش كاتباً لمصر عاش شاعراً لها ، فديوانه فيه الكثير من شعره الوطنى ، حسبك منه قصيدته التى عنوانها : اسلمى مصر ، والتى يقول فى مطلعها :

اسلمى مصر على مر القرون حسبك الله نصيراً ومعين

ثم حسبك منه قصيدته فى مشروع القرش والتى يقول فى مطلعها :

وطنى لو بدّلت به الدنيا ولى الخلد اخترت ثرى وطنى

ثم كم من قصائد أخرى شارك بها عزيز فى حركات سياسية واجتماعية[1]

وشعر عزيز ، كما رأيت ، من تلك النماذج صورة من حياته وصورة من كتاباته ينبئان عن أن عزيزاً ذو فكرة وذو رأى وذو عمق وذو فلسفة لا شاعر ولا كاتب يرتجل ويقول القول على عواهنه .

وأنا أريد بهذا أن أمهد لهذا الموضوع الذى اختاره عزيز لبحثه الذى بين أيدينا اليوم ، وإذا ماتصفحنا البحث : « المقارنة بين الشعر الأموى والعباسي فى العصر الأول » انتهينا إلى أن عزيزاً فى اختياره هذا الموضوع لم يختره ليسدّ به فراغاً ، وإنما اختاره امتداداً لما يحس به من تفكير ، ولما يجده فى نفسه من عمق ومن فلسفة أراد أن يصبغ بها بحثه .

٤

والمقارنة بين الشيئين تقترن بأمور ثلاثة :

١ – ماسبق وجودها ، وهو الذى يقال عنه السبب .

٢ – الحال التى وجد عليها ، وهو مايقال عنه المسبب .

---

(١) انظر الديوان – طبعة دار المعارف .

٣ - النتائج التي تترتب عليها ، وهو مايقال عنه الأثر.

يستوى هذا فى الاشياء الحسية والمعنوية ، والحسيات تقتضى حسيات مثلها . أما المعنويات فقد تقتضى إلى المعنويات حسيات ، من أجل ذلك كان استقراء المعنويات والمقارنة بينها وبين بعضها تقتضى أشياء مختلفة حساً ومعنى ، وإذكانت الظواهر الأدبية من المعنويات فهى تقتضى استقراء أشياء مختلفة حسية ومعنوية .

والمقارنة بين الشعرين الأموى والعباسى الأول ظاهرة أدبية لاشك فى ذلك ، تقتضى استقراء معنويات وحسيات ، وإذ كانت مقارنة بين عهدين حفلا بالغزير والكثير من المقول ، ولقد كانت هاتان الحقبتان من أغنى الحقب إنتاجاً ، وإذا كان أمرهما فى الغزارة والكثرة الأدبية معروفاً ، فالاستقراء هنا أوسع والمجال أفسح ، فالمستقرى لايقف عند قول دون قول ، ولاعند كلمة دون كلمة ، ولابد من تتبع المقول كلا وجملة ، وكلما كان المستقرى أحرص على هذا الجمع كان أقرب إلى الصواب وأعدل فى الحكم وأصوب فى الرأى ، ثم إن الاستقراء ، كما قلت ، فى الظواهر الأدبية محتاج لكى تكون المقارنة سليمة إلى التفكير فى أسباب وأسباب ودواع ودواع وآثار وكلما كان المستقرى واعياً دارساً متتبعاً للأسباب أولاً ، الخارقة أولاً ، ثم للصورة التى وجد عليها الشىء ثانياً ، ثم لأثر تلك الصورة فيما حولها ، وكلما كان هذا كله موفوراً للمستقرى كان الاستقراء كما قلت ، سليماً دالاً على عمق سليم واستنباط مكين .

وإنا لو نظرنا فى ذلك المنهج الاستقرائى الذى اختطه لنفسه الدكتور عزيز فهمى فى دراسته تلك عن المقارنة بين الشعر الأموى والشعر العباسى فى العصر الأول نجده قد مهد لدراسته باستقراء واسع ، فقد عرض أولاً للحديث عن فنون الشعر الأموى بفروعه ، فتحدث عن الشعر القبلى ، ثم عن الشعر الغزلى رابطاً ماقيل هنا فى العصر الأموى والعصر الجاهلى ليخلص إلى نتيجة كان عليه أن يخلص إليها ، فقد يكون الحديث عن هذين الغرضين هنا هو الحديث عن العصر الجاهلى ، وهنا يختلف الحكم ، فكان لابد من تلك الوقفة الاستقرائية ليخلص منها إلى أن المقول هناك صفته الأموية لاصفته الجاهلية .

أما عدا هذين الغرضين من أغراض سياسية واجتماعية تناولت الحياة السياسية والكلام عن الزبيريين والحديث عن الخوارج ، ثم أمر الشيعة وأمر المرجئة ، فما قيل فى هذا كله فهو أموى بحت لايحتاج إلى تلك النظرة الرجعية ، أعنى التى يرجع فيها المؤلف إلى العصر الجاهلى ، فهى أغراض أموية بحتة نشأت وترعرعت وآتت ثمرتها فى ظل بنى أمية .

ولم يترك الدارس الدكتور عزيز فهمى الحديث عن هذه الأغراض دون أن يدلل بالشواهد الغنية المجزئة التى تؤيد رأيه وما ذهب إليه وما استنبطه .

ولقد جعل الدكتور عزيز الحديث عن هذا كله قسماً من الدراسة ، جعله كتاباً وسماه الكتاب الأول .

وبعد هذا الكتاب الأول أخذ كتابه الثانى أو القسم الثانى من دراسته فمهد للشعر العباسى بمقدمة ثم تحدث عن المظاهر التى جدّت على الشعر العباسى فأفاض فى الكلام على التوليد وأثره العام وأثره الخاص فى نفوس الشعراء . وهذه أمور جديدة على الشعر العربى تميّز بها الشعر العباسى عن الشعر الأموى .

وكما عرضت للشعر الأموى نزعات سياسية وأخرى اجتماعية كذلك عرضت للشعر العباسى تلك النزعات السياسية والاجتماعية ، وكما كانت هناك فى العصر الأموى فرقة الخوارج كانت هنا فى العصر العباسى فرقة المعتزلة ، ثم فرق جديدة من المتصوفة . وما من شك فى أن هذه الفرق الجديدة اجتمعت حولها ظواهر أدبية أشار إليها الشعراء من قرب حينا ومن بعد حينا آخر .

ولم يفت الدارس (عزيز فهمى) النظرة إلى ماحفل به العصر العباسى ظاهرة انتشرت وهى ظاهرة الرق ، وحين عرض عزيز لهذا لم يفته موقف الإسلام من الرق ليؤلف بين ماقيل على ألسنة الشعراء وبين ماقاله الفقه الإسلامى فى ذلك . والجديد بعد ذلك فى العصر العباسى إن لم يكن جديداً خالصاً هو الحديث عن الغناء والموسيقى .

هذه كلها مظاهر تحدث فيها عزيز فى كتابه الثانى أو القسم الثانى من دراسته ، وهى مظاهر تتفق فى إطارها العام مع الإطار العام الأموى ، غير أنه كانت لاشك ثمة فوارق وثمة لمحات فاصلة أشار إليها الدارس فى عرضه وهو يسوق النماذج الشعرية فى عرضه ، وحين انتهى عزيز من هذا العرض الذى يكاد يكون مشتركاً بين العصرين ، خلص إلى أن ثمة فنوناً جديدة طرأت على الشعر العباسى ، ولم يكن لها وجودها فى العصر الأموى ، وهذه الأغراض هى : الخمريات والغلمانيات والنظم التعليمى وتدوين العلوم ودخول الثقافات الأجنبية وأثرها فى الشعر العباسى .

وبعد هذا العرض ، أعنى عرض العصرين الأموى والعباسى الأول ، وما أورده الدكتور عزيز من الاستشهاد بكثرة من الشعراء تكاد تلك الكثرة تستوعب شعراءالعهدين جميعاً ،

وتكاد تستوعب الشعر عن الغرض المقول فيه ، بعد هذا ختم الدكتور عزيز دراسته بالكتاب الثالث أوالقسم الثالث وخصه بالمقارنة الفنية بين الشعرين الأموى والعباسي ، وهنا نرى فكر عزيز يطغى واستقراءه يتصف بالشمول ممايدل على أن هذا العمل ، كما قلت قبل فى صدر حديثى ، صورة من مؤلفه ، فهو يحدثنا عن ماهية الشعر وعن التجديد جاعلاً هذا التجديد مدرسة على رأسها أبو نواس ، ثم يتكلم عن أثر الفلسفة اليونانية فى الشعر العباسى وقارن بين الأسلوب فى الشعر هنا وهناك ، أى بين أسلوب الشعر فى العصر الأموى وأسلوب الشعر فى العصر العباسى الأول . وحين عرض لهذا تكلم عن المحسنات اللفظية وعن مكانة النحو وعن اختلاف اللغات وعن الخيال وعن الواقعية ثم عن بحور الشعر وما جدّ فيها .

هذا كله فى استفاضة تنم عن إلمام شامل واستيعاب جامع واستقراء كامل .

٥

وبعد فقد أشرت فى أول كلامى إلى ماعنّانى عن عملى فى هذه الدراسة تحقيقاً ، وأن أكثر ماعنّانى فيها هو إهمال ذكر المراجع التى أخذ عنها الدارس .

وأضيف هنا أن هذه الدراسة الواسعة المستوعبة المستفيضة والتى تكشف عن الجهد الضخم الذى بذله الدكتور عزيز فهمى فى مستهل حياته الأدبية ، والتى تنم عن استعداده لحياة عريضة مليئة بالإنتاج لولا اختطاف الموت له ، كان لابد أن يصحبها شىء من الزلل وشىء من الأخطاء فكم جاء فيها من نسبة قول إلى غير قائله ، وكم جاء فيها من إشارات خاطئة فرددت هذا وذاك إلى الصواب ماستطعت إلى ذلك سبيلاً ، كما أسندت الأقوال غير المعزوة إلى قائليها وكثيراً ماجاء فى البحث من أقوال غير معزوة .

وأرجو أن أكون قد وفيت للبحث حقه مما يعوزه ، ووفيت لعزيز حقه علينا . وقد ذيلت عملى هذا كله بفهارس عامة تنتظم فهارس جامعة .

والله الموفق والمعين .

الجيزة فى يونيو ١٩٧٩

محمد قنديل البقلى

مقدمة المؤلف

فى دراسة الشعر دراسة للنفس الإنسانية عامة – ولقد فطن إلى هذه الحقيقة بعض علماء النفس – فاستعانوا فى أبحاثهم بدراسة ما أنتجه الإنسان من فن جميل ، وما فتئ « Dougall » ينادى بهذا الرأى حتى انتبه إليه الكثيرون ، واعتبرت هذه الوسيلة من أنفع الوسائل التى يجب أن يعوّل عليها علم النفس فيما يعول : وكأنى بهذا الاتجاه الفلسفى الجديد ، وكأنى بجهود النقاد المحدثين قد ضاعف عناية الناس بدراسة الآثار الأدبية ، فكان من نتائج ذلك نشوء «علم الأدب المقارن» ، ولا يزال العلم وليداً فى أوروبا وإن يكن فى بعض الجامعات الآن منصب لأستاذ الأدب المقارن .

وأهمية الدراسة المقارنة غير مقصورة على الأدب بل هى نافعة جدًّا فى سائر العلوم والفنون – انتبه إليها علماء النفس فنشأ علم النفس المقارن Comparative Psychology ، كما انتبه إليها علماء القانون ، وأول من نبه إليها R. Vm. Shering الذى حمل على المذهب التاريخى ونادى بمذهب مقارنة الشرائع فانتصر لرأيه جماعة من أعلام القانون وأنشئت فى باريس سنة ١٨٦١ «جمعية مقارنة الشرائع La Sosieté de legistation » .
ولها صحيفة خاصة ، وزعماء هذا المذهب التشريعى فى فرنسا :

أستاذ علم مقارنة الشرائع بكلية باريس سابقاً Raymond Salleiles.

أستاذ علم مقارنة الشرائع بكلية باريس H. Léoy Usllman.

أستاذ علم مقارنة الشرائع بكلية ليون Esl. Lambert.

– وبعد فيسرنى أن أقدم هذا البحث الصغير فى الأدب المقارن ، وكل ما أرجوه أن تتضاعف عناية الباحثين بهذا الفرع من الدراسة الأدبية ، فهو فضلاً عن لذّته نقد استقصائى مفيد .

سبيلنا فى البحث

المقارنة بين شاعر وشاعر أمر يسير لأن لكل شاعر ، كما أن لكل إنسان نفسه الخاصة ومزاجه الخاص ، فهو يختلف اختلافاً بيّنا عن غير معاصريه .

أما المقارنة بين الشعراء فى عصرين فأمر عسير لهذا السبب الذى يسهل المقارنة بين شاعر وشاعر ، عسير لأن لكل شاعر نفسا ومزاجاً يخالفان نفس معاصره ومزاجه ، ومع ذلك فليست المقارنة مستحيلة ، ليست مستحيلة لأن لكلا البيئتين الزمانية والمكانية أثرهما القوى على أبناء العصر الواحد والمصر الواحد ، وإذن فبين شعراء العصر تشابه يسهّل المقارنة أو قل يجعلها ممكنة – ثم إن بين الشعراء الأمويين ، وشعراء العصر العباسى فارقاً آخر له آثاره هو الوراثة .

فالشعراء الأمويون عرب خالصون – والشعراء العباسيون – أغلبهم – مولدون ، ثم هذا الامتزاج بين العرب والأمم المغلوبة فى العصر العباسى – ذلك الامتزاج الذى كان من آثاره اصطباغ الدولة العباسية بصبغة علمية – فارق آخر كان له آثاره المختلفة .

على أنه ليصحب المقارنة استحالة إيجاد فاصل واضح الحد وضوح الرسم البيانى لعصرين من عصور الأدب ، إنما يكون ذلك فى التاريخ السياسى وفى الحساب الزمانى . وبالرغم من ذلك كله فنحن قائلون اليوم مع أفلاطون «سبيل الاكتشاف وعر مظلم كثير التشعب ولكن يجب أن نتقدم» .

وقبل أن ألقى أوراقى على المائدة أحب أن تأذن لى فأبيّن لك السبيل التى سأسلكها فى البحث أو أسير إليها حتى نلتقى عندها على ميعاد :

أولا : أأدرس الشعراء فأنتهى إلى فهم العصر أم أدرس العصر فأنتهى إلى فهم الشعراء ؟

أما النقاد فالخلاف حول منهاج البحث قائم بينهم ، فجول لمترو سانت بوف وشيعتهم يسرفون فى الاعتداء على السيكولوجية الفردية Individual Paychology

ولو أننا اعتمدنا فى دراسة الجماعة على هذه الطريقة لكانت دراسة الجماعة أمراً يكاد يكون مستحيلاً ، وعندنا أن الأمر كما يقول Laine :

"Il faut ...Comprendre,le genie national. La genie peut peut-être remené lui-meme à trois elements: La race, le milieu, les cirenitances."

لكنه يخيل إلينا أن «تين» أسرف فى تطبيقه كما يتضح من كتابيه :

"Histoire de la litterature anglaise".
"Essais de critique et d'histoire".

وهذا الخصام حول الدراسة الفردية والدراسة الجماعية ليس مقصوراً على الأدب ، بل هو قائم بين علماء النفس ، فجمهورهم يعتمد فى دراسة « لسيكولوجية الأطفال » على طريقة الدراسة العامة . ومنهم من يؤثر الطريق الفردى ومن هؤلاء Renard Persy (١) و Miss millicent Sedimn (٢) ودارون (٣) .

ومهما يكن فنحن لا نشارك أحداً وإنما نتخذ لأنفسنا طريقاً معتدلاً معتقدين أن الدراستين – دراسة الفرد ودراسة الجماعة – عونان يساعد أحدهما الآخر .

قد نتخذ فى هذا البحث جماعة من شعراء العصر مقياساً لسائر الشعراء اعتقاداً بأن هذه الجماعة تمثل عصرها ، وقد نسهب فى تصوير شاعر واحد اعتقاداً بأن هذا الشاعر يصور عصره من ناحية معينة أو نواح معينة وليس علينا فى ذلك حرج – الناس كثيراً ما يلهجون بكلمة الشذوذ ، ولكن هذا الشاذ لا ينشأ من لا شىء بل هو نتيجة لظاهرة أو ظواهر لعلة أو علل – ولو أنهم انصرفوا إلى دراسة هذا الشاذ دراسة دقيقة مستقصية قويمة المنهاج لعرفوا أن لا شذوذ .

أنا أعتقد أن دراسة الفرد تعين على دراسة الجماعة ، كما أن دراسة الجماعة تعين على دراسة الفرد . كذلك أن دراسة الجزء تعين على فهم الكل والنظر إلى الكل يعين على فهم الجزء .

---

(١) فى كتابه : The first three years of Children.

(٢) فى كتابها : Notes on the development of Child

(٣) فى أبحاثه التى نشرتها لأول مرة مجلة Mind سنة ١٨٧٧

حرية البحث

اشتد النزاع فى القرن الماضى بين أنصار الأدب المثالى وأنصار الأدب الواقعى ، ولا يزال النزاع بينهما شديداً يتجاوب أصداؤه فى أندية الأدب ، ولا نزال تشتجر حوله الأقلام فى الصحف السيارة والمؤلفات الجامعية .

والواقع أن النزاع يمتد إلى أبعد من القرن الماضى – لكننا نجتزئ ونجمل فنقول : إن زعماء الواقعية فى فرنسا وهى بحق موطن المعركة هم :

Alexandre Dumas fils; Alphonse Daudet; Edmond et Jales; Goncourt; Flaubert; Zola et Mousassant.

أما Dumas فقد مثلت لنا جرأته وأمانته فى التصوير

أما الأخوان : Demi-monde, la question d'argent, Une père prexigue

Edmond, Jales Goncourt.

فكانت طريقتهما تدوين ما يسمعانه من الناس فى مختلف المجتمعات ومختلف الشئون ، فإن اجتمعت لهما طائفة من « الكلام » جمعاها فى كتاب وأنطقا بها شخصاً ؛ فمجموعاتهما « واقعة » إلا أن عيبها فى التناقض ، أفقد الشخص نفسه غير مرة ، ذلك أنه يفضى بآراء أشخاص مختلفين فهو شخص بلا شخصية .

أما Alphonse Daudet فقد اعتمد على طريقة الآخرين إلا أنه اتسق فى موضوعاته.

أيها القارئ فى مختلف الموضوعات إن محدثك رجل معين عرفته أم لم تعرفه .

أما Zola فقد تناهت إليه الجرأة ووصف أبطاله بأبشع الصور وأشنعها وجرى قلمه بأحرج العبارات وأبعدها عن المباح وقد جنى عليه مذهبه كما تجنى المذاهب والمبادىء فطرد من الأكاديمية الفرنسية وحرم امتيازات وحقوقاً مكتسبة . وربما واناه أو جاراه فى جرأته فليسوف الروسيا « تولستوى » .

المثالية الكمالية

أنصار الأدب المثالى كثيرون فى مختلف البلاد ، وقد اشتط بعضهم وغفل عن مهمته فكان أقرب إلى الوعاظ منه إلى الأدباء ، ولا عجب فجماع رأيهم أن الأدب وظيفته النهوض بالأخلاق ، وبث الفضيلة فى النفوس ، فكان الأدب عندهم وسيلة لا غاية . أما الأولون فتتلخص حججهم فى أن وظيفة الفن ترجمة الحياة وتصويرها بما فيها من خير وشر.

أما أنا فأحدثك فى غير احتشام ولا تهيب عما قد يعرض فى البحث من أمور لا ترتضيها الأخلاق ، فأنا إن حدثتك عن المجون فى الشعر العباسى فإنما أعرض عليك صوراً مختلفة من هذا الشعر على ما فيها من فحش ، وأحدثك فى حرية لأننى فى هذا البحث مصور فنى ولست واعظاً أخلاقياً ، سأحدثك هذا الحديث السافر لأمرين :

أولها : لأنى ممن يعتقدون أن الفن للفن ، وليس الفن للأخلاق كما وهم أنصار الأدب .

ثانيهما : قد يكون فى الشر جمال أفيحتاج هذا إلى برهان ؟ أفليس بين العاهرات جميلة ؟ وإذا صوّر «مشيل أنجلو» أو «روفائيل» امرأة عارية فى وضع مثير فهل ينبغى ذلك كسر ريشته ؟

والحمد لله فقد انتبه إلى ذلك منذ ألف عام ونيِّفٍ « قدامة بن جعفر » قبل أن تنبه ويتنبه إليه زولا وتولستوى إذ يقول فى كتابه « نقد الشعر »[1] :

فمثلك حُبْلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتُها عن ذى تمائم مُحولِ
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشقّ وتحتى شقها لم يحَوَّلِ

ويذكر أن هذا معنى فاحش ، وليس فحاشة المعنى فى ذاته مما يزيل جودة الشعر فيه ، كما لا يعيب جودة النجارة فى الخشب مثلاً رداءته فى ذاته .

وهب أن كل ما عرض عليك من الشعر الداعر والشعر المجونى ليس فيه جمال فنى ، فأنا

---

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٤ – طبعة مصر ١٩٤٨ والشعر لامرئ القيس (أبو هلال العسكرى : الصناعتين ص ٢٨٧ من طبعة الآستانة ١٣٢٠هـ)

لا أكتب بحثاً موضوعه «الجمال فى الشعر الأموى والعباسى» لكننى أكتب بحثاً فى الشعر الأموى والعباسى .

لأن الأخلاق معنى شائع فى النفوس ليس له حدود ورسوم

ما الأخلاق ؟ إلى السادة الأخلاقيين أوجه السؤال

الأخلاق مجموعة من الصفات الخاصة بكل إنسان .

فالأخلاق عندنا ليست الأخلاق عند أسلافنا ، ولا عند حفدتنا ، والأخلاق عندنا نحن المصريين ليست الأخلاق عند الإنجليز ، بل الأخلاق عندى ليست الأخلاق عندك يا مواطنى !

نعم : إن الناس قد اصطلحوا على أشياء معينة يسمونها «الأخلاق» لكن الناس كثيراً ما ينافقون .

ما الفضيلة ؟ وما الرذيلة ؟

إنك لتفهمها فهماً وأفهمها أنا فهماً آخر ولم نشرك فى ذلك Idealisme إلا إذا تقمصت روحى وتقمصت روحك .

يقول الشاعر :

وما الحِقْدُ إلا تَوءَمُ الشّكرِ فى الفَتَى ... وبعضُ السَّجايا ينْتَسِبْن إلى بعض

فحيثُ تَرَى حِقْداً على ذى إساءة ... فثم ترى شُكراً على سَالِفِ القَرْضِ

إذا الأرض أدّت رُبْع ما أنت زارِعٌ ... من البَذْرِ فيها فهى نَاهِيكَ من أرض

أرأيت الشاعر يفلسف الأخلاق فيمجد «الحقد» قائلاً إن من ينسى الإساءة ينسى الجميل ، فالنفس التى لا تعرف الحقد لا تعرف الشكر فهى أرض موات !

ذلك نحو من الأخلاق يقابله نحو آخر ، فنى بعض التشريع أن العفو أقرب إلى التقوى . وعند بعض الناس أن غفران الإساءة أو نسيانها دليل على صفاء فى النفس وطهارة فى القلب ونبل فى الإحساس .

والشاعر العربى يريد أن يظلم الناس لئلاً يظلم :

ومن لا يذُدْ عن حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ ... يُهدَّمْ ومن لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ (١)

---

(١) من معلقة زهير بن أبى سلمى

وآخر يرى أن سفك الدماء يحقن الدماء

بسفك الدما يا جارتي تحقن الدما وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

فذلك نحو من الأخلاق يقابله نحو آخر ، ففي بعض التشريع أن من صفع على خده الأيسر وجب أن يدير للصّفع خده الأيمن .

ومالى أحاول التدليل ؟ إن النزاع لقائم بين الفلاسفة والاجتماعيين حول ماهية الأخلاق ، لم يتفقوا على تعريفها ولم يضبطوا ما يحددها .

وإذا كانت الخمر عند المدمنين رجسا من عمل الشيطان فقد ملأ بها إخوانهم من شعراء المسلمين شعرهم فخراً أو تباهياً .

وإذا كان الناس قد اختلفوا في ماهية الصفات النفسية – وقد أشرت إلى بعض ذلك فيما أشرت إليه – فأَحْرَى بهم أن يختلفوا في ماهية الصفات والعادات المادية كالخمر وغير الخمر ، وإذا كنت أنا وكنت أنت تستنكر الغزل بالغلام ويستحى منه معاصرونا على فرض أن عصرنا قد خلا من هذه الرزيات .

إذا كنا نحن نرى الغزل بالغلام أمراً معيباً ونرى الاتصال به شاذا مقيتا تستنكره الإنسانية فإن غيرنا لم يره كذلك . ومن هذا الغير؟ «الشعراء» العباسيون الذين تغزلوا بالغلمان ، وأنا لا أكتب عن عصرنا ، وإنما أكتب عن العصر العباسي ، فكيف يأبى السادة الأخلاقيون أن نتحدث عن غلمان العصر العباسي وقد ازدحمت بهم دواوين الشعر وغاصت في بحر من أخبارهم كتب الأدب . وبين يدى نحو عشرين شاعراً تغزلوا بالغلمان ، ومنهم من قال أغلب شعره في الغلمان . بين يدى طائفة من الشعر القبلي من أفحش الشعر على الإطلاق ، ولكن هذا الفحش هو مادة الشعر القبلي .

ألا أحدثك عن هؤلاء وأولئك ؟ إن فعلت فكيف يقال إننى قارنت الشعر الأموى بالشعر العباسي ، أوكيف أزعم أني فعلت ؟

البحث الأدبي شيء والأخلاق شيء آخر ، الفن شيء والأخلاق شيء آخر ، كما أن الموسيقا شيء والمنطق شيء آخر . فهل يفهمنا السادة الأخلاقيون ؟

الدراسات المختلفة فى هذا البحث

لن يوفق باحث إلى دراسة شاعر من الشعراء دراسة متقنة إلا أن يدرس البيئة الزمانية والمكانية اللتين عاش فيهما ، فما بالك بدراسة عصر من عصور الشعر؟ أما نحن فسندرس عصرين معاً ثم نقارن بينهما .

وإذن فسندرس الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية للعصرين ، ثم نعرض عليك هذه الدراسات المختلفة عرضاً موجزاً ومركزاً ، كما يقول الكيماويون والصيادلة ، فما أشق البحث وما أكثر تشعبه والتواءه !

سنعرض فى بحثنا للتاريخ الإسلامى أو هو سيعترضنا ، إذ لا سبيل إلى دراسة الشعر إلا أن تدرس التاريخ ، كما أنه لا سبيل إلى دراسة التاريخ إلا أن تدرس الشعر فهو – ما صح منه – مصدر من أوثق مصادره .

غيرأن الآثار الباقية وكتب التاريخ تعطيك صوراً من الزمن ماسخة خرساء . أما الشعر فهو الذى يظهرك على صورة حية ناطقة . ولو أنه قدّر للشعر العربى أن يؤرخ وأن يصان من عبث الزمان وعبث الرواة والمؤرخين والنحاة والفقهاء وأصحاب النحل والأهواء والشرّاح لاستطاع المؤرخ أن يعتمد عليه اعتماداً كبيراً جدًّا فى دراسة الدول الإسلامية ، فإنّ الشعر ديوان العرب كما قال العرب[1]

غير أننا نرجو ألا نسرف فنعتمد فى تقرير أمر تاريخى على النصوص الشعرية كيفما كانت وكيفما اتفق لنا العثور عليها .

نرجو ألا نسرف فى هذا إسراف القدماء بل لابد أن تُرجّح لدينا صحة النص بسلامته من المظان المختلفة .

سنعرض للتاريخ الإسلامى وسنحدثك عن الحياة العقلية إذ لا سبيل إلى دراسة الشعر إلا أن ندرسها والأمر كذلك فى الحياة الاجتماعية ، ثم نستأذنك فى أن نستطرد أحياناً فنحدثك أحاديث خاصة بالطب وبعلم الإنسان Anthropology وبالفلسفة أحاديث قد نرى أنها تكشف

---

(١) عبارة شائعة فى الكتب القديمة قالها ابن عباس

غامضاً أو تزيل لبساً . ومن حقنا بل واجب علينا أن نستعين بهذه العلوم الجديدة ، ولئن كان قدامة بن جعفر وابن قتيبة وابن رشيق قد نقدوا الشعرلقد كانت أبحاثهم سطحية – أو هى تبدو لنا اليوم سطحية – فقد تغير الزمن وأصبح لنا من وسائل البحث ومصادره ما لم يكن لديهم .

وإنه لمن الكنود والغفلة ألا نستعين بهذه العلوم الجديدة ، كما أنه من الكنود والغفلة ألا نستعين بجهود النقاد المحدثين .

لكنا نعدك بألا نسهب فى هذه الاستطرادات ونحن نعد بذلك لأننا مضطرون إلى عدم الإسهاب فيها ، فنحن نقدم هذا البحث ولسنا نعرف بالضبط رأى أساتذتنا فى مدى الاستعانة بمثل هذه العلوم ونرجح أنهم أميل إلى القصد والاعتدال فى التعويل على هذه العلوم المختلفة والأبحاث الأدبية الفنية .

سيتناول بحثنا بيان أثر الثقافات المختلفة فى الشعر بياناً تتسع له رسالة يكتبها صاحبها فى شهور معدودات – ليت هذه الشهور كانت وقفاً عليها بل هى مقسمة بينها وبين فروع الدراسة المختلفة ونفس صاحبها – مشتة بين مشاغل الحياة وأعباء الدرس .

وإذن فلن نعمد إلى الاستقصاء فليس إلى هذا الاستقصاء سبيل . وسنقف عند هذه الثقافات وقفة تطول أو تقصر على حسب ما يتسع الوقت .

لا يزال يعتقد كثير من الناس أن الشعر بل الأدب العربى لم يتأثر بثقافة أجنبية بل نما وحده وترعرع . وما ينبغى له أن يتأثر . ولغة العرب أشرف اللغات وأفصحها . والعرب أشعر من أظلت السماء وهم يحسبون أن مجد العرب فى إثبات هذا الذى يزعمونه استقلالاً أدبياً فيحرصون على الاعتقاد ويأخذون به أنفسهم أخذ الغريم بذيل ثوب المعسر.

ضمنى وأحد الفضلاء مجلس جرى فيه ذكر الأدب العربى وتشعب الحديث فقلت إن الفلسفة اليونانية أثرت فى الشعر العباسى تأثيراً واضحاً فغضب الأديب وأنكر علىّ دعواى قائلاً :

أتريدون أن تطمسوا فضل العرب فتقولوا هذا يونانى وهذا فارسى ؟ لقد أخذ الناس عن العرب ولكن العرب لم يأخذوا عن الناس !

فقلت لمحدثى فى شىء من الأدب قصدته لأنه يكبرنى بسنين ولأنه رجل فاضل . لا لأن له بين الناس مقاماً وصيتا ، ولا لأن الأستاذ (زكى باشا) عرّفنى به فى هذه الجلسة قائلاً « إنه أكبر بحاثة فى الشرق على الإطلاق » .

قلت : لقد أخذ العرب عن الفرس ، وليس ينقص ذلك من شأنهم . العلم لا وطن له ، والفن لا وطن له .

لوى الأديب شفتيه ودار بكتفيه ، ثم قال : هذا كلام يقوله الجامعيون فى مصر ، لقد أفسد علينا أساتذتكم الأدب وظلموا العرب ، وستفسدون .

ظلم الأديب الأدب وظلم العرب وما ظلمتهما الجامعة لوكان يعلم لكننى آثرت الصمت وأضمرت فى نفسى ما أضمرت .

إلى ذلك الفاضل وإلى المتعصبين جميعاً نسوق الكلام فنقول هيهات هيهات أن يكون فخراً للعرب فى انقطاع صلتهم عن الناس وأن تكون ميزة الأدب العربى فى استقلاله عن آداب الناس كما يزعمون .

امتزاج الفكر حاصل بين الأمم لا مفر عنه ، وليس فى هذا الامتزاج ما يغض من شأن أمة . إن الإنسان ليعلمه ويصقله الاختلاط بالناس وإن أدباً ينمو وحيداً فى أرض منقطعة منبتة عن الثقافات الأجنبية لأدب بعيد عن المثل الأعلى أى بعد !

تأثر الشعر بثقافات مختلفة سنبينها أو نشير إليها ، ولكن أين لنا بالوقت فنوضح ما نريد إيضاحاً .

وإذن فسندرس الحياة السياسية والحياة العقلية والحياة الاجتماعية ونستأنس بالحياة الاجتماعية ونستأنس بالحياة الاقتصادية فى العصرين . وسنشير إلى الثقافات المختلفة ، وسنعرّج فى طريقنا على مباحث أخرى فرعية عامة . وسنتجه فى البحث اتجاهين ، فنقارن بين فنون الشعر فى العصرين ، أى أننا سنتحدث عن نشأة كل فن وظروفه ، ثم نقارن بين الشعر الأموى والعباسى من الوجهة الفنية .

* * *

فها أنت ذا ترى أنا مقبلون على دراسة شاخة عسيرة بل مضنية ، وماكنا نجهل بذلك يوم بدا لنا أن نقارن بين الشعر العربى فى أزهى عصوره ، إنما خشينا أن يمر الوقت ونحن تائهون فى مهامه الجزيرة أو مدلجون فى أحياء البصرة والكوفة أو فى عرصات جلق وبغداد ، لكننا تجاسرنا

فأقدمنا ، وهل الشباب إلا جرأة مستهترة ؟

أقدمت وأقدمت بى عزيمة الشباب ، عزيمة أرجو ألا تَهِن فتلين

تقدمت وأقدمت يحدو بها وبى الأمل .

ها أنا ذا مقبل فيارب يسر ولا تعسر !

الكتابُ الأول

الشعر الأَمَوى

تمهيد

جاء الإسلام فبدّل نفوسا بنفوس وعقولا بعقول ، لكنه لم يمح الجاهلية محوا . فما الإسلام إلا ثقافة من الثقافات ، ونور من الأنوار . وما الجاهلية إلا طبيعة رسخت فى نفوس العرب مع الأجيال فتوارثوها جيلا بعد جيل . ومن هنا نشأت فنون جديدة فى الشعر العربى وتطورت فنون قديمة تطورا .

أما الفنون القديمة فأجمعها فى باب واحد هو الشعر القبلى . فالحماسة والفخر والهجاء شعاب لموضوع واحد هو صدى لهذه المعارك القبلية .

أما الجديد فى العصر الأموى ففن الغزل وفن السياسة . وقبل أن أحدثك عن الشعر القبلى أقرر أنه تطور تطوراً عظيما ، لأن الهجاء تطور هذا التطور العظيم فقد دفع الإسلام بالشعراء إلى هذا الفن فافتنُّوا فيه وأوجعوا . تعرف أن الشعراء النصارى واليهود والقرشيين قاوموا الإسلام مقاومة عنيفة جدا حتّى أن القرآن تصدى لحربهم فقال تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون)(١) . وكان فيهم بلا ريب شعراء فحول وقفوا حجرا خشنا فى سبيل الإسلام . ولكن الهوى الدينى عصف بشعرهم كما عصفت الأهواء والأحداث بشعراء فحول فى العصور الإسلامية على اختلافها .

بقى لنا شىء من شعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى وأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

أفتحسب أن الله جل جلاله كان يوصى بهذه الآية على لسان جبريل لولا خطر هؤلاء الشعراء .

أفتحسب أن النبى ﷺ كان يحمل عليهم ويتوعدهم وعيداً لولا ذلك الخطر. لقد توعدهم النبى ﷺ وإلا فكيف تفسر قول كعب بن زهير(٢) :

نُبِّئْتُ أنّ رسول الله أوْعدنى ... والعَفْوُ عند رسول الله مأمولُ

وكان للمسلمين شعراء ثلاثة جاهدوا جهاد الصادقين وأبلوا بلاء المؤمنين فى نصرة الدين

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٢) مدح كعب بن زهير النبى ﷺ سنة ٩ هـ على طريقة أهل البادية (كارل نالينو : تاريخ الآداب العربية ص ٨٧)

وفى الدفاع عن النبى الأمين . وقف حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة تحت راية القرآن يدافعون عن النبى والإسلام ويقارعون شعراء نصارى ويهودا وأحزاباً أشد كفرا ونفاقا [١] .

وهؤلاء الثلاثة[٢] هم الذين استثناهم القرآن من الآية الكريمة (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلِمُوا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)[٣] .

ثم كانت الخلافة فنشأت الخصومة بين الأنصار وقريش ، وكان للشعر فى هذه الخصومة أثر كبير ولاسيما نقائض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت وعبد الرحمن بن الحكم .

---

(١) على أن منهم من اشترك بسيفه أيضا فعبد الله بن رواحة قتل شهيداً فى غزوة مؤتة وحسان يحدثنا شعره بأنه اشترك فى القتال ، ولست أدرى لم يأبى الأستاذ «Horschfeld» أن يصدق دعواه فيتهمه بالكذب ويصر على ذلك إصرارا .

(٢) يروى أن النبى ﷺ قال لحسان بن ثابت اهجهم – يعنى قريشا – فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السِّهام فى غلس الظلام اهجهم ومعك جبريل روح القدس (ابن رشيق : العمدة جـ ١ ص١٢ – طبعة مصر) ويروى أبو الفرج الأصفهانى «كان يهجوهم (يعنى قريشا) ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إلى الكفر ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر ، فكانوا فى ذلك الزمان أشد شىء عليهم قول حسان وكعب وأهون شىء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة » (الأغانى جـ ١٥ ص ٢٩ من طبعة بولاق)

(٣) الشعراء ، الآيات ٢٢٤ – ٢٢٧ .

العصبية القبلية

العصبية أن يعمل الرجل لعصبته ويدعو لها ظالمة أو مظلومة .

والقبلية نسبة إلى قبيلة والقبيلة جمعها قبائل ، واشتق الزجّاج القبائل من قبائل الشجرة وهى أغصانها ، وأتى فى ثوب قبائل أى رقاع[١] . ويقال : رأيت قبائل من الطير أى أصنافا[٢] ، فالحمام قبيلة والغربان قبيلة ، قال الراعى :

رأيت ردافى فوقها من قبيلة ... من الطير يدعوها أحم شَحُوجُ[٣]

والعصبية تمت بأوثق الأسباب إلى نزعة السيطرة وإن شئت فقل هى وليدتها . وحب السيطرة نزعة غريزية فى الإنسان مهيمنة على كل فكرة من أفكاره ، وحركة من حركاته وعمل من أعماله ، ولذلك عدّ بعض الفلاسفة هذه الغريزة التى سماها « ريبو » فتبعه الكثيرون : الوجدان الشخصى الإيجابى أقوى غرائز الإنسان . وإنه لكذلك فما نزعات الحرية والإرادة والعزم والنشاط والأنانية والظلم إلا مظاهرها أو بعض مظاهرها .

فى ظلها تطاحنت الشعوب ولا تزال وبين نارها وأوارها تفنى شعوب لتسيطر شعوب .

والقبيلة عند العرب هى الشعب عند الأمم[٤] .

زعم النسابون – إن صدقا وإن كذبا – أن العرب بائدة ومتعربة ومستعربة ، وأن البائدة : عاد وثمود وطسم وجديس . وأما المتعربة : اليمانية[٥] والقحطانية ومنزلها اليمن – أى جنوبىّ الجزيرة – وقحطان أبوها نسل قبيلين هما كهلان وحمير ، وكهلان تنقسم إلى عدة قبائل

---

(١) دائرة معارف وجدى

(٢) لسان العرب

(٣) الغربان فوق الناقة . شعر الراعى ص ٢٩ من طبعة المجمع العلمى العربى بدمشق

(٤) الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العشيرة ثم البطن ثم الفخذ – (لسان العرب) وأضاف النويرى : العشيرة . الفصيلة . الرهط – نهاية الأرب جـ٢ ص ٢٦٦ – ٢٦٧ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨ .

(٥) نسل إسماعيل بن إبراهيم

أشهرها : طيئ وهمدان ومذحج وعاملة وجذام والأزد . وكذلك حمير تنقسم إلى عدة قبائل أشهرها : قضاعة وتنوخ وكلب وجهينة وعذرة .

وتفرق الثالث عرب الشمال وهم العدنانيون أو النزاريون أو المعديون ويقسمونهم إلى قبيلين[١] : ربيعة ومضر . وعندهم ربيعة تنقسم إلى أسد ووائل ، ووائل تنقسم إلى بكر وتغلب .

وأما مضر فتنقسم إلى قيس وتميم وهذيل وكنانة ، وأشهرها : قيس ، وينسبون إليها قبائل كثيرة ، أشهرها عبس وذبيان وغطفان وهوازن وتميم . أما قريش فينسبونها إلى كنانة .

وما يزعمه جمهور النسابين لاجاعتهم ، فقد تناقضت وتضاربت ، وإذن فنحن لا نؤمن بهذا التقسيم ، إذ لا نميل إلى الإيمان ولكن إلى الترجيح . ومهما يكن فقد آمن العرب بهذه الأنساب : اليمن وربيعة ومضر إيمانا ليس يخالطه فيما نعرف ريب . وليس يعنينا أن نبحث فى هذه الأصول والفروع ، ويكفى أننا متفقون فى نظام المجتمع الجاهلى .

كان العرب الجاهليون تحت راية النظام القبلى وحول محور الخصومة القبلية دارت حياتهم السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية .

كان الصراع شديدا كل الشدة عنيفا كل العنف وحسبك قوله تعالى يخاطب رسوله (لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)[٢] .

ويبدو لى أن هذا التعصب كان شائعا فى الجماعات الأولى ، وهو أمر يتلاءم مع الفطرة . ويحدثنا صاحب مروج الذهب فيقول « إن الفرس كانوا أشد حفظا لأنسابهم من العرب بل إن منهم من كان أحفظ لأنساب العرب من العرب أنفسهم[٣] » فمن العرب بل من القرشيين وهم أشرف القبائل من كان يذهب إلى بعض الفرس فيسأله عن بعض أجداده .

وذلك الحرص من الفرس على حفظ الأنساب يدلنا على أن نوعا من العصبية الداخلية كالذى كان عند العرب شغلهم كما شغل العرب . ولقد كان للسياسة الخارجية أثر فى تاريخ العرب الجاهلى بعيد . فكانت دولة المناذرة على حدود العراق ، وكان بين المناذرة والعرب

---

(١) القبيل غير القبيلة – القبيل الجماعة من قوم مختلفى الجنس أو من أبناء أب واحد . وقال تعالى فى سورة الأعراف آية ٢٧ (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) أى هو من نسله ويقال لكل جماعة من شىء واحد قبيل والجمع قبل

(٢) سورة الأنفال آية ٦٣ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ١ ص ١٤٦ – المطبعة البهية – مصر ١٣٤٦ هـ .

حلف . فهؤلاء كانوا يتخذونهم فى صد غارات الرومان . وكان على حدود الشام دولة عربية أخرى هى دولة الغساسنة أو الضجاعمة كما يسميها بعض المؤرخين . وكان بين الروم وبين الفرس[١] مثل ما كان بين الحيرة والفرس ، فعلى حساب هاتين الدولتين العتيقتين – الفرس والروم – اشتد النضال بين الدولتين العربيتين فى تاريخ ذكره يطول .

ثم لا تنس أن لطبيعة بلاد العرب أثراً فى هذه المشاحنات القبلية فهى أرض صلبة كثيرة الحرات والقفاف فى بعض جهاتها ، وهى فى جهات أخرى صحراوية ، وأوديتها قليلة وعيونها نادرة يفيض معظم الماء لطبيعة الأرض الرملية فلا ينتفع به الناس . وربما نزل الغيث فأنبت مرعى ، فرحل إليه البدو وتشاحنوا عليه .

أما فى اليمن فالحال على عكس ذلك فقد نشأت به مدن عظيمة كصنعاء ومأرب وعدن وزبيد وشبام وصعدة ، وكان لها حضارة من أفخم الحضارات ، ذلك لأنها لم تكن فقيرة من الماء (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل)[٢] أرسل الله العرم وتصدّع سدّ مأرب وكان ذلك فى سنة ١٢٠ قبل الميلاد كما يقول بعض المستشرقين . فرحلت كثير من القبائل اليمانية وتفرقت فى أنحاء الجزيرة ، فقاسمت أهلها مراعيها ونازعتهم فيها ، فكان ذلك فيما نحسب باعثا من بواعث العصبية المضرية اليمانية التى سيطرت على التاريخ الجاهلى وجزء من التاريخ الإسلامى ، وكان من بواعث هذه العصبية فيما ترى اختلاف العرب .

أولا : فى الدين فمنهم من دان بالثنوية[٣] ، ومنهم من عبد الجن (قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)[٤] ومنهم من عبد الملائكة[٥] (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون)[٦] ومنهم من عبد

---

(١) وكان سلطان الروم مبسوطا على الشام فى ذلك الوقت

(٢) سورة سبأ الآيتان ١٥ و ١٦

(٣) كانت الزندقة فى قريش أخذوها عن الحيرة – أحمد أمين : « فجر الإسلام ص ١٢٨ » نقلا عن ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » .

(٤) سورة سبأ آية ٤١

(٥) وهم بنو عبد المليح

(٦) سورة سبأ آية ٤٠

الشمس[١] (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)[٢] ، ومنهم صابئون ومنهم نصارى ومنهم يهود ومنهم مجوس (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد)[٣] ، ومنهم من عبد الأصنام وتفرقوا فى ذلك فرقا عبدوا العزى وهُبلَ وعبدوا وداً وسواعاً[٤] ويغوث ويعوق ونسرا ، وفى الكتاب الكريم (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)[٥] ، ومن أشهر أصنامهم اللات ومناة ونهم وسعير واليعبوب وابتى والعزى[٦] ، وكانوا يقربون إلى أصنامهم القرابين :

ذهبت إلى « نُهْم » لأذبح عنده عنيزة نُسْك كالذى كنت أفعل[٧]

والمجوس[٨] كانوا يتجملون أو يحملون بعض آلهتهم فيقذفون بأنفسهم أو بهم فى النار . ومنهم من عبد الماء ومنهم من عبد الشمس ومنهم من عبدَ القمر ومنهم من عبدَ النجوم .

ثانيا : اختلافهم فى الأصل يدل عليه اختلافهم فى اللون ، ويقولون : إن أصل اليمانيين حبشى وأصل المضريين سامى .

ثالثا : اختلافهم فى نوع المعيشة ، فبعضهم يحتقر الزراعة ، قال ذو الرمة :

نِصَابُ امرئِ القَيْسِ العَبِيدُ وأرْضُهُمْ مَجَرُّ المَسَاحِى لا فَلاةٌ ولا مِصْرُ[٩]

---

(١) بلقيس وقومها

(٢) سورة النمل آية ٢٤

(٣) سورة الحج آية ١٧

(٤) صنم بنى هذيل ، قال الشاعر :

تراهم حول قبتها عكوفا كما عكفت هذيل على سواع

(٥) سورة نوح آية ٢٣

(٦) ولها جميعا ذكر فى الشعر الجاهلى

(٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٥١ من طبعة الخانجى

(٨) أخذوا عبادة النار عن الفرس أو الهند إنما كان أكثر اتصال العرب بالفرس ، وعبد النار جماعات من قبائل مختلفة أغلبها من تميم .

(٩) الديوان ص ٢١٩ من طبعة كمبردج ١٩١٩

وقال يشير إلى يوم كلاب :

نُثِيرُ بها نَقْعَ الكُلابِ وأنْتُمُ ... تُثِيرُونَ قِيعَانَ القُرَى بالمَعَازِقِ[١]

أى تحرثون الأرض .

ومنهم من كان يحتقر الصناعة ويقول : هل فى أهل الجنوب إلا مالك بُرد أو سائس فرد أو دابغ جلد . وأشهر صناعات الفقراء من قريش : الحدادة والنجارة ودبغ الجلد ، ومن الأغنياء من جعل الربا صناعته ، ومنهم من عاف الزراعة والتجارة واكتفى بما تنتجه ماشيته ، وهؤلاء هم البدو ، ومساكنهم خيام من صوف أو وبر أو شعر أو جلد ، فإن شح السماد ونضب الماء ويبس الكلأ نقلوا خيامهم فضربوها حيثما وجدوا مرعى . ومنهم من عاش على الغارة والسلب[٢] .

فمن تكن الحضارة أعجبتْــه ... فأىَّ رجالِ باديةٍ تَرَانا

ومَن رَبَطَ الجِحَاشَ فإن فينـا ... قَناً سُلُبا وأَفراساً حِسَانا

وكُنّ إذا أغَرْنَ على قبيلٍ ... فأعْوزهن نهبٌ حيث كانا

أغَرْن من الضِّباب على حِلالٍ ... وضَبّةَ إنه مَن حان حانا

وأحيانا نكِرّ على أخينـا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا[٣]

ومنهم من اشتغل بالتجارة وهم بعض الأطراف وأهل مكة وكان لهم رحلتان : رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »[٤] .

رابعاً : نظاميون وفوضويون .

كان نظام الحكم فى اليمن أوتوقراطيا ، وكان فى مضر أقرب إلى الديموقراطية الفوضوية ، فكان لملوك اليمن المتوجين سطوة وسلطان أى سلطان . وأما فى مضر فكان للقبائل رؤساء لا يبلغ سلطانهم مبلغ ملوك اليمن .

---

(١) الديوان ص ٤٠٨ من طبعة كمبردج ١٩١٩

(٢) وأغلبهم من البدو

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ١ ص ١٩١ من طبعة دار الكتب ١٩٢٥ وهى من شعر القطامى — أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٠ من طبعة مطبعة الاعتماد والمبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٨ من طبعة مطبعة الاستقامة

(٤) سورة قريش

لسنا نرى لهؤلاء الرؤساء ما يراه المرحوم الأستاذ الخضرى[١] من سلطان لا يختلف عن سلطان ملوك اليمن ويستدل الأستاذ على رأيه بأن الرئيس إذا غضب غضبت معه ألوف من السيوف لا تسأله فيمَ غضب ، وكذلك يقول الأستاذ الرافعى[٢] : وعندنا أن هذه الألوف من السيوف كانت تغضب للرئيس كما كانت تغضب لأصغر صغير فى الجماعة لا تسأله « فى النائبات على ما قال برهانا »[٣] ، وعندنا لذلك أمثلة كثيرة جدا من الإسراف والحشو أن نذكرها ، الحق أنهم كانوا كما قال قائلهم[٤] :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم   لأية حرب أم بأى مكان

خامسا : اختلافهم فى اللغة حتى وحد لغتهم القرآن

وإذا كان القوم قد اختلفوا فى ذلك كله فهل اتفقوا فى شىء ؟ وإذن فليس عجيبا قوله تعالى : (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا)[٥] .

وإذن فليس عجيبا الآن أن تكون الجاهلية العربية معركة ضروسا تشتجر وتتصاول فيها قطعان من الذئاب أضراها السعار . إنما العجب العجاب أن تتهادن مثل هذه الذئاب يوما واحدا .

صراع بين ربيعة وقيس ، وصراع بين بكر وتغلب ، وصراع بين قبائل يمانية وقبائل يمانية ، قبيلة تصارع قبيلة فما ينتهى الصراع وما تفيق منه القبيلة الغالبة أو المغلوبة إلا لتلطم أو تتلقى لطمة جديدة ، فصيلة تحارب فصيلة ، أو فصيلتان تتحالفان على فخذ والجميع من بطن واحد . وبطنان من عمارة يتحالفان على عمارة والكل من قبيلة واحدة ، وقبائل تمزق قبائل ويجمعها أب واحد عدنان أو قحطان .

أما أوسع العصبيات فهى العصبية القحطانية العدنانية – أى عصبية الجنوبيين والشماليين . فإذا احتدم قتال بين قضاعة وأسد وجب أن تفهم أن مصدره العصبية القحطانية والعدنانية . وإذا تهاجى شاعر غسانى وآخر عنزى فالهجاء فى الحقيقة بين القحطانية والعدنانية بل بين اليمن

---

(١) الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية ص ٣٨ – مطبعة المعارف

(٢) مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ ص ٨١ من طبعة مطبعة الأخبار ١٩١١

(٣) الشطر الأول من بيت الشعر « لايسألون أخاهم حين يندبهم »

(٤) ربيعة بن مقروم الضبى

(٥) سورة البقرة آية ٢٠٠

وربيعة بعبارة أوضح . وربما تحالفت قبيلة نزارية مع قبيلة قحطانية على قبيلة عدنانية .

الجاهلية العربية بركان ثائر ترفرف عليه الراية القبلية والناس حولها حشد ترتطم رؤوسهم فى بحر من الدم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم .

ومما يتفق مع الأشياء أن تكون هذه العصبية القبلية قد انتقلت إلى صدور المسلمين فاخترقت شغاف قلوبهم وجرت شظاياها فى عروقهم مجرى دمائهم ، لكن القرآن حمل عليها حملة شعواء فبدل صدورا بصدور وأحلاما بأحلام ولولاه ما بدلت الأحلام ولا الصدور ولو أنفق ما فى الأرض جميعا .

جاء الإسلام والعرب على شفا حفرة من النار يأكل قويهم ضعيفهم ، فأنقذهم منها ، دعاهم إلى الله ودعا الناس إلى المحبة (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)[١] . وآخى بين المؤمنين (إنما المؤمنون إخوة)[٢] وأوجب قتال باغيهم (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)[٣]

وجعل العصبية بقية من بقايا الكفر (إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية)[٤] ثم ذكرهم بما هم فيه من نعمة مكررا لفظ النعمة وحذرهم من التفرقة (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)[٥] .

أما النبى الأمين فقد أدّى الرسالة وقام بقسط من الدعوة داعيا الناس إلى الإخاء متبرئا ممن يدعو إلى العصبية ، وصاح فيهم يوم فتح مكة « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » وقال « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قال عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » ذهل عن العصبية عامة المسلمين وسائر الناس ونزعت من صدور المؤمنين نزعا ، ثم دعا الله المؤمنين إلى عصبية

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢) سورة الحجرات آية ١٠

(٣) سورة الحجرات الآيتان ٩ ، ١٠

(٤) سورة الفتح آية ٢٦

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٣

أخرى ، دعاهم إلى عصبية روحية ، فالدين لا يعرف أخوة الأهل وإنما يعرف الأخوة فى الله (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين)[١] . وقال عز وجل (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص[٢]) وقال (يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا)[٣] .

أجابوا ربهم وأقبلوا تحت راية القرآن ثملين بهذا الدين الجديد يكرون صفا واحدا شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ونسوا العصبية الأولى .

---

(١) سورة هود الآيتان ٤٥ ، ٤٦

(٢) سورة الصف آية ٤

(٣) سورة الأنفال آية ٦٥

العصبية والخلافة

مات النبى ﷺ غير موص بالخلافة إلى أحد بل ترك الأمر للمسلمين يتشاورون فيه ، وعندنا أن مسلكه عليه الصلاة والسلام كان لحكمة ، فقد كان يعرف ما عليه العرب من العصبية القبلية ، تلك العصبية التى عانى منها فى حياته ما عانى فآثر ترك الأمر للقبائل تتفق عليه فيما بينها .

أعلن موت النبى فسرعان ما ظهرت العصبية القبلية فى أجلى مظاهرها ، فقريش تريد الخلافة لها لأنها قبيلة النبى وعشيرته والأنصار يأبونها عليها ويدعونها حقا لهم ، أو ليس الإسلام قد قام على أكتافهم ؟ أفما حموا النبى من أذى قريش وقد حاولت اغتياله ؟ أفما آووه ونصروه ؟ أفما قاتلوا قريشا ؟

طالب جماعة من الأنصار بالحكومة الثنائية قائلين « منا أمير ومنكم أمير » لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فجمهور الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة مجتمعون ، يدعو زعماء الخزرج لزعيمهم « سعد بن عبادة » وخطباء الأوس يدعون لشيخهم « بشير بن سعد » . وينطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة يريدون السقيفة ليتداركوا الأمر ، وهناك يبسط عمر يده لأبى بكر فيتبعه أبو عبيدة ومن كان من المهاجرين ، ثم يتقدم بشير بن سعد فيبسط يده لأبى بكر لازهادة فى الخلافة بل إيثارا لأبى بكر على سعد بن عبادة وشيعته ، ثم يبايع المجتمعون أبا بكر خلا زعيم الخزرج .

قضى الأمر بمبايعة أبى بكر ، لكن هذه البيعة لم تكن إجماعية من العرب بل وجد فيهم من يقول :

أَطَعْنا رسولَ الله ما كانَ بيْنَنا ... فيَالعَبادِ الله مَا لأبى بَكْرْ

أَيُورِثُها بَكراً إذا ماتَ بَعْدَه ... وتِلْكَ لَعَمْرُ اللهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ[1]

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ٢٤٦ طبعة دار المعارف . وأورد صاحب الأغانى جـ ٢ ص ١٥٧ طبعة دار الكتب هذا الشعر ونسبه الى الحطيئة .

العصبية والردة

ظهرت حركة الردة فى أواخر أيام النبى ، وفى عهد أبى بكر ارتد العرب عن الدين ارتداداً يكاد يكون إجماعيا ، وليس ارتدادهم دينيا فحسب كما وهم المؤرخون القدماء بل كان لهم من عصبيتهم القديمة أكبر حافز إلى هذه الردة ، ارتدوا للدين وللسياسة معا وربما كان ارتداد كثير منهم ارتدادا سياسيا خالصا .[١]

ارتدت الجزيرة كلها لا نستثنى منها إلا الحجاز بل ارتد الحجاز لا نستثنى إلا مدينة المهاجرين ومدينة الأنصار والطائف . وأنا أفهم أن قبيلة كقبيلة تغلب ترتد عن دين جديد لأن تغلب قاومت الإسلام مقاومة عنيفة وثبتت على نصرانيتها ، وأفهم أن قوما كبنى حنيفة ارتدوا ردة دينية لأن بنى حنيفة كان لهم دين سماوى هو النصرانية تشبعوا به فى الجاهلية ، فليس هنا نزعه هينا . أما هذه القبائل الوثنية أو الصابئة أو التى رقت نصرانيتها فنقول مطمئنين إنها ارتدت ارتدادا سياسيا قبل كل شيء . هؤلاء الذين هللوا للدين الجديد وكبروا وهؤلاء الذين جاهدوا ما جاهدوا فى سبيل الإسلام ، إنما ارتدوا لأنهم كرهوا الخضوع لسلطان أجنبى .

ارتد اليمانيون فى اليمن وارتد اليمانيون فى غير اليمن كالأزديين فى عمان لما كان بين اليمن ومضر من عداء قديم . كيف يخضعون للخليفة القرشى ؟ إنهم لا يخضعون لقريش المضرية لأنهم لا يستطيعون التحرر من هذه الكراهية التى ورثوها عن سوالف الحقب .

ارتد اليمانيون جميعا لا نستثنى منهم إلا الأنصار وهذا طبيعى على أنى أراجع نفسى فأقول : وما الدليل على يمانية الأنصار؟ لا دليل ، إنما هو نسب يضيفه إليهم النسابون فيما يضيفون . وارتدت قبائل ربيعة فى البحرين وفى غير البحرين لما كان من عداء بين ربيعة ومضر[٢] . ذلك العداء الذى شحن بأخباره التاريخ الجاهلى وورثته أبناء عن أب وأبا عن جد ، وفى أخبار مسيلمة متنبئ اليمامة أن رجلا من ربيعة قال له : إنك لكاذب وإنّ محمداً

(١) كتب مسيلمة إلى النبى كتابا يقول فيه «لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم لا يعدلون» .

(٢) وقد تعرض رجل شامى للمأمون فى أثناء محاربة الأمين وقال له «انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان» فأجاب «والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل – كان العجم ركبانا والعرب مشاة – إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم ، وأما اليمن فوالله لا أحببتها ولا أحبتنى قط . وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر»

لصادق ، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر .

وارتدت تميم لأن ماضيها الأثيل أبى عليها أن تخضع لقريش ، وكذلك ارتدت القبائل النجدية كعبس وذبيان .

وبعد فنحن نسجل مطمئنين أن وقائع « عقرباء ، ودبا ، وحصن النجير » إنما هى من أيام العرب ، ولكن أبا بكر والفئة القليلة غلبت الفئة الكثيرة بإذن الله فبسط الإسلام جناحيه على الجزيرة وخضع العرب من جديد تحت راية النظام الجديد ، وانصرف العرب فى زمن الشيخين أبى بكر وعمر عن العصبية إلى الفتوح الإسلامية . وليس بعيدا أن يكون أبو بكر وعمر قد زجا بالعرب فى غمار الحروب حربا إثر حرب ليشغلوهم عن العصبية ، لكن آثار هذه العصبية لم تمح حتى من صدور بعض الصحابة ، بل ظلت كامنة بين حنايا ضلوع لم يستطع أصحابها تغليب الروح الإسلامى . فلقد دخل صاحب معاوية عليه يقول : بالباب بعض الأنصار ، أتأذن لهم بالدخول ؟ وكان عمرو بن العاص حاضرا فقال : ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ اردد الناس إلى أنسابهم .

ونستطيع أن نقرأ فى العقد الفريد مفاخرات عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص والحسين والحسن(١) .

وخلف عمر عثمان فكان عهده بعثا للعصبية ، أما هو فقد ولى أهله مقاليد الأمور ، ونحن لا نعلل هذا الإيثار بالعصبية أو بغيرها . ومهما يكن فقد كان ذلك سببا من أسباب الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان ، ومن يدرى ؟ فربما كان الفرع الهاشمى غير برىء من دم عثمان ، وإلا فكيف نفسر بقاء جثته ثلاثة أيام بلا دفن ثم دفن فى مقبرة اليهود . لكننا على كل حال لسنا نقطع فى هذا برأى ، فقد يكون البيت الهاشمى متهماً فى قتل عثمان ، وقد يكون بريئا من دمه ، وقد يكون نصيبه من الفتنة إغماض عينه عنها ، ولو أنه أراد لاستطاع — فيما نحسب — دفع الخطر ولما وقعت فاجعة الإسلام الكبرى ، وأراها مفتاح باب للشر فى الدولة الإسلامية لايزال مفتوحا علينا إلى اليوم كما يقول أستاذنا عبد الحميد العبادى .

أما تاريخ الصراع بين على ومعاوية فلم يخل من عصبيات متشعبة نتركها لمن يؤلف كتابا خاصا بعلى ومعاوية ، ولقد أسفر النزاع كما تعلم عن انتصار الفرع الأموى على الفرع الهاشمى . أما قريش فتحيز أغلبها للفرع الأموى .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٢ ص ١٣٤ — ١٣٥ — طبعة مصر ١٢٩٣ هـ

صراع بين الزبيرية والأموية

وهل كان الصراع بين الزبيرية[١] والأموية إلا صراع المضرية واليمانية ؟ تعصب اليمن ليزيد لأن أمه كلبية وهى سياسة معاوية الداهية فقد قصد إلى ذلك الزواج السياسى قصدا – كما أسلفنا – وتعصبت قيس للزبير لأنه ولدهم وابن عشيرتهم ، ولأنهم ورثوا عن آبائهم الأولين عصبيتهم المضرية فهم – حانقون بحكم الدم – على اليمن ، بل لقد جد سبب للنزاع لأن الأمويين ألفوا اليمن واصطفوها – والزبيريون من قيس ، فلم لا يحنق القيسيون على السلطان الأموى وأنصاره معا ؟

أما التغلبيون فقد انضموا إلى الأمويين لما نعرفه من العداء القديم بين بكر وتغلب .

---

(١) الزبيريون هم اتباع عبد الله بن الزبير وكان يرى ان تعود الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين لايزيد بن معاوية . بينما كان حزب الخوارج فى العراق يرى أن ترد الخلافة إلى العرب والمسلمين جميعا ليولوا عليهم أكفأهم وأجدرهم بها وكان يجوارهم فى العراق أيضا حزب الشيعة وكان يرى أن ترد الخلافة إلى بنى هاشم فهم بيت الرسول وهم أصحابها الحقيقيون . وحزب الزبيريين فى الحجاز هو أقصر هذه الأحزاب عمرا ، فقد ظهر مع دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية حتى إذا توفى يزيد أجابته الحجاز كلها كما أجابته مصر والعراق وبعض بلدان الشام .

(شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٥٩ – لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٢)

العصبية والخوارج

وهذه العصبية القبلية امتدت آثارها وتشعبت مظاهرها وتشكلت بأشكال مختلفة فى التاريخ الإسلامى .

الخوارج[1] حزب دينى :

لكننى أزعم أن الكثرة من الخوارج ما خرجت فى الواقع إلا متأثرة بالعصبية القبلية ، وما العصبية القبلية فى العصر الأموى إلا تاريخه .

خرج الخوارج على الحكومات ، وكان شعارهم فى مبدأ أمرهم « لا حكم إلا لله » ، وما خرجت هذه الجماعات الثائرة إلا لأن الخلافة أفلتت من يدها ، فقريش ادّعت حقها الأزلى فى الخلافة فلا سبيل إليها ، فلم لا تعلن العصيان ؟ ولما لا تقلب النظام الأموى قائلة « لا حكم إلا لله » .

ودليلنا على ما نقول أن الخوارج ينتمون إلى قبائل كان لها شأن وسلطان فى الجاهلية والإسلام كتميم وربيعة وبكر . أما تميم فأنت تعرف ما خطرها ، لقد كان لها ماض أجل وأمجد من ماضى قريش ، وها هى قريش تريد أن تكون لها زعامة العرب زاعمة أن لها فى هذه الزعامة حقا شرعيا ، أو ليس النبى منها ؟

ولكن التميمى لا يخضع لقرشى والأمر أبعد من أن يصل إليه ، وإذن فهو خارج على السلطان « والحكم لله » لا حكم لغيره إلا أن يكون الحكم له هو .

أما ربيعة وبكر فأمرهما كأمر تميم واضح وأنت تعرف ما كان بين ربيعة ومضر من عداء حفل بأخباره التاريخ الجاهلى .

---

(١) كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيام صفين منقسمين إلى فريقين كبيرين متحاربين : العثمانية وشيعة على ، وبينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنبون التحزب وهم المسمون بالمعتزلة منهم أبو موسى الأشعرى وسعد بن أبى وقاص ومغيرة بن شعبة وغيرهم ، ثم رضى على باقتراح التحكيم فى خلافته فى صفر سنة ٣٧ هـ وكان سبب فتنة فى شيعته لأن قوما من أصحابه استقبحوا تحكيم الرجال فى دين الله أى تفويض حل مسألة الإمامة إلى رجلين لقولهم إنه لاحكم إلا لله فخرجوا عن جيشه إلى حروراء فسموا الحرورية أو الخوارج . (كارلونالينو : تاريخ الآداب العربية ص ٢٠٦ – ٢٠٧)

ولنضرب مثلا يفسر هذا الخروج بهذه الثورة العنيفة التى قام بها الخوارج فى عصر الرشيد بزعامة « الوليد بن طريف » وهى آخر حركة سياسية قام بها الخوارج . من أصحابها ؟ هم التغلبيون .

كانت تغلب قبيلة نصرانية ثبتت على نصرانيتها فليس يعنيها أن تكون الزعامة الدينية فى المسلمين لقريش أو غير قريش ، فلما أسلمت أو قل أسلم أكثرها خرج منها ثلاثون ألف فارس تزلزل لخروجهم العرش العباسى .

العصبية والعصر الأموى

سياسة معاوية :

لعل أظهر ما يمثل دهاء معاوية وسعة عقله هو أنه عرف كيف يتخذ من العصبية حصنا منيعا يحصّن به ملكه وملك أولاده من بعده . أحب أن يؤلف العنصر الآخر – اليمانى – فتزوج ميسون بنت بجدل من قبيلة كلب اليمانية وأولدها ولى عهده يزيد . فكان ذلك الزواج السياسى ضمانا كافيا لتأييد كلب اليمانية والقبائل الموالية لها . ولقد ظلت هذه القبائل اليمانية حصنا منيعا لآل أمية وعقبة كأداء فى سبيل خصومها . وأنت تعرف لهذا الزواج أمثلة عدة فى تاريخ أوروبا الحديث .

وقد انتهى الأمر بأن قرّب الخلفاء كلبا ، فحقد القيسيون عليها وخرجوا على الخلفاء غير مرة كما سنبينه فيما بعد .

وفى أيام معاوية نشبت من جديد المعركة الشعرية بين الأنصار وخصومهم من شيعة البيت الأموى ، وأصلها تشبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بابنة معاوية رملة [١] ، فاشتاط أخوها غضبا وطلب إلى كعب بن جُعَيل [٢] هجاء الأنصار ، فتحرج وأشار عليه بالأخطل فهجاهم الأخطل هجاء مرًّا استثار به حمية الأنصار ، وانبرى قرم من قرومهم هو النعمان بن بشير [٣] يطلب من معاوية قطع لسان الأخطل ويهدده إن لم يفعل :

(١) سنحدثك عن ذلك فى باب الغزل

(٢) أمر يزيد بن معاوية كعب بن جعيل بهجاء الأنصار ، قال له كعب : « أرادى أنت إلى الكفر بعد الإسلام ؟ أأهجو قوما آووا رسول الله ﷺ ونصروه ! (أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ١٦ ص ٥٨٠١ – طبعة الشعب)

(٣) قيل دخل النعمان على معاوية وأنشد هذه القصيدة وليس ذلك بعيدا فقد كان النعمان سيدا فى قومه وجيها ومطاعا=

مُعاوىَ إلاّ تُعطنا الحقّ تَعْتَرِفْ لِحَى الأزْد مَسْدُولا عليها العَمائمُ
أَيَشْتُمُنَا عَبدُ الأَراقم ضَلَّةً وماذا الذى تُجْدى عليك الأراقم
فما لِىَ ثأرٌ دون قَطْعِ لِسَانه فدُونَك مَن يُرْضيه عنك الدّراهم
فإنْ كُنْتَ لم تَشهد ببَدرٍ وَقيعةً أَذَلّتْ قُرَيْشاً والأنوفُ رَواغم
فسائِلْ بِنَا حَيَّىْ لُؤَىّ بنِ غالب وأَنتَ بما تُخْفى من الأمْر عالم
أَلم تَبْتَدِرْكُمْ يَومَ بَدْرٍ سُيوفُنا ولَيْلُك عمّا ناب قومَك نائم
ضَربناكمُ حتى تفرّق جَمْعُكم وطارت أَكفٌّ مِنكمُ وجَماجم

ومنها :

فما أَنت والأَمرُ الذى لست أَهْلَه ولكنْ وَلِيُّ الحَقّ والأَمْرِ هاشِم[1]

ويزعمون أن هذه المهاجاة بين الأخطل والنعمان أول ما قيل فى الإسلام من شعر العصبية .

ويخلف معاوية ابنه يزيد فى ذى الحجة سنة ٦٧ هـ . ويسيّر يزيد جيشا عرمرما مكونا من اثنى عشر ألف مقاتل يمانى كلبى « أخوال يزيد » فيلتحم الجيش والثوّار وأنصار اليزيد فى موقعة الحرة[2] « شمالى المدينة » وينتصر جيش يزيد ويستبيح الظافرون حرمة المدينة ويقتلون أطفالها ويستحيون نساءها ويأخذون البيعة من رجالها على أنهم عبيد ليزيد .

ولهذا يرى « دوزى » ويرى « ملر » أن موقعة الحرة صدى لموقعة بدر فهى بين الأرستقراطية الإسلامية والأرستقراطية الوثنية ، عندهما أن يزيد كان وثنيا متسترا ، وأن قائد جيشه كان وثنيا .

ويرى أستاذنا الدكتور طه حسين[3] أن هذه الموقعة كانت بين الأنصار وقريش . وأما أستاذنا عبد الحميد العبادى و « فلهوزن » الألمانى فيريان أن هذه المعركة سياسية لا علاقة لها

= يخشاه معاوية ويتقيه . ولما سمع معاوية هذه الأبيات أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه فاستجار بيزيد بن معاوية فمنع منه وأرضوا النعمان حتّى رضى وكف عنه (المصدر السابق جـ ١٦ ص ٥٨١٠)

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ١٦ ص ٥٨٠٨ – طبعة الشعب – « والقصيدة كاملة » ورواها كاملة أيضا الدكتور طه حسين فى كتابه «فى الأدب الجاهلى» ص ١٢٥ والمبرد : الكامل جـ ١ ص ١٠٤ من طبعة مطبعة الاستقامة .

(٢) حى من تغلب

(٣) فى كتابه الأدب الجاهلى ص ١٢٣ طبعة دار المعارف ١٩٥٨ فيقول «ويقول الرواة حين يقصون وقعة الحرة إنه قد قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرا أى من الذين أذلوا قريشا » .

بالدين – حرب بين حزبين – حزب يتشبث بالحكم وآخر يزحزحه عنه . حرب بين مبدأ الحكم الوراثى الاستبدادى وبين مبدأ الانتخاب والشورى الديمقراطى .

ومهما يكن فليس يعنينا ذلك كله ، إنما الذى نريد أن نسجله هو أن هذه الموقعة أججت نيران العصبية المضرية اليمانية ، فانبعثت أشد وأضرى ما تكون العصبية .

ويقول شاعر قيسى يوجه الخطاب إلى خالد بن يزيد وكان بطبيعة الحال متعصبا لكلب على قيس لأنهم أنصار أبيه وأخواله وأخوال زوجته :

يا خالدُ بن أبى سُفيانَ قد قُدِحَت   منّا القُلوبُ وضاق السَّهْلُ والجَبَلُ
أأنت تأمُرُ كلْباً أن تُقاتِلنا   جَهْلاً وتمْنَعهمْ مِنّا إذا قَتَلُوا
ها إن ذا لا يُقِرّ الطَّير ساكنة   ولا تَبرَّكُ من نَكْرائه الإبل[1]

ومات يزيد فخلفه ابنه معاوية الثانى ، وبعد موته أو خلعه[2] يعقد اليمانيون مؤتمرا فى « الجابية » للتشاور فى أمر الخلافة فيتفقون بعد نزاع شديد على أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم .

أما القيسيون فقد احتشدت جموعهم فى « مرج راهط » وتحفزوا للقتال ، فسار إليهم مروان نفسه تتبعه الجموع اليمانية فتقع واقعة مرج راهط فى ذى الحجة سنة ٦٤ هـ بين الأمويين والزبيريين وتسفر عن انتصار الأمويين واندحار أنصار ابن الزبير فى الشام . فنحن نسجل أن موقعة مرج راهط ملحمة أخرى بين القيسيين والأمويين .

وفى مرج راهط قيل شعر كثير كما قيل فى غيرها فى هذه الحرب ، يقول زعيم القيسيين زفر ابن الحارث الكلابى :

أَرِينى سلاحِى لا أبالَكِ أنَّنى   أَرَى الحرْبَ لا تَزْدَادُ إلا تَمادِيَا
أَتَانِىَ عَنْ مرْوانَ بالغَيْبِ أنّهُ   مقِيدٌ دَمِى أَو قاطعٌ من لسانِيا
ففِى العَيْش منْجَاةٌ وفى الأرْض مَهْرَب   إذا نحْنُ رفَّعْنا لَهُنَّ المَثانِيَا
فلا تحْسِبُونى إنْ تَغَيَّبْتُ غافِلاً   ولا تفْرَحوا إنْ جئتُكمْ بلِقائِيا
فقدَ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلىَ دِمَنِ الثَّرَى   بها ورق من تحته الشر باديا

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ١٩ ص ٦٦٧٨ من طبعة الشعب .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٥ ص ٥٠٣

وتمضى ولا يبقى على الأرض دمنة ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
لعَمِرى لقد أَبْقتْ وَقِيعَةُ رَاهِطٍ ... لِحَسَّان صَرْعاً بَيناً متنائيا
فلم تُرمِنىَ نبْوةٌ قَبْلَ هذه ... فِرَارِى وتَرْكِى صاحبىّ ورَائيَا
عشية أعْدو فى القِرانِ فلا أَرَى ... مِن الناسِ إلا مَنْ عَلَىّ ولا لِيَا
أَيَذهَبُ يوْمٌ واحِدٌ إن أَسأْتُهُ ... بصالح أَيَامى وحُسْنِ بَلائيا
فلا صُلْحَ حتى تَشْحِطَ الخَيْلُ بالقَنَا ... وتَثْأَرَ من نِسْوَانِ كلْب نِسَائِيَا[1]

فأجابه جواس بن قعطل :

لعَمْرى لَقدْ أَبقَتْ وقيعَةُ راهِط ... على زُفَرٍ دَاءً مِنَ الدَّاءِ باقِيَا
مقِيماً ثَوَى بَيْنَ الضُّلوعِ مَحلُّه ... وَبيْن الحَشا أَعْيا الطَّبيبَ المُداوِيا
تُبَكِّى عَلَى قتلى سُليم وعَامِرٍ ... وَذُبْيَانَ مَعْذوراً وتُبْكِى البواكِيَا
عليها كأسْدِ الغابِ فِتْيانُ نجْدَةٍ ... إذَا شَرعُوا نَحْوَ الطعان العوالِيَا[2]

ورد عليه عمرو بن الجلى الكلبى بأبيات يرويها ابن الأثير. ختامها قوله :

فمت كمدًا أو عش ذليلا مهضما ... بحسرة نفس لا تنام همومها[3]

والخطاب لزفر

وفى عهد عبد الملك بن مروان تفرعت من الخصومة بين كلب وقيس خصومة أخرى بين قيس وتغلب ووقعت بينهما مواقع عدة منها يوم ماكسين ويوم الثرثار الأول ويوم الثرثار الثانى ويوم الفدين ويوم السكير ويوم المعارك ويوم الشرعبية ويوم البثر. ولشعراء القبيلتين فى كل يوم من هذه الأيام شعر. من ذلك ما قاله الجحاف يخاطب الأخطل بعد موقعة البثر :

أبا مالكٍ هل لمتنى أو حضضتنى ... على القتل أم هل لامنى لك لائم
ألم أفنكم قتلا وأجدع أنفكم ... بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى يرعى عميرا بسيفه ... إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٥ ص ٥٤١ – طبعة دار المعارف وابن الأثير : الكامل جـ ص ٣٢٩ طبعة مصر ١٣٥٦ هـ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص ٥٤٢ وابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ٣٢٩

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ٣٣٠ – طبعة مصر ١٣٥٦ هـ .

فإن تطردونى تطردونى وقد مضى   من الوِرْدِ يومٌ فى دماء الأراقم
نكحت بسيفى فى زهير ومالك   نكاح اغتصابٍ لا نكاح الدراهم[١]

انضمت تغلب إلى الأمويين وربيعة انضمت إلى القيسيين وكان لهذه الخصومات أثر كبير فى الشعر الأموى .

نمر بعصر عبد الملك وعامله الحجاج سراعا خشية أن نضل ، إنما نسجل أن الحرب بين ابن الأشعث والحجاج انطوت على عصبيات قبلية وإن كان ظاهرها حربا إقليمية ، ويرى بعض المؤرخين أن هذه الحرب الأخيرة كانت حرب العرب والموالى ، لكننا ننكر عليهم ذلك ، إنما انضم الموالى إلى الثوار فكانوا عونا لهم وظهيرا .

وقد قضى الوليد بن عبد الملك على الخارجين والمشاغبين ثم شغل نفسه وشغل الناس عن العصبية بالفتوح الإسلامية العظيمة ، ففى عهده فتحت الأندلس ، وفتح ما وراء النهر وفتح حوض السند والمغرب وأرمينيا والقوقاز .

وسليمان بن عبد الملك ٩٦ – ٩٩ هـ خلف أخاه الوليد ، وكانت سياسته نقضا لسياسة الحجاج فآثر اليمن وصب جام غضبه على صنائع الحجاج وقد كانت بينه وبين الحجاج إحن وبغضاء حتى أن الحجاج تمنى أن يموت قبل أن يرقى العرش سليمان خوفا من بطشه .

وكان على خراسان قتيبة بن مسلم فقام بفتنة ضد سليمان ، ولكن الأمر أفلت من يده ، فثارت ضده قبائل خراسانية بزعامة تميم وقتلته .

وللفرزدق فى ذلك قصيدة يهجو بها قيسا ويمدح سليمان وعدد أبياتها مائة وخمسة نروى لك منها :

تُحَرِّكُ قَيْسٌ فى رُءوسٍ لَئِيمَةٍ   أُنوفاً وآذاناً لئام المَصَالِمِ
ولما رَأَيْنا المشْركِين يقُودُهُمْ   قُتَيبَةُ زَحْفاً فى جُمُوعِ الزَّمازِمِ
ضَرَبْنا بِسَيْفٍ فى يَمِينِكَ لَم نَدَعْ   به دونَ بابِ الصِّين عَيناً لظالمِ
به ضَرَبَ اللهُ الذين تحزَّبوا   بِبَدْرٍ على أَعْنَاقِهم والمعاصِمِ[٢]

ومنها :

لعمرى لئن قَيْسٌ أَمَصَّتْ أُيورَها   جَرِيراً وأعْطَتْهُ زُيوفَ الدراهِمِ

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٤٣٦٨ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٨٥٥ من طبعة الصاوى

فكم طَلَّقتْ من قَيْسِ عَيْلانَ من حرٍ وقد كانَ قَبْقاباً رِماحُ الأَرَاقِمِ (١)

ومنها :

لقد تَرَكَتْ قَيْساً ظُباةُ سُيوفِنا وأَيْد بأعجازِ الرماحِ اللَّهازِمِ

وقائِعُ أيام أَرَيْنَ نِساءَهم نَهاراً صغيراتِ النجومِ العوائمِ

بذى نَجبٍ يومٌ لِقَيْسٍ شَرِيدُه كَثيرُ اليَتامَى فى ظِلالِ المآتِمِ (٢)

ونهض سليمان بآل المهلب وكان الحجاج قد اضطهدهم وخفض من شأنهم فقد كان يكرههم لأنه سخط على اليمن ومن يمت إلى اليمن بصلة منذ فتنة ابن الأشعث . فلما كان عهد سليمان ولى رجل من المهلبيين « يزيد بن المهلب » على المشرق . وهكذا كانت سياسته مصطدمة مع سياسة الحجاج :

واستخلف سليمان عمر بن عبد العزيز ، وكان عمر كما تعرف رجلا أقرب إلى الدين ، وخلف عمر يزيد بن عبد الملك ١٠١ - ١٠٥ هـ وفى عهده انقلبت الآية فاليمانيون ينقلبون عليه وهو يؤثر مضر . وفى عهده وقعت الموقعة الهائلة بين القصر الأموى يقود جيوشه مسلمة بن عبد الملك وجيش الثوار يقوده يزيد بن المهلب ، وكان عمر قد حبسه بتهمة اختلاس أموال ونفاه فى جزيرة « دهلك » واستطاع يزيد بعد ذلك أن يهرب فسرعان ما ألّب اليمن وشيعتها على مضر فانتشبت بينهما حروب .

هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ :

ويلوح لنا أن هشاما لم يكن ذا ميول قبلية معينة لأن سياسته بالنسبة للقبائل لم تكن ثابتة . ومهما يكن فالمضرية رجحت كفتها قبل هشام رجحانا روحيا عظيما . فنهض هشام باليمانية ، وأهم مظهر لهذه السياسة هو توليته « خالد بن عبد الله القسرى » وهو ينتسب إلى بجيلة قبيلة مضرية مستضعفة . ولكن الرجل كان معروفا بميوله اليمانية ، وظل خالد أميرا على المشرق فى الخمس عشرة سنة الأولى من خلافة هشام .

وفى سنة ١٢٠ هـ تولت هذه السياسة وعزل هشام خالدا وولى يوسف بن عمر الثقفى سنة ١٢٠ هـ رغما عن استهتاره بالدين ، ويروى أنه شيد كنيسة على حساب الدولة وكان مستشاروه

---

(١) الديوان ص ٧٩٧ من طبعة الصاوى

(٢) الديوان ص ٨٥٩ من طبعة الصاوى

زرادشتيين أو نصارى أو يهوداً كما أنه ولى على خراسان نصر بن سيار الكنانى المضرى ، وكذلك ولى على اليمن عمالا مضريين حتى ثار ثائر اليمانيين وزعيمهم فى الثورة أبو الخطار بن ضرار الكلبى وله فى ذلك شعر[١] .

ونقول على الإجمال : إنّ سياسة الدولة تغيّرت من سنة ١٢٠ هـ على يد هشام فكان الميل إلى القيسية ظاهرا لأول مرة فى العهد الأموى .

الوليد بن يزيد ١٢٥ – ١٢٦ هـ

ويخلف هشاما الوليد بن يزيد ، ويتبع الوليد السياسة التى اتبعها هشام فى سنيه الأخيرة وهى الانتصار للقيسية دون اليمانية ، وإنى لأروى لك هذه القصيدة للوليد بن يزيد لترى إلى أى حد تغلغلت العصبية فى ذلك العصر ، خليفة يقول الشعر وينزل إلى ميدانها مع الشعراء . قال يعيّر اليمن بترك نصرة خالد بن عبد الله القسرى[٢] :

ألم تَهْتَجْ فتذَّكُرُ الوِصالا ... وَحبلا كان مُتَّصِلا فزالا
بَلَى فالدمعُ منك له سِجالٌ ... كماء الغَرْبِ ينْهمِل انهمالا
فدع عنك ادّكارك آل سُعْدَى ... فنحن الأكْثرون حَصى ومالا
ونحن المالكون الناسَ قَسْرا ... نَسُومُهُمُ المَذَلَّةَ والنّكَالا
وَطِئْنا الأَشْعَرِينَ بكل أرضٍ ... ولم يَكُ وَطْؤنا أن يُستقالا
وهذا خالدٌ فينا أسير ... ألا منعوه إن كانوا رجالا
عظيمهم وسيدهم قديما ... جعلنا المخزيات له ظلالا
فلو كانت بنو قَحطانَ عُرْباً ... لما ذهبت صَنائِعُه ضَلالا
ولا تركوه مَسْلوبا أسيرا ... نُحمِّله سَلاسلَنا الثقالا
وكِنْدَةُ والسكُونُ قد استعاذوا ... نَسُومُهُمُ المَذَلَّةَ والخبالا
بها سمت البرية كل خسف ... وهدمنا السهولة والجبالا
ولكن الوقائع ضَعْضَعَتْهم ... فلم يَجِدوا لذِلّتهمْ مَقالا
فما زالوا لنا بلدا عبيدا ... نسومهم المذلة والسفالا

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٢٣٠. – طبعة مصر ١٣٥٧ هـ

(٢) كان خالد بن عبد الله القسرى واليا على العراق فاتهمه هشام فى أواخر أيامه باختلاس أمواله فعزله وأقام بدمشق وطالبه برد الأموال وحبسه ، فلما قدم يوسف من العراق اشتراه بخمسة ألف ألف – وهو المبلغ المختلس .

فأصبحت الغداة علىّ تاج لملك الناس ما يبغى انتقالا[١]

ورد عليه حمزة بن بيض بقصيدة أولها :

يا وليد الخنا تركت الطريقا واضحا وارتكبت فجا عميقا[٢]

وهجاه كذلك بشعر منه :

وصلتَ سماء الضرّ بالضرّ بعد ما زَعمتَ سماء الضرّ عنا ستُقلِع
فليت هشاما كان حياً يسُوسُنا وكنا كما كنا نُرجِّى ونطمع[٣]

وكانت نتيجة تعصب الوليد للقيسية ثورة اليمانيين عليه بزعامة يزيد الثالث وزحفت جيوش يزيد إلى دمشق واقتحموا على الخليفة حصنه وقتلوه وهو يتلو القرآن ويقول « يوم كيوم عثمان »[٤]

يزيد بن الوليد بن عبد الملك (جمادى الآخرة ١٢٦ هـ إلى ذى القعدة ١٢٦ هـ) :

انتصر لليمانية بطبيعة الحال وأظهر ما يدل على ذلك عزله ليوسف بن عمر الثقفى وتوليته الجمهور بن منصور الكلبى .

مروان بن محمد أو مروان بن الحكم (سنة ١٢٧ – ١٣٢ هـ)

لا يعترف بخلافة إبراهيم الإمام ويخرج فى جيش من القيسية يريد الانتقام للوليد بن يزيد وينضم إليه أهل حمص وقنسرين ، وينتصر على إبراهيم الإمام ، فيبايع بالخلافة فى دمشق ، ثم يتخذ « حران » عاصمة بدلا من دمشق .

وتتألب عليه الثورات فى الشام والعراق لانتصاره للقيسية فيقضى عليها واحدة بعد أخرى . لكن العرب فى خراسان منقسمون ، والحرب بينهم على أشدها والموالى يوسعون الخرق على الراتق وأخيرا ينضم إليهم اليمانيون والربعيون وينتصر الموالى وتقوم الدولة العباسية .

والآن وقد ألقينا هذه النظرة الخاطفة على تاريخ العصبية القبلية قبل العصر الأموى وفى العصر الأموى نسجل مطمئنين أن الدولة الأموية ثمرة للعصبية فمظهر من مظاهرها . وسترى فى الفصل التالى أن الدولة العباسية ثمرة للعصبية الشعوبية .

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٤٨ من طبعة ليدن ١٨٨٨ والطبرى جـ ٧ ص ٢٣٤ من الطبعة الثالثة بدار المعارف

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ٢٣٦ من الطبعة الثالثة بدار المعارف

(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٢٤٦٢ من طبعة الشعب .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ١٨٠٠ – أحداث سنة ١٢٦ هـ طبعة بريل ١٨٨٥

نظرات فى الشعر القَبَلى

لوكان الأمر مقصوراً على العصبية المضرية اليمانية لهان علينا أن نروى نموذجا لشاعر مضرى وآخر يمانى «كالكميت والطرماح» أو اكتفيت بمثال أومثالين لشاعر مضرى يفخر بأن النبوة أو الخلافة فى مصر، ويعيّر اليمن بنسائهم ولين ملكهم ثم قفيتها بمثالين لشاعر يمانى يعدد بعض الأيام أويفخر ببعض أبطال اليمن كالمهلب بن أبى صفرة أوبعض أجوادها كحاتم طيئ، ولانتهت مهمتنا بشىء من اللياقة وحسن التخلص ، لكن الأمر متشعب جد التشعب حتى ليستطيع الباحث المستقصى أن يؤلف فيه كتابا من عدة أسفار ضخمة قبل أن يفرغ منه .

خصومة بين قبيلتين عدنانيتين « مضر وربيعة » وخصومة بين فرعين مضريين واثليين تجمعها ربيعة « بكر وتغلب » ، وتحالف ربعى يمانى على قيس وخصومة بين قبيلتين قيسيتين « عبس وذبيان » وخصومة بين قبيلتين يمانيتين « الأوس والخزرج » أوبين قبائل يمانية وقبيلة يمانية « القبائل اليمانية وكلب » وخصومات بين بطون القبائل « هاشم وعبد شمس من قريش ويربوع ودارم من تميم » .

بل خصومة بين فرعى البيت الواحد ، فعبد شمس عند انتقال الحكم من فرع حرب إلى فرع الحكم بن أبى العاص على يد مروان الأول تنقسم إلى شطرين ، ولكل شطر شيعة ، فأسرة معاوية شيعتها اليمانيون وأسرة مروان شيعتها من العدنانيين .

ثم هذه الثورات العنيفة التى قامت بها هذه الولايات الجديدة على الدولة لم تكن دينية إلا فى مظهرها ، أما جوهرها فهو هذا التعصب القبلى ، إنما ثارت هذه القبائل لأنفتها من الخضوع لأمراء محدثين أومستشارين يلونها من قريش .

كان الغرض سياسيا وكان الظاهر دينيا كما يقول المستشرق الهولندى Von Volten [1] ثم هذا الصراع العنيف بين هذه الولايات كصراع البصرة والكوفة فى كل ميدان من الميادين فى السياسة ، فى العلم ، فى الشعر ، فى الجدل لم يكن إلا أثرا من آثار العصبية القبلية . ذلك أن الكثرة فى البصرة مضرية والكثرة فى الكوفة يمانية . بل هذا الصراع فى الولاية الواحدة بين

---

(١) فى كتابه : Le Dorrination Arabe.

العصبيات المختلفة ، فالبصرة مثلا فيها من مضر وتميم وقيس ، وبينها تنافس ، وفيها قبائل من ربيعة واليمن وكل واحدة من هذه القبائل تقيم فى حيّ خاص بها . ويصبح لكل قبيلة مسجد تجتمع فيه . والمربد مجمع لهذه العصبيات المختلفة يمثلها شعراؤها .

وفى الكوفة لايجتمع الشعراء فى سوق ، لكنهم يخرجون إلى العراء فيتساجلون فى ذكر الأيام ، ومثل هذا فى الإقليم الواحد ، فخراسان مثلا منقسمة إلى أربعة أقسام : قيسيين وتميميين ويمانيين وربعيين وهم فى صراع دائم – إلى غير ماذكرنا من العصبيات المختلفة .

إذن فأى الشعر أروى وأيه أدع ؟

الشعر مدوّن فى المصادر العامة ودواوين الشعراء ، ولست أكتب بحثا خاصا بالعصبية القبلية فبحسبنا بعض الملاحظات العامة ، فأول مانلاحظه أن هؤلاء الشعراء لم تكن لهم شخصية مستقلة منفصلة عن قبائلهم ، أمحت شخصياتهم امحاء فهم أُلْسُنُ قبائلهم لاأكثر ولاأقل .

لم يهج قيسى تغلبيا لأنه نقم عليه صناعته الفنية ، أوحسده فى أمر من أمور دنياه . لو أننا أقبلنا على درس كل خصومة من هذه الخصومات على ضوء التاريخ السياسى وتكلفنا عناء دراستها – وهى دراسة فيها شىء كثير من المشقة – لوضح لنا فى كل خصومة بين شاعرين أن الشاعر إنما كان لسان قبيلته وأن شخصيته تمحى محوا لانكاد نحس بها منفصلة عن قبيلته . لقد تهاجى الأخطل وجرير زمانا طويلا ، ثم جمعتهما الأيام عند عبد الملك بن مروان . ونظر الأخطل إلى جرير نظرا شديدا ، فسأله جرير : من أنت ؟ قال : أنا الذى منعت نومك وتهضمت قومك . جرير يهجو الأخطل هجوه القادح المر ولما يره ! ولكن فيم العجب ؟ أفتعجب أن انتشبت الخصومة وفحش الهجاء بين صحافى حزبى وصحافى يخالفه فى المبدأ ؟

ومر جرير على سراقة البارقى وهو ينشد شعرا فاستظرفه فسأله من أنت ؟ قال بعض من أخزى الله على يديك . فقال جرير « أما والله لوعرفتك لوهبتك لظرفك » .

تقرأ قصيدة فكأنك تقرأ مقالا فى صحيفة من الصحف الحزبية فى أيامنا . الصحيفة الحزبية تفاخر بجهاد زعماء الحزب وبلاء شهدائه وترمى الحزب المعادى بالاستكانة والجبن أمام العدو . وكذلك الشاعر يعدد أيام قبيلته ويفخر ببلاء زعمائها وبسالتهم ، ويعير القبيلة المعادية بالاستكانة لعدوها والتخلى عن جارها :

إنا لنعرف من رجال مجاشع   هذا الخفيف كما يخف الخروع

هلا سألت مجاشعا زَبَدَ استِها ... أين الزبير ورحله المتمزع
ومجاشع قصب هوت أجوافه ... غرُّوا الزبير فأى جار ضيعوا
كذب الفرزدق أن قومى قبلهم ... ذادوا العدو عن الحمى فاستوسعوا
منعوا الثغور بعارض ذى كوكب ... لولا تصدمنا لضاق المطلع
هلا سألت بنى تميم أينا ... يحمى الذمار ويستجار فيمنع
من كان يستلب الجبابر تاجهم ... ويضر إذ رفع الحديث وينفع
خضبوا الأسنة والأعنة أنهم ... نالوا المكارم لم تنلها تبع
وابن الرباب بذات كهف فادعوا ... إذ فض بيضته . حُسامٌ مصدع
واستنزلوا حسان وابنى منذر ... أيام طخفة والسروج تُقَعْقَعُ
تلك المكارم لم تجد أيامها ... لمجاشع فقفوا ثعالة فارضعوا
يكفى بنى سعد إذا ماحاربوا ... عز فراسية ومجد مدفَع
الذائدون فلايهدم حوضهم ... والواردون فوردهم لايقدع
عرفوا لنا السلف القديم وشاعرا ... ترك القصائد ليس فيها مصنع
ورأيت نُبلك يافرزدق قصرت ... ووجدت قوسك ليس فيها منزع (١)

وهذا الشعر كان يذاع بين الناس فيؤثر فيهم كما تؤثر فى الناس الصحف الحزبية ، ولقد حدثوا أن الأعشى قصد النبى ﷺ ليمدحه بشعره فعلمت بذلك قريش وهلع أبوسفيان وقال لقومه : يامعشر قريش ، هذا الأعشى والله لئن أتى محمدا واتبعه ليضرمن عليكم بشعره نيران العرب فاجمعوا له مائة من الإبل ، ففعلوا وأخذها الأعشى وانطلق إلى بلده .

ويظهر أن الناس كانوا يجدون فى هذه الخصومات الشعرية من اللذة مايجده الناس اليوم فى قراءة مهجاة بين صحفيين حزبيين أو تيا حظا من البلاغة ، فأنت تعرف أن بشر بن مروان والى البصرة كان يغرى شعراءها بعضهم ببعض ، ومن ذلك مفاخرة بين الفرزدق وجرير بين يديه . قال جرير :

ونحن سنامٌ والمناسمُ (٢) غيرُنا ... فمَنْ ذا يُساوِى بالسَّنَامِ المناسمَا

---

(١) جرير : الديوان جـ ١ ص ١٦١ – ١٦٥ من طبعة مصر ١٣١٣ هـ

(٢) المنسم : طرف خف البعير

فقال الفرزدق :

على مَحْــرَثٍ للفَرْث أنتم زعمتُمُ　　ألاَ إنّ فوق الغَلْصَمات[١] الجَمَاجِما

فقال جرير :

وأنبأتمــونا أنكم هام قومكــم　　ولا هــام إلا تابع للخراطــم

فقال الفرزدق :

فنحن الزِّمــامُ القائــدُ المقتَدَى به　　مــن الناس ما زِلنا ولسنــا لَهَازِما[٢]

فقال جرير :

فنحن بَنِى زيــد قطعنا زِمَامهــا　　فتاهت كسَارِ طائِش الرأسِ عارِمِ[٣]

ويقول أبو الفرج ففضل بشر جريرا وأحسن جائزتهما[٤] .

الشاعر لايحس باستقلاله عن قبيلته فإن هجا شاعرا هجا قبيلته ، وإن افتخر افتخر بقبيلته ، ولعل هذه القصة التى يقول عنها صاحب « الأغانى » بأنها أصل الهجاء بين جرير والفرزدق تعيننا على فهم هذه الحقيقة . والقصة هى :

اجتمع جرير والأخطل والفرزدق عند بشر بن مروان ، قال بشر للأخطل : احكم بين جرير والفرزدق فحكم حكما لم يرض جريراً فقال : [٥]

ياذا العباءة إن بشراً قد قضى　　ألا تجُوزَ حكومةُ النَّشوانِ

فدَعُوا الحكومةَ لَسْتمُ من أهلِها　　إن الحكومة فى بنى شيبان

قَتلوا كُلَيبكُمُ[٦] بلقْحَة جارِهم　　ياخُزْرَ تَغْلِبَ لستُمُ بِهجَانِ

فرد عليه الأخطل بقوله :

ولقد تناسبتم إلى أحسابكم　　وجعلتمُ حكَماً من السُّلطان

---

(١) الغلصمة : رأس الحلقوم

(٢) اللهازم : جمع لهزمة . واللهزمتان هما ما تحت الأذنين من أعلى اللحيين والخدين يريد أنه من الذين يقودون الناس لا ممن يقادون

(٣) العرام : القوة والشدة والشراسة

(٤) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٨ ص ٢٧٨٣ من طبعة الشعب .

(٥) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٨ ص ٣٠٦١ من طبعة الشعب

(٦) يشير إلى حادثة كليب وجساس بن مرة

فإذا كُلَيبٌ لاتُسَاوى دَارِماً حتى يُساوِى حَزْرَمٌ [١] بأبَانِ
وإذا جعلتَ أباك فى مِيزانهم رَجَحُوا وشالَ أَبوكَ فى المِيزان
وإذا وردتَ الماء كان لدارمٍ عَفْوَاتُه [٢] وسهولَةُ الأَعَطانِ [٣]

فأنت ترى أن الشاعرين عندما أرادا الهجاء كان أسبق شيء إليهما هجو القبيلة ، وجرير يريد أن يهجو الفرزدق فيهجو قبيلته :

مهلا يافرزدق إن قومك فيهم خور القلوب وخفة الأحلام [٤]

أو .

إذا أسْفَرَتْ يوماً نِساءُ مُجاشِعٍ بَدَت سُوءَةٌ مما تُجِنُّ البَرَاقِعُ
مَباشِيمُ عَنْ غِبِّ الخَزيرِ كأَنَّما تُصَوِّتُ فى أَعْفَاجِهنَّ الضَّفادِعُ [٥]

والعباس بن يزيد يهجو جريرا فيقول :

إذا طلع الغراب على تميم وما فيها من السَّوْءاتِ شابا [٦]

وجرير يريد أن يهجو الراعى فيقول :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا [٧]

والفرزدق يهجو جريرا فيقول :

فإنكَ كَلْبٌ مِنْ كُلَيْبٍ لكَلْبَةٍ غَذَتْكَ كُلَيبٌ فى خبيث المطَاعِمِ
ولَيْسَ كُلَيْبِىٌ إذا جَنَّ لَيْلُهُ إذا لم يَجِدْ ريحَ الأَتَانِ بنائِمِ [٨]

---

(١) حزرم : جبيل فوق الهضبة فى ديار بنى أسد (عن شرح القاموس مادة حزرم) وأبان جبل شرقى الحاجر فيه نخل وماء ويعرف بالأبيض ، وهو أيضا جبل لبنى فزارة وهو المعروف بالأسود ، وبينهما ميلان وقيل فيهما غير ذلك » (انظر : معجم البلدان لياقوت وشرح القاموس مادة أبن)

(٢) عفوة كل شيء : صفوته وكثرته : والعطن : مناخ الإبل حول الورد

(٣) الديوان ص ٢٧٤ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٤) الديوان ص ٩٩٢ من طبعة دار المعارف

(٥) الديوان ص ٣٧١ من طبعة الصاوى

(٦) المرزبانى : معجم الشعراء ص ١٠٤ بتحقيق عبد الستار فراج

(٧) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٧٥٢ – من طبعة الشعب والديوان ص ٦٣ من طبعة بيروت ١٩٦٤ والعقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٤ من طبعة المطبعة الأزهرية .

(٨) الديوان ص ٨٦٣ من طبعة الصاوى

والعباس يهجو عبد الله بن الزبير فيقول :

بَنِى أسَدٍ لاتَذْكُروا الفَخْر إنكم متَى تَذْكُروهُ تُكْذَبوا وتُحمَّقُوا
إذا استَبَقَتْ يوماً قُرَيشٌ خَرَجتُمُ بَنِى أسَدٍ سُكْتاً وذو المَجد يَسْبِق
تَجيئون خَلف القَوم سُوداً وُجوهُكُمْ إذا ماقُرَيش للأضامِم أصْفَقوا[1]

وكذلك سائر الشعراء[2] وذلك مسلك طبيعى لأن هذا الشعر القبلى إنما هو صدى لهذه المعارك القبلية المختلفة . ونقسم هذا الشعر إلى شعبتين « الهجاء والفخر » وإن كان كل منهما مختلطا بالآخر تجمعهما القصيدة الواحدة .

الشعر القبلى « هجاء وفخر » متلازمان فإن نحن شطرنا الموضوع أوبعبارة أصح شطرنا الحديث عنه فذلك لتبسيطه فى نظرة عامة عاجلة كهذه . الموضوع الشائع فى هذا الهجاء القبلى هو قذف أعراض النساء .

كقول جرير فى نساء مجاشع :

كانت إذا نكحت نساء مجاشع شبهن من سفح العدان جفارا

وقول الفرزدق فى نساء كليب :

إن ابن أخت بنى كُلَيْبٍ خالُهُ يَوْمَ التَّفاضُلِ ألأَمُ الأَخْوالِ
بَعْلُ الغريبَةِ من كليب مُمْسِكٌ منها بلا حَسَبٍ ولا بجمالِ
سُودُ المحَاجِرِ سَيِّىءٌ لِيَّاتُها من لُؤْمِهِنَّ يُنكن غيرَ حَلالِ
ككلابِ أعبد ثلةٍ يَتْبَعْنَهُمْ حَمَلَتْ أَجِنَّتَها بِشَرِّ فِحالِ
يَعْوِينَ مُخْتَلَطَ الظلام كما عَوَتْ خَلْفَ البُيُوتِ كلابُها لِعِظالِ
تَلْقَى الأُيورَ بُظُورُهُنَّ كأنها عَصَبُ الفَراسِنِ أو أُيورُ بغالِ
يَسْلَحْنَ أَنْتَن ماأكَلْنَ عليهم لما وَجَدْنَ حَرارَةَ الإنْزالِ
إنى وجَدْتُ بنى كُلَيْب إنما خُلِقُوا وأُمُّك مُذْ ثَلاثُ لَيالِ[3]

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص ٦١٢٩ من طبعة الشعب

(٢) بل يظهر أن الناس كانوا لايحسون بهذا الاستقلال ، قال محمد بن سلام : أخذنى سلام أبو المنذر عن على بن زيد قال : قال لى الحسن يوما ما قول الشاعر :

لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبئست القبيلة

أهجاه أم مدحه ؟ قلت : مدحه ، وهجا قومه . قال : ما مدح من هجا قومه .

(٣) الديوان ص ٧٢٨ من طبعة الصاوى

وقال الفرزدق معرضاً بأم جرير .

يَبْكى على دِمَنِ الدِّيار وأُمُّهُ　　تَعْلُو على كَمَرِ العَبيدِ وتَسْفُلُ
جاءُوا بحِقَّةَ مُفْرِمينَ عِجانَها　　يَحْدُو الأُتَانَ بها أَجيرٌ مِرْحَلُ
وقَفَتْ لتَزْجُرَني فقلت لها ابْرُكى　　ياحِقُّ أَنْتِ وماجَمَعْتِ الأسفَلُ
وكَشَفْتُ عن أَيْرى لها فتَجَحْدَلَتْ　　وكذاك صاحِبَةُ الوداق تجحدَلُ
وتركْتُ أُمكَ ياجَرِيرُ كأنها　　للناس باركَةً طَرِيقٌ مُعْمَلُ
وكأنما كَمَرَ الغُواةِ على استِها　　أورادُ ماسقَتِ النِّبَاجُ فثَيْتَلُ[1]

وقول جرير فى أخت الفرزدق :

أُخْتُ الفَرَزْدَق من أبيه وأُمِّه　　باتَتْ وسيرتُها الوَجيفُ الأَرْفَعُ
قد تَعْلَمُ النَّخَباتُ أن فَتاتَهُمْ　　وُطِئَتْ كما وُطِئَ الطَّرِيقُ المَهْيَعْ
هَلاَّ غَضِبْتَ على قُرومٍ مُقاعِسٍ　　إذ عَجَّلُوا لكم الهَوَانَ فأَسْرَعوا
نُبِّئْتُ جِعْثِنَ دَافَعَتْهم باستِها　　إذ لم تَجِدْ لمجاشِعٍ مَنْ يَدْفَعُ
وَجَدُوا لِجِعْثِنَ حين قَبْقَبت استها　　مِثْلَ الوِجارِ أَوَى إِلَيْه الأَضْلعُ[2]

وقول جرير أيضا :

هَدَموا وجارَكِ بَعْدَما خَبَّرْتِهمُ　　ألاّ تَكادُ تَجُوزُ فيه الاصْبَعُ
يَبْكى الفرزدق والدِّماءُ على استِها　　قُبْحاً لتلكَ غُرُوبَ عَيْنٍ تَدْمَعُ[3]

وقوله أيضا فى عمة الفرزدق :

قَامَتْ سُكَيْنَةُ للفُحول ولم تَقُمْ　　بِنْتُ الحُتاتِ لسُورَةِ الأنْفال
ودّتْ سُكَيْنَةُ أن مَسْجِدَ قَوْمها　　كانت سَوَارِيهِ أُيورَ بِغال[4]

---

(١) الديوان ص ٧٢٣ من طبعة الصاوى والنباج وثيتل قريتان فى أرض بنى شيبان وفيهما مياه ونخل . غلبت بنوسعد بهما والنباج على عشر مراحل من البصرة وثيتل قرب النباج (ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٢٤٣ — ٢٤٤) ويوم النباج تل من الأيام التى أحرزت فيها تميم النصر على بكر وسببه حب الغزو (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١ ص ٢٣٨ طبعة مصر)

(٢) الديوان ص ٣٥٠ من طبعة الصاوى

(٣) الديوان ص ٣٥٠ من طبعة الصاوى

(٤) الديوان ص ٤٧٠ من طبعة الصاوى

وقول جرير :

فالتَّغْلِبيَّةُ والصَّليبُ على استِها — رجْسٌ مُوَقَّعَةُ العِجانِ ذَلول
باتَتْ تُعَانِقُه وبَاتَ فِراشُها — خَلَقُ العَباءَةِ فى الدّماء قَتِيل
فُسِخَ العَباءُ وريحُ نِسْوَةِ تَغْلِبٍ — عَدَسٌ يُقَرْقِرُ فى البُطُونِ وفولُ(١)

وقول جرير أيضا :

فإذا تَدارَكَ رأسُ أشْهَبَ شارِفٍ — فى الحاوياتِ وحِمِّصٌ مَبْلُول
نادَتْ بيالِ مُحارِبٍ ويكُفُّها — عِرْضٌ كأَن نِطاقَهُ مَحْلُول(٢)

وقول جرير يهجو عمر بن لجأ التيمى فيرمى أمه بالفحشاء ويرميه بأنه ولد سفاح ثم يقول :
أبرز بها عن الناس وسرْبها إلى موضع معتزل :

خَلِّ الطَّريق لمَنْ يَبْنِى المنار به — وابرُزْ ببرْزَةَ حيث اضْطرك القَدَرُ(٣)

وقوله :

أنْتَ ابنُ بَرْزَةَ مَنْسُوباً إلى لَجَأ — عَبْدُ العُصارَة والعِيدانُ تُعْتَصَرُ(٤)

وقوله من بعض هجائه :

وتقول إذا نزعوا الإزار عن استّها — هذى دواة معلم الكتّاب(٥)

وهذا النوع من الهجاء شائع جدا فى هؤلاء الشعراء القبليين ، والنقاد يجمعون على أن الأخطل أعف الشعراء فى هجائه ، وبعضهم يفضله لهذا وحده وهو نفسه يقول : ماقلت شعرا تخجل العذراء منه وهى تنشده فى خدرها(٦) ومع ذلك فالأخطل هو القائل « ناك كعب بن جعيل أمه(٧) ، وهو القائل :

فلاتَدْخُلْ بيُوتَ بَنِى كُلَيْبٍ — ولاتَقْرَبْ لهُمْ أبداً رِحَالاَ
ترى مِنْها لَوَامِعَ مُبْرِقَاتٍ — يَكَدْنَ يَنكْنَ بالحَدَقِ الرِّجَالاَ

---

(١) الديوان ص ٤٧٦ من طبعة الصاوى .
(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .
(٣) نفس المصدر ص ٢٨٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٨٦ .
(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص ٣٩٨ من طبعة ١٩١٣ .
(٦) كارلونالينو : تاريخ الآداب العربية ص ١٣٧ من طبعة دار المعارف ١٩٥٤ .
(٧) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ٨ ص ٣٠٢٨ من طبعة الشعب .

قَصِيراتِ الخُطَا عَنْ كُل خَيْرٍ   إلى السَّوْءاتِ مُسْمَحةً رِعَالاَ(١)

وبعد فليس من شك أن شعراء المسلمين فى صدر الإسلام وخصومهم وطّدوا دعائم فن الهجاء ، ونحن ذاكرون لك هذه الأبيات حجة على ماذهب إليه ، وهى لشاعر الأنصار حسان بن ثابت فى هجاء هند بنت عُتبة امرأة أبى سفيان فى موقعة أحد ، قالها ردا على هند وكانت قد اعتلت بعد انتصار جماعتها وأخذت تنشد شعر الفخر على المسلمين ، ولقد ضاع شعرها ، وروى أبو الفرج شعر حسان فى الرد عليها(٢) :

أشرَتْ لَكَاع وكان عادتُها   لؤماً إذا أشِرَتْ مَعَ الكُفْرِ
لَعَن الإلهُ وزَوْجَها معها   هِنْدَ الهُنُودِ طويلة البَظْرِ
خرجت ترقصه على أحُدٍ   فى القوم مُقْتِبَةً على بَكْرِ
وعَصَاك أثل تَتَّقِينَ بها   دُقِّى عجانك منك بالفهر
قَرِحَتْ عَجيزَتَها ومَشْرَجَها   من دأبها نِصًا على القَتْرِ
ظَلَّت تُداويها زَميلَتُها   بالماء تَنْضَحُه وبالسَّدَر
أخرَجْتِ ثائرة مُبَادِرَة   بأبيك فاتك يوم ذى بَدْرِ
وبعَمِّك المَسْتُوه فى وَدَع   وأخيك مُنْعَقِرين فى الحَفْرِ
ونَسِيتِ فَاحِشَةً أتَيْت بها   ياهند ويحك سيئة الذكر
زعم الولائد أنها وَلَدَتْ   وَلداً صغيراً كان من عَهْرِ

أما سبب هذا التحامل من حسان فلأن هنداً بقرت فى ذلك اليوم بطن حمزة عم النبي ﷺ وقد وجدته جسدا بين أجساد ونزعت كبده ومضغته غيظا بأسنانها ثم لفظته من المرارة(٣)

ومهما يكن فنحن كمسلمين يعز علينا ويجرحنا فى شعورنا الدينى نزول شاعر المسلمين إلى مثل هذا الهجاء الذى فيه خروج فاحش فى المعنى وفى اللفظ .

---

(١) الديوان ص ١٦٥

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ١٤١٢ (أحداث سنة ٣ هـ) من طبعة بريل ١٨٨١م

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ١٤١٢ (أحداث سنة ٣ هـ) من طبعة بريل ١٨٨١م

هجاء البخل

كثير جدا وليس ذلك عجيباً ، فيظهر أن البخل كان يشين فى ذلك الزمان أكثر مما تشين نقيصة أخرى . يدل على ذلك شعر العرب فى المدح بالكرم ، وتدل عليه أخبارهم الكثيرة . ولولا تجنبنا للاستطراد لروينا من هذه الأخبار الأعاجيب . ويدل عليه اهتمام بعضهم بتأليف كتب فى البخل والبخلاء[1] .

ومن الأمثلة على ذلك :

قول الأخطل :

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كَلْبهمُ قالوا لأمِّهم بولى على النارِ

فضَيَّقَتْ فرجها بُخلا ببولتها فلاتبول لهم إلا بمقدار[2]

وقول جرير :

إن الهُجَيْم قبيلةٌ ملعونة حُصْنى اللِّحى متشابهو الألوانِ

هم يتركون بنيهم وبناتهم سعر الأنوف لريح كل دخان

لو يسمعون بأكلة أوشربة بعُمان أصبح جمعهم بعُمانِ[3]

وقول زياد بن الأعجم[4] :

وضَيْفُهُمُ وَسْطَ أبْياتِهِمْ وإن لم يكُنْ صائماً صائِمُ[5]

(١) للجاحظ كتاب «البخلاء» ولسهل بن هارون رسالة فى البخل

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٣٤ و (ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٣٩٩ من طبعة المطبعة الأزهرية) و (المرزبانى : الموشح ص ١٤٠ بتحقيق عبد الستار فراج) .

(٣) المرزبانى : معجم الشعراء ص ٤٥١ بتحقيق عبد الستار فراج

(٤) مولى من موالى عبد القيس وكان يتهاجى مع كعب الأشقرى وكان ينزل اصطخر ويقول بعض الرواة إن أصل مولده بأصبهان (الأغانى جـ ١٣ ص ٥٨ وجـ ١٤ ص ١٠٨ - طبعة بولاق) و (خزانة الأدب جـ ٤ ص ١٩٣ - ١٩٤ طبعة بولاق) و (ابن قتيبة الشعر والشعراء ص ٢٥٧ - ٢٥٩ طبعة ليدن)

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٣٣ من طبعة أحمد محمد شاكر و (ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص ٣٩٩ من طبعة المطبعة الأزهرية)

الفخر القبلى

نلاحظ أن الشعراء اتجهوا فى الفخر اتجاهين مختلفين ، فمنهم من كان يفخر بماضيه ومنهم من كان يفخر بحاضره .

أما الأولون فهم أولئك الذين كان لهم فى الجاهلية ذكر ومجد ، فهم يفخرون بذلك المجد ويتغنون :

نمشى على ضوء أحسابٍ أضأْنَ لنا ... ما ضَوَّأَتْ ليلةُ القَمْراءِ لِلسّارِى[١]

والآخرون هم الذين حرموا ذلك المجد فى الجاهلية ، فليس لهم إلى ذكر القديم سبيل ، فهم دائرون حول الحاضر يفتشون فيه ويتمحكون :

إن الخلافة والنبوة والهدى ... رغم لتغلب فى الحياة طويل[٢]

لنتخذ الفرزدق مثالا للأولين ، فمن هو الفرزدق[٣] ؟ هو ابن غالب بن صعصعة ، ممن حمى الموءودات ، البنت بناقتين وجمل ، قيل اشترى أربعمائة بنت ، وقيل بل مائة وقيل بل ثلثمائة وستين وفى ذلك يقول الفرزدق :

أبى أحَدُ الغيْثَيْن صَعْصَعةُ الذى ... مَتى تُخْلِف الجَوزاءُ والدَّلْوُ يُمطِرِ
أجارَ بَناتِ الوَائدين ومَنْ يُجِرْ ... على الفَقْرِ يَعْلَمْ أنَّه غَيْرُ مُخْفَرِ
أنا ابنُ الذى رَدَّ المَنِيَّةَ فَضله ... فما حَسَبٌ دافَعْتُ عنه بمُعْوِرِ[٤]

---

(١) للحطيئة : الأغانى جـ ٢ ص ٥٧٧ من طبعة الشعب

(٢) لجرير : الديوان جـ ٢ ص ٨٠ مصر ١٣١٣ هـ

(٣) الفرزدق اسمه همام بن غالب كان من بنى دارم حى من تميم أقامت بنواحى البصرة بعد الفتح الإسلامى ، فولد فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب أما سنة وفاته بالبصرة فاختلف فيها الرواة فقال بعضهم سنة ١١٠ وبعضهم بسنة ١١١ أو ١١٢ أو ١١٤ وكان كأهل البادية رحالا ينتقل من موضع إلى موضع ويكره الإقامة الطويلة بمحل فنجده تارة بالبصرة وتارة بالكوفة ومرة بالمدينة ومرة فى أرض البلقاء من الشام وافدا على خلفاء بنى أمية مثل الوليد وسليمان ابنى عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . ويلوح مما جاء من أخباره وأشعاره العديدة أنه كان على جيد شعره دنىء النفس فمدح من نال منه الجوائز وهجا من لم يشذف منه ما رجا فربما بعد الثناء الوافر على أحد الكبار فى قصيدة أخذ يشتمه شتما قبيحا فى قصيدة أخرى .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان – ترجمة رقم ٧٨٨ من طبعة جوتنجن أو رقم ٧٥٥ من الطبعة المصرية) و (أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٢٥ ص ٢٥١٨ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٧١ – ٤٨٢)

(٤) ديوان الفرزدق ص ٤٧٧

وأبوه غالب نحر جميع إبله وقد بلغ عددها أربعمائة من الإبل ، وقد أصاب الناس فى الجاهلية قحط ، ونحر أيضا فى خلافة علىٍّ مائتى ناقة وبعير.

قال الفرزدق يرثى أباه وقد مات فى أول أيام معاوية :

لقد ضمت الأكفان من آل دارم ... فتى فائضَ الكفَّين مَحْضَ الضَّرائبِ(١)

الفرزدق هو ابن غالب بن صعصعة من تميم من مجاشع . فطبيعى أن يفخر بالماضى ويلون بما شاء الشعر والفخر :

إنّ الذى سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لنا ... بَيْتاً دَعائِمُهُ أعزُّ وأَطْوَلُ
بَيْتاً بَناهُ لنا المَليكُ ومابَنَى ... حَكَمُ السماءِ فإنه لايُنْقَلُ
بيْتاً زُرارةُ مُحتَبٍ بفنائه ... ومجَاشِعٌ وأبو الفَوارِسِ نَهْشَلُ
يَلجُون بَيْتَ مُجاشِعٍ وإذا احْتَبَوْا ... بَرَزُوا كأنهم الجبالُ المُثَّلُ
لايَحْتَبى بِفِناء بَيْتك مُثْلُهم ... أبَداً إذا عُدَّ الفَعَالُ الأَفْضَلُ
من عِزِّهم جَحَرتْ كُلَيْبٌ بيْتَها ... زَرْباً كأنهم لَدَيْه القُمَّلُ
ضرَبَت عليك العَنكبُوت بِنسْجِها ... وقَضَى عليك به الكتابُ الْمُنْزَلُ
أين الذين بهمْ تُسامى دارِماً ... أَمْ مَنْ إلى سَلَفَىْ طُهَيَّةَ تَجْعَلُ
وأنا ابنُ حَنْظَلَة الأغرُّ وإننى ... فى آلِ ضَبَّةَ للمُعَمُّ المُخْوَلُ
فَرْعان قَد بَلَغَ السماءَ ذُراهُما ... وإليهما مِنْ كُلِّ خَوْفٍ يُعْقَلُ
فَلئِن فَخَرْتُ بهم لمثلِ قَدِيمِهم ... أَعْلُو الحُزُونَ به ولاأتَسَهَّلُ
زَيْدُ الفَوارِس وابن زيد مِنْهُم ... وأبُو قَبيصَةَ والرئيسُ الأَوَّلُ
يا بنَ المراغَةِ أينَ خالُك إننى ... خالى حُبَيْشٌ ذو الفعال الأفضَلُ
خالى الذى غَصَبَ الملوكَ نُفوسَهُمْ ... وإليه كان حباءُ جَفْنَةَ يُنْقَلُ
ولَئِن جَدَعْتَ بِبَظْرِ أمِّكَ أنْفَها ... لتنال مثل قدِيمهم لاتَفْعَلِ(٢)

أو :

إن السماء لنا عليك نُجُومُها ... والشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ وكل هِلالِ

---

(١) الديوان ص ٤٢ وأبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٢٥ ص ٨٥٣٠ من طبعة الشعب

(٢) الفرزدق : الديوان ص ٧١٤ – ٧١٩ المكتبة التجارية وديوان جرير جـ ٢ ص ٤٦ من طبعة مصر ١٣١٣ هـ

دَعْدع بأعنقك التَّوائِمِ إنني ... فى باذخٍ يابْنَ المراغَةَ عالى
إني بَنَى لى دارِمٌ عادِيَّةً ... فى المجْدِ لَيْس أَرُومُها بمُزال
وأبى الذى وَرَدَ الكُلابَ مسوِّماً ... والخَيْلُ تحْتَ عَجاجِها المُنْجالِ
أبنو كُلَيْب مثل آلِ مُجاشِعٍ ... أمْ هل أبُوكَ مُدَعْدعا كعِقال (١)

ولنتخذ جريرا مثالا للآخرين . جرير لايفخر بأبيه بل لايذكره ، وإنما يفخر بأنه من مضر والنبي مضرى والخليفة من مضر :

إن الذى حرم المكارم تغلباً ... جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم ... ياآل تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لوشئت ساقكم إلىّ قطينا (٢)

قد يجوز هذا مع الأخطل ، لكن موقفه أمام الفرزدق أشبه بموقف المدافع منه بالمهاجم ، وهو لايعنى بالفخر عنايته بتكذيب الفرزدق فيما زعمه لآبائه .

وأنا أفهم أن جريرا يفاخر الراعى فيفخر بقبيلته لأن الراعى من قبيلة أخرى ، ولأن الراعى لايفاخره بأبيه ، أفهم أن يفاخر جرير الراعى بمثل قوله :

إذا غَضِبتْ عليكَ بنو تَميم ... حسِبتَ الناسَ كلَّهُم غِضابَا (٣)

لكننى لاأفهم أن يدأب الفرزدق على مفاخرة جرير بأبيه وجده ، وجرير يفاخر الفرزدق بما يجوز لكل كليبي أن يفخر به أويعير الفرزدق بأن مجاشعا ختلت أبا حسيب أوغدرت به ثم يمسك عن الفخر بأبيه أو جده ، كما يفعل الفرزدق بل هو لايعرض لهما . وهنا أترك جريرا يتولى عنى الجواب .

قال رجل لجرير من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى أعرفك الجواب ، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به : اخرج يأبت ! . شيخ دميم رث الهيئة ، قد سال لبن العنز على لحيته ، فقال : ألاترى هذا ؟ قال : لا . قال مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبنا . ثم قال : أشعر الناس مَن فاخرَ بمثل هذا الأب

(١) ديوان الفرزدق ص ٧٢٧ من طبعة الصاوى ،
(٢) ديوان جرير جـ ٢ ص ١٥١ – مصر ١٣١٣ هـ والمبرد : الكامل جـ ٢ ص ١٠٤
(٣) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٨ ص ٢٧٦٧ – من طبعة الشعب

ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم جميعا . ولا ندرى نصيب هذه الرواية من الصدق أو المبالغة ، فقد أجمعت المصادر على أن جريرا كان من عائلة هنية رقيقة الحال .

المفاخرة بالأيام(١) :

وطبيعى أن تكون ركنا فى هذا الهجاء لأنها الأساس الذى نشبت عليه الخصومات الموروثة ولا أعرف شاعراً أكثر من الفخر بالأيام إكثار الأخطل ، ولا سيا فى هجائه لجرير التغلبى ، فعماد ذلك الهجاء هو ذكر الأيام القديمة ، وأنت تعرف ماكان بين تميم وتغلب من حروب فى الجاهلية وتعرف أن تغلب انتصرت على تميم غير مرة .

أَبَنِى كُلَيْبٍ إن عَمَّىَّ اللذَا ... قَتَلا المُلُوك وفَكَّكَا الأغلالا
وأخوهما السَّفاحُ ظَمَّأَ خيلَهُ ... حتى وردْنَ جِبَى الكُلابِ نِهالا
ولقد دَخَلْنَ على شَقِيقٍ بيْتَه ... ولقد رأين بِسَاقِ نَضْرَةَ خالا
يَنْقُلْنَهم نَقْلَ الكِلابِ جِرَاءَها ... حتى وَرَدْنَ عُرَاعِراً وأُثَالا
ما إن تَرَكْنَ من الغواضِرِ مُعْصِراً ... إلا فَصَمْنَ بِسَاقِها خَلْخَالاَ
ولقد سَمَا لكُمُ الهُذَيْلُ فَنَالَكُمْ ... بإِرَابَ حيث يُقَسِّمُ الأنْفالا
فى فَيْلَقٍ يَدْعُو الأَرَاقِمِ لم تكُن ... فُرسَانُه عُزْلاً ولا أكْفَالا
بالخَيْلِ سَاهِمَةَ الوُجُوهِ كأنما ... خَالَطْنَ من عَمَلِ الوَجِيفِ سُلاَلا
ولقد عَطَفْنَ على قُدارَةَ عَطْفَةً ... كَرًّا لمنِيحِ وجُلْنَ ثمَّ مَجَالا
فَسَقَيْنَ مَنْ عَادَيْنَ كأْساً مُرَّةً ... وأَزَلْنَ حَدَّ بَنِى الحُبَابِ فَزَالا(٢)

وهكذا الأخطل فى أغلب نقائضه يفخر فى هذه القصيدة بأن عمرو بن كلثوم قتل عمرو ابن هند ملك العرب .

ومما يتصل بذلك المفاخرة بحماية الجار أو المستجير ، كقول الأخطل :

فاقْعُدْ جَرِيرُ فَقَدْ لاقَيْتَ مُطَّلَعاً ... صَعْباً ولاَ قَاكَ بَحْرٌ مُفْعَمٌ جَار

---

(١) أحصى أبو الفرج أيام العرب ألفا وسبعمائة يوم ، وقد ألف أبو الفرج وأبو عبيدة كتبا خاصة بأيام العرب لايزال بعضها باقيا إلى اليوم .

(٢) ديوان الأخطل ص ٤٤ – ٤٩ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١

ألا كَفَيتُمْ مَعَدًّا يَوْمَ مُعْضِلَةٍ كما كَفَينَا مَعَدًّا يَوْمَ ذِى قارِ
جاءت كَتَائِبُ كِسْرَى وهى مُغْضَبَةٌ فاستَأْصَلُوهَا وأَرْدَوا كل جَبَّارِ
هلا مَنَعْتَ شُرَحْبِيلاً وقد حَدِبَتْ لَهُم تَمِيمٌ بجَمْعٍ غير أخيَارِ
يومَ الكلابِ وقدْ سِيقَتْ نِسَاؤُهم سَوْقَ الجَلاَئِبِ مِنْ عُونٍ[1] وأَبْكَارِ[2]

الشاعر وتعدد الخصومات :

ولربما تعددت خصومات القبيلة ومن أجل ذلك تتعدد مهمات الشاعر . فهذا الشاعر القيسى صامد لليمن يهجوها ويهجو ربيعة ، وربما كان يهجو فى نفس الوقت بطنا من بطون قبيلته .

وإنى لأروى لك هذه الأبيات من ديوان الأخطل لترى كيف كانت خصومات القبيلة الواحدة متعددة متشعبة ، وكيف كان موقف الشاعر منها :

أُقَاتِلُ نَفْساً قد يُحِبُّ لها الرَّدَى بَنُو أُمِّ مَذْعُورٍ ورَهْطُكَ يا جَبْرُ
إذا ما أصَابَتْ جَحْدَرِيًّا بِصَكَّةٍ دَعَتْهُ بإقْبَالٍ خُزَاعَةُ أو نَصْرُ
وقَيْسٌ تَمنَّانى وتَهْدِى عَوَارِماً ولما يُصِبْ مِنى بَنِى عامِرٍ ظُفُرُ
وما قَبِلَتْ مِنى هَلِيلٌ أمانَةً ولا عائِذٌ مِنى الضِّبابُ ولا شِمْرُ
وإن تَكُ عَنِى جَعْفَرٌ مُطْمَئِنَّةً فإن قُشَيْراً فى الصُّدُورِ لها غِمْرُ
وإن أَعْفُ عنها أو أَدَعْها لِجَهْلِها فما لِبَنِى قَيْسٍ عِتَابٌ ولاَ عُذْرُ
وقد كنت أُعفِى من لِسَانِى عَامِراً وسَعْداً ويُبْدِى عن مَقَاتِلِها الشِّعْرُ
ولولا أميرُ المؤمنينَ تَكَشَّفَتْ قبائِلُ عنا أو بلاها بنا الدَّهْرُ
إذاً لدَفَعْنا طَيِّئاً وحليفَها بنى أَسَدٍ فى حيثُ يَطَّلِعُ الوَبْرُ
وكلب إذا حالَتْ قُرَى الشَام دُونَها إلى النيل هُرَّاباً وإن أجدَبَتْ مصرُ
يَعُوذُونَ بالسلطانِ مِنَّا وفَلُّهُمْ كذى الغَارِبِ المنكُوب أَوْجَعَهُ الوَقْرُ
وإلا تَصُرْ أعْرَابُ بكرِ بن وائِلٍ مُهاجِرَها لاَ يُرِعَ إلٌّ ولا إصْرُ

---

(١) العون : المتوسطة من النساء وهى من قوله تعالى «عوان بين ذلك» أى لا بالكبيرة ولا بالصغيرة
(٢) ديوان الأخطل ص ٢٢٦ — ٢٢٧ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١

وما تركتْ أسيافُنا من قبيلةٍ ... تُحاربُنا إلا لها عِندنا وِتْرُ
حَجَوْنا بنى النُّعمانِ إذْ عَنَّ مُلكُهم ... وقبلَ بنى النعمانِ حاربَنا عَمْرُو
لَبِسْنَا له البيضَ الثِّقالَ وفَوْقَهَا ... سُيُوفُ المنايا والمُثَقَّفَةُ السُّمْرُ(١)

وبعد فإننا نختتم هذا الفصل الطويل ، وآخر ما نشير إليه هو أن العصر العربى فى التاريخ الإسلامى ينتهى بسقوط الدولة الأموية(٢) ، وأن العصر العباسى الأول مزيج من حضارات مختلفة .

والعنصر الغالب فى هذا المزيج هو العنصر الفارسى . ونسجل أن قيام هذا النفوذ الفارسى نتيجة للعصبية العربية(٣) ، ونريد بالعصبية العربية العصبية القبلية والعصبية القومية . وسنشرح ما نريد بالعصبية القومية فى الفصل التالى - إن شاء الله .

ولو أن العرب كانوا جبهة واحدة أيام العناصر الأجنبية ما كان محتملا أن يفلت النفوذ من يدهم . لكن العصبيات المختلفة أخذت تنخر فى هيكل العنصر العربى ، وظلت العصبيات المضرية واليمانية تتصارعان فى غير هوادة حتى استنزفت قواهما وخرا كما يخر الوعلان المتناطحان فظفر بهما العنصر الأجنى كما يظفر بالوعلين المتناطحين صياد .

---

(١) الديوان ص ١٩٩ - ٢٠٠ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٢) يصور بعض المؤرخين الحالة وقد سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية ، تصويرا يخيل إليك معه : أن هناك حدودا فاصلة بين الدولتين وأن صفحة للتاريخ قد ختمت بانتهاء الدولة الأموية وأن صفحة أخرى بدئت بقيام الدولة العباسية . وأن ليس هناك كبير علاقة بين الأمة الإسلامية فى عهدها الأول ، والأمة فى عهدها الثانى . وهذا التصوير أبعد ما يكون عن الصحة وعلى الأخص من الناحيتين : الاجتماعية والعقلية .

فقد حدثت حوادث فى صدر الإسلام وفى عهد الدولة الأموية - أخذت تعمل عملها منذ وجودها ، واستمر تأثيرها مع سقوط الأمويين وقيام العباسيين . خذ لذلك مثلا : تعاليم الإسلام ، فقد ظلت تعمل وتنتشر مؤثرة فى البلاد المفتوحة ومتأثرة بها . وكذلك الشأن فى انتشار لغة العرب فلم يكن قيام الدولة العباسية صفحة جديدة لهذين العاملين وإنما كانت مهدا لامتدادهما . (أحمد أمين : ضحى الإسلام - الجزء الأول - مقدمة الطبعة الثانية)

(٣) لما جاء الإسلام كوّن العرب أمة وكانت فيها خصائص الأمة من اتحاد لغة ودين وميول ومن وجود حكومة على رأسها وأعقب ذلك الانتصار على أضخم أمتين كانتا فى عصرها وهما فارس والروم . ولكن مع هذا لم تنمح الروح القبلية فوجدت النزعتان معا (نزعة العربى لقبيلته ثم بطنه ثم فخذه) و (نزعته للدم العربى والأمة العربية والجنس العربى) وسارت النزعتان جنبا إلى جنب فى صدر الإسلام وصرنا نسمع العربى يفتخر بقبيلته فى الإسلام كما كان فى الجاهلية وزاد فى الإسلام الافتخار بالجنس العربى كالذى يقول :

إنا من النفر الذين جيادهم ... طلعت على عاد بريح صرصر
وسلبن تاجى ملك قيصر بالقنا ... واجتزن باب الدرب لابن الأصفر

(أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٩ - ٢٠ - من الطبعة الثانية ، مصر ١٩٣٤)

فما ظنك بقومٍ يقف قائدهم فيصيح فى الجيش الخراسانى : « يأهل خراسان إن هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين ، وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وسيرتهم حتى بَدَّلوا وظلموا فسخط الله عليهم فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة كانت فى الأرض » .

ما ظنك بأجل قوم مضريين يمانيين ، تقول امرأة منهم :

لا باركَ اللهُ فى أنثى وعذَّبها   تَزَوَّجَتْ مُضَرِياً آخرَ الدَّهرِ[1]

(١) الطبرى جـ٧ ص ٣٤٢ من الطبعة الثالثة بدار المعارف والبيت لأم كثير الضبية

الفنّان الجديدان
الغــزل - السيَاســة

الغــزل

نحدثك عن الغزل قبل أن نحدثك عن السياسة لأن الغزل وليد العاطفة ، والعاطفة أسبق فى تاريخ الإنسان من الفكر. والسياسة عاطفة وفكر. ولولا أن الشعر القبلى فن جاهلى موروث ، وأن الغزل فن مستحدث فى الإسلام ، لحدثناك عنه قبل أن نحدثك عن الشعر القبلى .

أصحيح أن الغزل فن مستحدث فى الإسلام ؟

لقد تغزل الجاهليون لكن الغزل الجاهلى كان مقدمة لفنون أخرى : للمدح ، للهجاء ، للفخر .

أما الغزل كفن مستقل قصد إليه لذاته ، أى وقفت عليه قصائد كاملة فشىء جديد فى الإسلام . وإذاً فالغزل فن جديد فى العصر الأموى .

الغزل الجاهلى

أحب أن أحدثك عن الغزل الجاهلى فى إيجاز لنستطيع بعد ذلك أن نؤرخ نشأة فنون فى الغزل جديدة فى العصر الأموى ، ولأن ذلك سيعيننا على فهم الغزل الأموى والعباسى . إذا تصفحت مجموعة من مجموعات الأدب الجاهلى أو قرأت معلقة من المعلقات فسترى أن الغزل الجاهلى هو غزل الذكر بالأنثى . لن تجد عاطفة من عواطف « الإنسان » بل ستجد حساً يشترك فيه الإنسان والحيوان .

امرؤ القيس يتغزل فماذا يقول[1] ؟

وإن شِفَائى عَبْرَةٌ مهراقة ... فهل عند رَسْمٍ دَارِس من مُعَوَّلِ[2]

(١) حسن السندوبى : شرح ديوان امرئ القيس ص ١٢٥ – المكتبة التجارية

(٢) العبرة : الدموع ومعول معتمد.

كَدأْبِكَ مِنْ أُمّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَها ... وَجارَتِها أم الرَّبَاب بِمَأْسَل (١)
إذا قامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُما ... نَسِيمَ الصَّبا جَاءَتَ بَرِيًّا القَرَنْفُلِ (٢)

ولم لايتغزل صاحبنا بالمرأتين معا ؟ إنه لا يحب امرأة بل يحب « الأنثى » . ثم يقول :

ويَوْمَ دَخَلْتُ الخدْرَ خدْرَ عُنَيْزَةٍ ... فَقَالَتْ لَكَ الوَيْلاتُ إنَّكَ مُرْجلى
تقولُ وقَد مَالَ الغَبيطُ بنا معاً ... عَقَرتَ بعِيرِى يَا امْرَأَ القيس فانْزِلِ
فَقُلْتُ لها سِيرِى وأرْخِى زِمَامَهُ ... ولا تُبْعِدِينِى عن جَنَاكِ الْمُعَلَّلِ
فمِثلكِ حُبْلَى قد طَرَقتُ ومُرْضِع ... فألهيْتُها عَنِ ذِى تَمائِمَ مِحْوَلِ
إذا مابكى من خَلْفِها انْصَرَفَتْ له ... بِشِقٍ وتَحْتى شِقُّها لم يُحَوَّلِ (٣)

فسّر الشنقيطى البيت الأخير بقوله « يريد أنها تميل إلى ولدها بطرفها وتنظر إليه هو لتؤنسه » وهو تفسير غريب ومضحك .

إنى لأفهم الكلمة بمعناها اللغوى وأفهم البيت بالمعنى الذى أراده صاحبه لا الذى أراده الشنقيطى :

والأعشى يتغزل بصاحبته فيقول :

إذا تلاعب قِرْناً ساعَةً فَتَرتْ ... وارتَجّ منها ذَنُوبُ المَتْنِ والكَفَلُ
نِعْمَ الضَّجيعُ غداةَ الدَّجْنِ يَصْرَعُها ... لِلَذَّة المَرْءِ لا جَافٍ ولا تَفِلُ (٤)

والأعشى (٥) يقول :

فَدَخَلْتُ إذْ نَامَ الرَّقِيـ ... ـبُ فَبِتُّ دُونَ ثِيابِهَا
قَسَّمْتُهـا قِسْمَيْنِ كُلَّ (م) مُـوجَّـهٍ يُرْمَى بِهـا
فـثَـنَـيْـتُ جِـيـد غُـزَيـرة ... ولمست بَـطـنَ حُـقَـابِـهـا

---

(١) كدأبك : كعادتك . يعنى قلبه . أم الحويرث وأم الرباب من صواحباته . مأسل : اسم ماء بعينه

(٢) إذا قامتا : يعنى أم الحويرث وأم الرباب . تضوع المسك منهما : فاح وانتشرت رائحته حتى تظن أن نسيم الصبا حملت إليك ريا القرنفل . ويروى : بريا السفرجل

(٣) حسن السندوبى : شرح ديوان امرئ القيس ص ١٢٥ المكتبة التجارية وابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٢٥ تحقيق أحمد شاكر ١٩٥٨

(٤) الديوان ص ٥٥ من طبعة مكتبة الآداب

(٥) ينسب المؤلف هذا الشعر للجعدى وقد أثبتناه للأعشى (أبو بصير) . راجع ديوانه ص ٣٩ بتحقيق محمد محمد حسين من طبعة مكتبة الآداب

لكننى سأعدل عن هذه المعانى السافرة لأعرض عليك نموذجا من نماذج الغزل الجاهلى :

يقول عمرو بن كلثوم :

تُريكَ إذا دَخَلْتَ على خلاءٍ ... وقد أَمِنَتْ عُيُونَ الكاشحينا
ذراعى عيطل أدمـــاء بكر ... هجان اللون لم تقرأ جنينا
وثَدْياً مثل حق العاج رخصاً ... حصاناً من أكُفّ اللامسينا
رمتنى لدنة سمقت وطالت ... روادفها تنوء بما ولينا
وساريتى بلنط أو رخام ... يرنّ خشاش حليهما رنينا[1]

ويقول طرفة بن العبد :

لها فَخِذانِ عُولِىَ النَّحْض فيهما ... كأنَّهما بَابا مُنيفٍ مُمَرَّد
وَطَىٌّ مَحالٍ كالحَنِى خُلوفُه ... وأَجْرِنَةٌ لُزَّتْ بَدأيٍ مُنَضَّدد
لها مِرْفقان أفْتلانِ كأنما ... أُمِرَّا بسَلْمَىْ دالج متشدّدِ
جَنُوح دُفاق عَنْدَل ثم أُفْرِعَت ... لها كَتِفاها فى مُعالى مُشَيّد
وخدّ كقِرطاس الشّآمى ومِشْفَر ... كَسِبْتِ اليَمانى قَدُّهُ لم يُجَرّد[2]

وهذه الأبيات التى يقولها طرفة فى وصف ناقته ، أترى كبير فرق بينها وبين أبيات غيرها ؟ أنا لا أكاد أتبين فى هذه العملية الوصفية فرقا كبيرا ، كلاهما يصف الموصوف جزءا جزءا وصفا ماديا على أسلوب واحد .

أجل ! كان القوم يصفون النساء كما يصفون النوق وكما يصفون الأشياء ، نستعير هذا التعبير من أستاذنا الدكتور طه حسين .

إذا شئت مثالا آخر لهذا الوصف ليزيد الأمر جلاء فإليك :

بيضاء قد لبس الأديم أديـ ... ـم الحسن فهو لجلدها جلد
ويزين فَوْدَيْها إذا حسرت ... ضافى العذار وقادم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيض ... والفرع مثل الليل مسود
وكأنها وسنى إذا خطرت ... أو مدنف لما يفق بعد

---

(١) الدكتور طه حسين : فى الأدب الجاهلى ص ٢٢٢ من طبعة دار المعارف

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٨٦ – ٨٧ من طبعة المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٨ هـ والديوان طبع أوربا سنة ١٩٠٠

وعلى هذا النمط شعر المخبل السعدى والمرقش الأكبر والنمر بن تولب فى الميلاء وأسماء.

أرأيت ما الذى نستنتجه من هذين المذهبين فى الغزل ؛ المذهب الحسى والمذهب الوصفى ؟ نستنتج أن المرأة فى الجاهلية كانت تشغل مركزا مهينا ، وأن القوم كانوا ينظرون إليها كشىء خلقه الإله ليتمتعوا به نوعا من المتاع كما خلقت الإبل والبغال والحمير ليركبوها ولينعموا بها نوعا من المتاع ، إن هذا الشعر وحده ليدل على ما نقول ، ويكفى دلالة أن التاريخ يؤيده ، فوأد البنات كان شائعا فى القبائل جميعا (وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ به أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فى التُّرابِ أَلا سَاءَ مايَحْكُمُونَ)[1] ، منهم من كان يئدهنّ خوفا من عار محتمل.

لكلِّ أبٍ بنت يُراعى شئونها ... ثلاثةُ أصهارٍ إذا طُلِبَ الصهرُ

فبعلٌ يراعيها وخدرٌ يكنها ... وقبرٌ يُواريها وأفضلُها القبرُ[2]

ومنهم من كان يفعل ذلك تشاؤما ومنهم من كان يفعله خشية إملاق (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحنُ نَرزُقُهُمْ وإِيَّاكُمْ إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً[3]) و (قد خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وماكَانُوا مُهْتَدِينَ[4]) و (وإذا المَوْءُودَة سُئِلَتْ بأىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ[5]) ، كان الوأد شائعا فى كل القبائل ولئن تصدى بعض المعارضين فاحتج ببضعة أفراد كانوا ينفرون من الوأد ويشترون المو ءودات ، لكان عددهم لا يتجاوز أصابع اليد أو اليدين ، ولو قلّبنا كتب التاريخ كتابا كتابا لوجدنا أن عدول عشرين فردا من قبائل مختلفة عن الوأد ليس دليلا على أن الوأد لم يكن شائعا فى كل القبائل لا نستثنى إلا خزاعة وكنانة.

وأنت تعرف أن خزاعة وكنانة كانتا تنسبان البنات إلى الله وقد قيل إنهم عنوا بهذه الآية (ويجعلون لله البنات[6]) فإن صح ما ذهبوا إليه فقد وضح السر فى شذوذ هاتين القبيلتين عن عادة تزعم أنها كانت شائعة فى الجاهلية على اختلاف قبائلها.

---

(١) سورة النحل الآيتان ٥٨ ، ٥٩

(٢) أبو هلال العسكرى : ديوان المعانى جـ ٢ ص ٢٥١ طبعة مكتبة القدسى

(٣) سورة الإسراء آية ٣١

(٤) سورة الأنعام آية ١٤٠

(٥) سورة التكوير الآيتان ٨ ، ٩

(٦) سورة النحل آية ٥٧

يقول الأستاذ جورجى زيدان فى تاريخ التمدن الإسلامى «فما لبث أن ظهر صعصعة ابن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات حتى بطل الوأد[١] » ورأى الأستاذ زيدان أنه لا يمكن أن ينقض طبيعة تاريخية ثابتة إذ لا يعول عليه بما تجر إليه نزعات التعصب ولولا أننا نعرف فى الأستاذ سعة الاطلاع والجلد على البحث لما رميناه بالتعصب ، بل لقلنا سوء فهم أو قصور بحث .

هكذا تقلب الحقائق ولا هكذا يمسخ التاريخ !

وطبيعى أننا لا نحتج على الأستاذ زيدان بآيات من القرآن فنحن نتصدى للرد عليه وعلى المنكرين بأبيات من الشعر الجاهلى ، ولا يمكننا أن نعرف أقبل صعصعة قيلت أم بعده لكنها على كل حال ناطقة بقوة هذه النزعة الجاهلية ، فلعلهم يرون معنا أن الأمر كان أخطر من أن يكفى ظهور فرد أو أفراد صعصعة أو صعاصع للقضاء عليه :

أحب بُنَيَّتى ووددت أنى دَفَنْتُ بُنَيَّتى فى قاعِ لَحْدِ[٢]

و : تَهْوى حياتى وأهوى موتها شغفاً والموتُ أكرم نزال على الحرم

و : ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

و : سميتها إذ ولدت بموت والقبر خير ضامن وبيت

و : ولم أر نعمة شملت كريما كنعمة عورة سترت بقبر

الوأد دليلنا الأول على انحطاط المرأة فى المجتمع الجاهلى والعلاقة الجنسية . والدليل الآخر فقد كان على أشكال مختلفة لا داعى لحصرها ولا بأس من الإشارة إلى بعضها فمنها « زواج الاستمتاع » وهو أن يطلب الرجل إلى رئيس من رؤساء قومه أو فارس من فرسانهم مجامعة امرأته اعتقاداً بأن ذلك ينجب الولد . ومنها : « زواج البدل » وهو أن يتبادل رجلان امرأتيهما ، ومنها زواج المسافحات وأشكال أخرى مختلفة من أشكال الزواج .

الزواج الذى نعرفه فى عصرنا الحاضر هو الشكل الوحيد الذى أقره الإسلام ، ولكن نحسب أن قوما مجتمعهم على ما وصفنا يحرصون على هذه العلاقة الزوجية أو يعرفون لها حرمة كما نعرفها نحن ، هيهات هيهات ! إنى لأحسب الرجل كان يطلق امرأته بغير ما سبب ، اللهم

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ٢٦٢ من طبعة دار الهلال

(٢) الإبشيهى : المستطرف جـ ٢ ص ١٠ من الطبعة المليجية ١٣٣٠هـ

إلا أن استمتع بها زمنا فقضى لبانته منها ثم هو قائل قول الأعشى الجاهلى :

يَا جَارَتِى بِينِى فَإِنَّكِ طَالِقَهْ   كَذَاكِ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وطَارِقَهْ
وَبِينِى فَإِنَّ البَيْنَ خَيرٌ مِنَ العَصَا   وإلاَّ تَزَالُ فَوْقَ رَأسِكِ بَارِقَهْ
ومَا ذَاكَ من جُرْمٍ عَظِيمٍ جَنَيْتِه   ولا أَن تكُونى جِئْتِ فينا ببَائِقهْ
وبِينِى حَصَانَ الفَرْجِ غيرَ ذَمِيمَةٍ   ومَوْمُوقَةً فينا كَذاك وَوَامِقَهْ
وذُوقِى فَتَى قَوْمٍ فَإِنِّى ذَائِقٌ   فَتاةَ أُنَاسٍ مِثْلَ ما أَنْتِ ذَائِقَهْ
فَقَدْ كَان فى شُبانِ قَوْمِكِ مَنْكَحٌ   وَفِتْيَانِ هِزَّانَ الطِّوالِ الغَرَانِقَهْ[1]

ولست أدرى لم تطوع الأستاذ الخضرى للدفاع عن المجتمع الجاهلى فعنده – رحمه الله – أن المرأة كانت فى درجة اجتماعية[2] تحسدها عليها أختها المعاصرة فى القرن العشرين بدليل استهلال الشعراء قصائدهم بها .

ونحن نخالف الأستاذ فى قيمة هذا الشعر ونراه شكليا أكثر منه معنويا وأنه لا يزال من يستهل شعره بالوقوف على الأطلال والدمن كصاحبنا الذى يسكن الطابق الرابع توقظه فى الليل زقزقة الأطيار وتزعجه بالنهار أبواق السيارات ثم يجلس فى مكتبه فيقول :

قف ساعة بين الربوع خليلى   نبكى على رسم عفا وطلول

وما عرف الرسم ولا رأى الطلول .

ولسنا ندرى أغاب عن الأستاذ أن استهلال الشعر بالغزل[3] لم يك مقصوراً على الجاهلية بل

---

(١) الأعشى : الديوان ص ٢٦٣ ، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين – مكتبة الآداب .

(٢) الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية ص٢٩ مطبوعات الجامعة المصرية

(٣) إن محبة إلف النساء وهواهن وفرط الصبابة والشوق كانت فى كل زمن وعند كل أمة مجالا واسعا وميدانا أفيح لقريض الشعر فلم تخل الأمم السامية عن أشعار معبرة عما فى نفوسهم وقلوبهم من شدة الغرام أو الميل إلى التشبيب والتغزل بل ضربوا فى ذلك بسهم مصيب كما يتضح مثلا من سفر نشيد الأناشيد المدرج فى كتب العبرانيين المقدسة فمن طالع أشعار العرب القديمة استغرب قلة ما فيها من الأبيات المختصة بالتشبيب لأن أكثر ما يروى من هذا الباب أليق بتسمية النسيب منه بتسمية الغزل إذا امتثلنا فى تعريفها قول أبى زكريا يحيى التبريزى فى شرح حماسة أبى تمام « النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » . ومن الجدير بالذكر أن فحول شعراء الجاهلية لم يفردوا للنسيب أشعارا طويلة خاصة فاقتصروا على جعله فى أول قصائدهم يشكون فيه شدة الوجد وألم الفراق أو يصفون ما لمعشوقتهم من الجمال . فإن ذهب أحدهم أحيانا إلى التغزل الحقيقى حصره فى بيتين أو ثلاثة من نسيب القصيدة ولم يدرجه فى وسطها إلا بأندر النادر (كارلونالينو : تاريخ الآداب العربية ص ١٠٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٤)

شائعا عند اليونان وغير اليونان ومن أمم التمدن القديم ، على أننا لو سلمنا بأن هذا الشعر يعبر عن إحساس وليس شكليا فإن هذا التسليم لا يفيد دعوى الأستاذ بل إن هذا الشعر بمعانيه ولغته لهو الدليل على تخلف المرأة ومهانتها فى المجتمع الجاهلى .

ويمضى الأستاذ فى الدفاع عن الجاهلية فيقرر أن نظاما واحدا كان متبعا فى الزواج وهو زواج العقد بعد رضا الأولياء ، ويقول إنهم كانوا يحرمون أنواعا من الاجتماعات كزواج البنت والعمة والخالة ، ولكن ليس فى قوله تعالى (حُرِّمَت عليكم أمهاتكم وبَنَاتكُم وأخَوَاتكم وعمّاتكم وخَالاتكم وَبنَاتُ الأخِ وَبنات الأُخْتِ وأُمَّهاتُكم اللاتى أرْضَعْنكُم وأخَوَاتكُم من الرَّضَاعة وأمَّهاتُ نِسَائِكُم وربائبكم اللاتى فى حُجُورِكُم من نِسَائِكم اللاتى دَخَلْتُم بِهِنّ فإن لم تكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنّ فلا جُنَاحَ عليكم وحَلائِلُ أبْنَائِكُم الذين من أصْلابِكُم وأن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأختين إلا ما قد سَلَفَ إن الله كان غَفُوراً رحِيماً)[١] مايؤيد ذلك .

أقول أليس فى الشعر ما قد يشعر بأن هذه الروابط أو بعضها كان متبعا عند العرب الجاهلية على أن التاريخ يحدثنا بأن صاحب بن زرارة وهو قرم من قروم تميم تزوج ابنته وأولدها ، وحدثنا الشعر الجاهلى بأنهم كانوا يتزوجون نساء آبائهم كما ورد فى شعر أوس بن حجر وفى قوله تعالى (يأَيُّها الذين آمَنُوا لا يَحِلُّ لكم أن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً)[٢] دليل على أنهم كانوا يرثون النساء كما يرثون المال والمتاع . على أن المرحوم الأستاذ الخضرى ألف دعواه ثم سكت ولم يدلل عليها بشىء ، فلم نطيل المحاجة ؟

وينكر الأستاذ شيوع «الوأد» فى المجتمع الجاهلى ويقصرها على طبقة معينة من الفقراء وليس له على ذلك دليل إلا أن بعض أشراف تميم كغالب بن صعصعة كان يشترى الموءودات .

فأنت ترى أن كل هذه الأحكام أملاها على الأستاذ تطوعه للدفاع عن المجتمع العربى الجاهلى استكبارا للجريمة على أنها ليست كبيرة بالقياس إلى ذلك الزمن ، ففى إسبرطة كان يجوز للرجل أن يقتل من بنيه سبع بنات من عشر[٣] .

ربما كان ذلك ضربا من ضروب التعصب للعرب .

---

(١) سورة النساء آية ٢٣

(٢) سورة النساء آية ١٩

(٣) Le Gouve : Histoires morale des Femmes.

ونقف فى مناقشة الأستاذين زيدان والخضرى عند هذا الحد – رحمهما الله ، فلهما على التاريخ والأدب مآثر.

ونحن نرى فى استقراء التاريخ أنّ مهانة المرأة فى المجتمع الجاهلى أمر طبيعى مطرد فى المجتمعات الأولى ، ففى شريعة نبىّ الصين كنفوشيوس «الرجل يأمر والمرأة تطيع ، عمله سماء وعملها أرض ، هى مدينة للرجل بكل شىء» وفى شريعة كنفوشيوس أيضا لا يجوز للمرأة أن تتخطى بيتها وليس لها ميراث . وفى شريعة «لومبارد» أن لـلابن الذى توفى أبوه الخيار بين تزويج أمه أو إدخالها الدير. وفى شريعة «تروان» أن المرأة لا تجوز لها الوصاية على أولادها .

والمرأة اليابانية كانت عبدة لأبيها وزوجها وولدها . وبرابرة أوروبا فى القرون الوسطى كانوا يحرقون المرأة مع جثة زوجها ويدفنونهما معا ، فإن شاء أن تتزوج أوصى بها إلى من أراد بعد موته وإن شاء قدمها لضيوفه .

وفى الشريعة المانوية كان للرجل السلطان المطلق على المرأة فإن وقع بينها وبين الزوج سوء تفاهم فهى المسئولة عنه ، وكانت المرأة تخرج فى أيام حيضها إلى خيام مقامة خارج الحدود لأنها كانت تعتبر فى هذه الفترة نجسة فلا يجوز لها أن تلمس أحدا ولا يجوز لها أن تبقى داخل الحدود .

والتعليل الصحيح – فيما أرى – لانحطاط المرأة فى الجاهلية العربية . وفى المدنيات الأولى هو تقديس الإنسان الأول للقوة المادية .

المرأة العربية بعد الجاهلية

ومن تعاليم الإسلام الآخذة بيد الطبقتين والنهوض بهما أن حرم الإسلام الوأد كما رأيت ثم جهد الرسول ﷺ ما جهد فى إعلاء شأن المرأة ورفع مستواها .

قال عليه الصلاة والسلام« ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا دخل الجنة » وقال « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئا فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذبه » وقال ﷺ « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن » وقال « خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائى ». وقال « من حمل طرفه فى السوق إلى عياله فكأنما

حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإن من أفرح أنثى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشية الله حرم الله بدنه على النار » وقال « اتقوا الله فى الضعيفين المرأة والرقيق » .

على أن فضل الإسلام الأكبر على المرأة فى منحها حقوقا مدنية لم تصل إليها المرأة فى التمدن الأوروبى الحديث إلا أخيرا جدا ، ولا نستطيع المضى فى تفصيلات تحرجنا من موضوع بحثنا .

والذى أردناه من ذلك كله بيان تغير مركز المرأة فى المجتمع العربى قبل الإسلام وبعده . أوجد الإسلام الصلة العائلية ونهض بالمرأة ، فأين قول الأعشى الجاهلى لزوجته :

فبينى فإن البين خير من العصا وإلا تزال فوق رأسى بارقة (١)

أين ذلك من قول عدى بن أرطاة :

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يمينى يوم أضرب زينبا (٢)

تغير شأن المرأة فى المجتمع العربى فتغير شأنها فى الشعر العربى .

الغزل الأموى

ليس الغزل الأموى فنا واحدا أو بعبارة أخرى ليس مذهبا واحدا لكنه مذاهب عدة . فلنحدثك أولا عن الغزل البدوى العفيف لأنه أبعد فنون الغزل الأموى عن المذاهب الجاهلية .

الغزل البدوى :

ذلك حب يخلع على المرأة ثوبا من القدسية فلا هو ميل ولا هو حب ولا هو عشق . الحب الأفلاطونى ، كما يقول القدماء ، والحب اللامارتينى ، كما يقول الفرنسيون المحدثون ، والهوى العذرى ، كما نقول مزيج من الحيرة واليأس والجنون ، هو الحب الذى يقول فيه صاحبه :

أأقطَعُ حَبْلَ الوصل فالموتُ دونه أم أشْرَبُ رَفقاً منكُمُ ليس يُشْرَبُ
أم أهرُبُ حتى لا أرى لى مجاورا أم أصنعُ ماذا أم أبوح فأُغْلَبُ (٣)

---

(١) الجواليقى : شرح أدب الكاتب ص ٢٦٥ من طبعة مكتبة القدسى

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ١٥٥ من طبعة المطبعة الأزهرية

(٣) من شعر المجنون : الأغانى جـ ٢ ص ٤٣٨ من طبعة الشعب

وهذا هو الحب . . هو الحب الذى حير الناس فذهبوا فى تعريفه مذاهب شتى . وزعم بعضهم أن الله تعالى خلق الأرواح كلها كهيئة كرة ثم قطعها أنصافا فجعل فى كل جسد نصفا ، فكل جسد لقى الجسد الذى فيه نصفه حصل بينهما عشق وتفاوت مالها فى القوة ، والنصف على حسب رقة الطبائع ، أما أنا فأعرفه ببساطة فأقول إن من الناس من هم مرضى الإحساس ، ومن هؤلاء ذوو الحساسية الرقيقة اليقظة . والحب ميل قوى من مريض إلى شخص وانجذاب عنيف ، هو لوثة جنون .

وإمام هذا الغزل فى الشعر الأموى – وإن شئت فقل فى الشعر العربى . لكننا لا نسرف فى الاطمئنان إلى ما نسب لقيس فهو مجموعة من الشعر فى مذهب واحد ومعدن مختلف ، ونحسب أن الرواة أضافوا إلى المجنون كل شعر عذرى فيه ليلى . حدثنا بذلك النقاد وحدثتنا طائفة من الشعر منسوبة إلى المجنون وبين يدينا مجموعة من الشعر منسوبة للمجنون لا نشك فى أنها صنعت فى العصر العباسى .

أتصدق مثلا أن المجنون قال :

تَشكّى المحبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنى تَحَمَّلْتُ ما أَلْقَاهُ من بَيْنِهم وَحْدى
فَكانَتْ لِنَفْسى لَذَّةُ الحُبِّ كُلُّها فَلَمْ يَلْقَها قَبْلى مُحِبٌّ ولا بَعْدِى (١)

بما قِيسَ هذان البيتان على قول العباس بن الأحنف :

إن الهوى لو كان ينـ ـفذ فيه حكمى أو قضائى
لـطـلـبـتـه وجـمـعـتـه من كل أرض أو سماء
فـقـسـمـتـه بينى وبيـ ـن حبيب نفسى بالسواء
فنعيش ما عشنا على محض المودة والصفاء
حتى إذا متنا جميـ ـعاً والأمور إلى فناء
مات الهوى من بعدنا أو عاش فى أهل الوفاء (٢)

ونحن نختار لتمثيل هذا النوع جميلا ونحن مطمئنون إلى شعر جميل فأغلبه نسيج واحد

---

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين ص ٩٩ من طبعة الأستانة ١٣٢٠ هـ والتبريزى : شرح اشعار الحماسة جـ ٣ ص ١٣٣ من طبعة بولاق ١٢٩٦ هـ

(٢) الديوان ص ٥ من طبعة الجوائب : ١٢٩٨

والشخصية فيه واضحة . وفى رأينا أن جميلا هو إمام الهوى العذرى فى الشعر البدوى الأموى بل هو إمام الهوى العذرى فى الشعر العربى .

جميل :

هو جميل بن معمر العذرى ينتهى نسبه إلى قضاعة ، والنسابون مختلفون فى أصل قضاعة فمنهم من يزعم أن قضاعة بن معد وهو أخو نزار بن معد لأبيه [١] ومنهم من يقول إنها من حمير .

وقد انتسب جميل فى شعره إلى معد فقال :

أنا جميلٌ فى السَّنَامِ من مَعَدّ فى الأُسْرَةِ الحَصْداءِ والعِيصِ الأشَدّ [٢]

وجميل كان راوية هدبة بن خَشْرَمَ وكان هدبة شاعرا راوية للحطيئة ، وكان الحطيئة شاعرا راوية لزهير وابنه ، وكان أستاذ المدرسة الأول « أوس بن حجر » .

وإنك لواجد فى جميل ذلك الخيال المادى الحسى الذى أظهرك عليه كتاب « فى الأدب الجاهلى » يوم كشف عن مدرسة أوس ومميزاتها ، وأظهر هذه المميزات هو هذا الخيال المادى ، كما فى قول جميل :

ابثينةُ لَلْوَصْلُ الذى كان بيننا نَضَا مثلَ ما يَنْضُو التراب فَيخْلُقُ
ابثينةُ ما تَنْأينَ إلا كأنَّنى بنجم الثُّريَّا ما نأيتِ مُعَلَّقُ [٣]

وقوله :

إن المنازل هيَّجت أطْرابِى واستَعجَمتْ آياتُها بجَوابِى
قَفْراً تَلُوح بذى اللُّجَيْن كأنها أنْضَاءُ رَسْمٍ أو سُطورُ كتابِ [٤]

---

(١) جميل بن عبد الله بن معمر من الشعراء العذريين وهو المقدم على سائر شعراء النسيب من أهل البادية وقصته مثل قصة عروة بن حزام أعنى أنه «عشق بثينة العذرية وهو صغير فلما كبر خطبها فرد عنها فقال الشعر فيها . وكانت سكناه بنواحى تيماء ووادى القرى وقيل إنه مات سنة ٨٢ هـ وأشعاره مشهورة بحسن اللفظ وصقالته وتدبيج أجزائه ودقة المعنى وهى صادرة عن قلب صادق الصبابة والعشق . (كارلو نالينو : تاريخ الآداب العربية ص ١٢٠ – دار المعارف ١٩٥٤) وراجع ترجمته فى الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٣٦ – طبعة الشعب

(٢) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٣٦ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٩٢

(٤) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٥٢ – طبعة الشعب

وجميل جل شعره وإن شئت فقل كله فى ذلك الغزل البدوى العفيف . يذكر له أبو الفرج الأصفهانى أبياتا فى الفخر لكنه حتى فى هذا الفخر لا ينسى « المرأة » :

يُحبّ الغَوَانِى البيضُ ظِلّ لِوائنا إذا ما أتانا الصارخُ المتَلَهِّفُ
نسيرُ أمامَ الناسِ والناسُ خَلْفَنا فإنْ نحن أوْمأنا إلى الناس وَقَفُوا
فأىُّ مَعَدّ كان فَىْءُ رِمَاحِهِ كما قد أفَأْنا والمفاخِرُ يُنْصِفُ
وكنا إذا ما مَعْشَرٌ نَصَبُوا لنا ومرّتْ جَوارِى طَيْرِهِم وتَعَيَّفُوا
وضَعْنا لهم صاعَ القِصَاصِ رهينةً بما سوف نُوفِيها إذا الناسْ طفَّفُوا
إذا استبق الأقوامُ مجداً وجدتنا لنا مِعْرَفًا مَجْدٍ وللناسِ مِعْرَفُ (١)

أما المدح فإننا لا نعرف أن جميلا مدح قط مع أنه اتصل بالوليد بن عبد الملك وبغير الوليد ولو شاء المدحَ لأقبلتْ عليه العطايا والجوائز إقبالا . .

وهجا جميل لكنه هجاء فى سبيل الحب .

وأحب قبل أن أمضى فى هذا البحث أن أبين سبيلى فيه ، فأنا لن ألتفت إلى الروايات الكثيرة التى ينسبونها إلى جميل والتى تؤلف فى مجموعها قصة غرامية من هذه القصص التى وضعت وضعا (وقد نحدثك عن ذلك فى مقام مناسب) . إنما سنعتمد على شعره ونحن مطمئنون إلى هذا الشعر فإن له كما قلنا وحدة ليس يعسر على الناقد أن يتبينها فى جلاء ووضوح . لكن الزمان قد عصف بالكثرة من شعر جميل (٢) ، وما بقى – على قلته – يصور لنا – فيما أرى – صاحبه صورة واضحة ويمثله تمثيلا لا بأس به .

ماذا أقول فى جميل ؟ كان للشعراء دنياهم وكانت بثينة دنيا جميل ، إنى لأعتقد أن المسكين كان صادقا وهو يقول :

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٣٩

(٢) وغريب أن يضيع شعر جميل وهو رجل لاناقة له فى السياسة ولاجمل وليس من أصحاب المذاهب الدينية وقد يكون ذلك لبعده عن الأمصار

يقول ابن قتيبة : « وكان ثلاثة إخوة من بنى سعد لم يأتوا الأمصار ذهب رجزهم يقال لهم منذر ونذير ومُنْتذِر» . (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٦١) من طبعة دار المعارف .

ونستطيع أن نفهم من إيراد الخبر على هذه الصورة أن الشعر البدوى لم يكن يلقى عناية كافية من الرواة إن صح ذلك ففيه تدليل لبقاء شعر عمر وضياع شعر جميل وفيه تعليل بضياع شعر كثير من البدويين المجيدين كالعُتبى والرقاشى .

يالیتنی ألقى المنيَّة بغتةً إن كان يومُ لقائكم لم يُقْدَرِ (١)

وأعتقد أنه كان صادقا وهو يقول :

لقد خِفْتُ أن ألقى المنيَّة بغْتةً وفى النفس حاجاتٌ إليك كما هيا (٢)

العاشق الطفل :

دنياه بثينة ! فإن أقبلت أقبلت دنياه وإن أدبرت أدبرت فهو برم بعدها قلق يعد الليالى وتتوجه روحه إليها كما يتوجه المؤمن إلى الكعبة بروح خاشع وقلب ذليل .

ينهاه الناصح فهو عذول « والعذول » لا يزيده إلا صبابة وتماديا فهو ساخط عليه ساخط على صاحبه لأن الصيف قد انقضى وهى فى السفر لم تعد .

وخبَّرْتُمانى أن تَيْماء منزلٌ لليلَى إذا ما الصَّيْفُ ألقى المَرَاسِيَا
فهذِى شهورُ الصيفِ عنا قد انقضت فما للنَّوى تَرمِى بليلى المَرامِيَا
وأنتِ التى إن شئِت كدَّرْتِ عيشتَى وإن شئِت بعد الله أنْعمتِ بالِيَا
وما زلتم يا بثْنُ حتى لَو اننى من الشوق أستبكى الحمامَ بكَى ليا
وما زادنى النَّأىُ المُفرِّق بعدَكم سُلُوًّا ولا طولُ التلاقى تَقالِيا (٣)
ولا زادنى الواشون إلا صَبابةً ولا كثرةُ الناهين إلا تَمَاديا
ألم تعلمى يا عَذْبة الرِّيق أننى أظَلُّ إذا لم ألْقَ وجَهكِ صادِيا
لقد خِفْتُ أنْ ألقىَ المنيَّة بَغْتةً وفى النفس حاجات إليك كما هيا (٤)

طبيعة الحب عند جميل :

روى أبو الفرج أن كُثيِّرًا حكى عن نفسه قال : وقفت على جماعة ممن تكلموا فىّ وفى جميل أنباء أصدق عشقا وهم لا يعرفوننى ففضلوا جميلا فقلت لهم قد ظلمتم كثيرا كيف يكون جميل أصدق منه عشقا وحين أتاه من بثينة ما يكره قال :

---

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٤٨ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٧٢

(٣) فى منتهى الطلب

(٤) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٧١ – ٢٨٧٢ – طبعة الشعب

رمى الله فى عيْنى بُثَيْنة بالقَذَى ... وفى الغُرّ من أَنْيابها بالقَوَادِحِ [١]

وكثيّر حين أتاه ما يكره من عزة قال :

هَنِيئاً مَرِيئاً غيرَ داءٍ مُخَامِرٍ ... لِعَزَّةَ من أعراضنا ما استَحلّتِ [٢]

وأنا أنبرى اليوم للرد على كثيّر فأقول : إن هذين البيتين وحدهما ليصغران جميلا وكثيرا العاشقين : الأول صادق الصبابة ملوع فيها والآخر خلى منها ويدعيها . إن بيت جميل وحده ليعدل فى ميزان الصدق ألوفا من الأبيات اللطيفة المخنثة من طراز « هنيئا مريئا » .

العشق ثورة وجنون فريستها الأعصاب ، وأحسب أن من العاشقين من تمر عليه ساعات من الهوى ما أشبهها إلا بساعات سجين فى سجن أطبق إظلامه واختنق هواؤه ، فهو إن صبر على العتمة فأنى له الهواء ليتنفس ويعد فى قبره حيًّا يدور ويتزحزح ، ويرتطم دماغه بجدار ليصطدم بجدار .

غزل رقيق وغزل غير رقيق ، هكذا يقول الناس وقدامة ينقد أبيات الحارث [٣] :

هجرتَ أمامة هجراً طويلا ... وما كان هجرُكَ إلا جميلا

على غير بُغض ولا عن قِلىً ... وليس حياءً وليس ذُهولا

ولكن بُخِلنا لبخلِك عمداً ... فكيف يلومُ البخيلُ بخيلا [٤]

ينقدها لأن المذهب فى الغزل عنده هو « الرقة واللطافة » والشكل والدماثة . وكأنى بقدامة وقد جعل « الرقة واللطافة » هما المذهب ، والغزل قد اتخذ هذه الرقة مقياسا للحكم على جيد النسيب ورديئه ، وعندى كما بينت أنه فهم خاطئ لحقيقة العاطفة الجنسية وجهل الحب فى الرجال .

فى الرجل ثورة طبيعية ، وفى المرأة ليونة ، فإذا كان حب الرجل « رقيقا لطيفا وممتعا » فما حب المرأة ؟ على أن الخلاف بيننا وبينهم ليس مقصوراً على اختلاف طبعى الرجل والمرأة ، لكن جوهره فى فهم أحوال العاطفة الجنسية .

إن قول الحارث بن عدوان لأدل عندى على الوجد من قول الآخر .

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٥٠

(٢) المصدر السابق جـ ٩ ص ٣١٥٠

(٣) الحارث بن غزوان (نابغة بنى تغلب)

(٤) المرزبانى : الموشح ص ٢٢٥ بتحقيق عبد الستار فراج

قد يكون الغزل الرقيق دليلا على صدق الوجد ، وقد يكون دليلا على الزيف فمن ذلك الزائف على مافيه من رقة ودماثة قول أبي الشيص :

فأهَنْتِنِى فأَهَنْتُ نَفْسِى جاهِداً ما مَنْ يَهُونُ عَلَيْكِ مِمَّنْ يُكْرَمُ (١)

وقول بعضهم :

لئن ساءنى أن نِلْتِنِى بمساءةٍ لقد سرّنى أنى خطرت ببالِكِ (٢)

ألا نلمس الزيف فى ذلك ؟

يقول ذو الرمة :

ألا إنما مَىٌّ فصبرا بَلِيَّةٌ وقد يُبْتَلَى الحرُّ الكَرِيمُ فَيصْبِرُ (٣)

ويقول أبو حفص العليمى :

فَيارَبٍّ إن لم تَقْضِها لى فلا تَدَعْ سعاد لهم واقبض سعاد كما هيا (٤)

ويقول العقاد :

وزّهيت بالحسن الذى يشقى به باغى الخلاص شقاء أهل النار
مهلا فما كل البكاء على النوى يُضفى على المَبكىّ ثوبَ فخار
لا يعجبنّك يا بنيّةُ ميسم لمشبهاتك فيه جدٌّ كثار
وهبيك سمًّا يستطاب لسكره ويبيت هاجره صريع إسار
وهبيك سهماً فى الجوانح ساكناً يشقى الجريح بنزعه ويمارى
وهبيك عاراً لا يطاق فراقه إلا على شجن ووشك دمارِ
فإذا أتاك الكاشحون وأطنبوا فيما أبين من الجوى وأدارى
فاصْغَى إليهم ما اشتهيت وصدقى ما يهذرون به من الأخبار
واستبشرى فرحاً بأنك فى الهوى كالسم أو كالسهم أو كالعار (٥)

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨٤٣ بتحقيق أحمد محمد شاكر

(٢) البيت لابن الدمينة : العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٧٦ من طبعة لجنة التأليف

(٣) الديوان ص ٢٢٥ من طبعة كمبردج ١٩١٩

(٤) التبريزى : شرح ديوان الحماسة جـ ٣ ص ١٥٥ من طبعة بولاق ١٢٩٦ هـ

(٥) الديوان جـ ٤ ص ٣٣٨ – ٣٣٩ من طبعة المقتطف ١٩٢٨

ويقول ابن جنادة العذرى :

من حبها أتمنى أن يلاقينى من عند بلدتها ناع فينعاها (١)

فهل يستطيع أحدٌ ذلك ؟

إنى أشم فى ذلك الشعر رائحة كبد قريح وأسمع صدى روح جريح . فهل يستطيع أصحابنا « أهل الرقة واللطافة » تذوق ذلك الشعر ؟ ليتهم يستطيعون ! إن هذا الشعر على ما فيه من خشونة لأدل على التصديق من قول كثير :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالك

وقول أبى دهبل الجمحى (٢) :

عفا الله عن ليلى الغَدَاةَ فإنها إذا وَلِيَتْ حُكْماً علىّ تَجور (٣)

وقول أبى الشيص :

فأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا ما من يهون عليك ممن يكرم (٤)

وشعر جميل أغلبه على ذلك النحو العذرى العفيف ، يتحدث إلى صاحبته فيذكرها فى غير لين أو رفق ، نفس لاهث وروح ثائر :

فما هكذا أحببتَ مَنْ كان قبلها ولا هكذا فيما مضَى كنت تفعلُ

فيا قلبُ دَعْ ذكرى بثينة إنها وإن كنتَ تَهْواها تَضنّ وتَبخلُ

وقد أيْئَست من نَيْلِها وتجهَّمت ولَلْيأسُ إن لم يُقْدرِ النَّيْلُ أمثَلُ

وإلا فسَلْهَا نائلا قبلَ بَيْنِها وأبْخِلْ بها مسئولةً حين تُسْأَلُ

وكيف تُرَجّى وصلَها بعد بُعْدِها وقد جُذَّ حبلُ الوصلِ ممن تؤمِّلُ

وإن التى أحببتَ قد حِيل دونها فكُنْ حازماً والحازِمُ المُتَحَوِّلُ

---

(١) عباس العقاد : جميل بثينة ص ٧٢ من طبعة سلسلة اقرأ بدار المعارف

(٢) أبو دهبل الجمحى من أشراف الناس بمكة قال الشعر فى آخر خلافة علي ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير وغيرهما من الأكابر وهو من شعراء الغزل وهواه لعمرة مشهور قيل فى كتاب الأغانى إنه كانت تتحدث به أشراف قريش فى مجالسها وسوقة الحجاز فى أسواقها والسقاة فى مواردها ، وما صاغه أبو دهبل من الشعر فيها رقيق ظريف بعيد عن أسلوب نسيب أهل البادية المعروف (كارلونالينو : تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٠٤ – دار المعارف ١٩٥٤) وراجع ترجمته فى الأغانى جـ ٧ ص ٢٥٥٤ من طبعة الشعب .

(٣) أبو الفرج : الأغانى جـ ٧ ص ٢٥٨٣ من طبعة الشعب

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨٤٣ تحقيق أحمد شاكر

فَفِى اليأس ما يُسْلِى وفى الناسِ خُلَّةٌ وفى الأرض عمّن لا يُوَاتِيكَ مَعْزِلُ
بدا كَلَفٌ مِنِّى بها فتثاقلتْ وما لا يُرَى من غائب الوجد أفضَلُ
هَبِينى بريئاً نِلْتِه بظُلامةٍ عَفَاها لكم أو مُذْنِباً يتنصّلُ [١]

وعلى هذا النمط أغلب شعره خشن عنيف ، وإنى لأخشى أن يعلل بالطبع البدوى ، فجميل برغم ثورة عواطفه وبرغم محبته وشجاره يعرف كيف يتحدث إلى المرأة فى ظرف وكياسة ، انظر إلى قوله :

وأولُ ما قاد المودّة بيننا بوادي بَغيضٍ يا بُثَيْنَ سِبَابُ
وقلنا لها قَوْلا فجاءت بمثله لكلّ كلامٍ يابُثَيْنَ جوابُ [٢]

هل تعرف فى حوار الحضرى المترف ذلك من هذا الحوار [٣] :

أبُثَيْن إنك قد مَلَكْتِ فأَسْجِحِى وخُذِى بحظك من كريم واصل
صادتْ فؤادى يا بُثَيْنُ حبالُكُم يوم الحَجُونِ وأخطأتْكِ حبائلى
منَّيتِنى فلَويْتِ ما منَّيتِنى وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجلِ
وأطعتِ فىَّ عواذِلا فهجرتِنى وعَصَيْتُ فيك وقد جَهَدْنَ عَواذلى
حاولْنَنى لأبُتّ حبل وِصَالِكم منى ولستُ وإن جَهَدْنَ بفاعل
فرددتُهن وقد سَعَيْنَ بَهجركم لما سَعَيْنَ له بأفْوَقِ ناصِلِ [٤]
يَعْضَضْنَ من غيظ علىّ أناملا ووَدِدْتُ لو يَعْضَضْنَ صُمَّ جنادِلِ
ويقلن إنك يا بُثَين بخيلةٌ نفسى فداؤكِ من ضنينٍ باخل
ويَقُلْنَ إنك قد رَضِيت بباطلٍ منها فهل لك فى اجتناب الباطلِ
لِيُزِلْنَ عنك هوایَ ثم يَصِلْنَنى وإذا هَوِيتُ فما هوایَ بزائلِ
ولَبَاطِلٌ مما أُحِبُّ حديثَه أشهَى إلى من البَغِيض الباذلِ
فلربَّ عارضةٍ علينا وَصْلَها بالجدّ تَخْلِطه بقول الهازل

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٧٦ من طبعة الشعب
(٢) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٤٤
(٣) رواها أبو الفرج غير متسقة فرتبناها الترتيب الممكن (الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٤٦ – ٢٨٤٧) من طبعة الشعب
(٤) السهم الأفوق : الذى به ميل فى فوقه أو انكسار فى إحدى زنمتيه

فأجبتُها في القول بعد تَستُّرٍ   حُبِّى بثينةَ عن وصَالِكِ شاغِلِى
لو كان فى صدرى كقَدْرِ قُلامةٍ   فَضْلا وصلتُكِ أو أتتك رسائلى

وأخيرا انظر إلى هذه المناجاة :

يقيك جميل كلَّ سُوءٍ ، أما له   لديكِ حديثٌ أو إليكِ رسول ؟
وقد قلتُ فى حبّى لكم وصَبَابتى   مَحَاسِن شعرٍ ذكْرُهن يَطُول
فما غاب عن عينى خيالُكِ لحظةً   ولازال عنها والخيالُ يَزُول (١)

أفلا يخيل إليك أن أحد أبناء الهوى من الحضريين يناجى صاحبته بمثل هذا الشعر حتى من الشباب المستظرفين إلا فى ليونة وظرف يكاد يتكلفها ؟

وليس فى اجتماع ذلك العنف والظرف تناقض رجل دمث بطبعه يحب حبا قويا صادقا لانصيحة تنفعه ولا الزجر يردعه يريد بثنة كما يريد الطفل شيئا كلفه ذلك ما كلفه .

يقولون مَهْلا يا جميلُ وإننى   لأقسِمُ ما لِى عن بُثَينةَ من مَهْلِ
أحِلْماً فقبل اليوم كان أوانُه   أمَ اخْشَى فقبل اليومِ أوعِدتُ بالقتلِ (٢)

يرسل إليها بشعره ويحتال بماله :

بثين سلينى بعض مالى فإنما   يُبيّنُ عند المال كل بخيل (٣)

ويقول :

فلو أرسلتْ يوما بُثَينةَ تَبْتَغى   يَمينى ولو عَزَّت علىَّ يمينى
لأعْطَيْتُها ما جاءَ يَبْغى رسولُها   وقلت لها بعد اليمين سَلِينى (٤)

يستضيف فى سبيل أهلها كما يفعل الهُلاك وليس منهم .

أبيتُ مع الهُلَّاك ضَيْفا لأهلها   وأهْلِى قريبٌ مُوسِعونَ ذوو فَضْلِ (٥)

وصاحبته بثينة تصغى لكل جميل يحس بذلك الفيض من الحب يغمره فتأخذه العزة

---

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٥٥ من طبعة الشعب .
(٢) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٨٨ من طبعة الشعب
(٣) الديوان ص ٩١ من طبعة بيروت
(٤) أبو على القالى : الأمالى جـ ١ ص ٢٠٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤هـ
(٥) الهلاك : الصعاليك (أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٨٧ من طبعة الشعب)

بذلك الجمال المعبود فيتمنع أو يتجنى واجدا فى ذلك القهر والإذلال لذة آثمة ونشوة مستهترة ينطق بذلك شعر جميل :

إنى إليك بما وعدت لناظرٌ نظر الفقير إلى الغنىِّ المكْثِرِ
يَعدُ الديون وليس يُنْجِزُ موعداً هذا الغريمُ لنا وليس بمُعْسِرِ
ما أنتِ والوَعْد الذى تَعِدينَنى إلا كبرق سحابةٍ لم تُمْطِرِ (١)

وقوله :

ويكون يومٌ لا أرى لك مُرْسَلاً أو نَلْتَقِى فيه علىّ كأشْهُرِ
والله ما للقلبِ من علمٍ بها غيرُ الظنون وغير قول المُخْبِرِ (٢)

وقوله :

عَلِقْتُ الهَوى منها وليداً فلم يَزَلْ إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويزيد
وأفنيت عمرى بانتظارىَ وَعْدَهَا وأبْليت فيها الدهر وهو جديد
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ولا حبُّها فيما يبيد يبيدُ (٣)

وقوله :

بدا كَلَفٌ منِّى بها فتثاقلتْ ومالا يُرَى من غائب الوجد أفضَلُ (٤)

على أن شعر جميل ليس كله على وتيرة واحدة وطبيعى ألا يكون ، فهو مرة خائر مغضب ثائر يقول :

تَعزّ وإن كانت عليك كريمةً لعلّك من رِقٍّ لبَثْنَة تَعْتِقُ (٥)

وقوله :

ولَسْتُ وإن عزّت علىّ بقائل لها بعد صَرْمٍ يا بُثَيْنُ صلينِى (٦)

---

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٤٨ من طبعة الشعب
(٢) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٤٨
(٣) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٤٩
(٤) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٧٦ من طبعة الشعب
(٥) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٩١
(٦) أبو على القالى : الأمالى جـ ١ ص ٢٠٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ هـ

وهو مرة خائر ذليل وثائر عزيز فى وقت واحد :

فما هو إلا أن أهِيمَ بذكرِها ... ويحظَى بجَدْوَاها سواىَ ويَجْذَلُ
وقد أبقتِ الأيامُ منِّى على العِدَا ... حُساماً إذا مَسّ الضريبةَ يَفصِلُ
ولستُ كمن إن سيمَ ضَيْماً أطاعَه ... ولا كامرئٍ إن عضّه الدهْر يَنْكُلُ
لعمرى لقد أبْدى لىَ البين صفحه [1] ... وبيّن لى ما شئتُ لو كنت أعقِلُ
وآخرُ عهدى من بثَيْنَةَ نظرةٌ ... على موقفٍ كادت من البينِ تقتلُ
وإنى لأستبكى إذا ذُكر الهَوَى ... إليك وإنى من هواكِ لأوجَلُ
نظرت ببشْرٍ نظرةً ظَلّتُ أمْتَرِى ... بها عَبْرةً والعينُ بالدمع تُكْحَلُ
إذا ما كَرَرْتُ الطّرْفَ نحوك ردّه ... من البعد فيّاضٌ من الدمع يهمِلُ [2]

وهو مرة ذليل يسبح بذكر بثينة أو بثنة كما يحلو له أن يدعوها هائماً فى المهامه والفيافى يبعث لها من الشعر الحزين « قصائد شوق شرحهن يطول » تعصف الذكريات بقلبه وتلعب به لعب النكباء بالعود .

ثم يلج به الخيال فيرجو أن يجتمعا فى وادى البلى ثم فى الحياة الأخرى :

أعوذُ بك اللّهمَّ أن تَشْحَطَ النّوى ... ببثنةَ فى أدنى حياتى ولا حَشْرِى
وجَاوِرْ إذا ما مِتُّ بينى وبينها ... فياحَبَّذا موتِى إذا جاورت قَبرى [3]

ورحل إلى مصر وهناك – وإن شئت فقل هنا – هتف به هاتف الموت فقال :

صَدَعَ النّعِىُّ وماكَنَى بجميلِ ... وثوى بمِصْرَ ثَوَاءَ غيرِ قُفولِ
ولقد أجُرّ الذّيْلَ فى وادى القُرى ... نَشْوانَ بين مزارعٍ ونَخيلِ
قُومِى بُثَينَةُ فاندُبِى بعوِيلِ ... وابكى خليلَكِ دونَ كلٍّ خليلِ [4]

أتراها بكته ؟

---

(١) الصفح : الجانب

(٢) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٧٧ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٩٧

(٤) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٩٩

يقولون إنها صعقت وظل مغشيا عليها ساعة (١) ثم قالت :

وإن سُلُوِّى عن جميل لَساعةٌ   من الدَّهْرِ ما حانت ولا حان حينُها
سواءٌ علينا يا جميلُ بن مَعْمَرٍ   إذا مُتَّ بَأساءُ الحياة ولِينُها (٢)

أما أنا فأقول ثانية أتراها بكته ؟ !

رحم الله جميلا ولا أقول طيب ثراه فقد أكله الدود وأكل قلبه فيما أكل فما يجديه. طيب ثراه !

* * *

وبعد – فهذه صورة للشعر الغزلى بل الأموى فى البادية العربية – وأنت ترى أن موضوع هذا الغزل قد تغير عن موضوعه الجاهلى ولا أقول تحوّر .

الغزل الجاهلى ميل من ذكر إلى أنثى ، وهذا الغزل فيه شىء من العبادة والتقديس . أما عن وصف المرأة فالجاهليون – كما رأيت – كانوا يصفونها وصفهم لحُمر الوحش – وهؤلاء لا يطيلون فى وصف الجسم ولا يصورونه بنفس الريشة وربما اكتفوا فى هذا الوصف بالنظرة الشاملة كقول جميل :

فَتَاةٌ من المُرّانِ ما فوق حَقْوِها   وما تحته منها نَقاً يتهيَّلُ (٣)

أو كقول ذى الرمة :

ترى خَلْفها نِصْفاً قَنَاةً قَوِيمةً   ونِصْفاً نَقاً يَرْتَجُّ أو يَتَمرمَرُ
تَنُوءُ بأُخْراها فَلأْياً قِيَامُها   وتَمْشى الهُوَيْنا مِن قَرِيبٍ فَتَبْهَرُ (٤)

وكان الغزل الجاهلى مقدمة للقصيدة فأصبح الغزل فنا مستقلا بل وقف عليه أصحابه شعرهم .

---

(١) عندما رأت حلته وتيقنت من خبر موته صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحى يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشيا عليها ساعة .
(أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٩٠٠ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٤٤٢ تحقيق أحمد شاكر) و (ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٤٣) (والبغدادى : خزانة الأدب جـ ١ ص ١٩١ من طبعة بولاق)

(٢) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٩٠٠ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٧٦

(٤) الديوان ص ٢٢٦ من طبعة كمبردج ١٩١٩

الجاهلية والقصص الغرامى

حدثتك عن جميل فأغفلت عن كل ما ينسب إليه من قصص الشوق الخلاب وغفلت كل ما شككت فيه منهم واحتسبته من اختراع القصص .

قصة جميل تحدثنا عن تاريخ خراف حافل بالمخاطر . كيف وأين كانا يجتمعان خاصة ؟ وكيف نما الخبر إلى أهلها فتوعدوه وأهدروا دمه ؟ وكيف تزوجت رجلاً يقال له نبيه الأسود ؟ وكيف أهدر السلطان دمه ؟ وله فى ذلك كله شعر .

ولكل شاعر من شعرائنا العشاق قصة تشبه سائر القصص ، فامرؤ القيس كعنترة وعنترة كجميل وجميل كقيس وقيس كسائر العشاق. كلهم شجاع لا يرهب أهل الحبيب بل يتوعدهم بسيف قاطع بل كلهم يتنكر فى زى امرأة أو حمّار ليحظى برؤية ليلاه . وكلهم تنكر حتى دخل دار حبيبته ثم يبعث فى طلبهم فيفرون وكلهم قال فى ذلك شعرا ، وكلهم هام فى البرارى والقفار ، وألفته الوحوش فصارت لا تنفر منه ، وقالت النساء للمجنون تعزّ عن ليلى بإحدانا ، وكذلك قلن لجميل وسائر العشاق .

ويظهر أن أصل هذا القصص الغرامى كان دائرا حول تفسير ذلك الشعر ، فأخذ الشراح يفتنُّون فى الشرح والتفسير ومن ذلك تفسيرهم لقول ذى الرمة :

على وجنتيه مسحة من ملاحة ... وتحت الثيابِ الشين لو كان باديا
ألم تر أن الماء يخبث طعمه ... وإن كان لون الماء أبيض صافيا
فَيا ضِيعَةَ الشعر الذى لَجّ فانْقَضَى ... بِمىّ ولَمْ أَمْلِكْ ضَلالاً فُؤادِيَا [1]

ذلك من أجود الشعر فانظر إلى القصص كيف خلق من هذه الأبيات حكاية رواها مشوهة وضيّع جمالها .

إن ذا الرمة أنشد :

على وجه مَىٍّ مَسْحَةٌ من مَلاحَةٍ ... وتَحْتَ الثِّيابِ الشين لو كان باديا

فكشفت من ثوبها عن جسدها ثم قالت أشينا ترى لا أم لك ! .

---

(١) الديوان ص ٦٧٥ من طبعة كمبردج ١٩١٩ وأبو الفرج : الأغانى ص ٦٧٦٥ من طبعة الشعب

ألم تر أن الماء يخبثُ طَعْمُه وإن كان لون الماء أبيضَ صَافيا(١)

قالت أما ما تحت الثياب فقد رأيته وعلمت أنْ لاشين فيه ولم يبق إلا أن أقول لك هلم حتى تذوق ما وراءه ، والله لا ذقت ذلك أبدا ، فقال :

فيا ضيعة الشعر الذى لجّ فانقضى بمى ولم أملك ضلال فؤاديا(٢)

فانظر كيف تعنت هؤلاء القصاص فى تفسير بيت من الشعر لكثير ، فسروا قوله :

قضى كلُّ ذى دَينٍ فوفىَّ غريمَه وعزّة ممطولٌ معنًّى غريمُها (٣)

بأنه كان يرعى الغنم ومرّ بنسوة من بنى كذا (٤) فأرسلن إليه عزة فقالت : «يقلن لك النسوة بعنا كبشا من هذه الغنم» وأعطته ثمنه ، فرفض قائلا «إذا رحت بكن اقتضيت حقى» فلما راح بهن ، قلن له «هذا حقك فخذه» فقال : «عزة غريمتى ولست أقتضى حقى إلا منها»

ذلك تأويل قول كثير وذلك أول معرفة بها ، ومن ذلك أنهم فسروا قول كثير :

ألا ليتنى قبل الذى قلتُ شِيبَ لى من السمّ جَدْحاتٌ(٥) بماء الذَّرارِحِ

فمتُّ ولم تعلم علىّ خيانة وكم طالبٍ للربح ليس برابح (٦)

بحكاية ظاهرة التعليق ، فقالوا :

مرت عزة بكثير مقنعة فلم يعرفها فتبعها وغازلها ، قالت : «ويحك ! هل تركت عزة ؟ وهل فيك بقية لأحد ؟» .

قال : بأبى أنت والله ولو أن عزة أمة لوهبتها لك . . هل لك فى المخاللة ؟» .

قالت : وشعرك فى عزة ؟

قال : أقلبه فأحوله عليك .

فسفرت عن وجهها ثم قالت : الحذر يا فاسق !

فبهت كثير .

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ٤ ص ٣٩ من طبعة دار الكتب

(٢) دكتور يوسف خليف : ذو الرمة ص ٣٥ من طبعة دار المعارف

(٣) أبو الفرج : الأغانى جـ ٩ ص ٣١٤٨ من طبعة الشعب .

(٤) بنو ضمرة والقصة بالأغانى جـ ٩ ص ٣١٤٥ من طبعة الشعب

(٥) الجدحة : اللتة ، يقال : جدح السويق : إذا لته . والذرارح : دويبات أعظم من الذباب شيئا مجزعة مبرقشة بحمرة وسواد وصفرة لها أجنحة تطير بها وهى سم قاتل .

(٦) أبو الفرج : الأغانى جـ ٩ ص ٣١٥٢ من طبعة الشعب

ومن ذلك قولهم أن جميلا التقى براويته كثير فسأله أن يسير إلى بثينة فيستضربها موعدا للقاء.

قال كثير: هناك حاشية عمها.

قال جميل: عليك بالحيلة.

قال كثير: متى كان آخر عهدك بها؟

قال: يوم كذا فى موضع كذا «وادى الدوم» وأصاب ثوبها شىء فغسلته.

فتوجه كثير إليها وهناك لقى عمها، وكان مغرما بالشعر، فقال له: أسمعك شعرا قلته أخيرا فى عزة. قال: هات، فأنشد:

فقلتُ لها يا عزّ أرْسِلُ صاحبى على نأى دار والرسول موكل
بأن تجعلى بينى وبينك موعدا وأن تأمرينى بالذى فيه أفعل
أما تذكرين العهد يوم لقيتكم بأسفل وادى الدوم والثوب يغسل (١)

ففطنت بثينة وصاحت: اخسأ. فسألها عمها عما تعنى. قالت: كلبا ينبحنا ليلا رأيته الآن. ففطن كثير وذهب إلى جميل يقول: قد ضربت موعدا فالتقيا بوادى الدوم ليلا!

ويظهر أن هذا التفسير أخذ يتضخم شيئا فشيئا حتى نشأ القصص، وأن فيه من الأخبار مالا يصدقه من أوتى فسحة من الفهم.

ولسنا نعرف فى الشعر الجاهلى شاعرا تغزل على مذهب شعراء البادية والعذريين فى العصر الأموى إلا عنترة. وعندنا أن قصة عنترة أسطورة من الأساطير، وأن عنترة العاشق شخصية خلقتها مخيلة القصاص فى العصر الأموى، وقد يكون لهذه الشخصية أصل تاريخى وهو ما أرجحه.

نحن لا نشك فى ذلك الشعر الغزلى الذى ينسب إلى عنترة بل نرفضه رفضا. ها هى معلقة عنترة أمامك فتصفح هذه المجموعة التى جمعت باسم «ديوان عنترة» سترى أن ليس ثمة وجه للمشابهة.

عنترة شخصية ضمنها القصاص الأمويون ما شاء لهم الخيال ونحن لا نعرف فى العصر الجاهلى شاعرا على هذا المذهب العذرى إنما انتحلوا هذا الشعر الذى نسبوه إليه.

لم يبق إلا أن تسألنى عن العوامل التى أنشأت هذا الغزل البدوى فى العصر الأموى – وقد

(١) عباس العقاد: جميل بثينة ص ١٢٥ من طبعة سلسلة اقرأ بدار المعارف والقالى: الأمالى جـ ٣ ص ٢٣١ من طبعة دار الكتب.

حدثتك فى الفصل السابق حديثا عاما عن تطور مركز المرأة فى المجتمع العربى بعد الإسلام .

أما عن العوامل التى أنشأت هذا الغزل البدوى فى العصر الأموى فإننا نحيلك على «حديث الأربعاء[١]» ففيه تعليل تفصيلي دقيق لا يقبل الدفع فيما أرى .

الدين والبأس والفقر والفراغ عوامل أربعة اجتمعت فى زمن واحد وصعيد واحد فلم لا ينشأ الهوى العذرى ؟ !

غزل البادية المصطنع

وليس غزل البادية كله صادقا فمن الشعراء من اتخذ هذا الغزل صناعة يرجو بها الشهرة ، ومن هؤلاء تلميذ جميل وراويته كثير[٢] ، نقرأ كثيرا فى شعره فى عزة وسعدى وأم عمرو وأم الحويرث فنرى تقليدا ظاهراً لجميل وسلخا لمعانيه بل نسخا فى بعض الأحيان كقوله :

أريد لأنْسَى ذكرَها فكأنما تَمثَّلُ لى لَيْلَى بكلِّ سبيل[٣]

وما هو إلا قول جميل :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تَمثَّلُ لى لَيْلَى على كل مَرْقَبِ[٤]

يقلد جميلا فى أظهر خصائص غزله .

يكرر جميل اسم بثينة فى شعره :

ألا لا أُبالِى جفوةَ الناسِ ما بَدَا لنا منك رأىٌ يا بُثَيْن جميلُ
وإنِّى وتَكْرارِى الزيارةَ نحوَكم بُثَيْن بذى هجرٍ بُثَيْن يطولُ
وإن صَبَاباتِى بكم لكثيرةٌ بُثَيْن ونِسْيانِيكُم لقليلُ[٥]

(١) للدكتور طه حسين

(٢) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود ينتهى نسبه إلى قحطان ، وقيل إنه من خزاعة ، وادعى أنه من قريش ، وعده ابن سلام فى شعراء الطبقة الأولى وقرن به جريرا والفرزدق والأخطل والراعى . وكان غاليا فى التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ . توفى سنة ١٠٥ هـ ويعرف بكثير عزة لتشبيه بعزة الضيمرية فى شعره وإن قيل إنه مدع غير صادق الصبابة والعشق (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣١٢ – ٣٢٩ من طبعة ليدن) و (ابن خلكان : وفيات الأعيان رقم ٥٥٨ من طبعة جوتنجن ورقم ٥١٩ من طبعة مصر) و (طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢٢ – ١٢٥ من طبعة ليدن) و (أبو الفرج : الأغانى جـ ٩ ص ٣١٢٤ – من طبعة الشعب) .

(٣) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٤١ من طبعة الشعب

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٤٢

(٥) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٨٧٨

إذن فلابد أن يكرر كثير اسم عزة فى شعره فيقول :

خَلِيلَىَّ هذا رَسْمُ عَزَّةَ فاعْقِلا   قَلُوصَيْكما ثم ابْكيَا حيث حَلَّتِ
وما كنتُ أدرى قبل عَزَّةَ ما البكا   ولا مُوجِعاتِ القلب حتى تَوَلَّتِ
فليت قَلُوصِى عند عزّة قُيِّدتْ   بحبلٍ ضَعيفٍ بانَ منها فَضَلَّتِ
فقلتُ لها يا عزّ كلُّ مُصيبةٍ   إذا وُطِّنَتْ يوماً لها النفسُ ذَلَّتِ
هَنيئاً مَرِيئاً غيرَ داءٍ مُخَامِرٍ   لِعَزَّةَ من أعراضنا ما اسْتَحَلَّتِ (١)

وإذا كان الراعى يقول :

عَشِيَّةَ سُعْدى لو تراءت لراهبٍ   بدُوْمَةِ تَجْرٌ دُونَه وحَجِيجُ
قلى دينه واهتاجَ للشّوق إنّها   على الشَّوق إخوان العزاء هيوجُ (٢)

فلم لا يقول كثير؟ :

رهبان مدْينَ والذين عهِدتُهُمْ   يبكونَ من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمِعْتُ حديثها   خرّوا لعزة رُكعاً وسُجودا (٣)

شعره منقول أو مصطنع ، أما المنقول فقد ضربنا له أمثلة ، أما المصطنع المبتكر فمثاله :

أريدُ الثَّواءَ عِنْدَها وأَظُنُّها   إذا ما أطَلْنا عِنْدَهَا المكْثَ مَلَّت
أَسِيئِى بنا أو أَحْسِنى لا مَلُومَةً   لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةً إن تَقَلَّت
فما أنا بالداعى لعزة بالجوى   ولا شامتٍ إن قيل عزة زلت (٤)

وهكذا شعر كثير فى الغزل يمثل العاطفة الزائفة .

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى جـ ٩ ص ٣١٤٩ من طبعة الشعب

(٢) شعر الراعى ص ٢٩ من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٦٤ .

(٣) الديوان ص ٤٤٢ بتخريج إحسان عباس من طبعة لبنان

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٥١٥ تحقيق أحمد محمد شاكر

غزل الحجاز الحضرى

أبت السياسة الأموية الا تحول بين الأرستقراطية القرشية والسياسة لأن هذه الأرستقراطية كانت عليها لا لها وأخذت تتودد إلى هذه الأرستقراطية بالعطايا والهدايا فانصرفت عن السياسة مجبرة ومختارة .

انصرفت إلى اللهو والمجون وضروب اللذة فكان الحجاز موطن الغناء وموطن الموسيقا وموطن اللهو والغزل وضرب بفتيانه المثل فى الظرف وبفتياته الشعراء المثل فى حسن الدل . وكان الحجازيون من قبل ولاسيما أهل المدينة لا يشغلهم عن الدين شاغل ، فأصبحوا وشاعرهم يقول :

ليتنى فى المؤذِّنينَ حياتى أنهم يُبْصِرونَ من فى السُّطوح
فيُشيرونَ أو نُشيرُ إليهم بالهَوى كلُّ ذات دَلٍّ مَليح

والحب حركة النفس الفارغة كما قال بعض الفلاسفة ، وللمال سلطان على الجمال . فطبيعى أن ينشأ فى الحجاز فن غزلى ، وطبيعى أن يكون بين غزل الحجاز وغزل البادية ما بين أهل الحضارة المترفة وأهل البداوة الجافة ، هؤلاء يحدو بهم إلى الحب والضرب فى مجلس يضرب فيه العود وينقر الدف . وأولئك عطفهم على الذكرى الصبا والهوى .

وأول من تغزل من هؤلاء الحجازيين ابن عتيق سليل أبى بكر الصديق ، وتبعه عمر بن أبى ربيعة ثم العرجى سليل عثمان بن عفان .

وإمام هؤلاء الغزليين فى الحجاز هو عمر بن أبى ربيعة (١)

---

(١) هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة ، وفى الغالب ينسب إلى جده ، فيقال ابن أبى ربيعة وكنيته المشهورة أبو الخطاب . وهو شاعر قرشى من أهل مكة ومن أسرة ثرية واسعة الثراء من أسرها أسرة بنى مخزوم وكان أحدها وهو هشام بن المغيرة يلقب فى الجاهلية برب قريش (دكتور شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١٨٦ – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢) وأخباره فى الأغانى جـ ١٥ ص ٥٥٩٣ من طبعة الشعب و (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ترجمة رقم ٩٩ من الجزء الثانى و (وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٣ ص ١١١ ترجمة رقم ٤٦٣ . وله ديوان مطبوع فى ليبزج سنة ١٨٨٣ وفى مصر سنة ١٣١١ هـ .

شتان ما بين قول جميل :

فلو تركتْ عقْلِى معى ما طلبتُها ولكنْ طِلابِيها لِمَا فات من عقلى (١)

وقول المجنون :

وإنّى لتعْـرُونى لِذكْراك هِـزَّةٌ كما انْتَفَضَ العُصْفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ (٢)

وقول عمر :

سـلام عليها ما أَحبَّتْ سَـلامنا فإن كَرِهَتْهُ فالسَّلامُ على أُخْرى (٣)

وشتان ما بين قول المجنون :

أرانى إذا صَلّيْتُ يمَّمْتُ نحوَها بوجْهى وإن كان المصلّى ورائيا

وما بِىَ إشْراكٌ ولكن حبّها كعُودِ الشّجا أعيا الطبيبَ المُدَاوِيَا (٤)

وقول عمر :

ونَاهِدَةِ الثَّدْيين قلتُ لها اتّكى على الرملِ من جبَّانةٍ لم تَوسَّدِ

فقالتْ على اسم الله أمرُكَ طاعةٌ وإن كنتُ قد كُلِّفتُ ما لم أُعوَّدِ

فلمَّا دنا الإصباحُ قالت فضحتَنى فقُمْ غيرَ مطرودٍ وإن شئتَ فازْدَدِ

فما ازْدَدْتُ منها غَيْرَ مَصٍّ لِثاتِها وتَقْبيل فيها والحَدِيثُ المُرَدَّدِ (٥)

وشتان ما بين قول العذرى :

فـما هـو إلا أراهـا فَجاءةً فأَبْهَتَ حتى مـا أكاد أجـيب (٦)

وقول عمر :

حُلِى إزارَكِ سُكْنى غَيْر صاغِرَةٍ إن شِئْتِ واجْزِى مُحِباً بالّذى سارا

فقد تَجَشَّمْتُ من طُولِ السُّرَى تَعَباً وفى الزِّيارَةِ قد أَبْلَغْتُ أعذارا (٧)

---

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٨٥ من طبعة الشعب

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٦٤

(٣) الديوان ص ٤٩٢ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد من طبعة المكتبة التجارية

(٤) أبوالفرج الأغانى جـ ٢ ص ٤٨٦ من طبعة الشعب

(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٢ من طبعة الشعب والديوان ص ١٥٤ مطبعة السعادة بمصر

(٦) من شعر الأحوص ، حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٦٧ من الطبعة الحادية عشرة والبغدادى : خزانة الأدب جـ٢ ص ٣٤٧

(٧) الديوان ص ٢١٦

وشتان ما بين قول جميل :

إذا خَدِرتْ رجلى وقيل شفاؤها ... دعاءُ حبيبٍ كنتِ أنتِ دُعَائيا (١)

وقول عمر :

حبَّذَا أنتِ يا بَغُومُ وَأَسْما ... ءُ وَعِيصٌ يكُنُّنا وَخَلاءُ (٢)

وما أشبه قول عمر :

ثُم لانت وسامَحَتْ بَعْدَ مَنْع ... وأَرَتْنِى كَفاً تَزِينُ السِّوارا

فتناوَلْتُها فلانت كَغُصْنٍ ... حَرَّكَتْهُ رِيحٌ عليه فَحارا

وأذاقَتْ بعد العِلاجِ لَذِيذاً ... كَجَنَى النَّحْلِ شابَ صِرْفا عُقارا

ثم كانَت دُون اللِحافِ المَشْغُو ... فِ مُعَنَّى بها فشوق شعارا

واشتكَتْ شِدَّةِ الإزارِ من البُهْـ ... ـرِ وألقَتْ عنها لَدَىَّ الخِمارا

حبَّذا رَجْعُها إلَيْها يَدَيْها ... فى يَدَىْ دِرْعِها تَحُلّ الإزارا (٣)

يقول الأعشى (٤) .

فَدَخَلْتُ إذْ نَامَ الرَّقِيـ ... ـبُ فَبِتُّ دُونَ ثِيَابِها

حتى إذا ما اسْتَرْسَلَتْ ... من شِدَّة لِلِعَابِها

قَسَّمْتُها قِسْمَيْنِ كُلَّ (م) ... مُوجَهٍ يُرْمَى بِهَا

فَثَنَيْتُ جِيدَ غُزَيْرَةٍ ... ولَمَسْتُ بَطْنَ حُقابِها

كالحُقَّةِ الصَّفْراءِ صَا ... كَ عَبِيرُها بِمَلابِها

وإذا لنا تَامُورَةٌ ... مَرْفُوعَةٌ لشَرابِها

عمر بن أبي ربيعة شاب قرشي جميل مفرط الثروة سليل عائلات من أعرق قريش مجدا وجاها فى الجاهلية والإسلام ينتقل فى ربوع ملاعب الحجاز ومواطن لهوه ، فإن كان الحاج فهو أسبق الناس إليه لا ليقيم شعارا من شعائر الدين فرضت على القادرين بل ليلهو :

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٧٢ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ١١ – مطبعة السعادة وأبو الفرج : الأغانى جـ ١ ص ١٦٤ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٢٤٤

(٤) مر هذا الشعر من قبل والمؤلف ينسبه للنابغة الجعدى وقد أثبتناه للأعشى (ميمون بن قيس) ، راجع ديوانه ص ٣٩ تحقيق محمد محمد حسين من طبعة مكتبة الآداب

حَبَّذَا الحجُّ والثُّريا ومَنْ بالـ ـخَيْفِ من أجْلِها ومُلْقَى الرِّجَالِ (١)

وقول العرجى :

نـلبَثُ حولاً كاملا كلَّه لا نلتقى إلا على مَنْهَجِ
فى الحجِّ إن حَجَّتْ وماذا مِنىً وغيرهُ إن هى لم تَحْجُجِ (٢)

ومثله قوله :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللائى يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود (٣)

وهناك حول المطاف يدور ليلا فيلقى شباكه وتحمله الشباك بعائشة بنت طلحة ولبابة بنت عبد الله بن العباس وزوجة الوليد بن أبى عتبة بن أبى سفيان ورملة بنت عبد الله بن خلف وكلثم بنت سعيد المخزومى وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت الأشعث وزينب بنت موسى الجمحية وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وغيرهن من نساء الطبقة الأرستقراطية ، وله مع كل واحدة من هؤلاء أخبار طوال لا نتعرض لها ، وقد أفاض غيرنا فيها ، وله فى كل واحدة منهن شعر يجب أن نلقى عليه نظرة عامة .

العاشق الحضرى ومناوراته :

الحضرى ترى فى سفره ، العاشق الحضرى المتمدين يناور فى غرامياته كما يناور شبان الهوى المجربون فى أيامنا . يقول عمر :

لا تَجْعَلَنْ أحَداً عَلَيكَ إذا أحْبَبْتَهُ وهَوِيتَـهُ رَبـــا
وَصِلِ الحَبِيبَ إذا شَغِفْتَ بِهِ واطْوِ الزِّيارَةَ دُونَهُ غِبًّا
فذاك خَيرٌ من مُواصَلَة لَيْسَتْ تَزيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبا
لا بَلْ يَملّكَ ثم تَدْعُو باسْمِهِ فَيَقولُ هَاهَ(٤) وطالما لَبَّى(٥)

---

(١) الديوان ص ٦٨ والأغانى جـ ١ ص ٢١٣ من طبعة الشعب

(٢) أبو الفرج : الأغانى جـ ١ ص ٤٠٧ من طبعة الشعب وجـ ٣ ص ١١٩٣ من نفس الطبعة

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٦٢ من طبعة المطبعة البهية

(٤) كلمة وعيد

(٥) الديوان ص ١٠٠ وأبو الفرج : الأغانى جـ١ ص ٢٠٦ من طبعة الشعب

فهل ترى فرقا بين هذه العقلية وبين أساليب الشبان العاشقين ذوى التجارب فى ميادين الغرام فى أيامنا – وأبعد الفرق بين هذه العقلية الحاضرة المجربة الماكرة والبدوية الغريرة الساذجة؟ أين ذلك من قول جميل الغر؟

لها فى سَوَاد القلب بالحُبِّ مَيْعةٌ   هى الموتُ أو كادتْ على الموت تُشْرِفُ
وما ذكرتْكِ النفسُ يا بَثْنَ مرَّةً   من الدهرِ إلا كادتِ النفسُ تَتْلَفُ
وإلا اعترتْنى زَفْرةٌ واستكانةٌ   وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يَذْرِفُ
ولما استَطرَفتْ نفسى حديثا لخُلَّةٍ   أُسرُّ به إلا حديثُك أطْرَفُ(١)

أفكان عمر يخاطب معشوقته بمثل هذا الغرور والغفلة؟ لا ولو وجد أضعاف وَجْد جميل وأين قول المجنون :

كأن القلبَ ليلةَ قيل يُغدَى   بليلى العامِرِيَّة أو يُراحُ
قطاةٌ غرَّها شَرَكٌ فباتتْ   تُجاذِبه وقد عَلِقَ الجناحُ(٢)

من قول عمر :

فإن نَأَيْتم أصابَ القَلْبَ نَأْيُكُمُ   وإن دَنَتْ دارُكُمْ كُنْتمُ لنا سكَنا (٣)

وأين قول جميل :

وما زِلْتُمُ يا بَثْن حتّى لَوْ اننى   من الشوق أستبكِى الحمامَ بكَى ليا (٤)

من قول عمر :

أن تَبْخَلى لا يُسَلِّى القلبَ بُخْلُكُمُ   وإن تَجُودِي فَقَدْ غَنَّيْتِنا زَمَنا (٥)

تعلم صاحبنا أساليب الغرام من تجاربه الكثيرة المتنوعة فهو رجل عرك الحب وامتحن الطبائع ولقنته النساء دروسه .

---

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٦٣ من طبعة الشعب

(٢) أبو الفرج : الأغانى جـ ٢ ص ٤٨٠ من طبعة الشعب .

(٣) الديوان ص ٥٨٣

(٤) أبو الفرج : الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٧٢ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ٥٨٣

خليلى إن باعدت لانت وإن ألن   تباعد فما ترجى لحرب ولا سلم (١)

وها هو ذا ينزل إلى سوق الغرام مزوداً بالتجارب يبيع الحسن ويشتريه :

وأبـــذل مـــالى لمرضـــاتـكـــم   وأعتب من جاءكم عاتبا

وقوله :

إن كَفِّى لكِ رَهْنٌ بالرِّضا   فاقبلى يا هِنْدُ قالت قد وَجَبْ (٢)

يدل بجماله ويغرى بماله فإن أفلت منه صيد « فني الصبر عمن لا يؤاتيك حاجة » وإن ظفر فهو كالنحلة يطير من وردة إلى وردة يرتشف من كل وردة حلاوتها ويطير إلى غيرها .

فَبَعْثتُ جارِيتى وقُلْتُ لها اذهبى   فاشْكى إليها ما عَلِمْتِ وَسَلِّمِى

فتضاحكت عَجباً وقالَتْ حَقُّه   ألا يُعَلِّمنا بما لَمْ نَعْلَم

عِلْمى به واللهُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ   فيما بَدا لى ذو هَوىً مُتَقَسِّم

طَرِفٌ يُنازِعُهُ إلى الأَدْنَى الهَوَا   ويبقى خُلَّته ذى الوِصالِ الأَقْدَمِ (٣)

* * *

لـقـد أرسـلت جـاريتى   وقُلْتُ لها خُذِى حَذَرَكْ

وقُولى فى مُلاطَـفـــةٍ   لـزَيْـنَبَ نَوِّلى عُـمَـرَكْ

فإن داوَيت ذا أسقَمٍ   فَأَخْزَى اللهُ مَنْ كَفَرَكْ

فَـهَـزَّتْ رَأْسَـهـا عَـجَباً   وقالَتْ من بذا أَمَرَكْ

أهـــذا سِـحْـرُكِ الـنِّسْوا   نُ قد خَبَّرْتِنِى خَبَرَكْ

وقُلْت إذا قَضَى وَطَراً   وأَدْرَكَ حاجَةً هَجَرَكْ (٤)

عمر متأثر كل التأثر بالمدرسة الجاهلية يشبّه المرأة بالغزال وبقر الوحش كما كانوا يفعلون .

يا نعجة من وَحْشِ ذِى بَقَرٍ   تَغْدُو بِسِقْطِ صَرِيمَةٍ طِفْلا (٥)

ويقول لنا :

---

(١) الديوان ص ٤٦ من طبعة المطبعة الميمنية بمصر ١٣١١هـ

(٢) الديوان ص ٥٦ وأبو الفرج : الأغانى جـ ١ ص ١٣٥ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٤٩٧ ،وأبو الفرج : الأغانى جـ ١ ص ١٤٠ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٣٩٠ وأبو الفرج : الأغانى جـ ١ ص ٩٣ وص ١٤٠ من طبعة الشعب .

(٥) الديوان ص ٤٥٩ وأبو الفرج : الأغانى جـ ١ ص ١٥٩ من طبعة الشعب

لها من الريم عيناه وسنته ونخوة السابق المختال إذ صهلا (١)

وقوله :

صُيَّد الرجال يرشقن بالطر ف حسان كخذل الغـزلان (٢)

وقوله :

عَرَضَت لنا بالخَيْفِ فى بَقَرٍ تَقْرُو الكبَاثَ وناضرَ السِّدْرِ
وجَلَتْ أسيلاً يَوْمَ ذِى خُشُبٍ رَيـانَ مِثْـلَ فُـجاءَة البَدْرِ
فَسَبَتْ فُؤادِى إذ عَرَضْتُ لها يَوْمَ الرَّحِيلِ بِساحَةِ القَصْرِ
بمُـزَيَّـنٍ رَدْعُ العَـبيرِ به حَسَنِ التَّرائِبِ واضح النَّحْرِ
وبعَـيْـن آدمَ شـادِنٍ خَرِق يَرْعَى الرِّياضَ بَبَلْدَةٍ قَفْرِ (٣)

ولا يوجد فى هذه التشبيهات إلا أنه يحاور الغزال ويطيل فى الحوار ولا داعى لضرب الأمثلة . وهو يلح فى وصف المرأة عضوا عضوا كما كان الجاهليون يفعلون إلا أنه أقل إلحاحا ، ومعانى ذلك الوصف وإيقاظ أغلبها مأخوذ عن الجاهلية .

مجْدُولَةِ الخَلْقِ لم تُوضَع مَنَاكِبُها ملءَ العِنَاقِ ألوف جَيْبُها عَطِرُ
مَمْكُورَةَ السَّاقِ مَقْصُومٌ خَلاخِلُها فمُشْبِع نَشَبٌ منها ومُنكِسَرُ
هيْفاءُ لفاء مَصْقُولٌ عَوَارِضُها تَكادُ من ثِقْلِ الأرْدَافِ تَنْبَتِرُ
تنكلُ عن واضِح الأنْيابِ مُتَّسِق عذْبُ المقْبَلِ مَصْقُولٌ له أشِرُ
كالمِسْك شِيبَ بِذَوْبِ النّحل يَخْلِطُهُ ثَلْج بصَهْبَاءَ مما عَتَّقَتْ جدرُ (٤)

على أننا لا نشك فى أن الرواة انتحلوا شعرا مقيسا على شعر عمر فنسبوه إلى الجاهلية ما كان امرؤ القيس ليقول :

فجئْتُ وقد نَضَّتْ انَومٍ ثِيابها لدَى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
فقالت يَمينَ الله مالكَ حِيلَةٌ وما إنْ أرى عنْك الغواية تَنْجَلى

---

(١) الديوان ص ٨٦ من طبعة المطبعة الميمنية بمصر ١٣١١
(٢) المصدر السابق ص ٦٦
(٣) الديوان ص ٢٤ من الطبعة السابقة
(٤) الديوان ص ٨ من الطبعة السابقة

خَرَجْتُ بها أمْشِي تَجُرُّ وراءَنا ... على إثرنا أذْيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فلما أجَزْنا ساحة الحَىّ وانْتَحَى ... بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذى قِفافٍ عَقَنْقَلِ
هصرت بفودى رأسها فتمايلت ... على هضيم الكشح ريا المخلخل
مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غيرُ مُفَاضَةٍ ... تَرائِبُها مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ [١]

هذه الطريقة الحوارية وهذا المذهب الواقعى فى الوصف هما أخص خصائص عمر بن أبى ربيعة . على أن التقليد تعدى الموضوع والأسلوب إلى ألفاظ – فيمين الله – هذه مأخوذة من شعر عمر .

لكن الرواة حسبوا أن كلمتى « العقنقل » و « السجنجل » ضمان لطبع هذا الشعر بطابع امرئ القيس .

الغزل السياسى

أنشأت السياسة فنا من فنون الغزل هو هذا الشعر الذى كان يتشبب به شعراء الأحزاب . بنساء زعماء الأحزاب الأخرى . وفى هذا الغزل ظاهرتان :

الظاهرة الأولى : أن هؤلاء الشعراء كانوا يحرصون على ذكر الأفحاش فيصفون خدر المرأة أو الفتاة المشبب بها ، وما إلى ذلك . وهذا طبيعى لأن الغرض منه هو التشهير بأزواجهن أو أخواتهن أو آبائهن .

الظاهرة الثانية : إخفاء ذلك القصد إخفاء لبقاحتى ليخيل إلى القارئ أنهم يحبون هؤلاء النسوة حقا .

فمن ذلك قصيدة عبد الرحمن بن حسان فى رملة بنت معاوية [٢] :

---

(١) أبو بكر محمد بن القاسم الانبارى : شرح القصائد السبع الطوال ص ٥١ – ٥٨ بتحقيق عبد السلام هارون من طبعة دار المعارف الأبيات من ٢٦ إلى ٣١

(٢) كان ابن حسان يتعرض لنساء بنى أمية ، فيتغزل بهن لغرض الإزراء عليهن وممن تغزل بها منهن رملة بنت معاوية ، فغضب أخوها يزيد ودعا الشعراء إلى هجاء ابن حسان وأهله من الأنصار ، فكلهم أبوا أن يهجوا من آووا رسول الله ونصروه . وكان ممن دعاهم إلى ذلك كعب بن جعيل التغلبى وكان مسلما ، فقال له وأرادى أنت إلى الإشراك بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصروا رسول الله ﷺ ، ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثور ، يعنى الأخطل فدعاه يزيد ولباه الأخطل ، فنظم فى هجاء الأنصار وشاعرهم عبد الرحمن بن حسان قصيدة دوت فى العالم الإسلامى . (دكتور شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١٠٤ لجنة التأليف ١٩٥٢) .

طال لَيْلِى وبتُّ كالمَحزون ومَلِلْتِ الثواءَ فى جَيْرونِ (١)
فلذاكَ اغْتربتُ بالشام حتى ظَنّ أهْلِى مُرَجَّماتِ الظنُونِ
هى زَهْراءُ مِثْلُ لؤلؤةِ الغوّ اصِ مِيزَتْ من جَوْهرٍ مَكْنُونِ
وإذا مانَسبتَها لم تَجدْها فى سَناءٍ من المكارم دُونِ
ثم خاصَرتُها إلى القُبَّة الخَضـ ـراء تَمْشِى فى مَرْمرٍ مَسْنون (٢)

ومن قوله :

رَمْلَ هل تَذْكُرين يومَ غَزال (٣) إذ قطعنا مَسيرَنا بالتّمنى
إذ تَقُولِين عَمْرَكَ الله هل شَىْ ءٌ وإن جَلَّ سوف يُسْليكَ عنِّى
أمْ هَل أطْمِعْت منكُمُ يا بن حَسَّا نَ كما قد أراك أطْمِعتَ مِنِّى (٤)

وقد استشاط يزيد أخو رملة غضبا فأغرى الأخطل بهجاء الأنصار فهجاهم ، ومن هجائه :

ذَهبتْ قُريشٌ بالمَكارم والعُلا واللُّؤمُ تحت عَمائم الأنْصار
خَلُّوا المَكارمَ لَستُم مِن أهلها وخُذُوا مَساحِيكم بنِى النجار
إن الفوارسَ يَعْلَمون ظُهورَكم أوْلادَ كُلّ مُقبَّح أكَّار (٥)

وقد رد النعمان بن بشير يطالب بقطع لسان الأخطل ويهدد معاوية :

يابن أبى سُفيان ما مِثْلُنا جارَ عليه مَلِكٌ أو أَمِيرْ
اذكر بنا مَقْدمَ أفْراسنا بالحِنْو إذ أنت إلينا فَقير (٦)
فاحْذَرْ عليهم مثل بَدْرٍ فقَدْ مَرّ بكُمْ يومٌ ببَدْرٍ عَسِير (٧)

---

(١) جيرون : دمشق وقيل بابها
(٢) الاغانى جـ ١٥ ص ٥٤٠٠ من طبعة الشعب
(٣) غزال : موضع على الطريق من ثنية هرشى وهى ثنية فى طريق مكة بينها وبين الجحفة ثلاثة أودية
(٤) أبو الفرج : الأغانى جـ ١٥ ص ٥٣٩٧ من طبعة الشعب وجـ ١٦ ص ٥٧٩٨ من نفس الطبعة
(٥) الأكار : الحراث والشعر فى الأغانى جـ ١٥ ص ٥٣٩٨ وجـ ١٦ ص ٥٧٩٩ من طبعة الشعب وابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٤٠ بولاق ١٢٩٣ هـ
(٦) الحنو : المنعرج والمنعطف وهو يشير إلى مكان بعينه كان للأنصار فيه مؤازرة
(٧) أبو الفرج : الأغانى جـ ١٦ ص ٥٨١١ من طبعة الشعب

ومن هؤلاء الشعراء الذين اتخذوا الغزل وسيلة من وسائل الحرب السياسية الأحوص [١] وكان يتغزل بعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وفيها يقول :

يا بَيْتَ عاتكةَ الذى أتَغَزَّلُ   حَذَرَ العِدَى وبك الفُؤَادُ مُوَكَّلُ
إنى لأمْنَحُكَ الصُّدُودَ وإنّنى   قَسماً إليكَ مع الصُّدُودِ لأمْيَلُ
ولقد نزلت من الفؤاد بمنزل   ما كان غيرك والأمانة ينزل
ولقد شكوت إليك بعض صبابتى   ولما كتمت من الصبابة أطول
هل عيشنا بك فى زمانك راجع   فلقد تفحش بعدك المتعلل
فصددت عنك وما صددت لبغْضَةٍ   أخشى مقالة كاشح لا يَغْفُلُ
ولئن صددت لأنت لولا رقْبَتى   أشهى من اللائى أزور وأدخل
وتجنبى بَيْتَ الحبيب أُحِبُّه   أرضى البغيض به حديث معضل [٢]

وقد انتقمت منه السياسة فاضطهد ونفى إلى دهلك .

ومنهم عبيد الله بن قيس الرقيات [٣] شاعر الزبيريين وكان يتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مران ، ومن شعره فى أم البنين :

ألا هزأت بنا قرشيـ   ـة يَـهْـتـز موكِبها
رأت بى شيبةً فى الرأ   س مِنِىٍّ ما أغيّبها
فقالت ابن قيس ذا ؟   وغير الشيب يعجبها
رأتنى قد مضى منى   وغضـــات صـواحبهـا
ومثلك قد لهوت بها   تمام الحسن أعيبها

---

(١) هو الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٢٤ ترجمة رقم ٩٣ من طبعة بيروت ١٩٦٤)

(٢) أمالى السيد المرتضى جـ ١ ص ٩٤ من طبعة الحلبى ١٩٠٧ والبغدادى : خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٤٩ من طبعة مصر ١٩٢٩

(٣) هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك ولقب «الرقيات» لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية ، منهن رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد وابنة عم لها يقال لها رقية وامرأة من بنى أمية يقال لها رقية ، وكان زبيرى الهوى وخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان وأبدع فى مدح الزبيريين ورثائهم واتخذ الغزل وسيلة سياسية غاظ بها الأمويين (أبو الفرج : الأغانى جـ ٥ ص ١٧١٧ من طبعة الشعب) و (أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ٩ من طبعة النهضة المصرية ١٩٤٥) .

لها بعل غيور قا عد بالباب أعجبها
يرانى هكذا أمشى فيوعدها ويضربها
ظللت على فارقها أفديها وأخلبها
أحذرها فتؤمن بى فأصدقها وأكذبها
فدع هذا ولكن حا جةٌ قد كنتُ أطلبها
إلى أمِّ البنين متى يُقَرِّبها مقرِّبها
أتتنى فى المنام فقلـ ت هذا حين أعقبُها
فلما أن فرحتُ بها ومَال على أعذبُها
شربتُ بريقها حتى نهِلتُ وبتّ أشربها
وبت ضجيعها جذلا ن تعجبنى وأعجبها
وأضحكها وأبكيها وألبسها وأسلبها
أعالجها فتصرعنى فأرضيها وأغضبها
فكانت ليلة فى النوم (م) نسمرها ونلعبها
فأيقظنا مناد فى صلاة الصبح يرقبها
فكان الطيف من جنيَّـ ـة لم يدر مذهبها
يؤرقنا إذا نمنا ويبعد عنك مسربها (١)

ومنهم وضاح اليمن (٢) وكان يتغزل بزوجة الوليد بن عبد الملك « أم البنين » وبأخته فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز وفيها يقول :

بنت الخليفة والخليفة جَدُّها أخت الخليفة والخليفة بعلُها
فَرِحتْ قوابلُها بها وتباشرتْ وكذاك كانوا فى المسَرَّة أهلُها (٣)

---

(١) الديوان ص ٢٦١ - طبعة فينا

(٢) وضاح لقب غلب عليه لجماله وبهائه واسمه عبد الرحمن بن إسماعيل وقيل اسمه عبد الله ثم يختلف فى تحقيق نسبه فيقول قوم إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع وهرز لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة ، ويزعم آخرون أنه من آل خولان بن عمرو بن قيس بن معاوية (أبو الفرج : الأغانى جـ ٦ ص ٢٢٨٩ من طبعة الشعب) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٢٦ من طبعة دار الكتب المصرية)

(٣) أبو الفرج : الأغانى جـ ٦ ص ٢٣٠٤ - ٢٣٠٥ من طبعة الشعب .

وقد أمروا به فوئد حيا (١).

ومن هؤلاء العرجى (٢) وكان يتغزل بزوجة والى مكة محمد بن هشام وأمه . ومحمد بن هشام هو خال هشام بن عبد الملك . ومن شعره فى زوجة محمد واسمها جبره :

عُوجِى علىّ فسلِّمى جَبْرُ فِيمَ الصدودُ وأنتُم سَفْرُ
ما نَلْتَقِى إلا ثَلاثَ مِنًى حتى يُفَرِّقَ بينَنا النَّفْرُ
الحولُ بعد الحولِ يَجمعُنا ما الدهر إلا الحولُ والشهرُ (٣)

ومن شعره فى أم محمد :

عُوجى علينا رَبَّةَ الهَوْدَجِ إنك إن لا تَفْعَلِى تَحْرَجِى
إنى أُتيحتْ لى يَمَانِيَّةٌ إحْدَى بنى الحارثِ من مَذْحَجِ
نلبَثُ حولا كاملا كلَّه ما نلتقى إلا على مَنْهَجِ
فى الحجِّ إنْ حَجَّتْ وماذا مِنىً وأهلهُ إن هى لم تَحجُجِ (٤)

فأخذ محمد يلفق له التهم وسجنه تسع سنين ومات فى سجنه ، وقد ثأر له الوليد بن يزيد بعد ذلك .

غزل المقدمة أو غزل العراق

ما بدأ الجاهليون قصيدة فى المدح أو العصبية إلا بدءوها بالغزل ، ومالى أقول « المدح » و « الهجاء » بل لقد بدءوا بالغزل وغيره من فنون الشعر ، وهم حتى فى الرثاء يتشبثون به برغم ما فى ذلك من مخالفة للذوق السليم لم يفطنوا إليها . قال دريد بن الصمة الجاهلى فى رثاء أخيه :

---

(١) يقال إنه لما شبب بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك أمر بطلبه الوليد فلما حضر قتله ويقال إنه كان عند أم البنين فى دارها ولما دخل عليها الوليد أخفته داخل صندوق فحمل الوليد الصندوق ودفنه وهو بداخله

(٢) هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ولقب بالعرجى لأنه كان يسكن عرج الطائف (الأغانى جـ ١ ص ٣٨٣ ، ٣٨٥) من طبعة الشعب

(٣) الأغانى جـ ١ ص ٤٠٨ من طبعة الشعب

(٤) المصدر السابق ص ٤٠٦ والمبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٩٣ من طبعة المكتبة التجارية

أبا ذُفَافةَ من للخيل إذ طُرِدتْ فاضطرها الطعنُ فى وَعْثٍ وإيجافِ
يا فارسَ الخيلِ فى الهَيْجاء إذ شُغِلتْ كلتا اليدين دَرُوراً غيرَ وَقّافِ (١)

وله :

قليـلُ التَّشكّى للمُصيباتِ حـافظٌ من اليوم أعقابَ الأحاديث فى غد (٢)

لم يكن ذلك «التقليد» مقصوراً على العرب ، فأنت تعرف أن اليونان كانوا يبدءون قصائدهم باستلهام «هيلانة» .

هذا النوع من الغزل الذى لا يقصد إليه لذاته بل كمقدمة نعرفه فى الشعر الأموى ، فجرير والفرزدق وذو الرمة وغيرهم من الفحول كانوا يبدءون به قصائدهم ، وكأننى بالعرب قد خلعوا على الشعر القديم لباسا من القداسة فتشبثوا به ، وخيل إليهم أن الشعر ينبغى أن يكون هكذا على هذا الأسلوب وحده ، وعلى هذا النمط وحده .

وهذه المقدمات الغزلية فى الشعر الأموى لا تخرج فى موضوعها عن الشعر الجاهلى ، ذكر يتغزل بأنثى فنستطيع أن نقول إنه امتداد للغزل الجاهلى مثال ذلك قول الأخطل :

من كُلِّ بَيْضَاءَ مِكْسَالٍ بَرَهْرَهَةٍ زانَتْ مَعَاطِلَها بالدُّرِّ والذَّهَبِ
يَشْفِى الضَّجِيعَ لَدَيْها بعد زَوْرَتِها منها ارْتِشَافُ رُضَابِ الغَرْبِ(٣) ذِى الحَبَبِ(٤)

وقول البعيث :

ومَجْدولَة جدْلَ العِنانِ خَرِيدةٍ لها شَعْرٌ جَعْدٌ ووَجْهٌ مُقَسَّمُ
وثغر نَقِىٌّ اللوْنِ عَذْبٌ مَذاقُهُ تُضِىءُ لها الظلْماء ساعة تَبْسِمُ
وثديانِ كالحُقَّيْنِ والبَطْن ضامِرٌ خَمِيصٌ وجُهْمٌ نارُهُ تَتَضَرَّمُ
أظلُّ أناغِيها وتحت ابن خالدٍ أمَيَّةُ نَهْدُ المرْكَلَيْنِ عَثَمْثَمُ (٥)

والفرزدق أصرح من تغزل على هذا المذهب على أن هذا الغزل الأموى ليس امتداداً للغزل

---

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ١٠ ص ٣٤٧٤ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) حدة الأسنان

(٤) الديوان : ص ١٨٤ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٤١٨ من الطبعة الثانية بدار المعارف ..

الجاهلى فى موضوعه فحسب بل هو امتداد له فى الشكل والأسلوب . انظر إلى هذه الأوصاف الجاهلية فى شعر الأخطل :

لَيَالِيَ نَلْهُو بالشَّبابِ الذى خَلا بِمُرْتَجَّةِ الأَرْدَافِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
أَسِيلَةُ مَجْرَى الدَّمْعِ خَفَّاقَةُ الحَشَا مِنَ الهِيفِ مِبْرَاقُ التَّرائِبِ والنَّحْرِ
وتَبْسِمُ عن أَلْمَى شَتِيتٍ نَبَاتُه لَذيذٍ إذا جَادَتْ به وَاضِحِ الثَغْرِ
مِنَ الجَازِئَاتِ الحُورِ مَطْلَبُ سِرِّها كَبَيْضِ الأَنُوقِ المُستكِنَّةِ فى الوَكْرِ

وليس جديدا إلا قوله :

وإنّى وإيّاهَا إذا مَا لَقِيتُها لكَالماءِ من صَوْبِ الغَمَامَةِ والخَمْرِ (١)

وهو معنى خبيث .

وأغلب هذا الشعر متكلف مصطنع ، ينطق بالزيف . انظر إلى قول الفرزدق :

ألا لَيْتنا كُنا بَعيرَيْن لا نَرِدْ عَلَى حاضرٍ إلا نُشَلُّ ونُقْذَفُ
كلانا به عَرٌّ يُخَافُ قِرافُهُ على الناس مَطْلِيُّ المشاعِرِ أَخْشَفُ (٢)

يتمنى أن يكون وعشيقته أجربين لا يقربهما أحد !

ويندر الشعر العفيف فى هذه المقدمات الغزلية ونجده أحيانا فى شعر جرير ، وناهيك فى شعر الأخطل ، ومثاله عند الأخطل :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلامِ من الرَّبَابِ خَيَالا
وتَعَرَّضَتْ لَكَ بالأَبَاطِحِ بَعْدَ ما قَطَعَتْ بِأَبْرَقَ خُلَّةً وَوِصَالا
وتَغَوَّلَتْ لِتَرُوعَنا جِنِّيَّةٌ والغَانِيَاتُ يُرِينَكَ الأَهْوالاَ
يَمدُدْنَ مِنْ هَفَوَاتِهِنَّ إلى الصِّبَا سَبَباً يَصِدْنَ به الرجالُ طِوالا
ما إن رَأَيْتُ كَمَكْرِهِنَّ إذا جَرَى فِينَا ولا كَحِبَالِهِنّ حِبَالا
المُهْدِيَاتُ لِمَنْ هَوِينَ مَسَبَّةً والمُحْسِناتُ لِمن قَلَيْنَ مَقَالا
يرعَيْنَ عَهْدَكَ ما رَأَيْنَكَ شَاهِداً وإذا مَذِلْتَ بَصِرنَ عَنْكَ مِذالا
وإذا وَعَدْنَكَ نَائِلا أَخْلَفْنَهُ وَوَجَدتَّ عند عِدَاتِهِنَّ مِطالا

(١) الديوان ص ٢١١ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١
(٢) الديوان ص ٥٥٥ من طبعة المكتبة التجارية

وإذا وَزَنْتَ حُلُومَهُنَّ إلى الصِّبا رَجَحَ الصِّبا بِحُلُومِهِنَّ فَمالا

إلى أن يقول :

أبنى كُلَيْبٍ إن عَمَّىَّ اللَّذَا قَتلا المُلُوكَ وفكَّكا الأَبْطَالا [1]

يقول هؤلاء غزلا ، فقد يمدح الشاعر بقصيدة ثمانون من أبياتها فى الغزل وعشرة فى الممدوح .

وعلى هذه السنة سار الشعراء العباسيون فبدءوا قصائدهم بالغزل خلا بشارا فى مدائحه للمنصور ، وليس ذلك خلعا لثوب القدسية عن هذا المذهب القديم إنما إذعانا لأمر الخليفة ، وسترى ذلك فى المقام المناسب .

وكان الشاعر الأموى يطيل المقدمات حتى ليخيل إليك أن الغزل وحده ما قصد إليه الشاعر وأراده بالذات ، ثم تُحِس فجأة بأن الشاعر قد انتقل بك من الغزل الذى تسلق به إلى الغرض الذى قال من أجله الشعر .

---

(١) الديوان ص ٤٣ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١

الشعر السياسى

قتل الشهيد عثمان فانصدعت الوحدة العربية وتحولت الدولة الإسلامية إلى أتون مستعر يقذف بالحمم فتصيب شظاياه هؤلاء وأولئك على السواء .

ووقف الشعر مع السيف جنبا إلى جنب ينتصر سيف فيردد الشعر صيحة النصر ، ويندحر فريق فيردد الشعر صدى أنينه . وهكذا نشأ الشعر السياسى فى ذلك العصر الثائر وفى ذلك الجو الملتهب ، لكنه نشأ نشأة غريبة فالزمن لم يمهله كما يمهل كل وليد ريثما ينفطم ثم يبلغ الحلم ثم يشب ثم يترعرع بل نشأ الوليد فطفر طفرة ، فإذا بالوليد يصبح علما عنيفا وماردا جبارا . ولا غرابة فقد كانت الحياة تمشى مسرعة وكان اليوم فى حساب الزمن والتاريخ بألف يوم مما نعد .

ظهرت العصبية فى السياسة وناضل علويون وزبيريون وأمويون وخوارج والقصر الأموى يناضل الجميع فى سبيل السلطان الدنيوى ، فتعصب له من تعصب ، ومن الناس من تعصب لعقيدة أو صلة رحم ، ومنهم من تبع لأن الناس تبعوا فانقاد فى صفوف الجماعة فحق عليه قوله تعالى (أم تحسبُ أن أكثَرَهُمْ يسمعونَ أو يعقلونَ إنْ هُمْ إلا كالأنعام بل هُمْ أضلُّ سبيلا) (١)

هذا الشعر السياسى صورة تنعكس عليها الحوادث السياسية انعكاسا واضحا ، وكان هذا الشعر أداة لمعركة حامية بين رأيين كما كان السيف حدا فاصلا بين خصمين .

وهأنذا أعرض عليك مثلا من هذا الشعر المتعارك :

قال كعب بن جعيل (٢) وهو من أنصار معاوية :

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهلُ العراق له كارهونا

وكُلاًّ لصاحِبه مُبْغِضَا ... يَرَى كُلٌّ ما كان من ذاكَ دِينا

وقالوا علىٌّ إمامٌ لنا ... فقلنا رَضِينا ابنَ هِنْد رَضينا

(١) سورة الفرقان آية ٤٤ .

(٢) هو كعب بن جعيل بن قمئة بن عجرة ، شاعر إسلامى كان زمن معاوية (ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٦٤٩ بتحقيق أحمد شاكر) .

وقالوا نرى أن تَدينوا لنا — فقلنا لهم لانرى أن ندينا
وكـل يُسر بما عـنـده — يرى غث ما فى يديه سمينا
ومـا فى على بمستعتب — منال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط — ولا فى النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساءَ ولا هو سر — ولابد من بعد ذا أن يكونا(١)

فأجاب النجاشى العلوى :

دعَنّ معاوىّ ما لن يكونا — فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهـل العـراقِ — وأهل الحجـازِ فـمـا تَصْنعونا
يَرون الطِّعانَ خلالَ العجاجِ — وضَرْبَ القوانِس فى النقْع دِينا
هم هزموا الجَمع جَمع الزبَيْر — وطَـلـحـة والمعشرَ النّـاكثينا
فإن يكره القومُ ملكَ العراقِ — فقِدماً رَضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائلٍ — ومَن جعل الغثّ يوماً سمينا
جـعـلـتُـم عـلـياً وأشـيـاعَـه — نظير ابن هند ألا تستحونا(٢)

ولقد كان الشعر أول بشير بخلافة يزيد بن معاوية فقد أوعز أبوه معاوية إلى مسكين الدارمى(٣) أن ينشده شعراً يرشح فيه ولده لولاية العهد ففعل(٤) .

قال مسكين :

إن أدع مسكينا فإنى ابن معشر — من الناس أحمى عنهم وأذود
إليك أمير المؤمنين رحَلتها — تثير القطا ليلا وهنّ هجود

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٦٢ والمبرد : الكامل جـ ١ ص ١٩١

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٧١ من طبعة ليدن ١٨٨٨

(٣) توفى سنة ٩٠ هـ

(٤) كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكينا الدارمى ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف ألاّ يمالئه عليه الناس لحسن البقية فيهم وكثرة من يرشح للخلافة وبلغه فى ذلك ذر وكلام بلغه كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فأمر يزيد مسكينا أن يقول أبياتا وينشدها معاوية فى مجلسه إذا كان حافلا وحضره وجوه بنى أمية فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشراف الناس فى مجلسه فمثل بين يديه وأنشأ يقول شعراً منه هذه الأبيات المذكورة بالنص . (الأغانى جـ ١٨ ص ٧١ من طبعة دار الكتب)

وهاجرة ظلت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون سجود
إذا المنبر الغربيُّ خلاّه ربُّهُ فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد صاعد لكل أناس طائر وجدود [١]

فقال معاوية «ننظر فيما قلت يامسكين – ونستخير الله» ، وأمّن الحضور على اقتراح مسكين ، وكيف لايفعلون ؟ ألا إن الناس هم الناس فى كل عصر ومصر.

وهكذا نستطيع أن نؤرخ حوادث التاريخ الإسلامى ونتدرج معه خطوة خطوة فتسعفنا نصوص الشعر.

وقف الشعر مع السيف جنبا إلى جنب يحاربان وربما استراح السيف أحيانا وظل صرير القلم يواصل صليل السيف.

هنيئا لأصحاب السيوف بطالة تقضّى بها أوقاتهم فى التنسم
فكم فيهم من وادع العيش لم يهج لحرب ولم ينهد لقرن مصمم
يروح ويغدو عاقداً فى نجاده حساما سليم الحدِّ لم يتثلم
ولكن ذوو الأقلام فى كل ساعة سيوفهم دَوْماً تجف عن العرم

الأخطل

هو شاعر العصر الأموى [٢] برغم أنه كان يشرب الخمر جهارا ويدخل على عبد الملك بن مروان وقد لعبت برأسه وكان جرير يشهر به فى شعره ويعيّره بالخمر ، ورد عليه الأخطل أكثر من مرة غير منكر شربه لها :

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٨ من طبعة دار الكتب و (المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣ ، ١٤) و (البغدادى : خزانة الأدب جـ ١ ص ٤٦٦)

(٢) أجمع علماء اللغة والأدب على أن الذين أدركوا أسمى منزلة فى الشعر العربى فى أيام بنى أمية ثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير وهم من أهل القبائل ومن شعراء الصنف الثالث وأقدمهم سنا الأخطل وهو غياث بن غوث بن الصلت التغلبى ولا تعرف سنة ولادته ولاسنة موته على وجه التحقيق ، وما يستخرج من المصادر القديمة الموثوق بها إنما هو أن الأخطل أخذ يشتهر فى الشعر وهو شاب على عهد معاوية كما يظهر أيضاً من ديوانه سنة ٦٠ هـ وأنه مات فى خلافة الوليد بن عبد الملك الذى تولى الأمر من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ هـ . وكان الأخطل نصرانياً كمعظم بنى تغلب وهم قبيلة عظيمة من ربيعة سكنت فى القرن الأول قسماً كبيراً من برية الجزيرة أعنى القسم المحدود بمدار الموصل وسنجار شمالا ونهر دجلة شرقاً ومدار تكريت وعانة ونهر الفرات جنوباً ونهر الخابور غرباً وهى برية متسعة جداً يقطعها نهر الثرثار . (كارلونالينو : تاريخ الآداب العربية ص ١٣١ طبعة دار المعارف) .

تُعَيِّرنى شرابَ الشَّيْخ كِسْرَى ويَشْرَبُ قَوْمُكَ العَجَبَ العَجِيبَا
مَنِيُّ العَبْدِ عَبْدِ أبى سُوَاجٍ أحَقُّ من المُدامَةِ أن تَعِيبَا[1]

الأخطل هو شاعر القصر الأموى توّجوه بالنار وأرسل عبد الملك رسله فى طول البلاد ينادون «الأخطل شاعر أمير المؤمنين – الأخطل أمير الشعراء» كان أول اتصاله بالقصر فيما أعرف عندما هجا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لما تغزل برملة بنت معاوية ، فأمر أخوها يزيد كعب بن جعيل بأن يهجوه ، فتحرج من ذلك كعب وأشار عليه بالأخطل . ومنذ ذلك الوقت أخذ يرد على الأنصار ونشب بينه وبينهم الهجاء ، ومن هجائه لهم قصيدة فى حسان بن ثابت والنعمان بن بشير منها :

هَجَوْتُ بَنِى القُرَيْعَةِ إذ هَجَوْنِى فَمَا بَالِى وبَالُ بَنِى بَشِيرِ[2]

ورد عليه النعمان ، ومن رده :

أبْلغ قَبائل تَغلبَ ابنةِ وائل مَنْ بالفُراتِ وجانِب الثَّرْثارِ
فاللُّؤْمُ بين أنُوفِ تَغْلبَ بَيِّنٌ كالرَّقْم فَوْقَ ذِراع كُلِّ حِمارِ[3]

والأخطل يدل على الأمويين ببلائه فى الدفاع عنهم أمام الأنصار :

بنى أمَيَّةَ قد نَاضَلْتُ دُونكُمُ أبْناءَ قَوْمٍ هُمُ آوَوْا وهمْ نَصرُوا
أفْحَمْتُ عَنكُمْ بنى النَّجارِ قد عَلِمَتْ عُلْيَا مَعَدٍّ وكانُوا طالَمَا هَدَرُوا
حتى استَكَانُوا وهم مِنِّى على مَضَضٍ والقَوْلُ يَنْفُذُ مَالاَ تَنْفُذُ الإبَرُ[4]

وقال يهجو قيسا لأنها تشايع ابن الزبير :

فالله لم يَرْضَ عَنْ آلِ الزُّبَيْرِ ولا عَن قَيْسِ عَيْلانَ حَيّاً طَالَمَا خَرَبُوا
يُعَاظِمُونَ أبَا العَاصِى وهُم نَفَرٌ فى هَامَةٍ مِن قُرَيشٍ دُونَها شَذَبُ[5]

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠٥٢ من طبعة الشعب والديوان ص ١٥٥
(٢) الديوان ص ٣١٣ من طبعة بيروت ١٨٩١
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ٥٤١٣ من طبعة الشعب
(٤) الديوان ص ١٠٥ من طبعة بيروت ١٨٩١
(٥) الديوان ص ٣٨

ويتهمهم بأنهم قتلة ابن عفان وهى دعوى الأمويين ودعامة نضالهم السياسى مع على ومع ابن الزبير :

هُمُ سَعَوْا بِابن عَفَّانَ الإمَامِ وهُم بَعْدَ الشِّمَاس مَروها ثُمَّت احتَلَبُوا
حَرْباً أَصابَ بنى العَوَّامِ جَانِبُها بُعْداً لِمَنْ أَكَلَتْهُ النار والحَطب (١)

وقال فى رثائه :

كيف نَوْمى على الفراش ولما تَشْمَل الشامَ غارةٌ شعواءُ
تُذْهِلُ الشيخ عن بنيه وتُبْدى عن بُراها العقيلةُ العذراء (٢)

وكذلك أغناه من فضله وضمن له طراوة العيش :

لَوْلا تَنَاوُلُكُمْ إِيَّاىَ ما عَلِقَتْ كَفِّى بأَرْجَائِهَا القُصْوَى ولا قَدَمِى (٣)

والأخطل هو الشاعر ذو اللون السياسى بكل ما يفيده اللون السياسى . لقد ظل الأخطل يهجو قيسا زمنا فلما سالمت قيس الأمويين ظل جرير يهاجم الأخطل ويهجوه وهو مع أصحابه .

الزبيريون

أنصار ابن الزبير :

قيس وأعلى الجزيرة عامة وكانوا بزعامة الأحنف بن قيس والحصين بن الضحاك وزفر بن الحارث الكلابى ، وقد رويت لك طرفا من شعر زفر بن الحارث الكلابى فى فصل سابق ، وكثير من شعراء مضر ناصروا ابن الزبير وأشهرهم عبد الله بن قيس الرقيات وكان من أشد المتعصبين للزبيرية ، جاهد بسيفه وشعره مع مصعب بن الزبير يوم خرج على عبد الملك بن مروان فى العراق ، ولما هزم مصعب غمره بالمال وأمره بأن ينجو بنفسه فأبى كل الإباء وبقى مع

---

(١) الديوان ص ٣٩

(٢) من شعر قيس بن الرقيات ، الديوان ص ١٧٣ والأغانى جـ ٥ ص ١٧٢٢ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٢٦٧

مصعب حتى قتل[١] .

ووسيلة ابن الرقيات فى فنون السياسة هى هذا الغزل السياسى ، وأظننا ذكرنا شيئا عن غزله السياسى فى باب الغزل . وله فى مدح مصعب بن الزبير مدائح جياد ، وكان يناقضه غير واحد من الشعراء .

ومن شعره فى ابن الزبير بعد عودته :

بلدٌ تأمن الحمَـامةُ فيـه ... حيث عاذ الخليفةُ المظلومُ[٢]

تُخَبِّر من لاقيَت إنك عائذٌ ... بل العائذُ المظلُومُ فى سِجْن عارِم

وقوله :

عم النبى المصطفى وابنُ عَمّه ... ومفكك أغلال وقاضى مغارم

ومن يلق هذا الشيخ بالخيف من منى ... من الناس يعلم أنه غيرُ ظالم[٣]

أما هو فقد آوته امرأة تدعى كثيرة أكرمته وآوته نحو سنة وهى تجهله ويجهلها ، ولما طال به الأمر رأى ألا مفر من مهادنة السلطان الأموى فتوسط له عند عبد الملك بن مروان عبد الله بن جعفر[٤] ومدح عبد الملك بقصيدة لاموضع لذكرها ، فلما بلغ قوله :

خـليـفـةُ الله فـوق مـنبره ... جَفّتْ بذاكَ الأقْلام والكُتُبُ

يَعْتَدل التاجُ فوق مفرقِهِ ... على جَبين كأنه الذّهَبُ[٥]

صاح فيه عبد الملك : أتمدحنى بجبين كأنه الذهب ، وتقول فى مصعب :

إنما مُصْعَبٌ شِهابٌ من اللـ ... ـه تجلّت عن وجهه الظلماءُ

---

(١) تم الأمر لابن الزبير فى الحجاز واليمن ومصر والعراق وكاد يتم له فى الشام لولا تدارك الأمويين فى مرج راهط ولكنه بقى خليفة تسع سنين يولى الولاة ويجبى الخراج وكان مصعب أخوه سنده الأول فلما ذهب إلى الكوفة خطب خطبته المعروفة التى اقتبسها من القرآن الكريم فى تحدى الأمويين فلما تولى عبد الملك بن مروان ذهب بنفسه إلى العراق وحارب مصعبا فهزم جيشه وقتله عند باخمرى بعد ما اختل أصحابه وذلك سنة ٧ هـ ، ثم وجه الحجاج إلى مكة فقاتل ابن الزبير وقتله سنة ٧٣ هـ وكان مصعب يعطف على ابن قيس ويحبه ولما شعر بأنه هالك أعطى الشاعر مالا كثيرا وأشار عليه بالهرب فأبى ابن قيس إلا ملازمته (ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٢ ص ١٢٥) و (الأغانى جـ ٥ ص ١٧٢١ من طبعة الشعب)

(٢) المبرد : الكامل جـ ٢ ص ١٦٥

(٣) كان ابن الزبير يدعى «العائذ» لأنه عاذ بالبيت المحرم بمكة والشعر فى الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٣٠

(٤) لما قتل مصعب وقتل عبد الله هرب ابن قيس ولجأ إلى أم البنين وإلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فسألا عبد الملك فى أمره فأمّنه

(٥) المبرد : الكامل جـ ١ ص ٤٠٠

ملكُه ملك عِزّةٍ ليس فيه جبروت منه ولا كِبرياءُ [١]

أما الأمان فقد سبق لك ، وأما العطاء فليس لك عندنا عطاء .

وكموقف ابن الرقيات موقف الفرزدق ، وكان الفرزدق زبيرى الهوى ، وكان صادقا جادا فى زبيريته ثم انقلب عليها بلسانه خوفا من بطش الحجاج .

ومما قاله فى ابن الزبير :

فالأرض لله ولاّها خَليفَته وصَاحِبُ الله فيها غَيْرُ مَغْلُوبِ
بَعْدَ الفَسَادِ الذى قد كان قَامَ به كَذّابُ مَكّةَ من مَكْرٍ وتَخْرِيب
رَامُوا الخِلافَةَ فى غَدْرٍ فأَخطأَهُمْ منها صُدُورٌ وفَازوا بالعَرَاقيب [٢]

وقد يرى غيرنا ذلك التناقض نفاقا سياسيا ، ونحن لا نذهب هذا المذهب فمن المحقق أن رجلا كابن الرقيات كان مخلصا جد الإخلاص لزبيريته ، ومن المحقق أنه استهدف فى سبيلها أشد الأخطار لخطر الموت ، ومن المحقق أيضا أن رجلا كالفرزدق كان مخلصا فى نصرته لأى حزب من الأحزاب المعادية للقصر ، للزبيريين ، للعلويين أو لغيرهم ،

فالفرزدق رجل كان يشمخ بأنفه إلى السماء لأنه من بيت مجد عتيد ، ومن قبيلة كل من فيها كان يشمخ بأنفه إلى السماء لأنه من بيت مجد عتيد ، ومن قبيلة كل من فيها كان ناقما على السلطان الأموى أو خاضعا له فى شيء من البغض غير قليل .

وأنت تعرف ما شعر الفرزدق ، وأنت تعرف أنه دخل على سليمان بن عبد الملك فمدحه بقصيدة كلها فخر بقومه واعتزاز بنفسه .

إنما كان هؤلاء يمدحون خصومهم عندما يتحقق الخطر القريب ولايجدون فيه مهربا ، كانوا يتحولون لينقذوا حياتهم من هذا الخطر لا عن نفاق أو طمع .

وهذا التعليل يفسر لنا التناقض فى موقف هؤلاء الشعراء السياسيين ، ولا سيما شعراء الشيعة وقد كثر تناقضهم .

هؤلاء الشعراء كما قدمت ، إنما كانوا يفتدون أنفسهم بهذا الشعر فى ذلك الخطر ، وإن كنا نرى فى شعراء آخرين غير هذا الرأى ومن هؤلاء منصور النمرى [٣] وهو شيعى أسرف فى مدح

(١) الديوان ص ١٧٠ وابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٥٢ المطبعة الأزهرية ١٩٢٨

(٢) الديوان ص ١٠٥ من طبعة أوربا

(٣) منصور بن الزبرقان بن سلمة من شعراء الدولة العباسية ، غضب عليه الرشيد وأمر بقتله ولكنه توفى قبل أن ينفذ فيه القتل – ترجمته بالأغانى جـ ١٣ ص ٤٦٥٢ من طبعة الشعب

العباسيين وهجاء العلويين طمعا فى مال الأولين :

ومن هجائه للعلويين قوله من قصيدة مدح بها الرشيد أو قل حنّ فيها إلى ذهب الرشيد :

يذلّل من رقاب بنى على ومَنْ ليس بالمنِّ الصغير
مَنَنْتَ على ابن عبد الله يحيى وكانَ من الحُتوفِ على شفير[1]

وقوله :

بنى حسنٍ ورهط بنى حُسينٍ عليكم بالسَّداد من الأمور
فقد ذقتم قِراعَ بنى أبيكم غداةَ الرَّوْع بالبيض الذُّكور
أحينَ شَفَوْكمو من كلِّ وِترٍ وضمُّوكم إلى كَنَف وثير
وجادوكم على ظمأٍ شديد سُقيتم من نوالهم الغزير
فما كان العقوقُ لهم جزاءً بفعلهم وآدى للثؤور
وإنك حين تبلغهم أذاةً وإن ظلموا لمحزون الضمير[2]

وله فى العلويين شعر كثير يمثل مذهبه السياسى الدينى الصحيح ، وأروى لك أبياتا من قصيدة له يشير فيها إلى مقتل الحسين :

ويلك يا قاتل الحسين لقد نؤت بحمل ينوء بالحامل
أى رحباء صبوت أحمد فى حفرته من حرارة الثاكل
بأى وجه تلقى النبى وقد دخلت فى قتله مع الداخل
نفسى فداء الحسين حين غدا إلى المنايا غدا ولا قافل
ذاك يوم أنحى بشفرته على سنام الإسلام والكاهل

وعرج فيها على خصومه العلويين وختم قصيدته بقوله :

إلا مساعيرَ يغضبون لها بسلَّةِ البيضِ والقنا الذابلِ[3]

والخلاصة أن هذا الشعر السياسى مشتبك كل الاشتباك بل كثيرا ما يغمض موقف الشاعر غموضاً فليس لنا أمام هذا الغموض إلا الاستنتاج المبنى على استقراء سيرة شاعره وأخباره .

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٦٥٦ من طبعة الشعب (٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٦٥٦ من طبعة الشعب
(٣) المصدر السابق جـ ١٣ ص ٤٦٥٩ من طبعة الشعب والشعر والشعراء ترجمة رقم ٨٣٦ بتحقيق أحمد شاكر.

الخــوارج

وعندى أنهم بلاشفة المسلمين ، طائفة شعارها «لا حكم إلا لله »[١] ، جمع بينها التطرف فى كل شىء ، فى التفكير ، فى الشعور ، فهم أقوياء ألداء فى خصوماتهم .

لقيت الحكومات منهم عنتا أى عنت وهم متطرفون فى آرائهم الدينية منهم من يحكم بالكفر على المسلمين عامة ! ويقول غلاتهم : إن العمل جزء من الإيمان فمن ارتكب من المسلمين معصية بتركه فرضا أو إتيانه منكرا فليس بمنجيه من الكفر اعتقاد الوحدانية والنبوة . واحتجوا على ذلك بقوله تعالى (إنه لايَيْئَس من روح الله إلا القوم الكافرون)[٢] قالوا فيجوز أن يكون مرتكب الكبيرة مؤمنا ، ولكن لايطمع فى عفو الله . . . ومادام المسلمون لايرون ذلك فهم كفار أوجب الله مقاتلتهم . متطرفون فى كل شىء وشعرهم يقذف بالحمم .

وأصل الخوارج قوم كانوا مع على فى حرب صفين وخرجوا عليه ، وفى الحق أنهم غدروا به ، وليس هنا موضع التفصيل ، ثم نادوا «لاحكم إلا لله » وقالوا : نحن الشراة[٣] ، اشترينا الحياة الآخرة بالدنيا .

يهوى وترفعه الرماحُ كأنه شلوٌ تنشَّبَ فى مخالب ضارِ
فثوى صريعاً وَالرماحُ تنوشهُ إن « الشراة » قصيرة الأعمار[٤]

---

(١) كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيام صفين منقسمين إلى فريقين كبيرين متحاربين : العثمانية وشيعة على . وبينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنبون التحزُّب وهم المسمَّون بالمعتزلة منهم أبو موسى الأشعرى وسعد بن أبى وقاص ومغيرة بن شعبة وغيرهم . ثم رضى على باقتراح التحكيم فى خلافته فى صفر سنة ٣٧ هـ وكان ذلك سبب فتنة فى شيعته لأن قوما من أصحابه استقبحوا تحكيم الرجال فى دين الله أى تفويض حل مسألة الإمامة إلى رجلين لقولهم إنه لاحكم إلا لله فخرجوا عن جيشه إلى حروراء فسموا الحرورية أو الخوارج (كارلونالينو : تاريخ الآداب العربية ص ٢٠٦ – ٢٠٧)

(٢) سورة يوسف آية ٨٧

(٣) من شرى بمعنى غضب أو لأنهم شروا أنفسهم – أى باعوها – لله تعالى أخذا من الآية الكريمة (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) لأن طابع نشاطهم كان الجهاد فى سبيل الله وقتال الذين حكموا الرجال فى أمر الله . (الأخبار الطوال ص ٢٠٦)

(٤) لليشكرى : إحسان عباس : شعر الخوارج ص ٩٨ من طبعة دار الثقافة ببيروت .

ومن شعر معاذ بن جُوَين الخارجى يحرض أصحابه على الخروج :

ألا أيها الشارونَ قد حانَ لامرئٍ شَرى نَفْسَه لله أن يَتَرحَّلا (١)

وقد سار إليهم على فى أربعة آلاف مقاتل فهزمهم فى موقعه « النهروان » (٢) ودبروا بعد ذلك مكيدة لقتله وقتل معاوية وعمرو بن العاص فظفروا بعلى وقتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجىّ ، ويقول فى ذلك شاعرهم عمران بن حطان :

لله دَرُّ المُرادِىّ الذى سَفَكتْ كَفّاهُ مُهْجَةَ شَرِّ الخَلْق إنْسانَا
أمْسَى عَشية غَشّاه بضَرْبته مما جَناه من الآثام عُرْيَانا
ياضَرْبَةً مِن كَرِيم ما أرادَ بها إلا ليَبْلُغَ من ذِى العَرْش رِضْوَانا
إنى لأفكر فيه ثم أحْسَبه أَوْفى البَرِيَّة عند الله مِيزَانا (٣)

وتصدعت جبهتهم فانقسموا إلى فرق كثيرة (٤) أشهرها :

١ — الأزارقة : وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم أشد الخوارج تطرفا ، اعتبروا سائر المسلمين كفارا وحرموا على أنفسهم الزواج إلا منهم وحرموا أكل ذبائح المسلمين ، وحرموا إرثهم . قالوا : هم ككفار العرب ، فالإسلام أو القتال .

٢ — النجدية : وهم أتباع نجدة بن عامر ، خالفوا الأزارقة ، وقالوا عن المسلمين إنهم أعداء الإسلام ، لكنهم موحدون بالله ومؤمنون بالرسول فلم لانتزاوج منهم ونتوارث وإياهم .

٣ — الصفرية : أتباع زياد بن الأصفر وهم أقل تطرفا من الأزارقة فهم لايكفرون العقيدة مثلا كالأزارقة ، وهم يجتمعون فى أشياء كالقول بالقياس (٥) .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٦ من طبعة ليدن وإحسان عباس : شعر الخوارج ص ٨

(٢) عقب صفين حين أنكر الخوارج التحكيم وانحازوا إلى حروراء وأبوا دخول الكوفة مع على فحاول إقناعهم غير مرة فلم يقتنع أكثرهم واجتمعوا بالنهروان واستخلفوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى وأخذوا يفسدون فى الأرض فذهب إليهم على وقاتلهم حتى أبادهم (أحمد الشايب : الشعر السياسى ص ١٤٦)

(٣) الأغانى جـ ١٩ ص ٦٨٧٩ من طبعة الشعب

(٤) عددها عشرون فرقة كما ذكرها صاحب « الفرق بين الفرق »

(٥) لعل الأزارقة أشدهم تحرجا وإعناتا لمن خالفهم فقد كفروا جميع المسلمين وأحلوا قتل أطفالهم وحرموا أكل ذبائحهم والإصهار إليهم والأخذ بالتقية وكفروا القعدة اللذين يقعدون عن القتال ، فلما قال معدان الإيادى :

سلام على من بايع الله شاريا وليس على الحزب المقيم سلامُ

برئت منه الصفرية وقالوا : خالفت لأنك برئت من القعد وفى الكامل للمبرد حوار بين الأزارقة والنجدية وآخر بين نافع بن الأزرق وعبد الله بن الزبير حين دعاه نافع إليه ، تعرف منه مقدار اختلاف وجوه النظر بين الجميع . =

٤ – الإباضية : أتباع عبد الله بن إباض (ظهر فى النصف الثانى من القرن الأول) ، ومبادئه أقرب إلى الاعتدال .

هذه هى الفرق الأساسية . وعلى كل حال فالخوارج فرقة ظاهرها دينى وباطنها دينى وسياسى[١] .

وقد انقسمت بعد ذلك كل فرقة إلى فرق ، فالنجدية مثلا انقسمت إلى ثلاث فرق : فرقة سجستانية[٢] وفرقة قديلية[٣] وهذه انتهى بها الأمر إلى قتل نجدة ، وفرقة نجدية فاترة فى الدفاع عن إمامها .

والصفرية : اختلفت فى موقف المذنب فافترقت ثلاث فرق : فرقة زعمت أن صاحب المذنب مشرك وثانيــة قالت بل المشرك من كان على دين ليس له حدود ، وثالثة عندها أن المشرك من حده الوالى على ذنب .

ومن الخوارج من قال بوجوب الخلافة ، بل كل منهم كان يلقب قطرى بن الفجاءة بأمير المؤمنين[٤] ، ومنهم من قال «لاخلافة ولا خليفة » واحتج بقوله تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم)[٥] والأولون الذين أجازوا الخلافة قالوا بوجوب الخروج على الإمام إذا جار واحتجوا بحديث «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فإن لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءكم » .

حروب الخوارج وشعرهم :

وكانوا يقاتلون عن عقيدة ويريدون الجهاد فى سبيلها إيمانا بقول قائلهم :

= ومع ذلك فكثرة الخوارج على البراءة من الكاذب ومن صاحب المعصية الظاهرة والحرص على الجمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح والتصوف فى سبيل ما يعتقدون (أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣٠٥) و (الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٢٠ وص ١٧٦ – ١٨٠) .

(١) راجع ماكتبه المؤلف عن الخوارج فى باب العصبية .

(٢) خرجت على نجدة وتبعت عطية بن الأسود الحنفى وسارت معه إلى سجستان ، وبعض يسميها الفرقة العطوية

(٣) نسبة إلى أبى قديل

(٤) رئيس الأزارقة ، خرج على ولاة العراق وبقى ٢٠ سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة حتى قتل سنة ٧٧ هـ . (تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٠١٨) وراجع كذلك البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦٥ ، ٦٦ من طبعة مطبعة المعارف و (ابن خلكان : وفيات الأعيان ترجمة رقم ٥١٧ من طبعة مصر)

(٥) سورة الشورى آية ٣٨

أريد ثواب الله يوما بطعنة

آمنوا بدعوتهم الدينية وبدعوتهم السياسية إيمانا يقف العقل عنده حائرا ، قست الدولة عليهم قسوة شنيعة فاحتملوا القتل والصلب والتشهير وفَقْء العيون وأنواع العذاب صابرين مستبسلين .

ما إن أبالى إذا أرواحُنا قُبضت ماذا فعلتمْ بأوصال وأبشار
تجرى المجرّةُ والنَّسرانِ بينهما والشمسُ والقمرُ السارى بمقدار
وقد علمتُ وخير القول أنفعُهُ أن السعيد الذى يَنجو من النار[1]

كلما وجدوا جوا صالحا طاروا إليه طير جراد منتشر فنفخوا فيه ، ومن ذلك أنهم استغلوا الروح الشعوبية ، ففى زمن هشام بن عبد الملك حطت الرحال بالمغرب جماعات من الخوارج وأخذت تؤلب البربر وكان البربر بظروفهم مستعدين للهياج وسرعان ما ثاروا وهزموا جيشا شاميا جراراً سيَّره هشام لقتالهم بزعامة كلثوم بن عياض القشيرى . وفى واقعة مقدور سجل للموالى يشد أزرهم الخوارج أعظم انتصار على العرب .

على أن الخوارج على قلة عددهم برعوا فى أنواع الكر والفر براعة مدهشة ، حقا كانوا يقاتلون عشرات ومئات وتجرد عليهم الدولة المئات والألوف فينتصرون عليها فى كثير من الأحايين .

ومن ذلك أن ابن زياد أمر برجل منهم هو عروة بن أدية فبترت يداه ورجلاه ثم سأله كيف ترى ؟ قال : أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك . فأمر به وبابنته فقتلا . ثم خرج أخوه مرداس بن أدية فى أربعين رجلا من الخوارج ورابطوا بالأهواز فأرسل إليهم ابن زياد ألفى جندى يقودهم ابن حصن التميمى فهزمتهم الخوارج[2] وفى ذلك يقول شاعرهم :

أألفا مُؤْمِنٍ فيما زَعمتمْ ويَقتُلُهمْ بآسِك أربَعونا
كذبتُم ليس ذاك كما زَعمتمْ ولكن الخوارجَ مؤمِنونا

---

(١) الشعر لفروة بن نوفل : إحسان عباس ، شعر الخوارج ص ٥

(٢) عاد عبيد الله بن زياد فأرسل إليهم جيشا هزمهم سنة ٦١ هـ (الطبرى جـ ٥ ص ٣١٣ من طبعة دار المعارف) و (المبرد : الكامل جـ ٢ ص ١٦٢) ويقول إن القائد كان عبيد الله أسلم بن زرعة

هى الفِئةُ القليلة قد عَلمتُم — على الفِئةِ الكثيرة يُنْصَرُونا (١)

ونساؤهم كن يشتركن فى القتال ومنهن أم حكيم امرأة قطرى بن الفجاءة وكانت تتقدم الى الصفوف وترتجز .

أَحْمِلُ رَأْساً قد سَئِمْتُ حَمْلَه — وقد مللتُ دَهْنه وغَسْلَه

إلا فتىً يحملُ عنى ثِقْلَه (٢)

ومازال الحجاج يحاربهم بجيوش العراق ويحاربونه فى عدد ضئيل إلى أن دخلوا الكوفة وبها الحجاج وقتلوا الكثير من أهلها ، وقيل إن الحجاج غادر الكوفة وولى ، وفى ذلك يقول عمران ابن حطان :

أَسَدٌ علىَّ وفى الحُروبِ نَعامةٌ — رَبْدَاءُ تَجْفُلُ مِن صَفيرِ الصَّافِرِ

هلا بَرَزْتَ إلى غزالة فى الوَغَى — بَلْ كان قَلْبُك فى جَنَاحَىْ طائِرِ

صَدَعَتْ غَزالةُ قَلْبَه بفَوارِسٍ — تَركتْ مُدَابِرَه كأَمْسِ الدَّابِرِ (٣)

واضطر الحجاج إلى الاستعانة بعبد الملك بن مروان للقضاء على هذه الجماعة التى عجز جيش العراق أمامها أكثر من مرة فأَمَدَّه بجيش عدده خمسون ألف مقاتل فلقيهم شبيب بألف خارجى ومن العجب أن شبيبا انتصر عليهم .

إنا لنعجب ولكن فيم العجب ! كانوا يقاتلون عن عقيدة وإيمان صادقين ، وحسبك بالإيمان ظهيرا . إن الجيش العربى لم يزد فى يوم من الأيام على مائتى ألف جندى ، ومع ذلك فقد كانت الدولة العربية تحكم عشرات الملايين .

فيم العجب ؟ ماكثرة الخوارج إلا من تميم ، وما رجال تميم إلا أبطال القادسية ، وعلى

---

(١) الشعر قاله عيسى بن فاتك الحطى أحد بنى تيم الله بن ثعلبة (الطبرى جـ ٥ ص ٣١٤ من طبعة دار المعارف و (ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٧٧ من طبعة المطبعة الأزهرية ١٩٢٨) و (ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ١ ص ١٦٣ من طبعة دار الكتب ١٩٢٥) .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣١٦ والرجز لأم حكيم ، وإحسان عباس : شعر الخوارج ص ٤١

(٣) يشير إلى غزالة الحرورية عندما دخلت على الحجاج هى وشبيب الكوفة تحصن منها وأغلق عليه قصره فكتب إليه عمران بن حطان وقد كان الحجاج لج فى طلبه فكتب هذه الأبيات .

(الأغانى جـ ١٩ ص ٦٨٨٦ من طبعة الشعب) و (ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٥١ من طبعة الأزهرية بمصر) .

ذكر تميم نشير إلى ما بينا فى باب العصبية وهو أن هؤلاء القوم كانت لهم أغراض سياسية ، ولست أدرى أقصد بذلك Brown حين شبههم بمتصوفى الإنجليز Puritans وبالوهابيين ؟

ولقد ظهرت هذه الروح السياسية بجلاء فى زمن مروان بن محمد عندما التفوا حول زعميهم الضحاك بن قيس ، وأخذوا يواصلون القتال حتى شغل عنهم مروان بظهور العباسيين فى خراسان ، ومن المؤرخين من ينسب إليهم فظائع يذهل لها العقل[1] ، حتى أن البغدادى يقول فى كتابه[2] : إن النجدية كانوا يذبحون النساء والأطفال ، وليس بعيدا أن تكون هذه الأخبار صحيحة ، فقد أشربوا العذاب والهول .

القعدة

منهم جماعة قعدوا عن الحرب فسموا « القعدة » وحجتهم الكبر أو الوهن أو العيال يقول أحدهم :

لقد زَادَ الحياةَ إلىَّ حُباً ... بناتى إنهن من الضعافِ
مخافة أن يرَين الفقر بعدى ... وأن يُشرَبن رنقاً بعد صاف[3]

والجماعة لا ترى لهذه الفرقة عذرا فى التقاعد ، يقول قطرى بن الفجاءة يخاطب ابن خالد القنانى :

أبا خالد يا انفرْ فلست بخالدِ ... وما جَعَل الرحمنُ عُذْراً لِقاعِدِ
أتزعُمُ أن الخارجىَّ على الهدى ... وأنت مقيمٌ بين لصٍ وجاحِدِ[4]

شعرهم :

يمتاز بقوة ظاهرة فطن لها القدماء ، كما فطنا ، فأبو الفرج يحدثنا بأن الشعراء اجتمعوا عند عبد الملك بن مروان فقال لهم : أبقى أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا ! فقال : الأخطل .

---

(١) كقول المسعودى إنهم كانوا يضعون الأطفال فى القدور وهى تفور (مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٤ من طبعة المطبعة البهية)

(٢) الفرق بين الفرق ص ٦٦ من طبعة مطبعة مصر .

(٣) الشعر لعيسى بن فاتك الخطى : إحسان عباس : شعر الخوارج ص ١٣

(٤) المصدر السابق ص ٤١ والمبرد : الكامل جـ ٢ ص ١٠٧

كذبوا ياأمير المؤمنين قد بقى من هو أشعر منهم . قال : ومن هو ؟ قالوا : عمران بن حطان لأنه صادق ويفوقهم فكيف لو كذب كما كذبوا .

أشهر شعرائهم :

قطرى بن الفجاءة ، ومن شعره :[1]

لعمرى إنى فى الحياةِ لزاهدٌ وفى العيش مالمْ ألقَ أمَّ حكيمِ
من الخفرات البيض لم يَر مثلها شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يومَ أُلطُمُ وجْهَها على نائبات الدَّهْرِ جِدُّ لَئِيم
ولو شَهِدَتْنى يوم دُولابَ أبْصرتْ طِعانَ فتى فى الحرب غير ذميم
غداةَ طَغت علماء بكر بنُ وائِل وعُجنا صُدورَ الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الأزد فى حومة الوغى تعود وظلنا فى الجلاد نعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا يمجّ دماً من فائظ وكليم
وضاربةٍ خداً كريماً على فتى أغرَّ نجيب الأمهاتِ كريم
أصيبَ بدولاب ولم تك موطنا له أرضُ دولاب ودَيرحميم
فلو شهدتْنا يوم ذاك وخيلُنا تبيح من الكفار كلَّ حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجناتِ عدن عنده ونعيم

ومن قوله :

أقولُ لها وقد طارت شَعَاعاً من الأبْطال وَيْحَكِ لن تُراعِى
فإنك لو سألتِ بَقاءَ يوم على الأجل الذى لك لَمْ تُطاعِى
فصبراً فى مجَالِ الموْتِ صبراً فما نَيْلُ الخُلُودِ بمستطاعِ
ولا ثوبُ البقاءِ بثوب عِزٍّ فيُطْوَى عن أخى الخَنَع اليَراعِ
سبيلُ الموت غايةُ كل حيٍّ فداعيه لأهل الأرض داعى

---

(١) قالها فى يوم (دولاب) بين الخوارج وأهل البصرة (حماسة أبى تمام جـ ١ ص ٤٩ من طبعة بولاق و (ابن خلكان ترجمة رقم ٥١٧ من طبعة مصر) و (المبرد : الكامل جـ ٢ ص ١٨٢) و (إحسان عباس : شعر الخوارج ص ٤٤)

ومَنْ لا يُعْتَبطْ يَسْأَمْ ويَهْرَمْ وتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انقطاعِ
وما للمرء خيرٌ فى حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المَتَاعِ [١]

الطرماح بن حكيم [٢] :

فيارب لاتجعل وفاتى وإن أتت على شَرْجَعٍ يُعْلى بذكر المطارف
وأمْسى شهيدا ثاوياً فى عصَابةٍ يُصابون فى فجٍ من الأرض خائِفِ
إذا فارقوا دُنياهُمُ فارقوا الأذى وصاروا إلى مَوْعُودِ ما فى الصحائِفِ
فأقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمى مفرقة أوصالها فى التنائف
ولكن قبرى بطنُ نسر مقيلُه بجو السماء فى نُسورٍ عَوَاكِف [٣]

ومن قوله :

لقد زادنى حبًّا لنفسى أننى بغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غير طائِلِ
وأنى شقىٌ باللئام ولاترى شَقيًّا بهم إلا كريمَ الشمائِلِ [٤]

والطرماح هجاء اليمن الشهير ثلثا شعره فى العصبية القبلية وثلثه فى العصبية المذهبية . ومن فقهائهم من عالج الشعر فكان فقيها فى شعره كالرهين المرادى . ومن شعره :

يانفسُ قد طال فى الدنيا مُراوَغَتِى لا تأمنين لصرف الدهر تنغيصا
إنى لبائع ما يفنى لباقيةٍ إن لم يُعقنى رجاءُ العيش تَرْبيصا
وأسأل الله بيع النفس محتسبا حتى ألاقى فى الفردوس حُرْقوصا
وابن المنيح ومرداساً وإخوتَهُ إذ فارقوا زَهرةَ الدنيا مخاميصا [٥]

ولايزال للخوارج بقية إلى اليوم وهم فرقة الاباضية فى الجزائر .

---

(١) إحسان عباس : شعر الخوارج ص ٤٢ من طبعة دار الثقافة ببيروت

(٢) الطرماح بن حكيم الطائى شامى النشأة ورد الكوفة فى جيوش الشام واتصل بأحد الشراة الأزارقة فدعاه إلى مذهبه حتى اعتقده أشد اعتقاد و أصحّه ومات عليه سنة مائة هجرية ، ويمتاز فنه الخارجى بتصوير حياة الشُراة فى الحرب والسلم . (الأغانى جـ ١٢ ص ٤٢٠١ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٨٥) .

(٣) الأغانى جـ ١٢ ص ٤٢١٠ من طبعة الشعب و ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٨٩ بتحقيق أحمد شاكر .

(٤) ابن قتيبة عيون الأخبار جـ ٢ ص ٢٠٧ من طبعة دار الكتب والأغانى جـ ١٢ ص ٤٢٠٦ من طبعة الشعب .

(٥) إحسان عباس : شعر الخوارج ص ٣٢

الشيعــة

الشيعة هم الذين رأوا أن الخلافة حق ثابت لعلى بن أبى طالب وأولاده لأنهم أقرب الناس إلى النبى ﷺ ولأن زوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويظهر أن الرأى العام كان يرى لعلى هذا الحق فى الخلافة حتى خصمه معاوية ، فقد كتب إلى الحسن كتابا جاء فيه «أنت أولى بهذا الأمر وأحق به لقرابتك ولو علمت أنك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة لبايعتك»

التف أنصار علىّ حوله معتقدين أن الانتصار لآل البيت من الدين وحسن الإيمان يقول شاعرهم فى الحسين :

من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم

هكذا اعتقد الشيعة وللحب تكاليف ، ولقد قاموا بهذه التكاليف كما يقوم المجاهدون وعانوا فى سبيلها ما يعانى المؤمنون ، والذى قلناه فى الخوارج نقوله فى الشيعة . قلنا إن الخوارج لاتدافع عن فكرة دينية فحسب بل هى فرقة دينية سياسية ، ونقول إن من الناس من تشيّع لعلى مدفوعا بهذا العامل عامل التعصب القبلى وهم الحانقون على الحكم الأموى . أما العراق فمع على والشام مع معاوية والحجاز بينهما وسواده لمعاوية ، أما قريش فمع معاوية ، أما الأنصار فمع على ، ونار العداء تضرم بينهما من جديد . شاعر المدينة يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله[1]

ويسفر النزاع بين على ومعاوية عن انتصار معاوية وهزيمة على لأسباب كثيرة أهمها طبيعة أهل العراق ، وهم أنصار على «أهل شقاق ونفاق» هذه الطبيعة الشكسة التى لاتعرف الطاعة جنت على علىّ مالم تجنه الأحداث ، يأمرهم على بمواصلة القتال وقد رفع جند معاوية

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١ من طبعة المطبعة البهية

المصاحف ، وقالوا نحقن الدماء فيأبون ويتفقون على التحكيم فيختارون أبا موسى الأشعرى ويأباه على ويقول لهم «خالفتمونى أول مرة فأطيعونى فى هذه» فيأبون . صراحة فى الحق ، فقد نفر غير واحد من جماعته بهذا الملك كعبد الله بن عباس .

قتل عثمان وبويع على فقبل البيعة بعد تردد طويل – فيما يقولون – وكانت البيعة من أهل المدينة ويظهر أن عليا أساء تقدير هذه البيعة ، نعم تلقى أبو بكر وعمر البيعة من أهل المدينة التى لم تعد لها صفتها الأولى فقد توزعت عناصر القوة فى الأمصار الإسلامية الجديدة .

بويع على فسرعان مابادر بعزل عدد من الولاة[١] كانت لهم أخطارهم كعبد الله بن عامر والى البصرة وأحل محله عثمان بن حذيفة وولى على الكوفة واليمن ومصر والشام عمارة بن شهاب وعبد الله بن عباس وقيس بن سعد وسهل بن حنيف . فأما الأول والأخير فقد قاومهما الأمويون مقاومة عنيفة وصدوهما ، فأما عثمان وقيس فدخلا البصرة ومصر وتألب عليهما فرق وأما عبد الله بن عباس فلم يلق مقاومة تذكر .

وأرسل على إلى معاوية يدعوه إلى بيعته فتأخر الرسول ثلاثة شهور ثم جاءه بورقة كتب عليها «من معاوية لعلى» ففضها فلم يجد شيئا .

تأهب على لغزو الشام وخرج فى جيش من المدينة جحفل فقد جىء فى طريقه بنبأ انتقاض كان يقوده فتيان بنى أمية وطلحة والزبير إذ نكثا بالبيعة ، وانضم إلى هؤلاء الثوار الولاة الذين عزلهم ، وانضمت إليهم السيدة عائشة وزحف الثوار تقودهم السيدة عائشة إلى البصرة وهناك التقوا بجيش على فانتصر على وقتل طلحة والزبير ، وفى ذلك يقول بعض العلويين :

أَيَمْنعُنَا القومُ ماءَ الفُراتِ ... وفينا الرماح وفينا الجحفْ
وفينا علىٌّ لهُ صَوْلَةٌ ... إذا خَوَّفُوه الرَّدَى لم يخفْ
ونحن غداة لقينا الزبير ... وطلحة – خضنا غمار التلفْ
فما بالنا أمس أسد العرين ... ومابالنا اليوم شاة النجف[٢]

وأسرت السيدة عائشة ثم أعيدت إلى مكة مكرمة وتعرف هذه الواقعة بواقعة الجمل ، ويتأهب على من جديد لغزو الشام ثم يخرج فى خمسين ألف مقاتل فيلتقى بجيوش معاوية عند

(١) نصحه المغيرة بن شعبة بالتريث فلم يصغ له (ابن الأثير ، حوادث سنة ٣٥ هـ)
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨ من طبعة المطبعة البهية والبغدادى خزانة الأدب جـ ٢ ص ٣٣٩

صفين ، فلما كان النصر قاب قوسين منه رفع جند معاوية المصاحف وطلبوا التحكيم ، قال على «امضوا» قالوا : بل نجيب إلى كتاب الله . قال : امضوا فمعاوية وعمرو بن العاص وابن أبى السرح والضحاك بن قيس ، ليسوا أصحاب دين ولا كتاب ، لقد صحبتهم والله أطفالا ورجالا فكانوا أشر أطفال وأشر رجال ، امضوا فأنا أعرف بهم منكم ، فتمردوا عليه .

قال معاوية نحتكم إلى كتاب الله فكل منا يختار حكماً ويحكم الحكمان بمقتضى الكتاب ، فإذا اتفق الحكمان على أحدنا أذعن الآخر ورضى البيعة . واختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار أصحاب على أبا موسى الأشعرى قال على : لقد خالفتمونى أول مرة فلا تعصونى فى الثانية ، اتركوا لى الاختيار . قالوا إلاّ أبا موسى . واتفقا على خلع الرجلين .

اجتمع الناس فقدّم عمرو أبا موسى فخلع صاحبه ، ثم وقف عمرو وقال : أما أنا فأثبت صاحبى [(١)]

وأخذ على وأصحابه يتأهبون للقتال مرة أخرى لولا أن داهمه الموت ولم يمهله فقد اغتاله غيلة أحد الخوارج هو عبد الرحمن بن ملجم .

هذه نظرة عامة لاتنى شيئا لكننا مضطرون إلى هذا الإيجاز وإلا كان استطرادا . ونستطيع أن نقول إجمالا : إن العوامل التى أدت إلى هزيمة على هى : أولا – طبيعة أهل العراق – أنصار على – تلك الطبيعة الشكسة المتمردة التى طالما فزع الولاة منها وصرخوا ، تلك الطبيعة المتلونة التى حدت، بالأحنف بن قيس إلى أن يقول «أهل العراق كالمومس ، تريد كل يوم بعلا ، وهم يريدون كل يوم أميرا» . وثانيا – صراحة على وتشدده فيما يراه حقا فقد رأيت

---

(١) فى سنة ٣٨ هـ التقى الحكمان وهما أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص بأذرح فى أرض البلقاء فنتيجة الأمر المرجو منه توافق النفوس واطمئنان القلوب إنما خلع على ومعاوية معا . قد دهش كثير من أهل العراق والحجاز أى دهش حين سمعوا خبر ذلك الحكم الذى أسرع على فى إنكاره فلشدة استغرابهم وبغضهم لمعاوية أنشئت عندهم وذاعت الرواية المتداولة حتى الآن عن الخيانة المنكرة القبيحة التى دبرها وارتكبها عمرو بن العاص ، أما الحقيقة التى لم يتوصل إلى كشفها إلا من رجع إلى المصادر الأصلية القديمة وأدمن فيها النظر والبحث فإن عمرو بن العاص ما ثبت معاوية ألبتة ولكن بما عهد له من الدهاء والمهارة فى أمور السياسة قد بلغ مرامه ومرام معاوية حين حمل أبا موسى الأشعرى على الرّضا بالتفحص عن حقوق كل من الخصمين كأنهما متساويا القدر وكأن خليفة بايعه جملة وافرة من المؤمنين لايفضل على من كان واليا على الشام فقط فنتيجة الحكم أى خلع كلا الخصمين إنما كان أن عليا عزل عن الخلافة فلم تبق له إلا ولاية العراق . أما معاوية فخلع مما لم يكن له فبقى على ما كان عليه قبلا بل زاد حظوة عند أصحابه إذ ساواه الحكم بمن كان مده أعلى منه بكثير . (كارلونالينو : تاريخ الآداب العربية ص ٢٠٧)

كيف عزل الولاة ، وأنت تعرف أنه ألب عليه جماعة من وجوه أنصاره كمصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عاملا لعلي على أزد شير فطمع في بعض المال فأباه عليه علي وتوعدّه فقال «لو كان ابن هند ما لحقني بها» وفر إلى معاوية[١] ، وكذلك يزيد بن حجية التيمي .

وأنت تذكر ما قلناه عن موقف علي ومعاوية بالنسبة للموالي[٢] . لقد كان علي رجل دين وكان معاوية رجل سياسة لايأبه بالواسطة إنما يركض إلى الهدف . وثالثا – انقياد الجماعات .
فقد زعم معاوية وأصحابه أن عليا مشترك في التحريض على عثمان وأن التبعة يجب أن تلقى عليه فصدقت الجماعات وما أهون تصديقها ، وأخذ معاوية يواصل الضرب على هذا الوتر فهو تارة يعلق قميص عثمان في المسجد وتارة يعلق أصبعي نائلة زوجة الشهيد وقد تلقت سيفا كان مصوبا إليه بعرض يدها فقطعها . ورابعا – أخلاق معاوية وأظهرها الحلم ثم المداورة قال معاوية بحق «لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت» وأخبار ذلك الحلم وحكاياته مشحونة بها كتب الأدب والنوادر يحسبها الإنسان خرافات .

أما المداورة فخلق يراه بوضوح كل من قرأ وألم إلماما بأخبار هذا الرجل . ولقد قال عمر ابن الخطاب يوما لبعض مجالسيه «دهاء قيصر وكسرى لايعدلان دهاء معاوية»[٣]
ولعلنا نحن إن أوجزنا وختمنا الحديث نذكر كلمة عن معاوية هي «أعنت على علي بأربع خصال : كنت أكتم سري وكان رجلا يظهره ، وكنت في أصلح جند وأطوعه وكان في أخبث جند وأعصاه ، وكنت أحب إلى قريش منه ، وتركته وأصحاب الجمل وقلت : إن ظفروا به كانوا أهون عليّ منهم وإن ظفر بهم اغتربها في دينه ، فيالك من جامع إليّ ومفرق عنه»[٤]

وبعد علي بويع بالخلافة الحسن ثم نـزل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ ولكن الشيعة ثائرة في الكوفة على البيت الأموي وكان علي يلعن على المنابر في الشام ومن اعترض فجزاؤه القتل ، وممن قتلوا في عهد معاوية حجر بن عدي وغيره .
مات معاوية في سنة ٦٠ هـ فخلفه يزيد وطالب الحسين بالخلافة ، وكان الحسين في المدينة

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ص ٩٢ – ٩٣ من طبعة الحلبي سنة ١٣٢٥ هـ
(٢) راجع ما كتبه المؤلف عن الشعوبية
(٣) ذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ص ٧٤ من طبعة الحلبي ١٣٠٥ هـ «كان عمر ينظر اليه (أي معاوية) فيقول هذا كسرى العرب . . . وقال المقبري تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية»
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٦٦ – ٣٦٧ .

فتركها إلى مكة حيث أرسلت إليه الشيعة فى الكوفة تستقدمه فلقيه فى سيره جيش أرسله والى الكوفة عبيد الله بن زياد وقتله وأهله فى كربلاء سنة ٦١ هـ

وليس صحيحا ما يزعمه المؤرخون المغرضون (أنصار الأمويين) من أن الأمويين غضبوا لمقتل الحسين بدليل أن الأخطل وهو شاعر القصر الأموى تشفى فى شعره من الحسين بعد قتله وتوج بالنار سفاح دمه عبيد الله بن زياد وقد وطئ رأس الشهيد (عليه السلام) بقدمه عندما حملت إليه . إنما كان الأمويون ينافقون فيعلنون استنكارهم للجريمة !

وبعد وفاة يزيد بويع مروان بن الحكم فثار الكوفيون وطردوا عبيد الله بن زياد وسموا أنفسهم «التوابين» وأقسموا إلا أن يثأروا للحسين ، لكن عبيد الله تغلب عليهم ، وإذ ذاك كان المختار بن عبيد الثقفى ثائرا على الدولة يدعو فى الظاهر لمحمد بن الحنفية فانضم إلى الكوفيين وقتل عبيد الله بن زياد . وقد انقسمت الشيعة بعد مصرع الحسين إلى فرقتين عظيمتين[١] :

الأولى : فرقة الاثنى عشرية ، وهى التى تقول بأن الخلافة – حق لأبناء فاطمة ، وقد بايعت بعد الحسين : زين العابدين .

والأئمة الثمانية الذين دعت لهم الشيعة بعد على والحسن والحسين وزين العابدين هم محمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلى الرضا ومحمد التقى وعلى الحنفى وحسن العسكرى ومحمد المهدى .

والثانية : الفرقة الكيسانية هى التى دعت لمحمد بن الحنفية[٢] بن على من غير فاطمة ثم لابنه أبى هاشم وموطنها خراسان والعراق وزعيمها المختار بن أبى عبيد .

وهناك فرق أخرى أقل شأناً أهمها الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق والزيدية[٣] نسبة إلى زيد بن على بن الحسين .

---

(١) انقسمت الفرقتان إلى خمس عشرة فرقة .

(٢) ثالث أبناء على توفى بالمدينة فى أول محرم سنة ٨١ هـ وقيل سنة ٨٣ أو ٧٢ أو ٧٣ بالمدينة وهو ابن ٦٥ سنة وختم أتباعه سلسلة أئمتهم به وفى اعتقادهم أنه مامات ولا فارق الدنيا بل إنه يغيب مدة بجبل رضوى على مسيرة يوم من ينبع ثم يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا كما ملئت جورا (ابن خلكان : وفيات الأعيان ترجمة رقم ٥٣١ من طبعة مصر) وأما الكيسانية فتنسب إلى كيسان مولى على أو تلميذ محمد بن الحنفية وتقول بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله

(٣) هم الذين تابعو زيد بن على بن الحسين فى دعوته وهم الشيعة المعتدلون وإن كان فريق أسرف حتى ليعد خارجا عنهم . وكان زيد معتدلاً مقسطاً فى دعوته وكان خروجه على بنى أمية لأنهم قتلوا جده الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار ولذلك رفضت الأكثرية الوقوف إلى جانبه لأنه لم يشايعهم فى بغضهم وعداوتهم لأبى بكر وعمر (المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٣٢٣)

تشيعت شيعة محمد بن الحنفية بعده لولده هشام ، وكان الخلفاء الأمويون يقربونه منهم ، لكن طيف الغدر طاف بهشام بن عبد الملك فأمر بأن يدس له السم ، وشعر هشام بالسم يدب فى عروقه وهو فى طريقه إلى المدينة فعرج إلى الحيمة حيث نزل ضيفا على محمد بن عبد الله بن عباس وأوصى له بالبيعة ، فلما توفى أوصى لابنه إبراهيم المعروف بإبراهيم الإمام[١] .

آراء الشيعة :

اختلط الأمر فلم يكن التشيع فكرة مذهبية فى حدود الدين – بل كان التشيع وكرا يلجأ إليه كل ملحد وكل مأفون وكل ساذج . وانتهت هذه الفرق الشيعية بأن دخلتها معتقدات لاتوصف إلا بأنها كفر صريح . وهذه المعتقدات تسربت إليهم من الفرس[٢] .

شعراء الشيعة :

وأشهرهم فى هذا العصر الكميت بن زيد[٣] وجمعت قصائده وطبعها بعض الناشرين[٤] بعنوان «الهاشميات» . وللكميت شعر مدح فى الأمويين .

وليس من شك فى أن الرجل وقف ذلك الموقف الغريب إنقاذاً لحياة ولست أرى ما يراه ابن قتيبة فى الكميت إذ يقول «إنه كان يتشيع وينحرف عن بنى أمية فى الرأى والهوى وشعره فى

---

(١) تقول فرقة من الكيسانية بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الإمامة وأسرار العلوم منه إلى ابنه أبى هاشم وهذا القول مهم جدا لعلاقته بظهور الدعوة العباسية بخراسان والعراق فإنها تأسست على مذهب القائلين إن أبا هاشم المتوفى فى أيام سليمان بن عبد الملك أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبى العباس عبد الله السفاح . ولولا ذيوع هذا الاعتقاد عند أهل الشيعة لما توصل السفاح إلى تأسيس الدولة العباسية (كارلونالينو : تاريخ الآداب العربية ص ٢١٧)

(٢) قول الشيعة بالعصمة والتقية والرجعة والمهدية والأئمة عندهم معصومون من الخطأ وهذه أفكار فارسية أدخلها الفرس الذين درجوا على أرستقراطية الملوك وتقديسهم لذلك سماها العرب نزعة كسروية وكانت الفرس قد ألفت منذ زمان طويل نظاما سياسيا أساسه توارث الملك فى عائلة فلم يكونوا يتصورون إمكان ملك عظيم متين اختارت العامة رأسه فمالت الفرس طبعاً إلى رأى أهل الشيعة فى الإمامة وزيدوا على ذلك (أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٢٦) و (كارلونالينو تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢١٥) .

(٣) الأغانى ص ٦٢٦٥ من طبعة الشعب وابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣٦٨ – ٣٧٢ وخزانة الأدب جـ ١ ص ٦٩

(٤) طبعت فى ليدن وطبعت فى مصر .

بنى أمية أجود منه فى الغالبين ولا أرى علة لذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على الآخرة » .

لست أرى رأى ابن قتيبة وعندى أن هاشمية من هاشميات الكميت تقول كل ما حفظته لنا المصادر من شعره فى الأمويين . كان الرجل يشايع بروحه وقلبه وكان يمدح الأمويين : أيقاس قوله :

بنى هاشم رَهْط النبى فإنّنى بهمْ ولهمْ أرْضى مِراراً وأغْضَب
خَفَضتْ لهم منى جناحَىْ مَودَّة إلى كنف عطْفَاهُ أهْلٌ ومَرْحَب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا مُحبًّا على أنِّى أُذَمّ وأقْصَب
وأُرْمَى وأَرْمى بالعَداوة أَهلَها وإنى لأوذَى فيهم وأُؤنَّب[1]

بقوله :

فالآن صِرْتُ إلى أُميَّة (م) والأُمور إلى المصَاير
يابنَ العَقائل لِلعَقائل (م) والجَحاجحة الأخَاير
من عبد شمس والأكا بر من أُميّة فالأكابر
إن الخلافة والإلاف (م) برُغْم ذى حسَد وواغِر[2]

ومن شعره السياسى قوله :

يَقُولُونَ : لم يُورثْ ولولا تُراثُهُ لقد شَركَتْ فيه بكيلٌ وأرحَبُ
ولأنتشلَتْ عُضْويْنِ منها يُحَابِرُ وكان لعَبْدِ القَيس عُضْوٌ مُؤَرَّبُ
فإن هى لم تَصْلُحْ لحىٍّ سِوَاهُمُ إذَنْ فذَوو القُرْبَى أحَقُّ وأَقْرَبُ
فيالَكَ أمْراً قد أشتَّتْ دُمُوعُه وداراً تَرَى أسْبَابَها تَتَقَضَّبُ
تَبَدَّلتِ الأشْرَارُ بَعْدَ خيَارِها وجُدَّ بها من أمّةٍ وَهْىَ تَلْعَبُ[3]

ومن شعرائهم أيم بن خزيم الأسدى[4] وفى الهاشميين يقول :

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٢٩٧ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق ص ٦٢٧٩

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٨٢ - ٥٨٣ بتحقيق أحمد شاكر

(٤) من أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس من مضر كان يتشيع وكان أبوه قد اعتزل حرب الجمل وصفين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضرها وهو الذى أعجب بشعره عبد الملك بن مروان لجدة معانيه وصوره وملاءمتها لمذهبه السياسى (ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٥٤١ بتحقيق أحمد شاكر) و(الأغانى جـ ٢٣ ص ٨٠٠٢ من طبعة الشعب)

نهارُكُمْ مكابَدَةٌ وصَومٌ ولَيْلَتُكُمْ صَلاةٌ وَافتراءُ
أأجْعَلُكم وأقْواماً سَواءً وبينكم وبينهمُ الهواءُ
وهُمْ أرضٌ لأرْجُلِكم وأَنْتُمْ لأَرْؤُسِهِم وأعْيُنِهم سَماءُ (١)

ومن الظواهر البارزة فى شعره صعوبة ألفاظه وإسرافه فى الغريب ونحسبه كان يتعمد ذلك لأن له شعرا سهلا كالذى سبق . وقد مدح كذلك عبد الملك بن مروان . ومن شعرائهم : الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب (٢) ، ومن شعره يخاطب بنى أمية :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لاتنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لاتطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
مهلا بنى عمنا عن نحت أثلتنا سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أنّا لا نحبكم ولا نلومكم ألاّ تحبونا
كل له نيَّة فى بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا (٣)

ومنهم أبو الأسود الدؤلى وهو يقول :

يَقُول الأرْذلُون بنوقشير طَوالَ الدَّهْرِ لاتَنْسى عليا
بَنُو عم النَّبىِّ وأَقْرَبُوهُ أحبُّ الناس كُلِّهُم إليّا
أحبهمُ كَحُبّ الله حتى أجىء إذا بُعِثْتُ عَلَى هَوَيَّا (٤)

ومنهم كذلك سديف بن ميمون (٥) ، ومن شعره قوله عند خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة وخروج ابنه إبراهيم بالبصرة :

إن الحمامة يوم الشعب من ضجن هاجت فؤاد عميد دائم الحزن
إنا لنأمُلُ أن ترتد إحنتنا بعد التباعد والشحناء والإحن
وتنقضى دولةٌ أحكامُ قادتها فينا كأحكام قوم عابدى وثن

---

(١) الأغانى جـ ٢٣ ص ٨٠٠٦ – ٨٠٠٧ .

(٢) هاشمى الأبوين ومن شعراء بنى هاشم وفصحائهم (الأغانى جـ ١٧ ص ٥٩٦٥ من طبعة الشعب)

(٣) المبرد : الكامل جـ ٢ ص ٢٧٩ والراغب الأصفهانى : محاضرت الأدباء جـ ١ ص ٢٢٨ من طبعة مصر

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣٣٢ من طبعة مطبعة الاعتماد والمبرد : الكامل جـ ٢ ص ١٣١

(٥) سديف بن ميمون مولى خزاعة وهو شاعر مقل من شعراء الحجاز وكان شديد التعصب لبنى هاشم (الأغانى جـ ١٦ ص ٥٩١٢ من طبعة الشعب وابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٧٦١ .

فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا إن الخلافة فيكم يابنى الحسن[١]

ومن شعره بعد قيام الدولة العباسية وتولى أبى جعفر المنصور ، وقد بعث به إليه :

أسرفت فى قتل الرعيَّةِ ظالماً فاكفف يَدَيْكَ أضَلَّها مَهْدِيُّها
فلـتأتِينَّكَ رَايةٌ حَسَنِيَّةٌ جَرَّارَةٌ يَقْتَادُها حَسَنِيُّها[٢]

الشيعة والبدع :

يقول أستاذنا أحمد أمين « والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته . . . »[٣] ويمضى الأستاذ فى تدعيم رأيه بحجج قوية لا تقبل الدفع فيما أرى . وهوكذلك فالشيعة وكر لجأت إليه قبائل من شتى الناس متباينة الجنس وأفرخت فيه عقائدها وأهواءها ، وسأعرض عليك طرفا من مذاهب الشيعة فالمحمدية زعمت أن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب لم يمت وزعمت أنه فى جبل حاجر من ناحية نجد إلى أن يأذن الله له بالخروج[٤] . وكذلك تزعم الكيسانية أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه سجين إلى أن يأذن الله له بالخروج[٥] .

ويظهر أن الكيسانية والمحمدية أخذا ذلك عن فرقة أخرى أسبق منهما فى التاريخ هى السبأية نسبة إلى عبد الله بن سبأ – من يهود اليمن – وأسلم ، وهوعَمود من العمد التى قامت عليها ودارت حولها مذاهب الفرق الشيعية ، وكان زعيمها من سبأ يقول « إن جئتمونا بدماغ علىّ فى صرة لم نصدق بموته »[٦] وذلك مذهب يسميه المؤرخون مذهب الرجعة[٧] . وهذا

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٢٧ من طبعة الخانجى ١٩٠٦

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٥ ص ٣٦٧ من طبعة مطبعة الاستقامة

(٣) فجر الإسلام ص ٣٣٠ من طبعة مطبعة الاعتماد .

(٤) المحمدية تعتقد الرجعة وتنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين الذى قتله جيش المنصور سنة ١٤٥ هـ بالمدينة (الفرق بين الفرق ص ٤٢ طبعة بدر) .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٥٢ طبعة بولاق والعقد الفريد جـ٢ ص ٤٠٥ طبعة لجنة التأليف

(٦) عملت اليهودية على بث بذور الفتنة بين المسلمين فتقدم عبد الله بن سبأ ولبس ثوب المشفق على الحياة الإسلامية والتقاليد الإسلامية فاستفز الناس واستطاع أن يجلب إليه اللذين رأوا فى تصرفات عثمان خروجا منه عن منهج سلفيه وأن سيرته فى الحكم اتخذت طريقا غير الطريق المرسوم من صاحبيه من قبل (ابن حزم : الملل والنحل جـ ٢ ص ١١٥)

(٧) الرجعة هى عودة الشخص بنفسه مرة أخرى إلى الحياة الدنيا بعد موته

المذهب أى الرجعة يرمز إلى أن الرجعة من السماء أو من الجبل أو من . . . التخليد أو مذهب البقاء ، دانت بهذا المذهب فرق من الشيعة فخلدت أئمتها .

وممن اعتنقوا هذا المذهب الشاعر الأموى كثير عزة (١) ، يقول كثير وهو من الكيسانية ، يعاتب محمد بن الحنفية لطول غيابه :

ألا قُلْ للوَصِىّ فدتك نفسى أطلتَ بذلك الجبل المُقامَا (٢)

ويصور هذا البيت عقيدتين من عقائد الكيسانية « الوصاية » فى الشطر الأول و « الرجعة » فى الشطر الثانى .

أضرّ بمَعْشَرٍ وألَوْك منّا وسَمَّوْك الخليفةَ والإماما
وعادَوْا فيك أهل الأرضِ طُرًّا مُقامُك عنهمُ ستّين عاما
وما ذاق ابنُ خَوْلة (٣) طعمَ مَوْتٍ ولا وارتْ له أرضٌ عِظاما
لقد أَوْفَى بمورِقِ شِعْبِ رَضْوَى تُراجعه الملائكـةُ الكلاما
وإن له به لَمقِيلَ صَدقٍ وأنـديـةً تحدِّثه كِرَاما
هدانا الله إذ جُرْتُمْ لأمرٍ به ولديه نَلْتمِس التَّماما
تمامَ مَوَدّةِ المهدىّ حتى تَرَوْا راياتنا تَتْرَى نِظَاما (٤)

أما هذا المهدى عند كثير فهو محمد بن الحنفية .

ولكثير :

أقر اللهُ عينى إذ دعانى أمينُ الله يلطُف فى السؤالِ
وأثنى فى هوايَ علىَّ خيراً ويسأل عن بَنِىَّ وكيف حالى
وكيف ذكرت حال أبى خُبَيْبٍ وزَلَّةَ فعله عند السُّؤالِ
هو المَهْدِىّ خَبَّرَناهُ كَعْبٌ أخو الأحبارِ فى الحِقَبِ الخوالى (٥)

---

(١) مضى ذكره فى باب الغزل

(٢) الأغانى جـ ٩ ص ٣١٣٤ من طبعة الشعب ورواه المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٠١ من طبعة المطبعة البهية وينسبه الى السيد الحميرى .

(٣) خولة : اسم أم محمد بن الحنفية

(٤) الأغانى جـ ٩ ص ٣١٣٤ من طبعة الشعب

(٥) المصدر السابق ص ٣١٣٦

ومن شعر لكثير فى محمد بن الحنفية وقد حبسه ابن الزبير :

ومن يَرَ هذا الشيخَ بالخَيْفِ من مِنىً … من الناسِ يعلَمْ أنّه غيرُ ظالِم
سَمِىُّ النبىِّ المصطفى وابنُ عمِّه … وفَكّاكُ أغلالٍ ونفّاعُ غارِم
أبَى فهو لا يَشْرِى هدًى بضلالةٍ … ولا يتّقِى فى الله لومةَ لائِم
ونحن بحمد الله نتلو كتابَه … حُلُولاً بهذا الخَيْفِ خَيْفِ المحارِم
بحيث الحمام آمِنُ الرَّوْعِ ساكنٌ … وحيث العدوّ كالصديق المُسالِم[١]
فما فَرَحُ الدّنيا بباقٍ لأهلهِ … ولا شِدَّةُ البَلْوَى بضربة لازِم
تُخَبِّرُ من لاقيتَ أنك عائذٌ … بل العَائذُ المظلوم فى سجن عارِم[٢]

والخطاب فى البيت الأخير لابن الزبير .

ومن شعره :

برِئتُ إلى الإله من ابن أروى … ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عُمرٍ برئتُ ومن عتَيقٍ … غداةَ دُعى أمير المؤمنينا[٣]

وبكى أهل كثير وقد حضرته الوفاة فقال لهم « خففوا عنكم فإنى عائد بعد أربعين ليلة »[٤] .

ومن بدع الشيعة زعمهم أن عليا وصىُّ النبى فالخلافة حق شرعى له وأن أبناء علىّ أوصياؤه من بعده .

ونحن نسجل أن هذه العقيدة من تعاليم الفرس نشرها بين الشيعة متشيعون ، وأنت تعرف نظرية حق الملوك الإلهى The theory of the divine Right. التى دان بها الفرس أجيالا .

ومن بدع الشيعة أيضا تأليه بعض الفرق لبعض الأئمة كالبيانية التى زعمت أن الإمامة صارت من محمد بن الحنفية إلى ابنه هشام عبد الإله بن محمد ثم صارت من أبى هاشم إلى

---

(١) هذا البيت يذكرنا بأشعار المتصوفين فى مناجاة الله

(٢) الأغانى جـ ٩ ص ٣١٣٥ من طبعة الشعب .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٩ من طبعة مطبعة المعارف

(٤) الأغانى جـ ٩ ص ٣١٥٦ من طبعة الشعب

بيان[١] زعيمهم . ومنهم من يؤلهه ومنهم من يجعل له مقام النبوة .

ومن الروافض[٢] « وهم الغلاة » من أله جعفر الصادق وفى ذلك يقول هارون بن سعيد العجلى :

ألم تر أن الرافضين تفرّقوا ... فكلهم من جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا إله ومنهم ... طوائف سمته النبى المطهرا
ومن عجب لم أفض جلد جُعَيْفَرٍ[٣] ... برئت إلى الرحمن فيمن تجعفرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض ... يصير بباب الكفر فى الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مَضَوْا ... عليها وإن يمضوا إلى الحق قصرا
ولو قال إن الفيل ضب لصدقوا ... ولو قيل زنجى تحول أحمرا[٤]

المرجئة

الإرجاء بمعنى التأخير ، يقال أرجيت كذا وأرجأته إذا أخرته ، وسموا المرجئة لأنهم أرجئوا الحكم على أمر علىّ وعثمان إلى يوم القيامة وقالوا : يحكم بينهما الله ليس لنا أن نحكم على أحدهما بالكفر أو الإيمان مخالفين فى ذلك الخوارج والشيعة ، فمن الأولين من كفّر عليا ومن الآخرين من كفر أبا بكر وعمر وعثمان لأنهم تولوا الخلافة متخطين حقا شرعيا لعلى بن أبى طالب .

وأول من قال بالإرجاء الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب – فيما يقال – وكانت المرجئة فى أول الأمر فرقة سياسية ثم كرهت السياسة وتركتها للشيعة والخوارج والحكومة

---

(١) بيان بن سمعان التيمى ، اشترك فى الحركة التى أحدثها الجعد بن درهم فى الكوفة وكانت سبب قتله بيد الوالى خالد القسرى وهو أول من قال بخلق القرآن وكان يعتقد أن إله السماء غير إله الأرض وأنهما مختلفان وأن إله السماء يفنى جميعه إلا وجهه وأضاف أتباعه إلى ذلك أن هذا الإله من نور (ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ٢ ص ١٤٨ – طبعة دار الكتب) و(الكشى : أخبار الرجال ص ١٩٦ – بومباى) و (الفرق بين الفرق ص ٢١٤ طبعة بدر) .

(٢) الروافض هم الذين رفضوا أن يمضوا مع زيد بن على بن الحسين فى القتال معه إلى نهايته وهذه التسمية تطلق أيضا على المخالفين عدا أهل السنة والإمامية

(٣) إشارة إلى ما قالته فرقة رافضة «الخطابية» زعموا أن جعفراً أودعهم جلدا فيه علم ما يحتاجون إليه وسموا ذلك الجلد جعفرا

(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ٢ ص ١٤٥ من طبعة دار الكتب

وانصرفت إلى بحث المسائل الفقهية وجماع رأيهم - رأى أغلبهم فى الإيمان أنه التوحيد والشهادة .

قال أستاذنا أحمد أمين : « رأى كثير من المرجئة أن الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله فمن عرف أنْ لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن »[١] .

وقال فى موضع آخر « فمن آمن بالله ورسله وترك الفرائض وارتكب شيئا من الكبائر كان مؤمنا عند المرجئة »[٢]

وقال أحمد بن محمد بن المظفر الرازى (القرن السابع) فى كتابه حجج القرآن من الباب الرابع « حجج المرجئة »[٣] فى أن مرتكب الكبائر مسلم ومؤمن ويقولون : إنه ورد فى سورة النور (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)[٤] ، وفى الفصل الثانى أن مرتكب الكبيرة يستحق المغفرة ، ففى سورة النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[٥] . وفى الفصل الثالث أن مرتكب الكبيرة يستحق الرحمة ففى سورة الأنعام (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة)[٦] .

إن مرتكب الكبيرة تدعو له الملائكة والأنبياء ففى سورة غافر (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا)[٧] ، ولم يقل : والذين عملوا الصالحات .

وفى الفصل السابع أنه بشر ففى سورة البقرة (وبشر المؤمنين) وأنه (أى مرتكب الكبيرة) ليس للشيطان عليه سلطان ، ففى سورة النحل (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون)[٨] .

---

(١) فجر الإسلام ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ القاهرة ١٩٢٨
(٢) المصدر السابق
(٣) الفصل الأول
(٤) آية ٣١
(٥) آية ٤٨
(٦) آية ١٤٧
(٧) آية ٧
(٨) آية ٩٩

ولا نمضى فى هذا وإلا لتعرضنا للاتهام بالخروج عن موضوع البحث فلنعد إلى الشعر. ولنرو لك من قصيدة لثابت بن قطنة [١] فى الإرجاء[٢] :

يا هِندُ فاستمعى لى إنّ سيرَتَنا ... أنْ نَعْبُد الله لم نُشْرِكْ به أحدا
نُرْجى الأمورَ إذا كانتْ مُشبَّهة ... ونَصْدُق القولَ فيمن جارَ أو عَندا
المُسلمون على الإسلام كلُّهمُ ... والمُشركون أشتُّوا دِينَهُم قِدَدا[٣]
ولا أَرَى أنّ ذَنْباً بالغٌ أحَداً ... م الناس شِرْكاً إذا ما وحَّدُوا الصَّمَدَا
لا نَسفِك الدمَ إلا أن يُراد بنا ... سَفْكُ الدِّماء طريقاً واحداً جَدَدا
مَن يتَّق الله فى الدنيا فإنَّ له ... أجْرَ التَّقِىّ إذا وَفَّى الحِسابَ غَدا
وما قَضَى الله من أمر فليس له ... رَدٌّ وما يَقْضِ من شىءٍ يَكُنْ رَشَدا
كلُّ الخوارجِ مُخْطٍ فى مَقَالته ... ولو تَعبَّد فيما قَالَ واجْتَهدا
أما علىٌّ وَعُثمانٌ فإنهما ... عَبْدانِ لَم يُشْرِكا بالله مُذْ عَبَدَا
وكان بينهما شَغْب وقد شَهِدا ... شَقَّ العَصا وبِعَيْنِ الله ما شَهِدا
يُجزَى علىٌّ وعثمانٌ بسَعْيِهما ... ولستُ أَدْرى بحقٍّ أيَّةً وردَا
الله يَعلم ماذا يَحْضُران به ... وكل عبد سيَلْقَى الله مُنْفَرِدا[٤]

ولنصر بن سيار فى قصيدة يهجو بها جماعة المرجئة منها[٥] :

إرْجاؤكم لَزّكم والشِّركَ فى قَرَنٍ ... فأنتمُ أهلُ إشراكٍ ومُرْجُونا
لا يُبْعِدِ الله فى الأحداثِ غيرَكُمُ ... إذ كان دِينكُمُ بالشِّركِ مقرُونا
ألقَى به الله رُعباً فى نحورِكمُ ... والله يَقْضِى لنا الحُسْنَى ويُعْلينا

---

(١) هو ثابت بن كعب ويكنى أبا العلاء وهو شاعر فارسى شجاع من شعراء الدولة الأموية (الأغانى جـ ١٤ ص ٥١٢٩ من طبعة الشعب)

(٢) رواها كاملة الطبرى جـ ٢ ص ١٥٧٦ من طبعة أوروبا والأغانى جـ ١٤ ص ٥١٣٧ من طبعة الشعب

(٣) قددا : فرقا

(٤) الأغانى جـ ١٤ ص ٥١٣٧ من طبعة الشعب

(٥) الطبرى : القسم السابع ص ١٠٠ من طبعة أوروبا.

الكتاب الثاني

الشعر العباسي في العصر الأول
تطور الشعر

ما التطـور ؟

هو الانتقال من حال إلى حال . فما تطور الشعر العربى فى العصر العباسى ،هو انتقال من البسيط إلى المركب وقد تحلل هذا المركب العام إلى جزئيات قد تبدو بسيطة وليست بسيطة فهذه الجزئيات ما كانت لتوجد لولا التركيب السابق .

كان الشعر الأموى عربيا خالصا لأن الشعب الأموى كان عربيا خالصا أو كالخالص . أما الشعر العباسى فمركب لأن الشعب العباسى مركب من شعوب شتى امتزجت وتفاعلت ثقافاتها المختلفة ، ثم أكب الشعراء على نفوسهم الخاصة فطبعوا على القرطاس ما يجدون فيها ومنها فهذا أبو العتاهية زاهد متصوف ، وهذا أبو نواس أسير غريزة شاذة وهذا ابن الأحنف عاشق للجارية وهكذا . . . على أنك إذا حللت شعرا لهؤلاء أو غير هؤلاء من معاصريهم على ضوء شعره تبيّنت أن هذا الشعر جد متشابك وأن هذه النفس كثيرة التفرق .

ومادام هذا التطور امتزاج العرب بغيرهم من الأمم فلنحدثك أول ما نحدثك عن التوليد .

التوليـد

هو أن يختلط رجل من أُمَّةٍ بامرأة من أُمَّةٍ أخرى فينسل اختلاطهما ولدا «مولَّدا» يجرى فى عروقه دم الأمَّتين.

المجتمع البغدادى خليط من العرب والفرس والخراسانيين والروم واليونان والقبط والأرمن والترك والزنوج وأهل السند.

وهذه الشعوب امتزجت امتزاجا قويا واختلطت أنسابها، وساعد على هذا الاختلاط كثرة السرارى والجوارى اللاتى أسرن فى الحروب الإسلامية، وربما أسر منهن فى الحرب الواحدة ألوف، وهؤلاء الجوارى كان يجرى عليهن ما يجرى على سائر غنائم الحرب وهى الخمس لمال الدولة والأربعة أخماس توزع على الجيش للراجل سهم وللفارس سهمان.

وكثر عددهن بكثرة الحروب كثرة فاحشة حتى كان فى بعض القصور ألوف من الجوارى – ولم يكتف الناس بسبايا الحروب بل اتجروا بهن وجلبوهن من مختلف البلاد – ولا نستطرد فى هذا فسنخصص للجوارى بابا فى الموضع المناسب.

ونقول: إن هذه الدماء امتزجت هى وغالب المولدين فى ذلك العصر مع أبناء الجنسية الواحدة من الخلفاء وكان أكثرهم مولَّدا فموسى الهادى وأخوه هارون الرشيد ولدا سبية من خرشنة هى «الخيزران» والمنصور أمه «سلامة» بربرية من بلاد المغرب والمأمون أمه جارية فارسية اسمها «مراجل» والمعتصم أمه جارية والمتوكل أمه جارية، وهكذا أغلب الخلفاء من أبناء الإماء.

شعراء العصر كان أغلبهم من الموالى مثل بشار وحماد عجرد وأبى نواس وأبى العتاهية ومسلم ابن الوليد ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبى دلامة وأبان بن عبد الحميد اللاحق والضحاك وديك الجن والرقاشى وابن مناذر والعكوك والرياشى. ونجد بين من ذكرناهم موال، والراجح أنهم مولدون – أغلبهم مولد على أقل تقدير.

نقول بادئ ذى بدء إن لكل شعب خصائص ومميزات فطبيعى أن يكون لجيل مولَّد خصائص تميزه عن الجيل الصريح النسب الخالص الجنس.

وإذن فلابد أن نستعرض قوانين الوراثة ، ونرى رأى العلماء فى التوليد ثم نصدر حكمنا على هذا الجيل الجديد .

هذا الوليد صبيح الوجه مليح القسمات سريع اللفتات مفعم قوة وحياة تنظر إليه فتكاد تنهبه عيونك فما بال ذاك يستقبل الشمس شاحب الوجه أعجف العود جامد النظرات ؟ .

هذا الطفل دفعوا به إلى المؤدب فشهد له بسرعة الخاطر وتوقد الذكاء فما بال ذاك مطبق الفهم فيه ما فيه من غباء ؟

وهذا الغلام نبيل المشاعر يسيل رقة وحنانا وذاك شكس صلف عنيد فما السر المغيب وما الطلسم المحجب ؟

زعم قوم ويزعمون أنها المصادفة المحضة ولكن المصادفة هنا معناها الجهل بالسر فهم جهلوه فعزوا الأمر إلى المصادفة ، والعلم ما يزال يكشف أسرارا ما كان ليصل إليها بالخيال آباؤنا الأولون .

الإنسان بعناصره الثلاثة :

١ – المادى وهو الجسم .

٢ – المعنوى وهو النفس .

٣ – أداة الوصل بينهما وهى العقل – خاضع لقانون الحياة العام ألا وهو الوراثة .

نحدثك عن التوليد Engeration ولكن ما السبيل إليه وهو فرع – ولما نحدثك عن الوراثة وقوانينها وهى أصل ؟

الوراثة قانون الحياة الصارم ودستورها الأعلى وإن أنكرها ولا يزال ينكرها من ينكرون الجانب المادى « الفسيولوجى » من الموضوع ، فقد درس منذ أمد بعيد وفرغ منه . أمّا الجانب « السيكولوجى » فلا يزال متخلفا عنه وإن كان قد وصل إلى نتائج لا بأس بها .

منذ فجر التاريخ لاحظ الناس أن ظواهر نفسية وأخلاقية تنتقل بالوراثة كما تنتقل الظواهر الجسدية والأمراض والخواص الطبيعية ، ولقد آمن بذلك « الكتاب المقدس Bible » ، كما آمنت به شريعة مانى . ولكن أهمية الموضوع لم تدرك قبل أيامنا هذه حتى فى هذه الأيام لا يتحدث عنه الباحثون بجلاء ووضوح إلا بشىء غير يسير من المشقة والنصب .

الكل متفقون فى أثر الوراثة المادى لأنه محسوس ، فالقصد كما يقول عنه «Liebreicht» يطّرد فى البلاد المتمدينة .

وكذلك الأمر فى الحواس : فكثير من الموسيقيين موسومون بالصمم Surdité-mutité وبرقة الأذن .

« وكثير من العائلات يعتمد على اليد اليسرى دون اليمنى كما لوحظ أن الذين قضوا مددا طويلة لا يعملون عملا يدويا ينسلون أولادا قصار الأيدى[١] » .

« الإنجليز الصغار الذين يتعلمون الكتابة فى فرنسا يميل خطهم إلى الخط الإنجليزى » وقال بعضهم :

« أما أنا فقد حققت حالات عدة وحركات معينة وعادات رديئة وأدواء » حركات عديمة الفائدة وأخرى مثيرة للضحك تنتقل فى حالات لا يمكن أن نعزوها إلى المحاكاة «Imitation» كهذا الذى ورث عن أمه التى ماتت فى مرض الولادة (النفاس) حركة شاذة خاصة .

نكتفى بهذه الإشارة إلى أثر الوراثة فى الجسم ثم نقول :

إن بين الجسم والعقل ارتباطاً شديداً ، لقد اختلف العلماء فى طبيعة العقل ، فقال القدماء إنه شبح لجسم الإنسان اتخذه مسكناً .

قال أرسطو « بل هو مادة روحانية » وقال بعض تلاميذه « بل هو ذرات مستديرة شفافة » وقال أصحاب النظرية السلوكية Behaviourism «إن هو إلا رد فعل على المؤثرات والمنبهات » .

ومهما يكن الخلاف بين هذه النظريات – ما أشرت إليه منها إشارة وما لم أشر – فإن علماء السيكولوجيا التجريبية وعلماء السيكولوجيا النظرية على السواء متفقون فى ارتباط العقل والجسم فمنهم من قال : إن العقل والمخ شىء واحد وإنما هما مظهران مختلفان لشىء واحد . ومنهم من قال : إن المخ ولّد العقل كما ولّد الأيدروجين والأكسيجين الماء .

نظرية التفاعل Interactionism :

قالوا إن الإنسان إن فكر فى تناول شىء تحركت يده تحركا آليًّا بحركة موصلة من أعصابه

---

(١) سبنسر.

المخية الدافعة ، كما أن العينين ترى الأشياء فتعكس صورها فى الذهن أو بعبارة أبسط فيدركها العقل ، ورد عليهم خصومهم بأن الفكر وهو شىء غير بادٍ لا يمكن أن يؤثر فى شىء مادى فليس بين العقل والجسم علاقة سببية وإنما كل حركة عقلية يصحبها مظهر خاص .

ويؤيد هؤلاء نظريتهم وهى نظرية التوازن Parallelism بأمثلة كثيرة كالشخصية المزدوجة وهى من مباحث التشريع الجنائى . وقد رد عليهم خصومهم بأدلة كثيرة مناقضة كقولهم لو صح مذهبكم فَلِمَ يتشتت فكر مستغرق متسلسل عند صوت غنائى ؟

ومهما يكن فأنا أكره أن أخوض معك غمار هذه النظريات فى هذا البحث وكل الذى أريد أن نتفق فيه هو أن بين العقل والجسم ارتباطاً شديداً ، الواسطة فيه «الجهاز العصبى» ويروى بعض أن الإنسان عقل وجسم فهو يجعل العقل والنفس شيئاً واحداً ، وأنا أميل إلى هذا الرأى بل أرى أن الإنسان عقل وجسم ونفس وأن للعقل وظيفة وللنفس وظيفة وبين العقل والجسم ارتباطاً كما أن بين النفس والجسم ارتباطاً ، ولا أحب أن نطيل فى شرح مثل هذه الروابط فحسبنا فى مثل هذا البحث أن نلاحظ أن كل شعور نفسى له مظهر أو أثر جسمى فأنت إذا غضبت ارتجفت أعضاؤك واحمر وجهك ، وإذا خجلت — ولا خجلت — احمر وجهك ، وأنت إذا نظرت إلى صورة من صور الطبيعة خلابة شعرت بهدوء فى النفس واطمئنان وارتياح ثم أظهرت أثر شعورك كأن يسترخى جسمك وأنت تنظر عند أطرافك أو يميل رأسك ناحية ما . وبعبارة قصيرة تكون فى حالة — انسجام — كما يعبر البعض أن العاشق وهو مع عشيقته يتجاذبان أطراف الهوى تبدو عليه صور خاصة كأن تثقل جفونه حتى ليحسبه الناظر نشوان خمر أو وسنان طاف به الكرى .

وبعد فيظهر أن الوراثة نقل عام للخصائص الأولية كما يقول Gandolle. وقد استشهد إخواننا الغربيون على أثر وراثة النفس بعائلة Back وعائلات أخرى نبغت فى التصوير والرسم[1] ، فمنذ سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٨٠٠ نسل Fetis ٥٧ موسيقياً من بينهم ٢٩ تفوقوا وبرزوا .

ولقد درس M. Arréat ٣٠٠ حالة فى رسالة Saychologie de Peintre فوجد أن ثلثيهم أبناء رسامين أو عمال فنيون واستشهدوا بعائلات :

Des Jussieu — Des Cassini — Des Candolles — Des Saussure Bunoulli... ete.

---

(١) Jeniers, Parrache, Bellim, Man, Ostade... etc.

ويلوح لنا أن الأمثلة فى الأدب أقل منه فى غيره (وربما كان هذا لتنوعه وتشعبه). ومن شاء أن يقتنع أكثر من هذا فعليه بقراءة كتاب Eridatory Genias (تــوارث العبقرية) لمؤلفه « Galton » ، ومع ذلك فنحن لا نعدم أمثلة من تاريخ أدبنا ، فعائلات الشعراء كثيرة جدا نذكر منها عائلة عبد القدوس والنعمان بن بشير (جده وأبوه وعمه وحفدته) شعراء . وعائلة جرير بن عطية الخطفى (كثيرون) وعائلة دعبل بن على الخزاعى (من أشهرها عمه أبو الشيص وولده جندل) وعائلة أبان اللاحق وعائلة أبى العتاهية وآل أبى أمية وآل المعدل وآل أبى عيينة والمهلبى والراعى والأخطل وابن أخته القطامى وامرئ القيس وأبى الشعبى وابنه عبد الله وطرفه وأخته الحادرة . . . إلخ .

ولا يجوز أن هؤلاء كانوا يتعلمون الشعر من آبائهم فهم يلقنونه صناعة وليسوا شعراء بالطبع لأن فيهم الفحول والمجيدين كالقطامى ابن أخت الأخطل ودعبل (عمه أبو الشيص) وحادرة (أخت طرفة) وكعب بن زهير .

فهؤلاء كان لهم بلا ريب استعداد خاص هيأ لهم النبوغ .

الانتقال الوراثى :

التاريخ باب من أبواب دراسته ، ومن الأبحاث الهامة فى هذا الموضوع كـتـاب Weidermeister وكـتـاب La Selection (الاخـتـيـار) لمؤلـفـه Jocoly ورسائل لصاحبيها Déryérine و Ireland نخص بالذكر رسالته الأخيرة وهى « تاريخ المرض العصبى الوراثى فى البيت الإسبانى » Histoire de la Nevrose Hereditaire de la maison d'Espagn وهذا الكتاب يتكلم عن تاريخ المرض فى ثلثمائة وخمسين سنة ويشمل ثمانية أجيال من الناس .

وخاتمة هذا الكتاب غير مشجعة فقد لخصها أحدهما فيما يأتى « ما طار طائر وارتفع إلا كما طار وقع » .

إن التاريخ المجيد لهذه العائلات الكبيرة ليستحيل استحالة سيئة سريعة والشعوب أفراد .

من المفيد أيضاً أن نلاحظ أنَّ « الخلق القومى » ثابت عند الشعوب ، وهذا الخلق القومى هو الصفات والنقائض مرتبة ترتيباً سيكولوجيا واضحاً يشاهد باستمرار وبقوة فى تاريخ الأمة منذ المهد .

يجب أن نفرد بلا شك جزءا عظيما من هذا النقل الوراثى لأثر التعليم والعادات والأنظمة العامة ، فلها قوة فعالة فى ذلك القهر Loonservatrise تكن هذه المؤثرات لأن الأخلاق الحقيقية Varis لا تتغير عند الأمم أكثر مما تتغير عند الأفراد .

وبعد قليل خير ما نختم به هذه المقدمات أن نلفت نظر الذين ينكرون «الوراثة» إلى وصية الرجل الأمريكى الذى تزوج امرأتين إحداهما حَصَان والأخرى بغى وأوصى بأن يحصى نسله من كلتيهما بعد كذا من الذريات ، فإن النسبة ٩٤٪ من نسل أولادهما تتقلد المناصب الرسمية وتمتهن المحاماة والطب والهندسة . على حين ٩٩٪ من نسل الثانية مشردون تطاردهم الحكومة وتزج بهم إلى السجون .

وبعد هذا الاستعراض السريع يعرض للذهن سؤال هل للانتقال الوراثى قوانين ؟ وليسهل علينا فهمها يجب أن نعرف ما الخلية البشرية ؟

الخلية البشرية

CELL

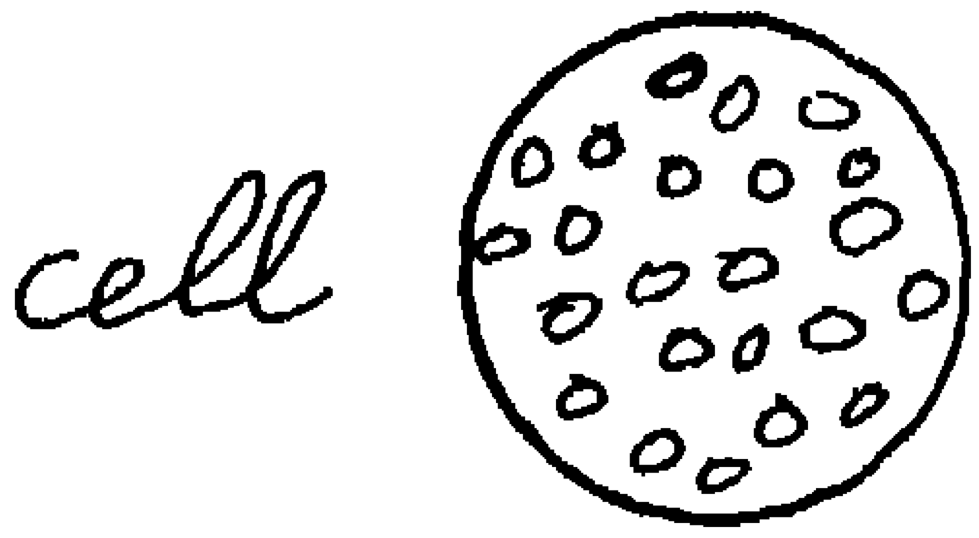

الخلية فى الإنسان مكونة من ٢٤ قطعة

١٢ منها Miscrojametocytes O Male

و ١٢ Miscrojametocytes O Female

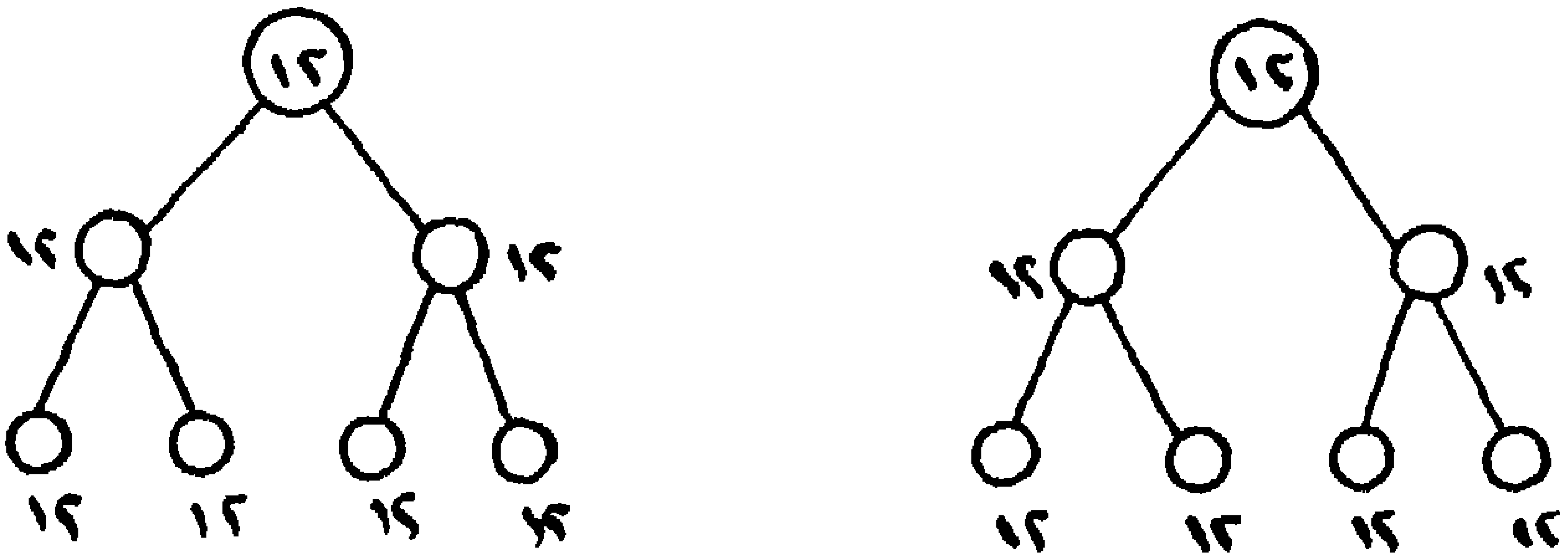

أى أن كل قطعة تتجزأ إلى قسمين وكل قسم ينقسم قسمين وهكذا بالتتابع وهو ما يسمى بالتوالد .

ويتكون الجنين Offspring إذا ما لقح أحد هذه الأجزاء الذكرية جزءاً من الأجزاء الأنثوية .

وإذن فمن كل والد ½ (١٢ خلية) وكل ½ يقسم قسمين فأبو الجنين ورث عن أبيه ½ خلاياه ، فكأن الجنين يرث ¼ الخلايا من جده ، و ¼ كذلك من جدته ، وإذن فالنصف من أبويه والنصف من جديه و ⅛ من الجد الثانى وهكذا إلى ما شاء الله .

هذا هو القانون العام لكننا سنفصل كل هذا .

قوانين الوراثة

ولا نريد بهذا العنوان أن نعرف القوانين العلمية تعريفا واضحا علميا ، فذلك مستحيل استحالة مطلقة . والقانون العلمى وحده هو الذى يجعلنا نتنبأ بأن هؤلاء الأولاد الذين انحدروا من هؤلاء الذين ولدوا فى هذه الظروف المعينة سيرثون هذه الأخلاق الغلابة – من يجسر على التنبؤ بنبوءة كهذى ؟

ولكن هذه القوانين صارمة وعامة لأنها بنت التجربة والاستقراء ، وهذه القوانين كما حصرها Hegel ثمانية لكننا نستطيع أن نحصر ثمانية فى أربعة .

١ – قانون الوراثة المباشر :

« الآباء يورثون بنيهم أخلاقهم وعقولهم » هذا هو القانون العقلى النظرى الذى توصل إليه بعد عدة فروض عقلية أثبتت فى النهاية باطراد أن النسل يرث من أبيه أخلاقا ومن أمه كذلك ، وليس لنا دليل من الواقع الملموس على هذا . . وأحيانا ينقل الوالدان المظاهر الخارجة ويورث الآخر الصفات النفسية[1] .

٢ – قانون التغلب :

« التغلب Predominator هو الذى يؤثر فى الولد التأثير الأكبر » . والرأى الشائع بين

---

(١) وقد عملت عدة تجارب منها « أنهم خلطوا » « البول دوج » و « الكلب السلاقى » فاختفت ملامح « البول دوج » تماما بعد سبع ذريات ولكن صفات الشجاعة والثبات ظلت ثابتة لم تمح ولم تضعف » (دارون)

الناس هو أن القانون التشكيلي يسود « البنت تشبه الوالد والولد يشبه الأم » ولا شيء يحقق هذا الغرض ولو أن كثيرا من العلماء تشبثوا به نذكر منهم Baffon

٣ – قانون الوراثة الرجعية أو وراثة الأجداد Atavisme :

كثيرا ما يرث النسل صفات نفسية أو ظواهر جسدية عن جدودهم لا يشبهون فيها آباءهم ولا أمهاتهم ، وقد سبق شرح ذلك وإنما نضيف مرضا عائليا قد يتخطى ذرية أو أكثر ثم يصيب ذرية .

ومن الحالات الوراثية الرجعية مشابهة العم Véredité Eollatérale أحياناً في شيء أو أشياء ولا تعليل لذلك إلا أن الولد والعم ورثا هذا الشيء المشترك في جد مشترك .

وهذا يفسر لنا كذلك ما نراه من نزعة بعض النساء إلى التزيي بزي أخلاق الرجال وذلك غالبا بعد استئصال المبيض أو إذا بلغن من الكبر عتيا .

٤ – قانون الوراثة في العصور المترسلة من الحياة :

“Loi d’heredité aux epoques covorespondante la vie”.

استعدادات طبيعية وعقلية معينة تظهر في النسل في نفس السن التي ظهرت فيها في الأصل .

شوهد مثل هذا في الصمم وفي الأمراض العصبية والعقلية . وداء الانتحار يستحق تنويها خاصا فهو منتشر جدا فمنذ القرن الماضي كان (فولتير) يلفت إلى هذه الظاهرة أنظار الطبيعيين Physiciens وقد لوحظ في فترات معينة الانتحار بنفس الوسيلة فإما بالغرق أو بالقذف من النافذة أو بالقذف من السطوح أو إشعال النار .

وهذا النوع من الوراثة لا يختلف و (الوراثة العادية) فهو قضاء وقدر كمين تجلبه للوالد أو للأم طبيعة غير ثابتة تترجمها الأعضاء بالانتحار أو الجنون . الطفل يولد سليماً في الظاهر ، ولكن الوصية القاسية سطرت في عروقه وجرت في مجاري دمه . وهل هناك أدل على سلطان الوراثة التي تثقلنا فننوء بها من ذلك الذي ينتحر وهو بلا ضمير وهو خليٌّ بال ؟ .

الاستثناءات

دراسة قوانين الوراثة لا تكون تامة إذا لم تدرس الاستثناءات ، إن نقائض انتقال الوراثة كثيرة حتى إنك لتسائل نفسك أكثر من مرة أموجودة هى أم لا ؟ أفما سمعت أكثر من مرة قائلا يقول « هذا الطفل لا يشبه فى شيء والديه إنه شاذ فى العائلة » . إن خصوم نظرية الوراثة ولا سيما السيكولوجيون اعتمدوا على مثل هذه الحالات فأنكروها . إن الصعوبة لتنقص كثيرا إذا أحسنا صياغة المسألة . لم نر قط أبيضين نسلا أسود أو كلبين من فصيلة « البولدج » نسلا كلباً من فصيلة « السلوق » . إن الشيء ينتج مثله Sa semblable produit le semble هذه قاعدة تقرر نفسها بالبداهة ، وهذا يعنى أن الأخلاق العامة والنوعينSpessifiqua تورث دائماًL'heredite et la loi, la mon-heredité est l'escipمن الصعب بل من المستحيل أحياناً تعليل هذه الاستثناءات وهذا يثبت نقص علومنا لا عطب قانوننا . إن نمو الكائنات الحية محكوم بعاملين متضادين :

١ – الوراثة = عنصر المحافظة

٢ – التباين = عنصر التنويع

لو كان الأمر الأول وحده لكان العالم نموذجاً للتكرارRepitition والوحدةMonotonic ولو كان للثانى لما اتصف شيء بالثبات ولا اتسم بالمشابهة ، وإنما الكائن الحى نتيجة اجتماع هذين الصانعين اللذين يعطى أحدهما « التشابه » والآخر « الاختلاف » .

نظرية الوراثة

بحث أسباب الوراثة دخول فى الفرضيات وهى كثيرة محيرة ولقد ذكر كاتب من كتاب القرن السابع عشر ٢٦٢ نظرية ، ونظرية « الأخيرة له » لن نلح على القوانين التى لم يعد لها سوى فائدة تاريخية : قوانين القوى الجسدية عند العلماء الروحانيين ، قوانين الخلقة الأولى وأزلية الجراثيم .

هذه القوانين التى انتشرت فى القرن الماضى انتشارا عظيما والتى تعتبر « الجنين » مالكا لجميع

الأعضاء لا ينقصه إلا أن تتضخم مع الزمان ، فعندهم أن الكائن الجديد كان تام التكوين فى البيضة Oeuf والذريات المتعاقبة كانت مختفية الواحدة فى الأخرى منذ أول جد إلى آخر حفيد هذه النظريات تسقط النظريتين العمليتين اللتين سيطرتا منذ الأزل إلى أيامنا هذه .

١ – نظرية الأصل (الاستخراج) Extiaction

٢ – نظرية انتقال الحركات

نظريات الأصل المختلفة لها طابع عام هو أنها تعتبر جميع أجزاء الجسم منبعثة إلى أعضاء التناسل بخواص تمثل هذه الأجزاء .

هذه الشريعة التى نصادفها فى الكتابات الأبوقراطية (نسبة إلى أبوقراط) والتى تتحول إلى أشكال مختلفة انتهت إلى الغرض الذى فرضه (دارون) وهو يفرض أن كل الأنسجة العضوية تصدر جراثيم (أصولا) تدور فى جميع أجزاء الجسم وتتضاعف بالانقسام ، كل خلية فى كل طور من أطوار نموها تصدر جزئيات Gemmuels الأمر الذى يفسر كيف أن الجنين يعيد نحو والديه .

هذه الجزئيات Gemmuels قد تظل نائمة فى أثناء عدة ذريات ، وهذا ما يفسر « مشابهة الأجداد » Atavismc. لكن دستور « دارون » لم يعد له أنصار « Herbert Spencer » استند على نظرية مشابهة فى كتابه « عناصر علم الحياة » وهى Prineiples of Biology

نظرية الحركات الانتقالية :

ابتدأت بأرسطو وأيدها Harvey وانتهت إلى Haeckel انتقال القوة Force وهى مدينة لتداخل الذكر فى التلقيح وهى السبب المؤثر فى نمو الفردية . وأحدث شكل لهذه النظرية هو الشكل الذى يقول به Haeckel وهو يعلل سبب الوراثة بحركات تموجية بواسطة المادة المصورة Plastitudes التى لها جميعا ذاكرة عضوية ، إذا استثنينا الخواص العامة للمادة الحيوانية Matièra Vevante ذرات المادة المصورة Les plastitudes الأبوية والأموية Maternel تنقل الحركات الذرية إلى البنوية . هذه الحركات تحتفظ بها الذرات البنوية وهكذا تحصل على خواص الآباء نفسها .

يلوح لنا أن فرض Haeckel يمشى جنبا إلى جنب مع فرض دارون .

النظريات هى :

إنه لم يبق إلا أن نتكلم عن أحدث النظريات وأكثرها شهرة نظرية Weisman

الصفات المكتسبة :

التى يكتسبها الفرد أيمكن أن تنتقل فتثبت فى نسله ؟ لوكان الجواب بالإثبات فظاهر أن سلطان الوراثة يعادل الخلق Creation ولوكان بالنفى فعملها ينحصر فى « المحافظة » ثم هى بعد لا تغنى ولا تفقر.

فى تاريخ هذا السؤال تمايز بين عهدين :

الأول يبدؤه Lemard ويعبر عنه بأجلى شكل ، العلماء العظماء معاصرونا دارون وسبنسر وهيجل وحواريوهم .

والثانى : يبدؤه Galton حوالى سنة ١٨٧٥ ويؤكده Wallace و Weisman وأنصاره ولكل من الفريقين حجج ودفوع .

الأولى : تستند على قول لامارك «كل ما تكسبه الطبيعة للأفراد أو تفقده إياهم تحافظ عليه الوراثة » Platt Ball فى كتابه « مسببات العادة والجماع أهى وراثية ؟ » .

« Les effets de l'Usage et de la desustude sont-ils heréditaires? »

الذى يرجحه M. Des Verjiny يقسم الحالات التى استندت عليها شيع الإثبات Affirmative التى يخاصمها هو إلى أربعة وعشرين جسما . وليس فى استطاعتنا إلا أن نحيل على الكتاب نفسه من يريد التفصيلات .

شيعة النفس :

حجج تحتاج إلى تفصيل طويل وإلى تغلغل فى صميم الطب فنجتزئ بأن نقول إن Weismen زعيم هذه الشيعة استعان بدراسته الواسعة لمباحث « علم الجنين » التى يؤولها تأويلا يخضعها به لدعواه بين الخلايا الجرثومية « الأصلية Germinatim » التى تمثل استمرار بقاء النوع والخلايا البدنية والجسمانية Sovesatiques التى يتحول بها الفرد وهو فرق كبير . وتنوعات الثانية ليس له أى تأثير على الأولى .

ومن آراء Weisman التى اعتمد عليها فيما ذهب إليه من آراء أن الكائنات ذات الخلية الواحدة Unicellulaires التى تنتج من علق خالدة لا يهلكها إلا الحادث Accident فمن الممكن أن تستمر حياتى بلا انقطاع إذا لم تشل حركتها عوامل خارجية .

الوراثة عاجزة عن المحافظة الدقيقة على ملامح الأجداد هى تتقهقر ، وبعبارة أخرى ، أمام القوة الوراثية الفردية La puissanee de l'Heredité individuelle وهى تظهر إلى الأبد فى واحد أو عدد من الأفراد مجيبة بذلك نداء آبائنا الأولين .

التناقض الخلقى

وأثرها ظاهر كذلك فى اجتماع الصفات المتنافرة وبالجملة فكل الصفات المتنافرة يمكننا حملها على عامل الوراثة ولون الشَّعر . نلاحظ كذلك أنه لاحق بها ، ولكن الألوان المختلفة لا تنتقل بنفس الشكل ، إلا أن لون العيون أكثر مراعاة لهذا الامتزاج (التوليد) المفسر للشكل ونستطيع أن نستنتج عندما نرى سواد الشعر يجتمع هو وزرقة العيون أو خضرتها أن نسبة من الدم الأشقر يجرى فى دم الأهلين الأسمر . ونستطيع أن نتأكد من هذا الامتزاج تأكداً أقوى من الأول عندما نرى عائلة سمراء فيها غلام أو غلامان شقراوان . ألا تدرى أن أولاداً سمراً من آباء شقر لكنه كثيراً ما نلاحظ أو نألف فى شخصٍ الشعر الأسمر وعَيْنَيْن زرقاوين يعلوهما حاجبان سوداوان وكذلك امرأة بيضاء تشابه لون الزنوج فى جزء من بشرتها (وقد شوهد ذلك أكثر من مرة) .

وكثيرا ما تورث ظواهر فسيولوجية هامة كإطالة العمر ، الصلع ، تسويس الأسنان . . . بيد أن الظواهر العقلية أهم بكثير لكنها لا تخضع للقواعد البسيطة الصارمة .

قد انتهينا من الأصل فلنتكلم عن الفرع بعد أن مهدنا له بذلك التمهيد الطويل .

التوليد

اعتقد القدماء أن للتوليد آثارا حسنة فى الشعوب المولدة وبذلك جرت أقلامهم ، وقد فطن إلى ذلك العرب ، فالجاحظ يقول « إن الإسرائيلى لا يتزوج إلا الإسرائيلية فكانت

الغرائب لا تشوبهم وفحولة الأجناس لا تضرب فيهم وإنك لتعرف ذلك فى الخيل[١] والحمير والحمام » .

رأى المحدثين :

وإذن فليست نظرية « السوبرمان » حديثة كما يظنون – وهذه النظرية حديثة فى أوروبا وهى تتلخص فى العمل على خلق عنصر إنسانى يفوق هذه العناصر الموجودة الآن من حيث القوة والنشاط والثقافة والحضارة . وذلك بعقد مصاهرات بين جنسين يكون نسلهما قويا . وبهذا يوجد « السوبرمان » أى « المثل الأعلى للإنسان » . وقد قال بهذه النظرية نيتشه فيلسوف الألمان وتناولها برنارد شو بالبحث والتعليق .

نصيبها من التأييد :

الكثيرون يؤيدونها تأييدا مطلقا والبعض ينكرها قائلا إنها خيال . أما المؤيدون فيستندون على الاستقراء التاريخى وليس لهم من قوانين الوراثة سند متين يصمد أمام هجمات المنكرين لولا الاستقراء التاريخى .

المنكرون : منهم من يزعم أنه ليس للتوليد أثر من الآثار متميز .

رأى ثالث : وأصحابه لا ينكرون أن التوليد له آثار متميزة ولكنهم ينكرون الانتخاب المقصود ويؤمنون بالانتخاب اللاشعورى (غير المقصود) .

رأينا : لسنا نشك فى أن للتوليد آثاراً متميزة إذ إن لكل شعب مزاجاً عقليًّا خاصًّا ثابتاً بمقدار ثبوت الخواص الجسمانية . وإذا كان التوليد يؤتى آثاره الفسيولوجية المحسوسة فكيف لا يأتى بآثاره السيكولوجية ، وقد قدمنا أن النفس والعقل والجسم أجزاء من كل ، وأن هذه الأجزاء الثلاثة سواسية فى الخضوع لقانون الحياة العامة «الوراثة» .

إذن فللتوليد آثار خاصة لا نشك فيها ، والحيوان والنبات يخضعان لها كما يخضع للإنسان .

---

(١) على ذكر الخيل نقول إن أنواع خيل السباق الإنجليزية تفوقت على أصولها العربية فى الحجم وسرعة العدو .

لكل أمة عقلها ومزاجها الخاص

مهما اختلفت أفراد الأمة فالاستقرار يبين أنهم يشتركون فى صفات نفسية عامة وثابتة بثبات صفاتهم الجسمانية التى يمتاز بها جنسهم عن سائر الأجناس ، ومن مجموع الصفات النفسية التى يشترك فيها أفراد كل أمة يتكون الجوهر العام الذى نعبر عنه بخلق الأمة .

ولحدوث المزاج العقلى فى كل أمة أسباب يعرفها علماء وظائف الأعضاء ففى الحق أن الفرد ليس ثمرة أبيه وأمه فحسب بل هو ثمرة أمه ، ثمرة سلسلة تسلسله من أجداده – وقد بينا ذلك فى الكلام عن قوانين الوراثة – فالدم الذى يجرى فى عروقى ليس دم أبى وأمى فحسب إنما هو دم الملايين من شعب مصر ، أى أننى ابن شعبى ، كما أننى ابن أبى وأمى .

وليست عاطفتنا وحدها هى التى تجعلنا نحس بالشعور الوطنى بل العاطفة والخواص المصرية والوراثة معا عوامل تشعرنا بالقومية ، ولذلك قل أن نجد وطنيا خالص الدم يمالئ أعداء الوطن .

ولهذه النظرية الوراثية التى سردناها حمل علماء القانون الأحرار على عقوبة الإعدام حملاتهم الشعواء وقام « لمبروز » وشيعته ينادون بأن المجرم مسوق إلى الإجرام مجبرا لا مخيرا لأن الدم الذى يحمله هو الذى يأمره ويسيطر عليه فهو مريض تجب العناية به لا القصاص منه

ماالمزاج الخاص لكل أمة ؟ .

نريد بالمزاج مجموع الصفات التى يشترك فيها بنو الوطن ، والمزاج تكوّنه عوامل كثيرة أهمها البيئة الزمانية (وراثة الأجداد) والبيئة المكانية .

وإذا نظرنا لكل أمة ألفينا لها طابعا خاصا فالشعب الإنجليزى نعرف عنه المادية والصراحة فيما نعرفه عنه . لو أن شابا مصريا صدم بدراجته دراجة شاب إنجليزى فتحطمت منها أجزاء فأول ما يقوله الإنجليزى اصحبنى إلى حيث نصلح ما تلف منها من فضلك . بل تتجلى « ماديته » فى طريقة تفكيره . اقرأ الأمثال وهى أدل على الروح الاجتماعية لأمة من الأمم عن سواها من الفنون الأدبية فأنت واجد الإنجليزى إذا مثل للوقت أملى عليه التشبيه روحه المادى Time is money .

أما العربى فخاضع لبيئته المكانية – البادية – مهد الحروب القبلية فكيف لا تظهر روحه الاجتماعية فى أمثاله ، هو لن يقول « الوقت مثل المال » ولكنه قائل « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » . ولو أن شابا مصريا جرى له ما جرى للإنجليزى ما قال « اصحبنى إلى حيث نصلح ما أتلفت » بل لقبل اعتذاره بابتسامة لطيفة . الله يعلم ما الذى يخفى وراءها . كيف لا ؟ أفليس ابن العرب ؟ بلى ! وها هو دخان نيرانهم مايزال متكاثفا فى بطون كتب التاريخ والأدب .

الإنجليزى صريح يحييك تحية بسيطة صريحة Good Morning صباح سعيد ، فى حين أن المصرى يَفْتَنُّ فى صياغة تحيات الصباح وتحيات المساء ولم لا ؟ أليس ابن الشعب الذى اصطبغ طابعه العام بهذه الدبلوماسية التى تلمسها فى أحاديثه العادية .

انظر إلى لغته اليومية ترى لكل حركة أو لفتة تحية خاصة فإن شربت قال هنيئاً وإن توضأت قال من زمزم وإن صليت دعا لك بأن تصليها فى الحرم وإن (عطست) فرحمك الله بل إن قضى حاجة فشفى وهلم جرا . . . إلخ .

أظننى شرحت ما أريده « بالمزاج العام للأمة » بعض الشرح ، فلنتجاوز ذلك إلى غيره .

وإذا كان لكل أمة مزاج عام خاص بها فكيف لا يكون لخلط مزاجين متمايزين آثار ؟ إنهما يتفاعلان كما تتفاعل مواد الكيمياء .

التوالد

نتائجه الحسنة – شروطه – خطواته :

يشترط للتوالد شروط خاصة حتى يجئ بآثاره ، وإنك ترى أن مادة الكيمياء لا تتفاعل مع مادة أخرى إذا خلطتها بنسبة معينة ، وأن الحديد لا تصهره الحرارة مطلقا ، وإنما تصهره درجة معينة ، وكذلك الأمر فى التوالد .

الشرط الأول : ألا تكون الشعوب المتوالدة مختلفة العدد بنسبة كبيرة .

الشرط الثانى : ألا يكون الفرق فى اختلافها كبيرا

الشرط الثالث : أن تعيش زمنا طويلا فى بيئة واحدة

أما الشرط الأول ، فإنه إذا نزح عدد قليل من البيض وأقام بين الزنوج فنى فيهم ولم يترك من أمه أثراً فى نسله ، يقول العلامة جوستاف لوبون : وهكذا فنى الفاتحون الذين أقاموا فى أمم كثيرة .

ولكن الأستاذ نسى العامل الرئيسى وهو قانون التغلب – وقد تقدم شرحه عند الكلام على الوراثة – ومن أسسه المعروفة أن الأسود يتغلب دائما على الأبيض ، وقد عملت عدة تجارب أثبتت أن أرنبين أحدهما أسود والآخر أبيض ينسلان ثلاثة سودا وواحدا أبيض .

يستأنف الأستاذ لوبون فيقول : وقد ترك اللاتينيون فى بلاد « الفلرا » والعرب فى مصر حضارتهم وفنونهم ولكنهم لم يتركوا دمهم .

الشرط الثانى : إذا اختلف الطابع العام لشعبين ضاع أثر التوالد بل كان له أسوأ الأثر فى الشعبين جميعاً – ذلك لأن اختلاف المتوالدين يحلل خلق الفريقين ويفكك آدابهم ، فإذا ورث المولدون من البيض والزنوج مدنية راقية أضاعوها سريعاً كما وقع لأهل سان دومنج .

أما بين الأمم الراقية فالتوالد عامل قوى من عوامل الارتقاء متى تقارب بعضها من بعض فى الجنس كالإنجليز والألمان فى أمريكا . أما إذا كان الفرق كبيرا فالتوالد يفسد النسل لا محالة .

لذلك نرى جميعاً الأمم التى يكون بين أهلها عدد من المولدين من النوعين الأبيض والأسود محكوماً عليها باستقرار الفوضى وذلك شأن البرازيل فليس فيها من البيض إلا الثلث يقول (أغاشير) «من زار البرازيل يرى التدهور الفظيع الناجم عن التوالد فهو يمحو فضائل البيض وفضائل السود وفضائل الهنود على السواء ويخلف نسلاً ضعيفاً جسماً وعقلاً بل لا يقدر الواصفون أن يصفوه» .

ولقد كانت البرازيل مهدا للثورة والتطاحن وكانت الصحف توافينا يوميا بأخبار ثورتهم الأخيرة الهائلة منذ شهور .

توالد الأمة بغير مزاجها العقلى لا يغير أجسام أفرادها ، وهو الوسيلة الوحيدة التى يمكن معها تغيير ماهية الخلق الأصلح فى الأمة لأنه لا يفل الوراثة إلا الوراثة .

آثار التوليد بالتدريج :

يبيد أولا روح كل منهما أى مجموع المشاعر والأفكار العامة التى هى سر قوة الشعوب وهذا دور النشوء والتأسيس ، وهو دور خطر تتخلل فيه الصفات الجنسية وينحط المستوى الأخلاقى .

العقدة الثانية : ومتى مالت الحضارة إلى الذبول بدأت الصفات تتحلل وتتركب فتهدم الحضارة هدما ويحلو أن تقوم حضارة جديدة بعد تحلل الصفات القديمة وقيام صفات جديدة على أطلالها .

هذه قوانين التوليد وهذه خطواته فتعال بنا نطبقها على امتزاج هؤلاء المسلمين فى العصر العباسى الأول .

الشرط الأول :

بأى نسبة امتزج العرب ؟ تحديد هذه النسبة غير ميسور

الشرط الثانى :

لا ينطبق امتزاج العرب بهذه الأمم فالعرب ساميون وهذه الأمم أغلبها آرى .

الشرط الثالث :

لا ينطبق لأن العرب لم يختلطوا بهذه الأمم اختلاطا كبيرا قبل العصر الأموى

الخطوة الأولى :

تبيد روح كل منهما ويريد بالروح مجموع المشاعر والأفكار العامة وهذا دور النشوء والتأسيس .

الواقع أنه كان امتزاجا عربيا ، فالعرب لم يمتزجوا بأمة واحدة وإنما امتزجوا بأخلاط من أمم شتى ، إنما كان أغلب امتزاجهم بالفرس فهل مهد بوسيلة الامتزاج حتى يأتى بنتائجه الحسنة ؟ .

لقد اختلط العرب بالفرس فى الجاهلية ولكن أى اختلاط ؟ اختلاط ضعيف فلم يكن بينهم وبين الفرس إلا ما يكون بين أمة وجارتها .

وفى العصر الأموى كثر اختلاطهم بالفرس لكن حرصوا على الاحتفاظ بأصولهم فلم يختلط الدم العربى بالدم الفارسى .

إنما كان ذلك الاختلاط فى العصر العباسى وقد اتفقنا على أن أول خطوات التوليد هى إبادة الصفات الجنسية فى الشعوب الممتزجة وهو ما كان فى عصرنا العباسى.

تحللت خصائص كل جنس وانحط المستوى الأخلاقى انحطاطا فجائيا وسنبينه إن شاء الله فى الفصل الثانى وستبسط أمامنا فى الفصول الأخرى.

الأثر العام للتوليد

حياة الشعراء فى بغداد :

نحن فى صدر العصر العباسى فى بغداد ، وبغداد يومئذ مدينة اللهو وهى كذلك لأن المال موفور يُدر من كل ضرع ، فأسباب اللهو موفورة ولأن الناس اختلطت أصولهم كما اختلطت مجتمعاتهم باختلاط أصولهم فهم ذوو أمزجة دنيوية والشعراء فى مقدمة الناس عاكفون على اللهو حائمون حول مغانيه لا يعيشون للأمس فليس تعطفهم إليه ذكريات ، لقد قضوا من الأمس وطرا وهم فى اليوم أوطار .

لا تعوجا على رسوم ديار دارسات بذى النقى أو بِغَيْدا
قد غنينا بهّن عمراً مديداً وأصبنا منهن مَلْهى وصَيدا
يا بنة القوم لن تُراعِى بريب فاسلمى رَخصةَ الأنامل خَودا
لا تخافِى علىَّ صَرْفَ الليالى إنّ بينى وبينهنَّ عُبيدا(١)

وليس يحدو بهم إلى الغد القريب أو البعيد حرص أو رهب ، فالمال مبذول ليس يدّخر ليوم عاجل والعمر مضيع ليس ينهنه من شهوته ذكر عقاب آجل .

ورأيتُ إيثارى اللذاذةَ والهوى وتعجلى من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظّر آجل عِلْمى به رَجْمٌ من الأخبار
ما جاءنى أحد يخبّر أنه فى جنة مُذْ مات أو فى نار(٢)

نحن فى بغداد ، وبغداد مدينة مليئة بالحانات وبيوت الدعارة العلنية أو السرية والشعراء فتيان أثرياء يعيثون فى بغداد فساداً ، ويكوّنون عصابات لاهية ، يجتمعون فى الحان وفى مجالس القيان جماعات وينتقلون إلى بيوت الدعارة حيث تؤجر المرأة والغلام .

تصور لك هذه الحالة تصويراً واضحاً أبيات لأبى نواس :

وخمارة نَبَّهتُها بَعد هَجْعَةٍ وقد غابت الجَوْزَاءُ وانغمس النسرُ

---

(١) ديوان أبى نواس جـ ١ ص ٢٥٦ بتحقيق ايفالد فاغنر من طبعة لجنة التأليف ١٩٥٨

(٢) أبو هفان : أخبار أبى نواس ص ٤٦ بتحقيق عبد الستار فراج .

فقالت من الطُّرَّاقُ قلنا عصابة خفاف الأوادى يبتغى لهم خَمرُ
فلابد أن يزنوا فقالت أو الفِدَا بأَعْلَجَ كالدِّينارِ فى طرفه سِحْرْ
فقلنا لها هاتيه ما إن لمثلنا فديناك بالأهلين عن مثل ذا صبْر
فجاءت به كالغصن يَهتَزُّ رِدْفُه تخال به سحراً وليس به سحر
له شَبَهٌ كالبَدْرِ لَيْلَةَ تمِّه مُهَفْهَف أعلى الكشــح فى ثغره أشر
فقام إليه واحد بعد واحد فكان به من طول عزبتنا الفطر
فبتنا يرانا الله شر عصابة نُجرّر أذيال الفُسوق ولا فَخْرْ(١)

هذه الأبيات تصور لك بغداد وتمثل لك حياة الشعراء .

وهذه الأبيات الأخرى :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر
فما الغَبْنُ إلا أن ترانى صاحياً وما الغُنْم إلا أن يُتَعْتِعَنى السُّكْر
فبُحْ باسم من أهوى ودَعْنى من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر(٢)

و :

وأحور ذِمِّى طرقت فناءه بفتيان صدق ما ترى منهم نُكرا
فلما قرعْنا بَابه هبّ خائِفاً وبادَرَ نحو الباب ممتلئاً ذُعْراً
وقال من الطُّراقُ ليلاً فِناءنا فقلنا له افتح فتية طلبوا خمرا
فأطلق عن أبوابه غير مُعَذر وأطلع من أزراره قمراً بَدْرا
ومر أمام القوم يسحب ذيله يجاذب منه الرِّدْفَ فى مشيه الخصرا
فقلنا له ما الإسم حييت قال لى دعانى أبى شابا ولقبنى شمرا
فكدنا جميعاً من حلاوة لفظه نُجن ولم نَسْطع لمنطقه صبرا
فقلنا له جئناك نبتاعُ قهوةً مُعَتَّقَة قد أنفدت عمرها دهراً
فقال ارْبعوا عندى الذى قد طلبتمو قد احتجبت فى خدرها حقباً عشرا
فقلنا له ما مهرها قال مهرها قطعت وما أوفيتها خمسة صفرا
فقلنا له خذها وهات نعاطها فقام إليها قد تَمَلّى بها بشرا

(١) الديوان ص ٢٧٣ من طبعة مصر ١٨٩٨
(٢) الديوان ص ٢٧٣ طبعة مصر ١٨٩٨

فجاء بها والليل مرخ سُدُوله ... مُدِلا بها لما أحاط بها خبرا
تكلم من أعطافه فتن الهوى ... كمحجوبة قد أقبلت تبتغى الخدرا
فما زال يسقينا ويشرب دائباً ... إلى أن تغنى حين مالت به سكرا
فياحسنه لحناً بدا من لسانه ... ويا حسنه لفظاً ويا حسنه ثغرا
ونام وما يدرى أأرضا وساده ... تَسَوَّدَ سكراً أم وساداً أرى جهرا
فقمنا إليه حين نام وأرعدت ... فرائصه تجرى بميدانه ضمرا
فلما رأى أن ليس عن ذاك مصرف ... ووافقه لين أجَاد لنا العصرا(١)

وهذه الأبيات :

ومشتعل الخدين يحسر طرفه ... له سنة يحكى بها سنة الدهر
وليست خطاه حين يزهو بردفه ... إذا ما مشى فى الأرض أكثر من فتر
دعوت له بالليل صاحب حانة ... بمنتقص الأطراف منخسف الظهر
فجاء به بالليل صحباً كأنما ... يجر قتيلاً أو يسير من القبر (٢)

وهكذا يعيش شعراؤنا فى بغداد يسعى إليهم المال سعياً ويجرى الذهب فى يدهم جرياً ، ومع ذلك فزعيمهم أبو نواس يقول :

الحمدُ للهِ ليس لى نشَبٌ ... فخفَّ ظهْرى وقلّ زُوَّارِى (٣)

ويقول وهو فى مصر :

إذا ذُكِرتْ بَغدادُ لى فكأنَّما ... تحرّك فى قَلبِى شَباةُ سِنان
وأوبةُ مُشتاقٍ بغير دَراهِمٍ ... إلى أهلِهِ من أعظم الحدثان (٤)

وهو كذلك فهم يجمعون بالنهار لينفقوا بالليل وهم يقفون على باب الأمير فيفيضون فى خدر القينة .

إذْ لبابِ الأمير صدرُ نهارى ... ورَواحى إلى بيوت القِيان (٥)

---

(١) الديوان ص ٢٧٧
(٢) الديوان ص ٢٩٢ من طبعة مصر ١٨٩٨
(٣) الديوان ص ٤٣٧ من طبعة أحمد عبد المجيد الغزالى
(٤) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ٩٧ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧
(٥) عبد الرحمن صدقى : ألحان ألحان ص ٩٧ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

كم مرة شكا فيها أبو نواس فى شعره من الإفلاس ، ومع ذلك فقد خلّف سلم الخاسر[١] خمسين ألف دينار وله مليون وخمسمائة ألف درهم عدا الضياع . . أفتحسب أن أبا نواس كان أقل خطباً أو أضيق رزقاً من شاعر كسلم ، ولقد كان مروان بن أبى حفصة يمدح فيجزى القصيدة بمائة ألف دينار . وكان لأبى تمام قهارمة وكتاب . وكانت تجرى على معظم الشعراء رواتب شهرية أو سنوية ، ضخمة فمسلم بن الوليد[٢] كان والياً على المال بجرجان تدر عليه ألف ألف درهم ، وطالما كان يشكو العذر إلى الفضل بن سهل حتى برم به وقال له : إن بيوت المال لا تكفيك . وولاه ضياعاً أخرى بأصفهان .

وكان مسلم من شعراء البرامكة المقربين يغمرونه بالعطاء ، وأنت تعرف ما عطاء البرامكة ، ومع ذلك فقد ورد فى أخبار مسلم أن تلميذه دعبلاً تصيّد قينة فى الطريق وأمّ بها دار مسلم فاضطر مسلم أن يبيع منديلاً ليشترى به خبزاً ولحماً ، وكان مسلم يكسب المال فيجمع ندماه من الشعراء فى بيته ويظل وإياهم فى لهو وقصف لا يغادر بيته ، حتى إن صاحب جمهرة الإسلام[٣] يقول إن ظهور مسلم فى الطريق كان دليلاً على إفلاسه ، وكذلك كان يشترك فى المال مطيع ابن إياس ووالبة ويحيى بن زياد وابن المقفع وابن الأحنف . ولم لا يشتركون ؟ أو ليست الحياة كأساً وطاساً وقينة وغلاماً ! .

هل العَيْشُ إلا أن أرُوح مع الصِّبا وأَغْدو صَرِيعَ الرَّاحِ والأَعْيُن النُّجْل[٤]

وقوله :

ما لَذَّةُ الدُّنْيا إذا مالَمْ تكُنْ فيها فتى كأْسٍ صَرِيعَ حَبَائِبِ[٥]

هذه هى الحياة البوهيمية التى كان يحياها شعراؤنا فى بغداد .

مال مشاع وعمر مضاع !

---

(١) من موالى تيم عشيرة أبى بكر الصديق ولد بالبصرة وبها نشأ . راجع ترجمته فى ابن المعتز ص ٩٩ والأغانى ص ٧٥٦١ من طبعة الشعب وتاريخ بغداد جـ ٩ ص ١٣٦ وابن خلكان ومعجم الأدباء جـ ١١ ص ٢٣٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى .

(٢) انظر فى أخبار مسلم وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٩٦ والأغانى ص ٧٢٦٣ من طبعة الشعب

(٣) كتاب جمهرة الإسلام للشيزرى لايزال مخطوطا

(٤) النجل : جمع نجلاء وهى الواسعة — ديوان مسلم ص ١٨٨ من طبعة دار المعارف

(٥) ديوان مسلم ص ١٨٨ من طبعة دار المعارف

جماعة من الندمان يؤلفون خاناً متنقلاً ويفتكون بالمال ليفتكوا بالمرأة والغلام ، يبددون المال ليجمعوا الهوى !

والعجيب أن هؤلاء الشعراء كانوا يجتمعون للهو ويشتركون فيه كأن بينهم ميثاقاً قال الجاحظ ونقل عنه صاحب الأغانى ، يقول الجاحظ «كان والبة بن الحباب ومطيع بن إياس ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالى وحفص بن أبي وردة وابن المقفع ويونس بن أبي فروة وحماد عجرد وعلى بن الخليلى وحماد بن أبي ليلى الراوية وابن الزبرقان وعمارة بن حمزة ويزيد ابن الغيضى وجميل بن محفوظ وبشار المرعب وأبان اللاحقى يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ويهجون بعضهم بعضا هزلاً وعمداً وكلهم متهم فى دينه»(١) .

وروى صاحب تاريخ التمدن(٢) أن أبا نواس ودعبلا وأبا الشيص ومسلماً كانوا يجتمعون عند إسماعيل القراطيسى(٣) فيأتيهم بالخمر والنساء والغلمان .

ليلة عند الفتى الخمار وليلة :

فى مَجْلِس بين الكُرومِ مُظَلَّل ... جُعِلَتْ لهُ أَغْصَانُهُنَّ ظِلالاً
ولديْهِمُ حورُ القِيانِ كأنها ... غِزْلانُ وَحْشٍ يَرْتَعِينَ رِمالاً
قد حازَ كُلٌّ فتىً لَديه غادَة ... رُودَ الشَّبابِ خَرِيدة مِعْطالاً
مَمْكورة عَجْزاءَ مُضْمرةَ الحَشَا ... قد حُمِّلَتْ مَن رِدْفِها أثقالاً
للقَصْفِ مُتكئينَ فوق نمارق ... يُسْقَوْن بالكأسِ الرَحيق زلالاً(٤)

ولقد يبدو من العجيب أن أهل المجون انتشروا فى بغداد فى كل مكان حتى فى الأماكن المقدسة :

رأيت المسجد الجامـ ... ـع فقاعة إبليس
بناه الله والطالـ ... ـع نجم غير منحوس
به حلّت ظباء الأنـ ... ـس فى أقبح مأنوس
إذا راحوا على العشا ... ق أهل الضر والبوس

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤٩ من طبعة دار الكتب المصرية
(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى
(٣) هو إسماعيل بن مَعْمر الكوفى مولى الأشاعثة – راجع ترجمته بالأغانى جـ ٢٧ ص ٩٣٥٦ من طبعة الشعب
(٤) ديوان مسلم ص ٢٠٢ من طبعة دار المعارف

فكم في الصحن من قلب كليم الجرح مخلوس
بعثنا في سبيل الغيّ أفواج الكراديس
فكردوس لعماد وعدنان لكردوس
وعمرو صاحب الراية لابل درهم الكيس
تلاقيهم بإعظام وإجلال وتقديس
ويلقون من التيه بتكليح وتَعْبيس
فيارب أليل المشتكى تيه الطواويس[١]

جماعات مستهترة لاهية لها في فهم الحياة فلسفة خاصة ، تريد أن تعتصر من حلوها أقصى ما تستطيع .

شك قوى في الدين ، مال كثير ، امتزاج في الدم ، جبروت القصر وغدره ، فهذا خليفة سفاح ، وهذا خليفة كنود .

ما أثر هذه العوامل مجتمعة ؟ جواب واحد هو الاستهتار بالحياة يقول ديك الجن[٢] :

تمتع من الدنيا فإنك فاني وإنك في أيدى الحوادث عاني
ولا تنظرن اليوم في لهوه غداً ومن لغدٍ من حادِث بأمان
فإني رأيتُ الدهْر يسرعُ بالفتى وينقله حالينِ يختلفان
فأما الذى يمضى فأحلامُ نائم وأما الذى يبقى له فأماني[٣]

وعندى أن هذه الأبيات لا تمثل ديك الجن وحده ، إنما تمثل شعراء العصر جميعاً وبعد ، فما حياة الشعراء في العصر العباسي إلا صورة من حياة العصر ، قد تكون هذه الصورة مكبرة نوعاً ما ، وهذا طبيعي ، لأن الشاعر أو قل الفنان أول من ينقاد لعواطفه وليس الشاعر شاعراً ولا الفنان فناناً – في الغالب الأعم – إلا بفيض عواطفه وغلبة مشاعره ، لأنه عصر ولد جيله خليطاً من أمم مختلفة متباينة فكان هذا العصر عصر انحلال القوميات ، وأن نظرة إلى ما كتب

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٤٩ من طبعة مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) ديك الجن : لقب غلب عليه واسمه عبد السلام بن رغبان راجع ترجمته في الأغاني جـ ١٤ ص ٤٩٢٥ من طبعة الشعب وفي وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٥٢٥ والجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٠٢

(٣) أبو هلال العسكري : ديوان المعاني جـ ١ ص ١١٥ من طبعة القدسي

عن التجارة فى بغداد لتريك عظم البون بين الحضارة الجديدة والحضارة الماضية ، فجوار وغلمان يجلبون من أنحاء الممالك ، ومن الهند ياقوت وماس ، ومن البحرين لؤلؤ ، ومن الحبشة عقيق وعاج وديباج وطيلسان من أصفهان وكرمان ، ومسك وكافور من الصين وعطور من نيسابور ، وفرو ثعالب من روسيا ، وستور وغلائل وأرائك ومساند ، وجوارب ومناديل من حرير ، وسرر من ذهب وحصر مرصعة بالذهب مكللة بالمرجان وأطباق من ذهب .

ولقد توفى المنصور وفى خزانته ما يعادل تسعة عشر مليوناً من الجنيهات المصرية [١] ، مع أن بغداد بنيت فى عهده وكلفه ذلك مالاً طائلاً ، ولم يأخذ المنصور شيئاً من مال الأمويين ، وقد حفظ فى خزانة كتب كُتِب عليها « مال أهل بيت اللعنة » .

وبلغ متوسط الجباية السنوى فى عصر المأمون – كما يقدره ابن خلدون [٢] – ثمانية ملايين من الجنيهات . ويطعن فى هذه القائمة « فون كرامر » قائلاً : بل يرجع تاريخ هذه القائمة إلى ما قبل عصر المأمون .

ولا أمضى فى التفتيش عن القوائم وغير القوائم ، وهى كثيرة وبين يدى ، إنما أنشر هذه الوثيقة من الشعر ، فلابد من الدوران حول هذا الشعر طالما كان لنا إليه سبيل .

أبو العتاهية [٣] يشكو من غلاء الأسعار غلاء مرًّا ، وكذلك فى هذه الأيام يشكو أهل الأمصار الكبرى كباريس ولندن وبرلين ، وهذه ظاهرة مضطردة فى العواصم الكبرى ، إذ يلعب « قانون العرض والطلب » دوره دائماً .

أما غلاء الأسعار فى بغداد فنتيجة لكثرة الطلب فيما أرى وكثرة الطلب نتيجة مباشرة لوفرة المال ووفرة المال تضعف قوة شراء النقود ، ومن هنا ينشأ كثير من الأزمات الاقتصادية .

يقول أبو العتاهية :

من مبلغٌ عنى الإما مَ نصائحاً متتاليَهْ

---

(١) حولنا الدراهم والدنانير إلى جنيهات مصرية فهو حساب تقريبى

(٢) أورد قائمة تفصيلية

(٣) ولد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان فى عين التمر بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ هـ ، وكان أبوه نبطيا من موالى بنى عنزه (راجع فى ترجمته الأغانى جـ ٤ ص ١٢١٥ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٧٩١ وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها وص ٣٦٤) و (تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٢٥٠) و (ابن خلكان) و (مرآة الجنان جـ ٢ ص ٤٩) و (شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٥) و (مروج الذهب للمسعودى جـ ٣ ص ٢٤٠ وص ٢٧٤ وص ٣٥٨) و (الحصرى : زهر الآداب جـ ٢ ص ٣٤) .

أنى أرى الأسعارَ أسْـ ـعارَ الرعيَّة غاليه
وأرى المكاسب نَزْرَةً وأرَى الضرورَة فاشيه
وأرى عموم الدهر را ئحة تمرُّ وغاديه
وأرى المراضع منه عن أولاها متجافيه
وأرى الأرامل واليتا مى فى البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل يسمو إليك ورانيه
يشكون مجهدة بأصـ ـوات ضعاف عاليه
من يرتجى للناس بعـ ـدك للعيون الباليه
من مُصْبِيات جُوَّعٍ تمسى وتصبح طاويه
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العاريه(١)

ويقول عمر بن أبى عمر اليونانى :

غلا السعر فى بغداد من بعد رخصه وإنى فى الحالين بالله واثق
فلست أخاف الضيق والله واسع غناه ولا الحرمان والله رازق(٢)

ذلك ما وصلت إليه بغداد فى الحالة الاقتصادية زمن الرشيد وقد عللنا هذه الأزمة بالتعليل الوحيد المعقول فيما نحسب .

إذن فالتوليد هو العامل الأساسى فى هذه الحياة الجديدة ، ثم المال وهو أمر فرعى له خطره ولم يقتصر اللهو على المولدين بل جرى فيه العرب الخالصون شوطاً بعيداً ، وليس ذلك عجيباً ، فالعرب كانوا من قبل قوماً بدويين وقوماً أقرب إلى البداوة ثم أحاطت بهم الحياة الجديدة بملاهيها فلهوا كما كان يلهو المولدون والموالى ، شأنهم فى ذلك شأن طيان مدّ له خوان حوى أشهى صنوف الطعام وألذها ، شأنهم فى ذلك شأن أبناء الأغنياء البخلاء فى بلادنا محرومون من دور اللهو ومباهج العصر ، فإذا ما رحل آباؤهم وتكاثر المال فى يدهم واحتقنت جيوبهم بالذهب وتوصلوا إلى ما حرموا منه بذروا فيه المال وضيعوا العمر فى نزق وسفه .

---

(١) الديوان ص ٣٠٣

(٢) الإبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ١ ص ٦٨ من طبعة المطبعة المليجية ١٣٣٠هـ

الأثر الخاص للتوليد
أو
أثر التوليد فى نفوس الشعراء

من آثار التوليد التناقض فى حالات الشعور ، الإحساس المتوالى بالاضطراب .
«Sensous Continum»

هذا المزاج العصبى المتنقل ينطق به قول أبى العتاهية المولد :

لَنْ يُصْلِحَ النَّفسَ إن كانت مُدبَّرَةً ‏ ‏ ‏ إلا التَّنَقل من حَالٍ إلى حَالِ[1]

هذه النفس المولدة متنقلة من حال إلى حال أراد أصحابها أن يصلحوها أم لم يريدوا .

ونحن نكتفى بأن نصور لك هذا الإحساس المتناقض (هذا التذبذب) فى حالة معنوية وأخرى مادية .

شعراء ماجنون زاهدون وخلفاء جبابرة وادعون . فلنتصور هذا المظهر بعد أن عللناه .

زهاد ومجان

أبو نواس الذى يقول :

إن تكُونا تَركْتُما لذَّة العَيْـ ‏ ‏ ‏ ـشِ حِذارَ العِقابِ يومَ العقابِ

فــذرانى ومــا ألــذُّ وأَهْوى ‏ ‏ ‏ وأَقْذِفانى فى بِحرِ يَوْمِ الحِساب[2]

وقوله :

وإن قالوا حرام قل حرامٌ ‏ ‏ ‏ ولكنَّ اللَّذاذةَ فى الحرام[3]

وقول دعبل :

إنما العيش فى مُنادمة الإخْـ ‏ ‏ ‏ ـوان لافى الجُلوس عند الكَعَابِ[4]

---

(١) الديوان ص ٢٢٣

(٢) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ٣٩٤ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٣) الديوان ص ٦٩٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٨٥٤ من طبعة الشعب

وقول أبي نواس :

ورِدْفُه في قضيبٍ فوقه قمر من نورِ خدَّيهِ ماءُ الحسْنِ ينسكبُ
نفسي فداؤكَ يا من لا أبوحُ به علِقْتَ منّى بحبْلٍ ليس يَنْقَضِبُ
كم ساعةٍ منك خَطّتها ملائكةٌ أزهو على الناس بالذَّنْبِ الذى كتبُوا(١)

وقوله :

إذا ما رآنى ناظر قال شاعر وكيف يحب النسك من شاعر يهوى
وما إن بكائى من حنين لمن له ولكننى أبكى أساعد من أهوى
ليحسب من حولى بأنى إنما بكيت بذكر النار أو جنة المأوى

وقوله :

لم أبك فى مجلس منصور شوقاً إلى الجنة والحور
ولا من البعث وأهواله ولا من النفخة فى الصور(٢)

لكنه يبكى لغلام :

من حُلَلِ الجنة تصويره وقد خصه الله بتصوير
موكل جبريل والمرتضى بحفظه مع صاحب الصور(٣)

وقوله :

للنّاسِ عيدٌ عمَّهمْ واحدٌ وصار لى عيدان فى عيدِ
وصار ردف الظبى لى منبراً أحسن من عود على عود(٤)

وقوله :

اشربْ فديتَ عَلانِيَة أمُّ التَستُّر زانيَه
ودَعِ المروءة والحيا ء فما هُما من شانِيَه(٥)

---

(١) الديوان ص ٣٤٧ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٢) الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٤٦ من الطبعة ١٢ بدار المعارف وأبو هفان : أخبار أبي نواس ص ١٠٥ بتحقيق عبد الستار فراج

(٣) هذه الأبيات ليست فى ديوانه

(٤) الديوان ص ٣٤٤ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٥) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ٣٩٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

وقوله :

بِتْنا نديمُ لإبليسٍ بطاعتِه حتى نَعى الليْلَ بالنَّاقوسِ رُهْبان (١)

وقوله :

لو عَبد الخمر قبلَنا أَحدٌ مِمَّن مضى قبلنا عبد ناها (٢)

وقوله :

اسقنى الخمرة التى نزلت فيها على القوم آيات تحريم (٣)

هو أبو نواس الذى يقول :

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون فى لجين شاخصات بأحداث هى الذهب السبيك
على قُضُبِ الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك
وأن محمداً عبد رسول إلى الثقلين أرسله المليك (٤)

وهو المتصوف القائل :

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبَّيْك قد لَبّيْتُ لك لبَّيْك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك ما خاب عبد سألك
أنت له حيث سلك لولاك يارب هلك
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك والسابحات فى الفلك
على مجارى المنسلك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك يا خاطياً ما أغْفَلك
اعمل وبادر أجلك واختم بخير عملك

---

(١) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ٥٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥

(٣) غير موجود بالديوان

(٤) نجيب العقيق : الأدب المقارن ص ١٢٦ من طبعة دار المعارف ١٩٤٨

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك[(١)]

وقوله :

أف للدنيا فليست لى بدار إنما الراحة فى دار القرار[(٢)]

وقوله :

كن مع الله يكن لك واتّقِ الله لعلك
فعلى الله توكّل وبتقواه تمسَّك[(٣)]

رجل متناقض العقيدة حائر بين الإيمان والكفر له فى الدين فلسفة خاصة

تكثَّرْ ما استَطَعْتَ من الخَطايا فإنّكَ بالِغٌ ربًّا غفورا
ستُبْصرُ إنْ وَردْتَ عليه عَفْواً وتَلْقَى سَيّداً ملكاً كَبيرا
تَعضُّ نَدامَةً كفَيّك مما تَركْتَ مخَافَةَ النار الشُّرورا[(٤)]

قد يعلل غيرنا هذا بأن شعر المجون صفحات من الشباب ، وشعر النسك نصيحة الشيب ، وليس كذلك ، فأبو نواس لم يك زاهداً فى الكبر ، كما قال شارحوه ، فهو القائل :

يقولون فى الشيب الوقار بأهله وشيبى بحمد الله غير وقار[(٥)]

بل كان ناسكاً فى حلقة من حلقات شبابه ، فلما كبر ولى ظهره المصلى وكتب :

عفَا المُصلَّى وأقْوتِ الكتُبُ مِنّى فالمِرْبِدانِ فاللَّبَبُ
فالمسجد الجامعُ المروءةِ والـ دِّين عفَا فالصِّحَانُ فالرَّجَبُ
منازلُ قد عَمَرْتُها يفَعاً حتى بَدَا فى عِذارىَ الشَّهَبُ[(٦)]

شك فى الدين قوى وحيرة بين الإيمان والإنكار .

وكذلك بشار ثلثا شعره فى المجون وثلثه فى الزهد . وأبو العتاهية ثلثه فى المجون وثلثاه فى الزهد .

---

(١) الديوان ص ٢٠٤ من طبعة مصر ١٨٩٨ والأغانى جـ ٢٢ ص ٧٦٩٨ من طبعة الشعب
(٢) الديوان ص ٢٠٣ من طبعة مصر ١٨٩٨
(٣) الديوان ص ١٩٨ من طبعة مصر ١٨٩٨
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٦٩ من طبعة بولاق والعاملى : الكشكول جـ ٢ ص ٢٦١
(٥) الراغب الأصفهانى : محاضرات الأدباء جـ ٢ ص ١٩٢ من طبعة مصر ١٢٨٧ هـ
(٦) الديوان ص ٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

أثر التوليد فى الحس :

أثر التوليد فى الحس هو هذا الاختلاط بين الغرائز وتشابكها ، ونحن نرى الغريزة الجنسية المذبذبة الحائرة فى كثير من هؤلاء المولدين :

وخُذْ مِن كَفِّ جارِيةٍ وَصِيفٍ رَخيمِ الدَّلِّ مَلْثوغِ الكلامِ
لها شكلُ الإناثِ وبَيْنَ بَيْنًا ترى فيها تكارِيه الغلام
فأحياناً تُقَطِّبُ حاجِبَيْها وأحْيَاناً تثنى كالحُسام [١]

وأيضاً :

لها زى الغلام ولم أقسها إليه ولا كرامة للغلام [٢]

وهكذا يشبه المرأة بالغلام ويشبه الغلام بالمرأة ويؤثرها عليه ويؤثره عليها .

فالجيدُ جيدُ غزالٍ والغنجُ غنجُ فتاةِ
مذكَّرٌ حين يَبْدُو مؤنَّث الخَلَواتِ
بصدغ كاعِب خدر مزرفن الحلقات [٣]

وأيضاً :

تراه طَوْراً مذكَّراً فإذا عاقَر راحاً رأيتَ تأْنِيثًا [٤]

لقد رأيت أثر هذا التوليد فى جانب معنوى وهو الإيمان الدينى فهم أصحاب نساك مجان شاكون حائرون مقبلون على الدنيا وهم زاهدون .

ورأيت أثر هذا الاضطراب جليا فى أقوى الإحساسات المادية وهو الغريزة الحيوانية فهم حائرون بين المرأة والغلام إن تغزلوا بالغلام شبهوه بالمرأة ، وإن تغزلوا بالجارية شبهوها بالغلام ونكتفى بهذا القدر .

---

(١) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ٣٠٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) الفكاهة والائتناس فى مجون أبو نواس من طبعة مصر ١٣١٦ هـ

(٣) الديوان ص ٣٥٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) ابن منظور : مختار الأغانى جـ ٣ ص ٤٩

أثر التوليد فى المزاج وفى طبيعة النفس .

فى المولدين ظرف لا نجده فى ذوى الأنساب الصريحة ، ظرف باد فى آثار شعرائنا المولدين ، وأريد بهذا الظرف المزاج المرح .

انظر إلى ظرف أبى نواس وهو يداعب إبليس ويتهمه بالقيادة :

مـلّـكنى حـل سراويـلـه إذ شغلته الراح عن دكته
فصارَ لا يَدفعُ عن نفسِه وكـان لا يَـأْذَنُ فى قُبْلته
دبَّ لـه إبـليسُ فاقْتادَه والشَّيخُ نَفَّاعٌ على لَعْنتِهِ
عجبتُ من إبليس فى تِيهِ وخُبثِ ما أضمر من نيَّته
تاه على آدَمَ فى سَجْدَةٍ وصـار قَوَّاداً لـذُرِّيَّـتـه[١]

وأبو نواس مضحك فى قوله :

أقول له وقد أخلته عين من الرقباء ناظرها حديد
أتمنع ريقك المعسول عنى وأنت على الجدار به تجود[٢]

وإن كان قذراً الشطر الأخير .

فرنَّق مُغْضَباً لحظاتِ عيْنٍ عـليـه بغير قـوَّادٍ تـقـودُ
وكادَ يقولُ شيئاً غير أنى سَبَقْتُ إلى اليمين فلا أعودُ
فقالَ : لو اقتصرتَ عليه جُدْنا ولكنْ قد علمْنَا ما تريدُ[٣]

ومن تكلفه للظرف قوله :

قال دعينى منه فى وجهه راقـدة فى جـنـة الخلـد
طرفك زان قلت دمعى إذا يجلـده أكثر من حـد
فاحمر حتى كدت لا أرى وجنته من كثرة الورد[٤]

---

(١) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ٣٧٩ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) غير موجود بالديوان

(٣) الديوان ص ٣٨٨ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) غير موجود بالديوان

وقوله :

قال حفص(١) أجْلِدُوهُ إنَّه عندى بَليدُ
لم يزلْ إذ كان فى الدَّرْ سِ عن الدَّرْسِ يحيدُ
ثم هَالُوهُ بِسَيْرٍ لَيِّنٍ ما فيه عودُ
عندها صاحَ حبيبى «يا مُعلّمْ لا أعودُ»(٢)
قلْتُ يا حفْصُ اعْفُ عنه إنه سَوْفَ يُجِيدُ
فى نشيدِ الشّعرِ والدّر سِ وفيًّا قد تريد(٣)

التوليد والنفسية السوداء :

لشد ما يمثل هذه السوداوية النفسية قول أبى العتاهية :

سَامِح الناسَ فإنى أرَاهُمْ أَصْبَحُوا إلا قَلِيلاً ذِيَابَا(٤)

أو قوله :

لو رأَى الناسُ نَبيًّا سَائِلاً ما وَصَلُوه(٥)

وطالما تغنى أبو العتاهية بالخمر وطالما اجتمع هو وهذه الشيعة الماجنة على قينة وغلام . وليس فى اجتماع هذه السوداوية ، وهذا الإقبال على الحياة تناقض بل لعل أبا العتاهية وأبا نواس كغيرهما ما أقبلا على اللهو والمجون إلا لأنهم مستبغضون يائسون .

أفهم هذا من شعر أبى نواس بنوع خاص وأرى ظله فى أبى العتاهية .

وقد أعانتنى على استخلاص هذه النتائج أو قل على إبداء هذه الملاحظات تجاربى الخاصة ، لكننى لا أستطيع الإسهاب فى بحث شامل كهذا ، ولى صديق أبوه مولد وأمه مولدة فهو سليل أربعة أجناس مختلفة . هذا الشاب آية فى العجب مجموعة من الشخصيات فى شخص واحد : وادع ثائر ، شره فى إقباله على الدنيا ، وقد يخلو بنفسه ساعات فلا يملك

---

(١) هو حفص الكوفى وكان له مكتب يعلم فيه الصبيان

(٢) وأظنك لاحظت هذا التعبير الشعبى «يامعلم لا أعود» وهو يشبه بعض تعبيراتنا البلدية

(٣) الديوان ص ٣٣٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) الديوان ص ٢٩

(٥) الديوان ص ٢٩٥

دموعه وما لوّعه شجن ، محب للاجتماع ، كريم إلى الناس ، وغليظ خشن فى كثير من الأحيان حتى ليعجب منه عارفوه ويظنونه مريضاً بأعصابه ، وما هو بالمريض لكنها الدماء الممتزجة تتفاعل كما تتفاعل المواد الكيميائية عند امتزاجها فتلعب به لعب القلوص براكب مستعجل .

الشعوبية

الشعوبية نسبة إلى الشعوب ، والشعوب جمع شعب[1] ، ولفظ الشعوبى يطلق عند العرب على من تعصب لشعبه على العرب ، وصاحب القاموس يقول فى مادة شعب « الشعوبى محتقر أمر العرب » ، وفى لسان العرب أن « الشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب ولا يرى أن لهم فضلاً على غيرهم » . وفى الحق أن العصبية العربية هى التى ولدت هذا الروح الشعوبى أو هذه العصبية الشعوبية .

جاء الإسلام والعرب فقراء أذلاء بينهم وبين النار « شفا حفرة » فأنقذهم منها وبدّلهم بالذل مجداً تليداً أو جاهاً عريضاً ، ومكن لسلطانهم فى الأرض فما هى إلا سنون حتّى أذلوا الفرس وغلبوا الروم ، وما كان العرب ليخطر لهم أن يتطاولوا إلى مجد الفرس أو منعة الروم حتّى لقد فرحوا يوم ذى قار وأذهلهم انتصار بعض القبائل العربية على محلة فارسية وينادى شعراؤهم فى التغنى بذلك النصر[2] .

ما كانت لتنظر إلى فارس أو الروم إلا كما ينظر القزم الهين إلى المارد العملاق ذى الحول والجبروت وشاء ربك أن يخضعوا الفرس والروم ، وأن يخضعوا هذه الأمم التى دخلت فى الدّين الإسلامى ، فلم لا يبغى العربى فى الأرض ويتنمر ؟

كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

لقد رأيت ما كان فيه العرب فى الجاهلية من عصبية قبلية أفتحسب أنهم لم يشعروا بالقومية العربية الجامعة قبل إسلامهم به بل لقد تعصبوا لجنسهم ، وإن كان أكثرهم عن القومية إلى القبلية معرضين ، وكأنهم على قول المثل « أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب » . وحسبنا دليلاً على هذه العصبية العربية موقف عرب العراق ، وقد كانوا نصارى عند الفتح الإسلامى الفارسى فقد غلّبوا العصبية الوطنية على العصبية الدينية وانضموا إلى

---

(١) الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ

(٢) انظر العقد الفريد جـ ٣ ص ٣٧٤ من طبعة المطبعة الأزهرية

العرب الغزاة وقتل من وجوههم فى موقعة الجسر الكثير نذكر منهم أبا زيد الطائى ويوم واقعة البويب انضموا إلى العرب قائلين «بل نقاتل مع قومنا».

ويروى صاحب العقد الفريد كما يروى صاحب ألف باء مناظرة بين كسرى والنعمان إن صحت فهى دليل قوى على العصبية العربية والشعور بالجنسية، لكن أستاذنا أحمد أمين يضعف هذه الرواية بل لا يصدقها لأنه يرى وضوح وضعها ولأن راويها الكلبى فى العصر العباسى الأول ولأن الكلبى ليس موثوقاً به عند العلماء. ومهما يكن فإن تعصب العرب لقبائلهم لم ينسهم الشعور بالجنسية، يمثل هذه العصبية المزدوجة قول قائلهم:

للعرب أفضال على الناس وخيرهـــا أولاد إلـــيـــاس

متى نشأ الروح الشعوبى وكيف؟

قلنا فى مستهل هذا الفصل إن العصبية العربية هى التى أوجدت الروح الشعوبى، ولسنا نريد بقولنا هذا أن العصبية العربية خلقت هذه العصبية الشعوبية من عدم، فغير معقول أن تكون هذه الأمم المغلوبة على أمرها قد نسيت قوميتها ولا سيما أمتى الفرس والروم، وقد زحزحها عن سلطنة الأرض ملك العرب الجديد.

ليس من شك فى أن هذه الأمم المغلوبة ظلت حاقدة على العرب لأن العرب سلبوها مجدها ولطخوا بالفتح تاريخها بل لقد حاولت هذه الأمم استرجاع مجدها بالتخلص من نير العرب ونحن نعرف مثلاً أن الفرس حاولوا استرجاع ملكهم بزعامة آخر ملوكهم الساسانيين وهو يزدجرد بن شهريار بعد قتل عمر بن الخطاب.

وعلى ذكر عمر بن الخطاب نقول إن قاتله هو فيروز الفارسى (أبو لؤلؤة) من أسرى نهاوند ونرجح ترجيحا قويا أنّه قتله انتقاماً لوطنه الذليل، وكذلك القبط ثاروا على العرب ثورات عنيفة وظلوا ثائرين حتى عصر المأمون[1]، والخزر ظلوا يشاغبون على حدود أرمينيا.

ومن العبث أن نسوق الأدلة وهى كثيرة لا تعوزنا، فمن البداهة أن تحقد هذه الأمم على العرب وتتميز غيظاً وقد نكبوها فى كل ما تملك.

لكننا برغم هذا وذاك نزعم أن العصبية العربية مسئولة عن تعصب هذه الشعوب عليها، فلقد ثمل العرب بأحلام النصر وخيل إليهم أن الناس من طينة وأنهم من طينة أخرى، أو أن

(١) من هذه الثورات ثورة بابك الخرمى وهو فارسى وقد أنزل هزيمة ساحقة بجيش المأمون فى عام ٨٢٩ – ٨٣٠ م وكذلك قامت ثورة فى مصر عام ٨٣٢ م حضر المأمون بنفسه لإخمادها

الناس من طين وأنم من غير طين . وليس لنا من النصوص الصريحة دليل على مبدأ ظهور هذه النعرة العربية إلا أننا استئناساً بقوله عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى» نستطيع استئناساً بذلك أن نشعر بوجود هذه النعرة العربية فى زمن النبى . لكن العرب لم يستطيعوا فكاكاً من ربق العصبية ، فالعصبية دينهم الأول ، والعصبية تاريخهم . دعاهم الله إلى طرح العربية القبلية فأجابوه ثم ارتدوا ، ودعاهم الله إلى محبة غيرهم من الأمم (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) فما نفعتهم الدعوة بل خيل إليهم الشيطان أن فى عروقهم دما ليس كالدماء .

أجل : العصبية دين العرب تعصبوا للقبيلة وتعصبوا للعشيرة وتعصبوا للبيت وتعصبوا للشاعر وتعصبوا للمدينة وتعصبوا لكل شىء .

وهاهم أولاء يتعصبون للجنس .

كان اختلاط العرب بغيرهم من الأمم قبل الفتوح الإسلامية ضعيفاً فكان الشعور القبلى هو المهيمن عليهم ، فلما كانت الفتوح وكان اختلاطهم بالأمم المفتوحة فى صدر الإسلام وفى العهد الأموى لم ينس العربى عصبيته القبلية ، وكيف يستطيع نسيانها وقد ورثها عن آبائه أول ما ورث ، وورثها آباؤه عن أجداده أول ما ورثوا .

لكن هذا الشعور بالقبيلة ، وعندنا إن كان فى العهد الأموى أقوى منه فى الجاهلية ، لم ينسهم أمام هذا الاختلاط الشديد بغيرهم من الأمم الشعور بالوحدة الجنسية . أخذ العربى يشعر بأنه والعربى أمام هذا الأجنبى إخوان وإن فرقت بينهما القبيلة والهوى . انظر إلى قول جرير وقد نزل على جماعة من بنى الفيد فلم يضيفوه واشترى منهم القرى :

يا مالِكُ بنَ طَرِيف إن بَيْعَكُمُ   رِفْدَ القِرَى مُفْسِدٌ لِلدين والحَسَبِ
قالوا نَبِيعُكَ بَيْعاً فقلتُ لهم   بِيعُوا المَوالى واسْتَحْيُوا من العرب[٢]

وأنعشه الانتصار أو بعبارة أصح أسكره الانتصار فخيل إليه أنه – وقد فتح هذه الأمم ثلاثة فتوح : فتحاً دينيا وفتحاً سياسيا وفتحاً لغويا ، من جنس يفضل الأجناس ولا يدانيه

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) المبرد : الكامل جـ ١ ص ٢٧٢ من طبعة المكتبة التجارية

جنس ، وأجد أنه يحتفظ بهذه الجنسية ، فكان العربى لا يزوج ابنته المولى وإن سما به أصل وجاه[١] .

ومن العرب من كان يرى فى ذلك شيئاً أى شىء وعاراً أى عار ، وأنى لك هذه الأبيات من قصيدة لأبى بجير يعير فيها عبد القيس لأن رجلاً منها زوج ابنته مولى ، قال :

أمن قلة صرتم إلى أن قبلتم ... دعارة زراع وآخر تاجر
وأصهب رومى وأسود فاحم ... وأبيض جعد من سراة أحامر
شكولهم شتى وكل نسيبكم ... لقد جئتم فى الناس إحدى المناكر
متى قال إنى منكم فمصدق ... وإن كان زنجيا غليظ المشافر
أكلهم وافى النساء جدوده ... وكلهم أوفى بصدق المعاذر
على علمكم أن سوف ينكح فيكم ... فجدْعاً ورغْماً للأنوف الصواغر

ومنها :

زعمتم بأن الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل ... وبرجان من أولاد عمرو بن عامر[٢]

وحدث أن مولى تزوج عربية فلما علم الوالى بذلك فرق بينهما وجلد المولى مائتى جلدة وحلق له حاجبيه وفى ذلك يقول محمد بن بشير[٣] :

حَمَى حَدِباً لُحومَ بناتِ قَوم ... وَهم تَحْتَ التُّراب أَبو الوَليد
وفى المائتَيْنِ للمولى نَكالٌ ... وفى سَلْبِ الحواجب والخُدود
إذا كافأتَهم ببنات كِسْرى ... فهل يجد الموالى مِن مَزِيد
فأىّ الحقّ أنْصفُ للموالى ... بإصْهار العبد إلى العَبيـد[٤]

---

(١) روى صاحب فجر الإسلام (باب الخوارج) عن ابن أبى الحديد أن رجلا من الموالى خطب عربية ، فقالوا له « فضحتنا »

(٢) وهى طويلة فارجع إليها إن شئت فى العقد الفريد جـ ٤ ص ١٨٤ من طبعة المطبعة الأزهرية

(٣) محمد بن بشير الخارجى ، شاعر فصيح من شعراء الدولة الأموية (ترجمته بالأغانى جـ ١٦ ص ٥٨٧٦ من طبعة الشعب)

(٤) الأغانى جـ ١٦ ص ٥٨٨١ من طبعة الشعب

ما كان العربى ليرضى أن يزوج ابنته مولى لأنه كان يأنف من ذلك [١] ، كان ينظر إليه نظرة السيد للمسود وكان لا يجوز للمولى أن يزوج بنته بل كان من حق سيده ، فإن زوجها أبوها كان للسيد أن يطلقها من زوجها ، وفى هذه الحالة تعتبر الرابطة التى كانت قائمة غير شرعية . ومن مظاهر هذه السيادة العربية اختلاف دية العربى ودية المولى [٢] .

وأخذتهم العزة بالإثم فكانوا يكرهون الصلاة وراء الموالى ، ولقد ائتم عربى بأعجمى فلامه فى ذلك بعضهم فقال «إنما فعلت ذلك تواضعاً لله» [٣] .

وكانوا لا يشركون الموالى فى الصلاة على الموتى إذا حضرها بعض العرب ، وجُعل لهم مسجد خاص وجبانة خاصة إلى غير ذلك من المظاهر المخالفة لروح الدين وتعاليمه ، مع أنهم لم يمتنوا على العجم أول ما امتنوا إلا بأنهم علموهم الإسلام فأنقذهم من الضلال ولم يفخروا أول ما فخروا إلا بأن النبى منهم :

فقل للكرام السادة العرب حسبكم ... لسان الورى طرا على حكم وقف
ونصركم حقا عليهم بكل ما ... يطيقونه والود منهم لكم صرف
ولو لم يكن إلا لأن محمداً ... عليه السلام منكم أيها الصنف
خليل إله العالمين نبينا ... ومن منه نرجو العطف يتبعه العطف
وقد قلت ذا أبغى به الله وحده ... وإن شابه شىء فربى قد يعفو

ثم أخذوا يضيفون لأنفسهم كل فضيلة وسلبوا الناس كل فضل فكان الفضل لا يمكن إلا أن يكون وقفاً كله عليهم أو على العجم : قال متعصبو العرب «نحن أفضل وأحفظ وأسخى وأشجع وأوفى وأحلم وأغير على أعراض النساء من الناس» ولهم فى ذلك كله مناظرات عجيبة ليس ذلك مقامها .

والعجيب أنك ترى هذه النعرة العربية مسيطرة على العصر الأموى ولا تكاد تحس بجواب لها من هؤلاء المستضعفين حتى ليخيل إليك أن القوم قد دخل فى روعهم أنهم أقل حظا فى

---

(١) وأحب ألاّ تنسى أن الفارس فى الجاهلية كان لا يزوج ابنته من عربى بالغاً ما بلغ شأنه .

(٢) فى الأغانى جـ ٢ ص ١٠٢ ، ١٧٧ رواية يفهم منها أن العربى كانت ديته عشرا من الإبل ودية المولى خمسا عن الأوس والخزرج (طبعة دار الكتب)

(٣) كان من عادة الدولة العباسية إذا أقبل العربى من السوق ومعه شىء فرأى مولا دفعه إليه ليحمله فلا يمتنع إذا لقيه راكبا وأراد أن ينزله فعل (الراغب الأصفهانى : محاضرات الأدباء) .

الإنسانية من العرب مع أنهم كانوا أضر من العرب نفراً ، وليس بعجيب فقد كثر عدد الموالى كثرة هائلة وتعددت درجات الولاء فقد يثرى المولى ويبتاع رقيقاً فيكون للمولى موال .

وكان من الموالى شعراء مجيدون كنصيب ، وإسماعيل وثابت بن قطنة وعباد وزياد والأعجم .

وإذن فيم نعلل هذا الانكماش وهذا الخضوع والاستسلام من الموالى ؟ ها هو شعر العصبية العربية فى القرن الأول يزدحم كثرة فأين جواب الشعر الشعوبى .

يخيل إلىّ أن التعليل ليس عسيراً ، وأكاد أوقن أنه نتيجة لسياسة الحكام وحدها فلنلق نظرة شاملة على سياسة الدولة بالنسبة لهؤلاء الأجانب .

جاء النبى مؤسس الدولة فلم يؤثر عربيا على أعجمى بل كان المؤمنون لديه إخوة تتكافأ دماؤهم ، وجهد فى محو العصبية العربية واستبدالها بعصبية إسلامية ، يدل على ذلك أنه نادى يوم حصار الطائف أن كل رقيق ينزل إليه فهو حر ويدل على ذلك أيضاً أنه ولى أسامة بن زيد على المهاجرين والأنصار[١] ، وتدل عليه أحاديث «المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم» و «كلكم من آدم وآدم من تراب» و «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» و «حسب الرجل ماله وكرمه ودينه» ويدل عليه قوله «لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى وليقل فتاى وفتاتى» وقوله «مولى القوم منهم» .

أما الخلفاء الراشدون فقد جروا على حكم الدين وسنة النبى فى التسوية بين المسلمين وسووا بين العرب والعجم فى العطاء وولى أبو بكر سالماً مولى حذيفة على المهاجرين والأنصار يوم اليمامة . ويروى عن عمر أنه قال «لو كان سالم مولى حذيفة حيا لاستخلفته» .

مضى عهد الخلفاء الراشدين وجاء دور الأمويين فبدأ بعض عمال معاوية يحبسون العطاء عن الموالى[٢] . ولسنا نشك فى أن هذه الأخبار كانت تصل إلى معاوية ، وإن سألتنى ما الدليل ؟ قلت لا دليل لكنه أمر تدركه أنت وأدركه أنا بالبداهة ، وأحسب أن معاوية كان يغض الطرف ويصم الأذن عما يرى ويسمع تحببا إلى العرب فى أزمة كانت السياسة المكيافيلية تنفع فيها أكثر مما ينفع الدين . وقد لام بعض المحبين لعلى عليا فى التسوية بين العرب والموالى فى العطاء ونصح له باتباع سياسة معاوية ليضمن نصرة العرب ، فاستكبر القول وأجاب «أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور ؟» .

---

(١) فى واقعة فلسطين

(٢) لأننا نرجح أن هذا من اختراع الشعوبية فيما بعد

ونحن نعتقد أن ملكاً على هذا جنى عليه وكان من أسباب انتصار معاوية ، لقد كان علىٌّ بغيضاً إلى كثير من العرب ، كان بغيضاً حتى إلى قريش وأكثرها ، بل لقد حاولت قتله قريش ، وفى ذلك يقول على :

تلكم قريش تمنانى لتقتلنى فلا وربك ما بروا ولا ظفروا
إن تقتلونى فرهن ذمتى لهمو بذات ودقين ما يعفو لها أثر[1]

ودرج الخلفاء بعد معاوية على سنته فكان الموالى يقدمون فى صفوف القتال ويحرمون من العطاء حتى ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فسرعان ما أمر بصرف العطاء إلى عشرين ألف مولى كانوا يقاتلون فى خراسان حبًّا فى سواد عيون العرب .

وبعد عمر رجع الخلفاء إلى السياسة التى نقضها ونحسبهم فعلوا ذلك إرضاء للنعرة العربية السائدة[2] .

تلك غاية فى الظلم قصوى لأن الموالى كانوا يقاتلون مع العرب جنباً إلى جنب ، بل كانوا يقدمون فى المنايا وقد كانوا مشاة والعرب هم الركبان . ولقد كان عدد المحاربين منهم أضعاف المحاربين من العرب حتى لقد قتل فى بعض المعارك ستة آلاف مقاتل من الموالى وقتل من العرب سبعمائة[3] . غاية فى الظلم قصوى ! لتكن . . . فما كان معاوية ولا عبد الملك ولا هشام أبراراً خيّرين كما وهم كثير من المؤرخين !

أجل ! لقد كان فى الخلفاء الأمويين من يعرف الدين . . . ولكن متى ؟ كانوا يعرفونه إذا لم يتعارض مع الدنيا . فإن تعارض فالعاجلة خير من الآجلة ، وكذلك كان الخلفاء العباسيون من بعدهم .

والذى زاد الأمر ضغثاً على أبالة أن هذا العطاء إنما هو مال الذميين ، فقد كان العربى لا يطالب إلا بالزكاة وكان الذميون يؤدون الجزية والخراج ، وكان المجموع قسمة بين المسلمين وذلك هو «العطاء» .

واعتنق كثير من الذميين الإسلام فوجب أن تسقط عنهم الجزية والخراج ، لكن الحجاج اعتبر إسلامهم حيلة فأبى إلا أن يؤدوا الضرائب كما كانوا يفعلون . . . فطلّق كثير منهم الزراعة

---

(١) القاموس المحيط ، مادة «ودق»

(٢) راجع ابن الأثير

(٣) راجع ابن الأثير ، حوادث سنة ٦٧ هـ

وانتشروا فى المدن فأعادهم الحجاج إلى مزارعهم قسرا . أفيمكن أن يحتمل الموالى هذه المظالم صاغرين حتى نقول إنهم انكمشوا أمام العصبية العربية وذلوا ؟

أنا أزعم ذلك .

فإذا استثنينا حركة قام بها الصغد فى الشرق يشد أزرهم الأتراك من وراء الحدود ، وحركة أخرى قام بها فى نفس الوقت «البربر» فى المغرب يشد أزرهم الخوارج ، وقد نقض يزيد سياسة عمر بن عبد العزيز وأعاد الحال إلى ماكان عليه ، فإن الموالى لم تجرأ قط على العرب فى العصر الأموى .

قد تعترض علىّ وتذكرنى بفتنة ابن الأشعث ، وقدكان للموالى فيها قسط عظيم حتى قال المؤرخون إنها حركة الموالى ضد العرب ، أفتسر لى بالرد على هذا الاعتراض ؟ أفلا ترى أن فتنة ابن الأشعث كانت ثورة إقليمية أكثر منها حركة شعوبية ؟

فزع أهل العراق من ظلم الحجاج وضاقوا به ذرعاً ، وقد خضب أرض العراق بدمائهم ورواها ، فما هو إلا أن أرسل الحجاج يؤنب ابن الأشعث وقد أمّره على جيش عظيم لمقاتلة «زنبيل» على توانيه فى مقاتلته حتى بدا له ولجيشه أن يتمردوا على الحجاج فتمردوا . وتبع من كان محنقاً على دولة الحجاج مولى كان أم عربيا[١] .

وموقف الموالى فى فتنة ابن الأشعث هو موقفهم مع المختار ، هو موقفهم مع الشيعة ، هو موقفهم مع كل خارج على الدولة . لم يخرج على الحكم الأموى خارج ، أيا كان باعثه على الخروج ، الدين أو السياسة ، أو غير ذلك إلا وتبعه الموالى وحاربوا فى صفوفه مستميتين ، ومع ذلك فلم يشهر الموالى سيوفهم فى وجه الدولة منفردين طوال القرن الأول ، بل لم يشهروها فى وجوه الولاة منفردين ، فهذه القبائل الخراسانية التى ثارت على قتيبة بن مسلم وقتلته . أفثارت عليه إلا بزعامة تميم ؟

أذلت الدولة الموالى فى القرن الأول إذلالاً فكانوا إمعات مع كل خارج عليها ولم يخرجوا منفردين قط كالعصفور يلطم القفص بجناحيه فينقر أسلاكه ما غفل صاحبه أو شغل عنه . فإن انتبه إليه وفرغ من أمره عاد مطوى الجناح ، وكانوا يحاربون الدولة بأسلحة من المقاومة السلبية أقطع وأحدّ . ففى خلافة هشام أغار العرب الأندلسيون بقيادة ابن مالك واحتلوا ناربون Narbonne واتخذوها قاعدة حربية وجرت بينهم وبين أهل البلاد عدة مواقع أهمها

---

(١) لفتنا إلى ذلك أستاذنا عبد الحميد العبادى

موقعة بلاط الشهداء كما يسميها المؤرخون العرب أو « بواتيه » عند بعض مؤرخى الفرنج و « تور » عند البعض الآخر ، وقد احتشد فيها المغيرون بقيادة عبد الرحمن الغافقى وواصلوا غزوهم إلى حوض نهر اللوار بين بواتيه ، وحيث لقيتهم جيوش الفرنج يقودها « سارتل مارتل » فى رمضان سنة ١١٤ هـ ، وكر العرب وفر الفرنجة ، ولو جرى الأمر فى مجراه لقرع العرب باب باريس كما قرعوا باب قرطبة من قبل وبسطوا سلطانهم على قلب أوروبا ولكان التاريخ غير التاريخ ، والمصير غير المصير ، ولكن البربر فتروا وتخاذلوا فطُرِد الغزاة الفاتحون . وهذه الموقعة إحدى وقائع يعدها Cocasy من الوقائع التى ذكرها فى كتابه «The 15 Decisive battles of the world» وانصرف الأندلسيون بعدها عن معاودة الفتح إلى انقسامهم الداخلى فهؤلاء موال وهؤلاء عرب .

ذلك الشعور الكظيم المقهور هو ما نعلل به صمت الشعوبية امام العصبية العربية وشعرها . ولقد كان للقوم شعراؤهم لكنهم ، كما رأيت ، كانوا أذلاء مستضعفين فبم يفخر الشعر ؟ ليس له إلى الحاضر سبيل . إذ ليس فى الحاضر مفخرة ، وإذن فليس للشاعر إلا أن يتحول عن الحاضر إلى الماضى فيفخر بآبائه وأجداده ، لكن العصبية العربية حرمته حتى هذا العزاء .

فلقد دخل إسماعيل بن يسار النسائى [1] على هشام بن عبد الملك فأنشده قصيدته التى مطلعها :

يا ربع ميّةَ بالعَلْياء من ريم ... هل تَرْجِعَنّ إذا حُيِّيْتُ تسليمى

وفخر فيها بأجداده :

إنى وجدك ما عُودى بذى خَوَرٍ ... عند الحِفَاظ ولا حَوْضِى . بمهدوم
أصْلى كريمٌ ومجدى لا يُقاس به ... ولى لسانٌ كحدِّ السيفِ مسموم
أَحْمِى به مجدَ أقوامٍ ذوى حَسَبٍ ... من كل قَرْم بتاج الملكِ مَعْموم
جَحَاجحٍ سادةٍ بُلْجٍ مَرَازبةٍ ... جُرْدٍ عِتَاقٍ مَسَاميحٍ مَطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنودِ معاً ... والهُرْمزَان لفخر أو لتعظيم
أُسْد الكتائب يوم الرَّوْع إن زَحَفُوا ... وهم أذلّوا ملوكَ الترك والروم

---

(١) إسماعيل بن يسار النسائى مولى بنى تيم بن مرة وكان منقطعا إلى آل الزبير (له ترجمة بالأغانى جـ ٤ ص ١٦٢٢ من طبعة الشعب)

وختامها :

هناك إن تسألى تُنْبَى بأن لنا جُرْثومةً قهَرتْ عِزَّ الجراثيم[١]

قال هشام غُطُّوه فى الماء ، فغُطَّ فى الماء حتى كادت تزهق روحه ثم نفاه إلى الحجاز ، كان للقوم شعور قوى بماضيهم المجيد ، وكانوا ينظرون إلى هذا الماضى مدلّين ، ثم ينظرون إلى ما كان عليه العرب فى الجاهلية باللحظ الشفوق :

إنما سُمِّىَ الفوارسُ بالفُرْ سِ مُضاهاةَ رِفعةِ الأنسابِ
فاتركى الفخر يا أُمام علينا واتركى الجوْرَ وانطِقى بالصَّوابِ
واسألى إن جَهلت عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الأحقابِ
إذ نُـربـى بـنـاتِـنـا وَتَـدُسُّـو ن سَفاهاً بناتِكم فى التّرابِ[٢]

لكن العصبية العربية كممت هذه الأفواه وأخذت أصحابها ، كما رأيت ، أخذ عزيز مقتدر ، فخلا الشعر الأموى إلا من بضع أبيات فى الشعوبية إن دلت على شىء فعلى شعور بالقومية الممتهنة . انظر إلى قول مكحول وقد أراد عمر بن عبد العزيز أن يوليه القضاء فاعتذر وأجاب «قال النبى لا يقضى بين الناس إلا ذو الشرف فى قومه وأنا مولى» .

على أن فى التاريخ الأموى ما يدل على أن الموالى بلغوا شوكة حسب لها الخلفاء والولاة حسابها . ففى أخبار معاوية أنه دعا الأحنف بن قيس وشحرة بن جندب وقال لهما «إنى رأيت هذه الحمراء قد كثرت ، وكأنى أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق» فأشار عليه الأحنف بألا يفعل ، فأخذ بمشورته بعد تردد .

وفى أخبار زياد بن أبيه أنه قال «كأنى بوثبة من بنى الحمراء على ملك العرب» .

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٣٦ – ١٦٣٧ من طبعة الشعب

(٢) لإسماعيل بن يسار – الأغانى جـ ٤ ص ١٦٢٥ من طبعة الشعب

وثبة الموالى على العرب

الصراع مستعر بين المضرية واليمانية ولاسيما فى خراسان ، والموالى يفترضون هذا الظرف فيتألبون فى خراسان ويوقعون بين القبائل ، ونصر بن سيار والى خراسان يتنبه إلى الخطر فينعى على العرب تفرقهم ويصرخ فيهم داعيا إلى الاتحاد أمام الخطر :

أبلغ ربيعة فى مرو وفى يمنٍ ... أن اغضبوا قبل ألاّ ينفع الغضبُ
ولينصبوا الحرب أن القوم قد نصبوا ... حربا يحرق فى حافاتها الحطبُ
مابالكم تَنْشبون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجى عن رأيكم غُيبُ
وتتركون عدوًّا قد أحاط بكم ... ممن تأشب لادينٌ ولاحَسَبُ
قوم يقولون قولا ماسمعت به ... عن النبى ولاجاءت به الكتب
من كان يسألنى عن أهل دينهم ... فإن دينهمُ أن تُقتَل العربُ[1]

لقد أسمعت لو ناديت حيا ! القوم مشغولون بعصبياتهم ، والخلافة فى شغل عن هؤلاء وأولئك . وصاحبنا فى خراسان تتألب عليه الأحداث فيستنجد ولامنجد وله فى ذلك شعر كأنه صرخة اليائس :

ففرى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام[2]

ودعاة الهاشمية ناشطون منذ أوائل القرن الثانى ، وحنق الموالى على الدعوة الهاشمية بالغ أشده وهم لايحلمون بنقل الخلافة إليهم ، فلم لاينتصرون للدعوة الهاشمية ؟ ويتصل إبراهيم الإمام سنة ١٢٦ هـ بأبى مسلم الخراسانى ، ويعهد إليه بالإسراع إلى خراسان ويلتف بأبى مسلم مائة ألف مولى تظلهم الراية السوداء[3] . وهنا لأول مرة نشعر بسيادة الموالى ، فنصر ابن سيار يسرع إلى أبى مسلم يعرض عليه محالفة مضر والحزب اليمانى الربعى يطلب إلى أبى مسلم محالفته . وأبومسلم يدل على هؤلاء وأولئك ويطلب إليهم أن يوفدوا وفودهم لتنظر فى أمرهم ،

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٧ ص ٣٦٤ هامش ٢ من الطبعة الثالثة بدار المعارف
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص ٢٠٢ من طبعة المطبعة البهية
(٣) الراية العباسية

ويلتقى عنده وفد مضر ووفد اليمن وربيعة ويخطب خطباء كل وفد بين يديه ثم يعلن أبو مسلم اختياره للكرمانى وأصحابه من اليمن وربيعة .

وتزحف جيوش أبى مسلم إلى العراق وتستولى على البدو مدينة بعد مدينة ، أما الموقعة الفاصلة بين الجيوش العباسية والجيوش الأموية فتقع على نهر الزاب سنة ١٣٢ هـ ، قتل مروان وطويت آخر صفحة فى التاريخ الأموى .

وقتل إبراهيم الإمام فبويع عبد الله السفاح وببيعته تنشر أول صفحة من صفحات العصر العباسى الأول ، وما هو إلاعصر سيادة الموالى بل سيادة الفرس . ونرجو أن نوضح مظاهر هذه السيادة وآثارها المختلفة إيضاحا لايخرجنا عن نطاق بحثنا . ونقول إجمالا إن العصبية العربية مظهر الدولة الأموية ، وأن قيام الدولة العباسية واندحار الأموية انتصار للعصبية الشعوبية وليس قولنا انتصار أحزاب يمانية وربعية للدعوة العباسية واحتشادها فى صفوف القتال فهى الإمعات فى هذه المرة والقسط الأكبر للموالى .

وحسبى أن أقتطف لك هذه النبذة من رسالة لإبراهيم الإمام بعث بها إلى أبى مسلم « إن استطعت ألا تدع بخراسان أحدا يتكلم العربية إلاقتلته فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار بتهمة فاقتله ، وعليك بمضر فإنهم العدو القريب ، فأبد خضراوهم ولاتدع على الأرض منهم ديارا »[١] .

حسبى أن أقتطف لك هذه العبارات من خطبته للمنصور « ياأهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا »[٢]

وفى موضع آخر من خطبته يقول « فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعا وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم . أهل خراسان دمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا »[٣] .

وهذا هو الذى قصده الموالى . رأوا أنفسهم أذلاء مستضعفين فى العهد الأموى ، ورأوا ضعيفا يناضل الأمويين فانتصروا لهذا الضعيف ليتخلصوا من الأمويين وليضمنوا سيادتهم فى

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ١٤٠ من طبعة الحلبى ١٣٢٥ هـ

(٢) الطبرى جـ ٨ ص ٩٢ ، حوادث سنة ١٥٨ هـ من طبعة دار المعارف

(٣) الطبرى جـ ٨ ص ٩٣ ، من طبعة دار المعارف .

عهد هذا الضعيف الذى انتصر على أيديهم وقد تحققت لهم هذه السيادة فاصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية .

وانتصرت الشعوبية فجلجل صوتها فى الشعر العباسى . أما أول الشعراء الذين تغنوا بهذه العصبية فهو بشار بن برد(١) ، وهو يتبرأ من ولاء العرب .

أصبحتُ مولى ذى الجلال وبعضُهمْ　　مولَى العُرَيب فخُذْ بفضلك فافخَرِ
مَوْلاكَ أكرمُ من تميم كلِّهَا　　أهلِ الفعالِ ومن قُرَيشٍ المَشْعَرِ
فارجعْ إلى مولاكَ غيرَ مُدَافَعٍ　　سُبحانَ مَولاكَ الأجلِّ الأكبرِ(٢)

ومن شعره فى الفخر بأنه من العجم :

ونُبِّئتُ قوما بهم جِنةٌ　　يقولونَ من ذا وكنتُ العَلَمْ
ألا أيُّها السائلى جاهِداً　　لِيَعْرِفَنِى أنا أنف الكَرَمْ
نَمَتْ فى الكرام بَنِى عامرٍ　　فُروعى وأَصْلِى قريشُ العَجَمْ
فإنى لأُغْنِى مَقَامَ الفتى　　وأُصْبِى الفتاةَ فما تَعتَصِمْ(٣)

وفى الفخر بأنه من خراسان :

ودعانى مَعشَرٌ كُلهمُ　　حُمُقٌ دام لهمْ ذاكَ الحُمُقْ
ليس من جُرْمٍ ولكن غاظَهمُ　　شَرَفِى العارضُ قد سَدَّ الأُفقْ
أنا من خراسان وبيتِى فى الذُّرا　　ومن لَدن المسعاة فرعى قد سبق(٤)

وأقوى شعره الشعوبى قوله ردا على قول أعرابى له : ما للموالى والشعر؟

خليلى لا أنام على اقتسارٍ　　ولا آبى على مَوْلًى وجارِ

---

(١) أبوه من فرس طخارستان من أقاليم تركستان ، فتحه الأحنف بن قيس سنة ٢٢ من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وهبه لامرأة من بنى عقيل فتزوجته وأولدها بشارا . وهو بشار بن برد بن يرجوخ العقيلى وكان لنشأته بين أعراب بنى عقيل أثر كبير فى فصاحة لسانه وهو آخر من احتج به النحاة فى شعرهم ، عاصر الدولتين الأموية و+لعباسية ويعده النقاد إمام المحدثين (الأغانى جـ ٣ ص ٩٨١ من طبعة الشعب) و (ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٥) و (الشعر والشعراء ص ٧٣٣) و (ابن المعتز ص ٢١) و (تاريخ بغداد جـ ٧ ص ١١٢)

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٩٨٥ من طبعة الشعب

(٣) الأغانى جـ ٣ ص ٩٨٤ من طبعة الشعب وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٠ من طبعة دار المعارف

(٤) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٤٧ من طبعة الشعب

سَأُخبِرُ فاخرَ الأعراب عنى   وعنه حين تأذنُ بالفَخارِ
أحين كسيتَ بعد العُرْيِ خزًّا   ونادَمْتَ الكِرامَ على العُقَارِ
تُفاخِرُ يابنَ رَاعيةٍ وراعٍ   بنى الأحرار حَسبُك من خسَارِ
وكنتَ إذا ظمئْتَ إلى قَراحٍ   شَرِكْتَ الكلبَ فى وَلْغِ الإطارِ
تُريغُ بخُطبةٍ كَسرَ الموالى   ويُنْسِيكَ المكارم صيدُ نَارِ
وتَغْدُو للقنافذِ تَدَّرِيها   ولم تَعقلْ بدَرَّاج الديارِ
وتَتَّشحُ الشِّمالَ لِلابسيها   وتَرعَى الضأْنَ بالبَلَد القِفَارِ
مُقَامُكَ بيننا دنَسٌ علينا   فليتَكَ غائِبٌ فى حَرِّ نارِ
وفخرُكَ بين خنزيرٍ وكلبٍ   على مِثلى من الحدَثِ الكُبَارِ (١)

أما أشد شعراء العصر تعصبا على العرب وتغنيا بالشعوبية فهو أبو نواس (٢) وأغلب شعره فى هذا المذهب خلط بين الشعوبية وبين الدعوة إلى التجديد الأدبى وإلى الحياة الماجنة كقوله :

عاج الشقىُّ على رسمٍ يسائلُهُ   وعُجْت أسألُ عن خمَّارة البلدِ
كم بين من يحتسى خمراً يلذ بها   وبين باكٍ على نُؤْىٍ ومنتضَدِ
لاجَف دَمْعُ الذى يبكى على حجر   ولاصفا قَلْب من يصبو إلى وتد
يبكى على طلل الماضين من أسد   لا درَّ دَرُّك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ألا وهما   ليس الأعاريب عند الله من أحد (٣)

وقوله :

لنا كرمة لايعلم الذئب سخلها   ولا راعها نزو الفِحالة والخطر
تراث أبى ساسان كسرى ولم تكن   مواريث ماأبقت تميم ولابكر (٤)

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠١٢ من طبعة الشعب

(٢) أبو نواس الحسن بن هانىء هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه وهو فارسى الأم والأب أيضا ، وكان أبوه من جند مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . ترجمته فى الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٣ والأغانى جـ ٢٩ من طبعة الشعب وتاريخ بغداد جـ ٧ ص ٤٣٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر جـ ٤ ص ٢٥٤

(٣) الديوان ص ٢٦٦ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٤) الديوان ص ٢٨٤ من طبعة مصر ١٨٩٨

وقوله :

دع الأطلال تُسْفيها الجنوب ... وتَبْكى عَهْدَ جدَّتها الخُطوبُ
وخَلّ لراكب الوَجْناء أرضا ... تَخُبُّ بها النَّجيبَةُ والنَّجيبُ
ولاتأخذ عن الأعراب لهوا ... ولاعيشا فعَيْشُهم جديبُ
ذر الألبان يَشْرَبها رجال ... رَقيق العيش عندهم غريب
بأرض نبتها عُشَرٌ وطلح ... وأكثر صيدها ضَبُع وذيب
إذا راب الحليب فبُل عليه ... ولاتحرج فما فى ذاك حُوبُ
فأطيب منه صافية شمول ... يطوف بكأسها ساق أريبُ
أقامت حقبة فى قعر دَن ... تفور وما يُحَسّ لها لهيب
كأن قراتها فى الدن تحكى ... قراة القس قابلهُ الصَّليبُ
يمدّ بها إليك يداً غلام ... أغن كأنه رشأٌ رَبيبُ
غذته صنْعة الدايات حتى ... زها فزها به دل وَطِيبُ
ينوء بردفه فإذا تمشى ... تثنى فى غلائله قَضيبُ
فإن جشمته خَلَبتك منه ... طرائف تستخف لها القلوبُ
يكاد من الدلال إذا تثنى ... عليك ومن تساقطه يذوبُ
يجر لك العنان إذا حساها ... ويفسخ عقد تكته الدَّبيبُ
فهذا العيش لاخيم البوادى ... وهذا العيش لا اللَّبنُ الحليبُ
فأين البدو من إيوان كسرى ... وأين من الميادين الزُّرُوب (١)

قلنا إن أشد الشعراء شعوبية وأكثرهم تغنيا بها هو أبو نواس ، ونحن نرى ذلك لظاهرتين فى شعره . أما الظاهرة الأولى فهى حنينه إلى كل ماهو فارسى فهو مغرم فى خمرياته بذكر فارس وكسرى وبنسبة الخمر إلى فارس ، فهو يقول :

فحَلَّ بُزالها فى قَعْر كأْسٍ ... مُحَفَّرَةِ الجَوانِبِ والقَرار
رجال الفُرْسِ حَوْل ركاب كسْرى ... بأعْمِدَةٍ وأقْبِية قِصَارِ (٢)

(١) الديوان ص ٢٤٤ من طبعة مصر ١٨٩٨ وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٠٠ من طبعة دار المعارف ١٩٥٦
(٢) الديوان ص ٢٧٥ من طبعة مصر ١٨٩٨ والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨١١

وقوله

ذخـائـر كسرى لـلـذاتـه وغرس كرام بنى الأصفر(١)

وقوله :

عانس من عوانس الكرم بكر بخواتيم ربها عـــذراء

عانق من غراس كسرى بن ساسا ن غذتها أم لها شهواء(٢)

وقوله :

بنَات كسْرى خير مابناتِ جُلِبْنَ من هيتٍ ومن عاناتِ

مُحَجَّباتٍ غيرَ باديات إلا بأن يُجْلَبْنَ بالطَّاساتِ(٣)

وقوله :

وخذها من معتقة كميت تنزل درّة الرجل الشحيح

تخيّـرهـا لـكسرى رائـدوه لها خطّان من لون وريح(٤)

وقوله :

فقال عروس كان كسرى ربيبها معتقة من دونها الباب والستر(٥)

وقوله :

تدور علينا الراح فى عسجدية حبَتْها بأنواع التصاوير فارس

قَرارتها كسرى وفى جنباتها مهاً تَدَّريها بالقسىّ الفوارس(٦)

وقوله :

فضها عن الماء القراح واسقنى فإنك إن لم تسقنى مت دونها

بآنية مخروطة من زبرجد تخير كسرى خرطها ليصونها(٧)

---

(١) الديوان ص ٢٨٧ من طبعة مصر ١٨٩٨ .

(٢) الديوان بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى .

(٣) الديوان ص ١٦٥ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) الديوان ص ٢٥٨ من طبعة مصر

(٥) الديوان ص ٢٨٠ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٦) الديوان ص ٢٩٥ من طبعة مصر ١٨٩٨ وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٠٦ من طبعة دار المعارف

(٧) الديوان ص ٣٤٩ من طبعة مصر ١٨٩٨

أنا أعرف أن الفرس اشتهروا بالخمر ، وأعرف أن الأعشى الجاهلى نسب إليه :

عللـــانى واســـقـــيـــانى من شراب أصبهـــــانى
من شراب الشيخ كسرى أو شراب خسروانى (١)

وأعرف أن شرب الخمر كان من الطقوس المجوسية فى معابد النار ، يقول هاتف أصفهانى :

بيّرود صدر دينكشان كروش باره مست وباره مدهوش
نبرخنددان بطنز بأمن كفت أى ترابير عقل حلفه بكوش
قوكجا ماكجا أى أز شرمت دخدرز نشسته برقع يوش
كفتمش سوخب آبى ده وآتش من فرولسان أزجوش
دوش مى سوخنم أز إين آتش آه اكرامشبم بود جون دوش
كفت خندان كين هين بيالى بكير ستدم كفت هان زياده منوش
جرعـــه دركشيدم وكشتم فارغ أز كرخ عقل وزحمت هوش

و

بـيـدى ســاق عـلـيـه حـلـة من يـاسمين

و :

وعلى الأُذْنَيـنِ مـنـه وردتـــــا آذَرَيُونِ (٢)

والشيء الذى نلاحظه فى شعوبية أبى نواس هو خلطه بين العصبية وبين الدعوة إلى الجديد وإلى المجون ، كما قلنا ، حتّى ليخيل لقارئه أنه يهرف ، لكن الرجل لم يكن يهرف بل كان جادا فى عصبيته كل الجد ، ونحن نعلل ذلك الخلط بأنه لم يكن جريئا فى دعوته ولِمَ لم يكن جريئا ؟ لأن العصبية العربية كانت لاتزال قوية وهو ماسندلل عليه فى المقام المناسب ، ثم لا تنس أنه كان نديما للأمين ، والأمين صريح العروبة .

لم يكن أبو نواس جريئا فى دعوته ، بل ادعى أنه يمانى ، فهو القائل :

وقال أمن تميم قلت كلا ولكنى من الحى اليمانى (٣)

(١) الأغانى جـ ٩ ص ٣٢٥١ من طبعة الشعب .
(٢) الديوان ص ٧٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى .
(٣) الديوان جـ ٢ ص ٣٤١ من طبعة مصر ١٩١١ .

ونحن نتهمه فى عروبته ونشعر شعورا قويا بأنه كاذب فى دعواه ، فأمه جلبان الفارسية تتفق فى ذلك المصادر ، ولكن من أبوه ؟ هنا اللغز ! فالمصادر تتضارب فى ذلك ، فأبوه كاتب مسعود الماردانى على ديوان الخراج ، وأبوه راعى غنم ، وأبوه حائك ، وأبوه من جند مروان(١) من أهل دمشق قدم الأهواز للرباط بها فتزوج بجلبان .

وأبوه غير ذلك !

فمن أبوه ؟

يتهمه الرقاشى فى بعض هجائه له بأنه نبطى :

نَــبـطىٌّ فـإذا قيـل لـه أنت مولى حكمٍ قال أجَلْ
هو مولى الله إذ كان به لاحقاً والله أعلى وأجَلْ
نسب يسكنه حيث اشتهى فإذا ما رابه ريب رحَلْ(٢)

فهل كان أبوه نبطيا كما يزعم الرقاشى ؟

نحن نشك فى ذلك أيضا ، ونشك فيه لأن كلمة نبطى قد وردت فى النصوص التى بين أيدينا غير مرة على سبيل التحقير ، قال أبو نواس فى بعض خمرياته :

لها ولشخص الماء فى الكأس ضجة كضجة أنبار تدار خراج

وقال ذو الرمة :

إن امرأ القَيْسِ هُمُ الأنْباطُ زُرْقٌ إذا لاقَيْتَهُمْ سِنَاطُ(٣)

وتفسيرا لهذا البيت أروى لك بيتا لذى الرمة من قصيدة أخرى :

تسمى امرؤ القَيْس بن سَعْدٍ إذا اعْتَزَت وتَأبى السِّبَالُ الصُّهْبُ والأُنف الحمْرُ(٤)

وقال آخر :

نبط إذا عرك الهوان بهم ذلوا وإن أكرمتهم ضغنوا

---

(١) راجع فى ذلك أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٣ ، ٤ والاشتقاق لابن دريد ص ٤٠٦ — نشر الخانجى .

(٢) البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٣٤٦ من طبعة الخانجى ١٩٣١ وديوان أبى نواس جـ ١ ص ٥٣ من طبعة لجنة التأليف .

(٣) الديوان ص ٣٣١ من طبعة كمبردج ١٩١٩

(٤) الديوان ص ٢١٩ من طبعة كمبردج ١٩١٩

وقال آخر :

الشيخ فى الصدر وحوله الشاربون طائفة سكرى وطائفة ذهول

والقول :

قال لى الشيخ ضاحكا مازحا يامن عقله مرشد أسير

والقول :

أين أنت ؟ أين نحن يامن تبرقع بنت العنب منك حياء

والقول :

فقلت له قد احترقت روحى فاعطنى ماء واطف مائى من الغليان

ولكن أبا نواس كان يحرص على ذكر الفرس وكسرى فى خمرياته ، هذا الحرص الذى يراه كل متصفح لديوانه ، لولا ما فيه من دم فارسى ، وحنين فطرى إلى كل ما هو فارسى .

كان يلزمه أن يذكر فارسا فى خمرياته وأن يذكرها فى غلامياته .

وساقٍ غَريرِ الطّرْفِ والدَّل فاتنٍ ربيبِ ملوكٍ كان وَالدُهم كِسْرى (١)

وكان يضرب الأمثال الفارسية :

كقول كسرى فيما تمثلَهُ من فُرَصِ اللِّصِّ ضَجَّة السوقِ (٢)

لكن هناك ظاهرة أخرى أشد وضوحا وهى شعوبية عملية جدية ، هذه الظاهرة هى كثرة الألفاظ الفارسية فى شعره كثرة لا نلحظها فى شاعر آخر ، وهاك بعض الأمثلة :

فحلَلْنا هناكَ تِكَّةَ خزٍّ وحَسَرْنا قَباءه الدِّيبَاجاَ (٣)

وقوله :

لكن بها جُلّنارٌ قد تَفَرَّعَهُ آسٌ وكلَّلَهُ وَرْدٌ وسوسان

حتى إذا اصطفق الأقداح وانبسطت بيض القوافين من أعناق كيزان (٤)

---

(١) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ٢٦٩ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) الديوان ص ٤٥١ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٣) الديوان ص ١٦٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) الديوان ص ١٢٧ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى.

وقوله :

فقُلْتَ له والرّاحُ يَزْهُو بكَفِّهِ   وقد رعَفَ الإبريقُ فيها وقَرْقَرا[١]

وقوله :

وَجَّـنـةٌ لُـقِّبَتِ الْـمـنْتَـهى   ثم اسْمُهَا فى العُجْم خُلاَّرُ

وقوله :

فالخمرُ ياقوتةٌ والكاسُ لؤلؤةٌ   فى كَفِّ جارِيةٍ مَمشوقةِ القَدِّ[٣]

وقوله :

فانثنينا عن الورد من غير أن   تنأى عن النرجس المضاعف دار[٤]

وقوله :

واجـعـل الـبسـتـان بـيتـاً   واجـعـل الـقـريـةَ دارًا

مـثـلما فـتّـقت عـن مسـ   ـك لـدى الـعنبر فارا[٥]

وقال ذو الرمة :

إذا قيلَ من أنتم يقولُ خَطيبُهُمْ   هَوازِنُ أو سَعْدٌ وليس بِصَادِقِ

ولكن أصْلُ القوم قد يُعْلِمُونهُ   بِحَوْرَانَ أنْباطٌ عِراضُ المَنَاطِقِ[٦]

وإذن فنحن نشك فيما ذهب إليه الرقاشى إذ يخيل إلينا أن كلمته « نَبَطِىٌّ » فى ذاك الزمان تقابل كلمة « درزى » عندنا اليوم .

ونكذب أبا نواس ونرجح أن أباه أعجمى ، ولكن من أى الأعاجم ؟ ذلك ما لا نعرفه إذ لا سبيل لنا إليه .

---

(١) الديوان ص ٦٨٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨٠٥ من طبعة دار المعارف

(٣) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ٢٤٨ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧ والديوان ص ٢٧ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) غير موجود بالديوان

(٥) الديوان ص ١١٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٦) الديوان ص ٤١٠ من طبعة كمبردج

دعوة أبي نواس اليمانية :

وقد علّلناها ضمنا فلنرح أبا نواس ولنسترح منه لننتقل إلى شيء آخر ، ولا بد أن نعرف قبل الانتقال إلى تناقض فى موقفه الشعوبي ، فهو كما ترى من أشد متعصبى العجم وهو فى نفس الوقت من أشد أنصار الأمين وأنصار الأمين هم العرب . والفرس الذين كان أبو نواس متعصباً لهم ، هم الذين قتلوا الأمين ، ونصروا المأمون وسر هذا التناقض ينكشف إذا لاحظت أن أبا نواس كان يحب الأمين نوعاً من الحب ، وأبو نواس رجل خضع طول حياته لقلبه وهواه .

حظ العصبية العربية من القوة أوالضعف :

بلغ النفوذ الفارسى مبلغه ، فالبلاط فارسى ، والوزراء فرس والقواد أغلبهم فرس ، والحضارة فارسية ومع ذلك فنحن نزعم أن العصبية العربية لم تزل قوية وأن الجنسية العربية مابرحت مهيبة ودليلنا نصوص من الشعر ننشرها بين يديك .

يقول بشار فى هجاء باهلة :

إذا أعيتك نسبة باهلى فَرَفِّع عنه حاشية الإزار
على أستات سادتهم كتاب « موالى عامر » كتبت بنار[1]

فكم يريد بشار أن ينفى صفة العروبة عن باهلة .

ويقول بشار فى هجاء سيبويه :

أَسِيبَوَيْهِ يابن الفارسيَّةِ ماالذى تَحَدَّثْتَ عن شتْمِى وماكُنتَ تَنبِذُ
أَظَلْتَ تُغَنِّى سادِراً فى مَسَاءَتِى وأُمكَ بالمِصْرَينِ تُعْطِى وتأْخُذُ[2]

ويقول :

إن عَمْراً فاعرفوه عَربىٌّ من زجاجِ
مظلم النية لا يعرفُ إلا بالسراجِ[3]

---

(١) الديوان ص ٢١ من طبعة المكتبة العربية

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٥٦ من طبعة الشعب

(٣) قالها فى عمرو بن العلاء لأنه كان يغمز فى نسبه (طه الحاجرى : بشار بن برد ص ٥٦ من سلسلة نوابغ الفكر بدار المعارف ١٩٦٣)

ويقول أبو العتاهية فى هجاء والبة :

أوالبَ أنْتَ فى العَربِ كَمِثْلِ الشِّيص فى الرُّطَبِ
هَلُمّ إلى المَوالى الصِّيـ ـد فى سَعَة وفى رَحَب
فأنت بنا لَعَمْرُ اللـ ـه أشبه منك بالعرَبِ
غَضِبْتُ عليك ثم رأيـ ـتُ وَجْهَك فانجلى غَضَبى
لما ذكّرْتنى من لَوْ نِ أَجْدَادى ولَوْنِ أبى
فَقُلْ ماشِئْتَ أَقْبَلُه وإنْ أطْنَبْتَ فى الكذب
لقَد أُخْبِرْتُ عنك وعن أبيك الخالِص العربِى
فقال العارفُون به مُصاصٌ غَيْرُ مُؤْتَشبِ
أتَانا من بلاد الرُّو مِ أطْلَسَ غيْرَ ذى نَشَبَ
أراك ولدت بالمِرِّيـ ـخ يابَن سَبائك الذَّهَب
فَجِئْتَ أُقَيْشِرَ الخَدَّيْـ ـن أزْرق عارِمَ الذَّنب
لقد أخطأْتَ فى شَتمى فخَبِّرنى ألم أُصب[1]

ويقول فى هجائه :

صَرِّح بما قد قُلْتَه واجْهَرْ لابن الحُبَابِ وقُلْ ولا تَحْصَرْ
مالى رأيتُ أباك أسْوَدَ غِرْ بيبَ القَذَال كأنه زرزُرْ
وكأن وَجْهَك حُمْرةٌ رِئَةٌ وكأن رأْسَك طائر أصْفَرْ
ما بال من آباؤه غرب الألـ ـوان يحسب من بنى قيصر
أترون أهل البدو قد مُسخوا شقرا أما هذا مِنَ المُنْكَرْ ؟[2]

ويقول أبو نواس فى هجاء الهيثم بن عدى :

الحمد لله هذا أعجبُ العَجَب الهيثمُ بن عديّ صار فى العرب
يا هيثمُ بن عديٍّ لستَ للعَرَبِ ولستَ من طيِّئٍ إلا على شَغَبِ

---

(١) الأغانى جـ ١٩ ص ٦٨٦٨ من طبعة الشعب والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٤٨٩
(٢) الأغانى جـ ١٩ ص ٦٨٦٩ من طبعة الشعب

إذا نسبْتَ عديًّا في بني ثُعَلٍ فقدّم الدال قبل العينِ في النَّسبِ(١)

ماذا تفيده هذه النصوص ؟ بشار وأبو العتاهية وأبو نواس كانوا موالىَ يهجون فينفون العروبة عن المهجو ، فهذا دليل صريح على أن العصبية العربية كانت قوية وعلى أن الجنسية العربية كان ينظر إليها نظراً . . . لقد شهد بذلك أهلها !

ذلك يكفيني فلست عارضا عليك شيئا من شعر العرب .

الشعوبية المعتدلة أو « التسوية » .

رأيت كيف كان بشار ينعت العربي « خنزير » و « كلب » وكيف أن الأعاريب عند أبي نواس « ليسوا عند الله من أحد » ، وكان يشمخ في عصبيته ويقول في بعض شعره :

« ياعربيا من صنعة السوق »

فأحب أن أعرض عليك الآن صورة أخرى من صور الشعوبية هادئة ، يقول الخريمي(٢) :

أبا الصُّغْدِ بأْسٌ إذ تُعَيِّرني جُمْلُ سَفَاهاً ومن أَخلاق جارتيَ الجهلُ
فإن تَفخري ياجُمْلُ أو تتجمَّلي فلا فَخْر إلا فوقه الدينُ والعقلُ
أرى الناس شَرْعاً في الحياة ولايُرَى لقبرٍ على قبرٍ عَلاءٍ ولا فَضْلُ
وما ضرَّني إن لم تَلِدْني يُحابِر ولم تشتمل جَرْمٌ عليّ ولا عُكْلُ

وقال :

إني امرؤ من سراة الصغد ألبسني عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر(٣)

وعلى الإجمال فشعر الخريمي يمثل مذهب أهل التسوية أوالشعوبية المعتدلة ، كما سميناها .

(١) الديوان جـ ١ ص ١٧٥ من طبعة مصر ١٩١١

(٢) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان بن قوهي الخُرَيْمي من صغد الترك من مرو ، وهو جزري نزل بغداد وكان له ولاء في غطفان جعله يلزم عثمان بن خريم المرى الغطفاني في ولايته على أرمينية وظل وفيا له فنسب إليه . انظر في الخريمي وأخباره وأشعاره : ابن المعتز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٥٣ وتاريخ بغداد جـ ٦ ص ٣٢٦ وزهر الآداب جـ ٤ ص ٢٠١

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨٥٧ بتحقيق أحمد شاكر

بحور المفاخرة

ظاهرة ألفتت النظر لابأس من الإشارة إليها وهى أن العرب كانوا يفخرون بما يعيرهم به الفرس ، وأن الفرس أنى كانوا يفخرون بما ينعاه عليهم العرب .

يفخر الشعوبى بحضارته ولين عيشه فى حين أنّ العربى لا يفخر إلا بالعيش وخشونته ، يقول الشعر :

غنينا بالطبول عن الطلول وعن عنس عذافرة دمول
فلست بتارك إيوان كسرى لتوضح أو لحومل فالدخول
وضب بالفلا ساع وذئب بها يعوى وليث وسط غيل

ويقول العربى :

ونفخر أن مأكولا ولبا وذلك فخر العاربات حجول
ففاخرهن فى خد أسيل وفرع فى مرافقها رسيل
وأمجد من أبيك إذا ترانا عداة كالليوث على الخيول

وليس فى هذه الظاهرة عجيب فهى نطيقة منطقية لاختلاف مابين الفرس والعرب ، فطبيعى أن ينظر الفارسى المترف إلى العربى الخشن كما ينظر أبناء الحضارة واللين إلى أبناء الريف والبوادى . طبيعى أن يفخر الفارسى بالحضارة واللين ، ومايلحق بهما من ضروب اللهو والقصف ، كما رأيت فى أبى نواس . وطبيعى أن يفاخر العربى بالفروسية والفصاحة وما إليهما من خلال البدو فيقول :

متى عرف المنابر فارسى متى عرف الأغر من الحجول
متى عرفت وأنت بها زعيم أكف الفرس أعراب الخيول

وطبيعى أن يعيره الناس بالبداوة والخشونة :

بنى هاشم عودوا إلى نخلاتكم فقد صار سعر التمر صاعا بدرهم (١)

وقوله :

أجعلت بيتا فوق رابية فرع النجوم كأنه نجم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٢٦ من طبعة المطبعة البهية والبغدادى : خزانة الأدب جـ ٤ ص ١٧٠

كبيت شعر وسط مجهلة بفنائه الجعلان والبهم[١]

وقوله :

عودوا إلى أرضكم بالحجا ز وأكل الضباب ورعى الغنم

نزعة إنصاف :

رأيت ماكان عليه العرب من التعصب حتى أنى قلت فيما أذكر «كأننى بالقوم خيل إليهم أن فى عروقهم دماً ليس كالدماء» ، غير أن القواعد لاتجرى مطلقة . وأحب الآن أن أعرض عليك صورة من شعر البحترى[٢] تصور نزعة عربية شاذة .

يقول البحترى فى سينيته الشهيرة التى وصف بها إيوان كسرى :

ومساع لولا المحاباة منى لم تُطِقْها مسعاة عَنْس وعَبْس

فلها أن أعينها بدموع موقفات على الصبَابة حبس

ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولاالجنس جنسى

غير نعمى لأهلها عند أهلى غرسوا من ذكائها خير غرس

أيَّدُوا ملكنا وشَدُّوا قواه بكماة تحت السَّنَوَّرِ حمس

وأرانى من بعد أكلف بالأشـ ـراف طرا من كل سِنْخٍ وجِنْسِ

أتسلى عن الحُظوظ وآسى لمحل من آل ساسان دَرْسٍ[٣]

ولكن ماتقول فى قوله ؟ !

أتسلى عن الحُظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس

ولاتصدق البحترى فى قوله :

وأرانى من بعد أكلف بالأشـ ـراف طُرا من كل سنخ وجنس

---

(١) هذان البيتان لسهل بن هارون ومع ذلك فابن قتيبة يقول « لم أر فى هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصبا من العرب من السفلة والحشوة أوباش النبط وأبناء أكرة الفرس ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف ثابتاً» .

(٢) هو الوليد بن عبيد الله بن يحيى بن عبيد بن شملال ، ويكنى أبا عبادة . ترجمته فى الأغانى جـ ٢٤ ص ١٩٩، من طبعة الشعب وتاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٤٧٦ — ٤٨٠ ومعجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢٤٨ — ٢٥٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٤ — ٣٩٥

(٣) الديوان جـ ٢ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٩١١

لأنه كان متعصبا لقبيلة طيئ ، ومن العجب أن يتعصب رجل لقبيلة لاتتعصب لقوميته أليس هو القائل :

يابنة العامرىّ كيف يرى قو ... مك عدلا أن تبخلى وأجودا
إن قومى قوم الشريف قديما ... وحديثا أُبُوَّةً وجدودا
وعبيداً أومسهراً وجديا ... وتدولا وبُحترا وعتودا
لم أدع من مناقب المجد مايقـ ... ـنع مَن همّ أن يكون مجيدا
ذهبت طيئ بسابقة المجـ ... ـد على العالمين بأساً وجودا
معشر أمسكت حلومهم الأر ... ض وكادت من عزمهم أن تميدا
نزلوا كأهل الحجاز فأضحى ... لهم ساكنوه طرًّا عبيدا
سائل الدهر مذ عرفناه هل يعـ ... ـرف منا إلا الفعال الحميدا
قد لعمرى زرناه كهلا وشيخا ... ورأيناه ناشئا ووليدا
وطوينا أيامه ولياليـ ... ـه على المكرمات بيضا وسودا
عبد شمس شمس العَريب أبونا ... ملك الناس واصطفاهم عبيدا
وطيئ السهل والحزونة بالأبـ ... ـطال شعثا والخيل قبًّا وقودا
نحن أبناء يعرب أعرب النا ... س لسانا وأنضر الناس عودا
وكأن الإله قال لنا فى الحرّ ... بِ : كونوا حجَارَةً أو حديدا (١)

وإذن فالبحترى كاذب ! أريد أنه واهم ، حين يقول أنه يكلف بالأشراف من كل سنخ وجنس . ويجب أن نبحث عن تعليل آخر لهذه النزعة الشعوبية الشاذة ، فتعال بنا نتأمل سينيته ونراجع سيرته محاولين استخلاص التعليل الصحيح ، يقول البحترى فى هذه السينية :

ولقد رابنى نبوّ ابن عمى ... بعد لين من جانبيه وأُنس
وإذا ما جُفيتُ كنت حرياً ... أن أرى غير مصبح حيث أمسى
حضرت رحلى الهموم فوجهـ ... ـت إلى أبيض المدائن عنسى (٢)

---

(١) الديوان جـ ١ ص ١٨٣ - ١٨٥ من طبعة مصر ١٩١١

(٢) الديوان جـ ٢ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٩١١

كأننا بالرجل قد رحل إلى المدائن ولسان حاله يقول قول أبي نواس :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره (١)

ويقول :

واشترانى العراق خطة غَبْنٍ بعد بيعى الشام بيعة وكس (٢)

فما الذى رابه من بنى عمه ، وماله يبيع العراق بعد بيعة الشام بيعة وكس ؟ لعلك تذكر قصة البحترى مع أبي العنبس الصيمرى .

دخل البحترى على المتوكل ومدحه بقصيدته :

عَنْ أىِّ ثَغرٍ تَبْتَسِمْ وبأىِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ (٣)

ويقال إن المتوكل أغرى به أبا العنبس . فما إنْ أتم البحترى قصيدته حتى صاح به أبو العنبس :

فى أىِّ سَلحٍ تَرْتَطِمْ وبأىِّ كفٍّ تَلْتَقِمْ
أدْخلت رأسَك فى الرَّحِمْ وعَلِمْتَ أنَّكَ تَنْهزِمْ
يابُحترىّ حَذارِ وَيْـ ـحَك من قَضاقِضَةٍ ضُغُمْ
فلَقَد أسْلَت بوادِيَىْ ـك من الهجا سَيْلَ العَرِمْ
فبأىِّ عِرْضٍ تَعْتَصِمْ وبهتكه جَفَّ القَلَمْ (٤)

وخرج البحترى ، والمتوكل يضحك ويصفق بيديه حتى غاب عن عينيه .

ونرجح أنه رحل بعدها عن « سر من رأى » وقلبه يتميز من الغيظ ، ولعله قصد المدائن بعدها توا .

والذى أريد أن أستنتجه من ذلك كله أن هذه النزعة لم تكن عامة – فيما أرى – إنما هى نزعة فردية لها ظروفها .

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٦٦ من طبعة مصر ١٩١١

(٢) الديوان جـ ٢ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٩١١

(٣) الأغانى جـ ٢٤ ص ٨٢١٩ من طبعة الشعب والديوان جـ ٢ ص ٢٢٤ من طبعة مصر ١٩١١

(٤) الأغانى جـ ٢٤ ص ٨٢٢١ من طبعة الشعب والقصيدة طويلة . ويقول أبو الفرج « وخرج البحترى ولقى بعض أصحابه فقال لهم : فقد ضاع العلم وهلك الأدب ، أفتأذنون لى بالخروج إلى منبج بغير إذن » (الأغانى ص ٨٢٢٤)

الشعوبية تنتصر :

لئن كان أبو جعفر المنصور قد آثر الفرس على العرب حتى أن الفارسى كان يدخل عليه بعد استئذان فى حين كان العربى ينتظر الإذن على بابه . ولئن كان البرامكة قد نهضوا بالنفوذ الفارسى فى عصر الرشيد . ولئن كان المأمون بعد انتصار الفرس له على أخيه الأمين وقتله فرق بين الفرس والعرب فكان الفرس هم الركبان والعرب هم الرُّجل فى الحروب . فليس من شك فى أن العصبية العربية بقيت برغم الخلفاء الوزراء متينة مهابة يدل على ذلك ماروبناه لك من الشعر ويدل عليه التاريخ . فنحن نعلم أن الحزب العربى وعلى رأسه السيدة زبيدة كان يناضل البرامكة .

وأنا أرجح أن هذه العصبية العربية لعبت دورها فى مأساة البرامكة ، أما رجحان كفة الشعوبية فكان ذلك بعد حرب الأمين والمأمون ، أى حرب العرب والفرس ، هذه الحرب التى انتهت بقتل الأمين ، وبين يدىّ طائفة من الشعر يفخر أصحابها بأنهم قتلة الأمين ، وظل نجم العرب يخبو حتى صفى أو كاد فى زمن المعتصم ، وقد مدحه أبو تمام فى بعض مديحه بقوله :

إقْدامُ عَمْرو فى سماحة حاتمٍ . فى حلم أحنفَ فى ذكاء إياسِ[1]

فاستكبر القول رجال القصر ، وعُنِّفَ أبو تمام .

وإنه ليخيل إلى من أخبار ذلك العصر وماتلاه أن لفظ « عربى » كان يقال كما يقول سفلة الفرنجة وَوَبشهم «Arabe» كناية عن الزراية والمهانة .

(١) المرزبانى : الموشح ص ٢٣٦ من طبعة جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣

العصبية القبلية فى العصر العباسى

نساجلك العداوة ماحيينا فإن متنا نورثها بنينا

أحسب أن القوم انصرفوا عن عصبياتهم القبلية إلى مصارعة الشعوبية ! لابل تهادنوا أمام السيل الشعوبى المجلعب الراعب كما يتهادن البطلان فى حلبة الملاكمة وقد تواثب قلباهما من الجهد حتى إذا تملكا أنفاسهما عادا للنضال .

والشيء الطريف فى العصبية القبلية هو تعصب بعض الموالى لقبائل عربية يدينون لها بالولاء .

مسلم بن الوليد[1] مولى الأنصار ، والحكم بن قنبر المازنى[2] .

الحكم بن قنبر شاعر متعصب كان يناقض الطرماح بعد موته ، وكان يهجو الأزد وطيئا فناقضه مسلم بقصيدته «آيات أطْلالٍ برامَة دُرَّسٍ» ومنها :

إن كنت نازلةَ اليَفاع فنكّبى دار الرِّبَابِ وخَزْرجى أو أَوِّسى

ومنها :

هل طيِّىءُ الأَجْبَالِ شاكرةُ امْرِئٍ ذادَ القَوافى عن حِمَاها الأتعَس

فاعقِلْ لِسانَك عنِ شتائِم قَوْمِنا لايَعْلَقَنّك خادِرٌ من مأْنَس

أَخلَفْتَ فَخْرَكَ من أَبيك وجئْتَنى بأَبٍ جديدٍ بَعد طُول تَلمُّس

أخذتْ عليه المُحكَماتُ طَرِيقَها فغدَا يُهاجِى أَعْظُماً فى أَرْمُسِ[3]

وهجا مسلم قريشا فى قصيدة أذكر لك منها :

قل لمن تَاه إذ بِنَا عَزَّ جَهْلاً ليس . بالتِّيه يَفْخَرُ الأَحْرَارُ

---

(١) هو مسلم بن الوليد ، أبوه الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبى أمامة أسعد بن زرارة الخزرجى . ولد مسلم سنة ١٤٠ هـ وكان أبوه يشتغل بالحياكة . وفى أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخا صالحا وأغلب الظن أنه كان من موالى الفرس .

ترجمته فى الأغانى جـ ٢١ ص ٧٢٦٣ من طبعة الشعب والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ والموشح للمرزبانى ص ٤٤٤ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ٢ ص ١٨٦ وتاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٩٦

(٢) هو الحكم بن محمد بن قنبر المازنى ، بصرى شاعر ظريف من شعراء الدولة الهاشمية وكان يهاجى مسلم بن الوليد الأنصارى مدة ثم غلبه مسلم (الأغانى جـ ١٤ ص ٥٠٣١ من طبعة الشعب)

(٣) الأغانى جـ ١٤ ص ٧٣٠٨ من طبعة الشعب

فتناهوْا وأقصِروا فلقدجا ... رت عن القَصْد مِنكمُ الأبصارُ

ومنها :

فاخرَتْنا لمَّا بَسطْنا لها الفَخْـ ... ـر قُرَيْشٌ وفَخْرُها مُسْتعار

ذَكرتْ عِزَّها وما كان فيها ... قَبل أن يَسْتجيرَنا مُسْتجار

إنما كان عِزُّها فى جبال ... تَرْتقيها كما تَرَقَّى الوبَار

أيُّها الفاخِرُون بالعِزِّ والعِزُّ (م) لِقَوْمٍ سِواهُم والفَخَار

أخْبِرُونا من الأعزّ أألمنْـ ... ـصُورُ حتى اعتلى أم الأنصار

فَلَنَا العِزُّ قَبْل عِزِّ قُرَيْش ... وقُرَيْشٌ تِلك الدُّهورَ تِجَار

ومنها :

أيُّكم حَاطَ ذا جوارٍ بعِز ... قبل أن تَحْتَويه منا الدَّار

أو رَجَا أن يَفُوتَ قوما بِوتْرٍ ... لم تَزلْ تَمْتطيهمُ الأوْتار

لم يكُنْ ذاك فيكمُ فدعُوا الفَخْـ ... ـرَ بما لايَسُوغُ فيه افْتِخار

وَنـزاراً فـفاخروا تَـفْضلوهمْ ... ودَعُوا من له عَبيداً نِزَار

فبنَا عَزَّ منكمُ الذُّلُّ والدَّهْـ ... ـرُ عليكمْ بريْبه كَرَّار[1]

فرد عليه ابن قنبر يحرض عليه أمير المؤمنين ويهجوه والأنصار . والغريب فى هذا الرد مزيج من العصبية القبلية والعصبية العربية :

ألا امْثُلْ أميرَ المُؤْمنين بمُسْلِم ... وأَقْلِقْ به الأحْشاءَ كُل مُجْرِمِ

ولا تَرْجعَنْ عن قَتْله باسْتِتابة ... فما هو عن شَتْم النبى بمُحْرِم

ولا عَن مُساواة له ولِقَوْمه ... قُريشاً بأَصْداءٍ لعاد وجُرْهُم

ويَفْخَرُ بالأنصار جَهْلاً على الذى ... بنُصْرته فازُوا بِحَظ ومَغْنم

وسُمُّوا به الأنصارَ لاعَزَّ قائل ... أَراد قُرَيْشاً بالمَقام المُذَمَّم

ومنهمْ رَسُولُ الله أزْكَى من انْتمى ... إلى نَسبٍ زاكٍ ومَجْد مُقدّم

وما كانت الأنصارُ قَبلُ اعْتصامها ... بنَصْر قُرَيْش فى المحَلِّ المعُظَم

ولا بالأُلَى يَعْلون أقْدار قَوْمهمْ ... صُدَاءَ وخَوْلان ولخْم وسلْهَم

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٣٠٩ من طبعة الشعب

ومنها :

وإن قُريشا بالمآثر فُضلَتْ على الخَلْق طُراً من فَصِيح وأعْجَم
يُسامى قريشا مُسْلِمٌ وهمُ هُمُ بمَوْلَى يمانى وبَيْت مُهَدّم
جَعاسِيسُ أَشْباهُ القُرودِ لو انهمْ يُباعونَ ما ابْتِيعُوا جميعاً بِدرْهَم

وآخرها :

أَيُعْدَلُ بَيتٌ يَثْرِبيٌّ بكَعْبَةٍ ثَوتْها قُرِيش فى المكان المحَرَّمِ
قريش خيارُ الله واللهُ خَصَّهمْ بذلك فاتْعَسْ أيُّها العِلْج وارْغَم
ومن تَدّعى منه الولاءَ مُؤَخّرٌ إذا قِيل للجارِى إلى المجْد أقْدِمِ (١)

وخاف مسلم من الخليفة فرد متنصلا من قصيدته متوددا لقريش .

أبو نواس والعصبية :

كان أبو نواس يهجو اليمن ولسنا نعرف سر تحامله على اليمن إلا أن يكون ذلك للخصومة التى كانت بينه وبين هاشم بن حديج فهو ينحو نحو القدماء ، يهجو الفرد فيهجو الجماعة أو يهجو العرب عن طريق هجاء الجماعة ، ومن ذلك قوله ، والغريب أن يذكر أيام الجاهلية :

ياهاشم بن حديج ليس فخركم بقتل صِهْرِ رسول الله بالسَّددِ
أدْرَجتم فى إهاب العير جثته فبئس ما قدمت أيديكم لغد
أن تقتلوا ابن أبى بكر فقد قَتَلَتْ حُجْراً بَدارة · مُلْحوب بنو أسَدِ
وطردوكم إلى الأجيال من أَجَأ طرد النعام إذا ماتاه فى البلد
وقد أصاب شراحيلا أبو حنش يوم الكلاب فما دافعتم بيد
ويوم قلتم لزيد وهو يقتلكم قتل الكلاب لقد أبرحت من ولد
وكُل كِنْدِيّةٍ قالت لجَارَتِها والدَّمْعُ ينهَلُّ من مَثْنى ومُنْفَرد
ألْهَى امرأ القَيْس تَشْبيبٌ بغَانِيَةٍ عن ثأره وصِفاتُ النُّؤْىِ والوتَدِ (٢)

ثم صافى اليمانيين وأخذ يهجو النزاريين ويمدح اليمن وهاشم بن حديج مدعيا أنه يمانى :

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٣١٠ – ٧٣١١ من طبعة الشعب

(٢) الديوان جـ ١ ص ١٦٩ من طبعة مصر ١٩١١ وابن منظور : مختار الأغانى جـ ٣ ص ٢٠ من طبعة الدار المصرية

أهاشِمُ خذ منّى رِضاك وإن أتى رِضاك على نفسى فغير مَلُومِ
فأُقْسِم ما جاوزتُ بالشتم والدِى وعِرْضى ومامَزَّقْتُ غيرَ أديمى[(١)]

وأخيراً هو يمانى بل أكثر من اليمانى ، ينصب نفسه للدفاع عن اليمن :

وقد نافَحْتُ عن أحْسَابِ قومٍ هم ورثوا مكارم ذى نواس
فإن تك أوقدت للحرب ناراً فما غطيت خَوْفَ الحرب راسى
سأبلى خير ما أبلى محام إذا ما النبل ألجم بالقياس

وفى هذه القصيدة يقول :

وقالت كاهل وبنو قُعَيْن حنـانك إننا لسنا بناسِ
فما بال النعاج ثغت بشتمى وفى زمعاتهن دم الفراس[(٢)]

ولسنا نعرف شاعرا من الموالى تعصب لقبيلة على قبيلة خلا هذين « مسلما وأبا نواس » أما أشد شعراء العصر تعصبا فهو الشاعر اليمانى دعبل بن على الخزاعى وهو بحق وارث الطرماح كما يلقبه أبو سعد المخزومى فى بعض هجائه . وله قصيدة يرد بها على الكميت فى فخره بنزار بلغت ستمائة بيت[(٣)] روى المسعودى فى مروج الذهب بعض أبياتها .

وقال أبو سعد المخزومى يناقض دعبلا :

لِدعْبلٍ وَطَرٌ فى كل فاحِشةٍ لو بادَ لُؤْمُ بنى قحطان لم يَبِدِ
ولى قوافٍ إذا أنزلْتُها بَلَداً طارتْ بهنّ شياطينى إلى بَلَدى
لم يَنْجُ من خَيْرها أو شرها أحَدٌ فاحْذَرْ شآبيبَها إن كُنْتَ من أحَد
إن الطِّرماح نالَته صواعقُها فى ظُلمة القبْر بين الهام والصُّرَدِ

---

(١) ابن منظور : مختار الأغانى جـ ٣ ص ٢٥ .

(٢) الديوان جـ ١ ص ١٦١ – ١٦٢ من طبعة مصر ١٩١١

وعندما توفى أبو نواس رثاه بعض الشعراء بقوله :

من ذا يرد نزار عند قوتها أم من يحامى على جرثومة اليمن

(٣) مطلعها :

أفيقى من ملامك ياظعينا كفاك اللوم مرّ الأربعينا

(مروج الذهب جـ ٢ ص ١٣٩)

وأنت أولى بها إذْ كنت وارِثَه فابعد وجهدك أن تنجو على البَعَد(١)

ونحن نعتقد أن الخلافة العباسية كانت خطتها منذ اللحظة الأولى إحياء العصبية القبلية واستغلالها . فالمنصور كان جيشه مقسما إلى أقسام ثلاثة : خراسانى ، مضرى ، يمانى .

ومن سياسة المنصور فى التفريق بين القبائل أنه ولى على اليمن «معن بن زائدة الشيبانى» وهو من ربيعة إيقاعا بينها وبين اليمن ، فقد خشيت الدولة مغبة ذلك الحلف القديم بينهما .

وكان طبيعيا أن يشتد معن على اليمانيين لأنهم خصوم السلطان الجديد أو قل إنهم ألد خصومة ، فكانت النتيجة ما أراد المنصور ، وهو إضرام العداء بين الحليفين .

وحدث فى الشام فى أثناء حكم الرشيد أن مضريا مرّ ببستان ليمانى من لخم فاقتطف شيئاً من القثاء ورآه صاحب البستان فتضاربا ، فلما كان الصباح اجتمع كل منهما فى نفر غزير من عشيرته واحتدم بينهما القتال وظل الفريقان يتقاتلان سبع سنوات فى حرب ضروس قتلت فيها الآلاف وخربت المدائن والرشيد لا يحرك كتيبة واحدة .

وأخيرا فهذه الأبيات لأبى نواس تظهرنا على بعض العصبيات فى ذلك العصر ، قال :

لأزْدِ عمانٍ بالمهلّب نزْوَةٌ إذا افْتَخرَ الأقْوامُ ثم تَلِينُ
وبَكْرٌ ترى أنَّ النُّبوة أُنْزِلَتْ على مَسْمَعٍ فى الرَّحِمِ وهو جَنِينُ
وقالَتْ تَميمٌ لانَرَى أن واحِداً كأحْنَفِنَا حتى المماتِ يكُونُ
فما لمتُ قَيْساً بعدها فى قُتَيْبَةٍ وفَخْرٍ به إن الفَخارَ فُنُونُ(٢)

---

(١) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٨٤٦ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٥٤٦ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

الشعر السياسى والفرق الدينية

الشعر السياسى فى العصر العباسى

رأيت كيف أن السياسة شغلت الشعر الأموى وكيف أن الشعراء انقسموا شيعا وافترقوا طوائف فأمويون وعلويون وزبيريون وشراة .

أما الشراة فقد سحقتهم الدولة فى القرن الأول وقضت عليهم كفرقة سياسية . وأما الزبيرية فاتت بموت من قامت لهم الدعوة – موتا طبيعيا – فلم يبق مجال للشعر السياسى فى العصر العباسى إلا لشاعرين شاعر عباسى وشاعر شيعى ، ومن المعقول أن يكون للدولة الأموية الهائلة شعراء ولو فى صدر العصر العباسى ، لكنك تعرف أن الدولة الأموية لم تطو صحيفتها الأخيرة إلا بعد مرض طويل عضال صوّح شجرتها .

لم يبق إلا شاعر عباسى وشاعر علوى ، لكن أكان موقف شعراء الدولة فى العصر العباسى موقف شعرائها فى العهد الأموى .

لا ! بل تغيّر . فالدولة الأموية كانت تضارع خصومها فى خوض الأعاصير والعواصف فكانت محتاجة حقا إلى شعراء يناضلون عنها ويدعون لها .

أما الدولة العباسية فقد استتب لها الأمر وهى فى عهد المنصور ثانى خلفائها ، فتغير موقف الشعراء ، وأصبحوا أشبه بالمداحين منهم إلى المحامين ، وكان الخلفاء يسيغون هذا المدح ويحبونه لأنه يشبع زهوهم . كذلك الشاعر الشيعى تغير موقفه بعض الشىء فلسفة كان أجرأ منه على الجهر بمبدئه وفى إعلان خصومته لا لأن الخلفاء الأمويين كانوا ألين فى خصومتهم ، لا !

إنى أعتقد أنّ الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء ، قسوا قسوة نكراء وصبوا على خصومهم صنوف العذاب وافتنُّوا فى التنكيل بهم .

إنما كان الشاعر الأموى أجرأ على الدولة لهذا السبب الذى ذكرناه من قبل ، لأن الدولة كانت أضعف مركزا تزلزل بها الأحداث من كل جانب ، وكان خصومها يحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم أو الثعبان بالطوق .

أما الدولة العباسية فكانت أوطد ملكا وأعز نفرا . ولذلك كان شعراء الشيعة فى العصر

العباسى يشيدون بأهل البيت ويمدحون العباسيين فى وقت واحد . كانوا يشيدون بأهل البيت تقربا إلى الله وإيثارا للآجلة وكانوا يمدحون العباسيين دفعا للأذى .

ثم لاتنس أن الشعراء الأمويين كانوا معاصرين لعلى والحسين والحسن أو قريبى العهد بهم فكانت الحوادث توحى إليهم إيحاء مباشرا .

فى العصر الأموى فنون ثلاثة هى أقوى فنونه ، فنّان نشآ فيه ، وهما السياسة والغزل ، وفن موروث هو الشعر القبلى . وهذه الفنون : ثلاثتها ، تقهقرت فى العصر العباسى إلى الخلف خطوة واسعة لتفسح السبيل لفنون أخرى من الشعر أشد اتصالا بالإحساس المادى .

الشيعة والعصر العباسى

قلنا ونحن نتحدث عن الشعر السياسى فى العصر الأموى أن الخلفاء الأمويين كانوا يتلطفون إلى هشام بن محمد بن الحنفى ويقربونه منهم وإن طيف الغدر طاف بهشام بن عبد الملك فأمر من دس له السم .

ونقول إن هشاما هذا شعر بالسم يدب فى عروقه وهو فى طريقه إلى المدينة فعرج إلى « الحميمة » حيث نزل ضيفا على محمد بن عبد الله بن عباس ، وهناك أوصى له بالبيعة ، فلما جاءه الموت أوصى لابنه إبراهيم المعروف بإبراهيم الإمام .

والواقع أن العباسيين كانت لهم أطماع قديمة فقد كانوا يبثون الدعوة لأنفسهم سرا كما تبث الجمعيات السرية تعاليمها .

وأخذت شيعة الإمام تدعو لأهله لاتفرق بينهم ، وتوفى إبراهيم واجتمع رؤساء الدعوة الهاشمية ، وكانت الدولة الأموية إذ ذاك فى طريق الانحلال – كما بينا – وبايعوا محمد بن عبد الله المعروف « النفس الزكية » ، وممن بايعه السفاح وأخوه المنصور .

وانتصر أبو مسلم الخراسانى على الدولة الأموية ، واستأثر العباسيون بالأمر فبايعوا السفاح ، وسكت العلويون وزعيمهم إذ ذاك أبو سلمة الخلال خوفا وكأنها سكتة المريض وغدر العباسيون كشيمتهم ودسوا السم لأبى سلمة .

وجاءت إلى الكوفة عصبة النفس الزكية تطالب بحقها فى الخلافة فاسترضاها الخليفة بالأموال والعطايا ومازال يسترضيها طول مدة الخلافة .

وخلف السفاح أخوه المنصور فجافاها وقسا عليها قسوة نكراء ، وفى سنة ١٤٥ هـ قتل محمدا صاحب الدعوة ، كما رأينا .

وفى زمن الرشيد قام يطالب بالخلافة يحيى أخو محمد بن عبد الله الذى قتله المنصور فغمره الرشيد بالمال وأعطاه الأمان ثم غدر به وأمر بحبسه لكنْ جعفر البرمكى أطلق سراحه وربما كان هذا من أسباب نكبة البرامكة .

وفى عهد المأمون خرج فى اليمن إبراهيم بن موسى الطالبى ، وتقول بعض المصادر إن المأمون كان شيعيا وذلك عجيب ، وعجيب كذلك أن يختار لولاية العهد « عليا الرضا » الزعيم والإمام العلوى . ولسنا ندرى أكان ذلك حبا منه للعلويين أم كان يسكن ثائرتهم . وأمر المأمون عماله بخلع الشعار ، الشعار العباسى الأسود وإحلال شعار الشيعة الأخضر محله ، وقد فعل ذلك هو نفسه وزوج بنتا له عليا الرضا وقد بلغ الرابعة والخمسين من عمره ، وزوج ابن على بنتا أخرى .

وتوفى على الرضا فى خلافة المأمون . ويزعمون أن المأمون دس له السم فى الطعام وهو قول بعيد لانصدقه ، فلو أن الأمر لم يكن صحيحا وصادقا وكان سياسة ومهادنة كما يقولون لما زوجهم بناته ، ولما عرض نفسه لثورات البيت العباسى .

وقد نهض لمدافعة هذا العباسى العلوى ورشح نفسه إبراهيم المهدى ، إنما كان الأمر أكثر جدا مما يظنون ، لقد فعل المأمون ما فعله ، وهو عجيب حقا ، وهو خاضع لسلطان العقيدة الشيعية .

ما السبب فى تزويج المأمون ابنتيه إلى علويين ؟ يقولون إنه زواج سياسى أو نفعى أو كما يقول الفرنسيون Mariage de raison .

كما تزوج بوران بنت الحسن بن سهل ليزداد اجتماع قلوب الفرس والتفافهم حوله ، فهو يريد بمصاهرة العلويين تألف الشيعة كما يتألف الفرس بزواجه ببوران .

أما أنا فأعتقد أن الرجل كان جادا ويؤيد عقيدتى هذه ما قاله فى حديث له عن على بن أبى طالب وقد ليم على تشيعه له « لقد بذل ماله ودمه دون رسول الله وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة ، وعادى العشائر والعمائر والأقارب وفارق الأهل والأولاد واغترب عن داره لينصر دين الله وينصر كلمة الله فكيف لا أعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه ؟ » سبحان

الله ! والله لولم يكن هذا فى الدين معروفا لكان فى الأخلاق جميلا ، إن من المشركين من يرعى فى دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا معاذ الله مما نطق به الجاهلون !

الشعراء :

من أشهر شعراء الشيعة فى ذلك العصر «السيد الحميرى »[(١)] وهو صادق فى تشيعه لاتحوم حوله الظنون إن حامت حول غيره من الشعراء المولدين الذين اتخذوا التشيع سلاحا «شعوبيا» فالسيد صريح العروبة ويظهر أنه ممن كانوا يدينون «بالوصاية» فهذه الأبيات التى نرويها لك تدل على أنه كان يعتقد أن الخلافة حق لعلى بعد وفاة النبى ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان اعتدوا على حق شرعى لعلى . وكتب السيد على رقعة وقد جلس المهدى أيام كان ولى العهد يعطى الصلات للناس فرفع الرقعة قائلا إن فيها نصيحة للأمير[(٢)] :

قُل لابن عبّاس سَمِىِّ محمدٍ ... لاتُعْطِينّ بنى عَدِىّ درهمَا
احْرِمْ بنى تَيم بن مُرّةَ إنهم ... شرُّ البريّة آخراً ومُقَدما
إن ائتمنتهمُ أو استعملتَهم ... خانوك واتخذوا خراجك مَغْنَما
وإن تعْطِهم لايشكروا لك نعمة ... ويكافئوك بأن تُذَم وتُشْتَما
ولئن منعتَهم لقد بَدءوكم ... بالمَنع إذ ملكوا وكانوا أظلما
منعوا تُراثَ محمدٍ أعمامَه ... وابْنَيْهِ وابنتَه عَديلة مَرْيما
وتأمّروا من غير أن يُسْتَخْلَفوا ... وكفى بما فعلوا هنالك مأثمَا
لم يشكروا لمحمد إنعامَه ... أفيشكرون لغيره إن أنْعما
واللهُ منّ عليهمُ بمحمد ... وهداهُم وكَسَا الجنُوبَ وأطْعما

(١) هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى ويكنى أبا هاشم ، وكان يتقن الفارسية ولذلك يرجعونه إلى أصول إيرانية ولكنه كان يفتخر بحميريته ، وكانت أمه من الأزد اليمنيين . وكان شاعراً متقدما مطبوعا .
ترجمته وأخباره فى (الأغانى جـ ٧ ص ٢٦٦٩ من طبعة الشعب) و (ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٢) و (الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٣ ص ٣٦٠) و (البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٠) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٩ ، ٦٨ ، ٧٤) و (الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٣٠٥)

(٢) رفع الرقعة إلى الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى أوصل الرقعة إليه (الأغانى جـ ٧ ص ٢٦٨٣) من طبعة الشعب .

ثم انبَروا لـوصـيِّه ووليّه بالمنكرات فجرَّعوه العَلْقما(١)

والسيد ممن دانوا بالرجعة ، وقد تحدثنا عن هذه البدعة ونحن نتحدث عن الشيعة فى العصر الأموى ، وروينا شعرا لكثيِّر فيها . والآن نروى هذه القصيدة للسيد الحميرى ، وكثير من أبياتها ينطق بهذه البدعة :

أشاقَتْك المنازلُ بعد هند وتِرْبيها وذات الدَّلّ دَعْدِ
منازلُ أقفرتْ منهنّ مَحتْ معَالمهُن من سَيْلٍ ورَعْد
وريح جَرْجَفٍ تَستَنُّ فيها بسافِى التّرْب تُلْحِم ماتُسَدِّى
ألم يَبْلُغك والأنباءُ تَنْمى مقالُ محمد فيما يؤدِّى
إلى ذى علمه الهادى على وَخَولةُ خادمٌ فى البيت تَردى
ألم تر أن خولةَ سوف تأتى بوارى الزَّند صافى الخيم نَجد
يفوز بكنيتى واسمى لأنى نَحلتُها هو المهدىّ بعدى
يُغيَّب عنهمُ حتى يقولوا تضمَّنه بطَيْبة بطنُ لحْد
سنين وأشهراً ويُرى برضْوَى بشِعْب بين أنْمار وأُسْد
مقيم بين آرامٍ وعين وحِفَّان تروح خِلالَ رُبْد
تُراعيها السِّباع وليس منها ملاقيهنّ مفترساً بحَدّ
أمِنّ به الرّدَى فرتعْن طوراً بلا خوف لدى مَرْعى ووِرْد
حلَفْتُ بربّ مكة والمُصَلَّى وبيتٍ طاهر الأركان فَرْد
يطوف به الحَجيجُ وكلّ عامٍ يَحُلّ لديه وفدٌ بعد وفدِ
لقد كان ابنُ خوْلة غيرَ شك صَفاءَ ولايتى وخُلُوصَ وُدِّى
فما أحدٌ أحبّ إلىّ فيما أسِرّ وما أبوح به وأبدى
سوى ذى الوحى أحمد أو علىّ ولا أزكى وأطيب منه عندى
ومن ذا يابنَ خولة إذ رمتنى بأسْهُمها المنيةُ حين وعدى
يُذَبِّبُ عنكُم ويَسُدّ مما تثلَّم من حصونكم كسَدِّى
ومالى أن أمَرَّ به ولكن أؤمِّل أن يؤخَّر يومُ فقدى

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٦٨٤ من طبعة الشعب

فادرك دولةً لك لستَ فيها بجبَّار فتُوصَفَ بالتَّعدى
على قوم بَغَوْا فيكم علينا لتُعْدى منكم ياخير مُعْدِ
لتِعْلُ بنا عليهم حيث كانوا بغَوْرٍ من تِهامة أو بنجد
إذا ما سِرْتَ من بلد حرام إلى مَن بالمدينة من مَعَد(١)

وقد روى الموصلى أن للسيد ألفين وثلثمائة قصيدة فى التشيع فأين هذا الشعر ؟ لقد عصفت به السياسة من غير شك ، فليس بين أيدينا منه سوى أشتات مبعثرة هنا وهناك .

بشار :

ومن شعراء الشيعة بشار بن برد ، ونعتقد أنه كاذب فى تشيعه ككثير من الشعوبيين فى ذلك العصر .

ومن شعره فى هجاء المنصور ومدح إبراهيم بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب :

أبا جعفرَ ماطُول عيش بدائم ولا سالمٌ عمّا قَليلٍ بسَالمِ
على الملكِ الجبّار يَقتحِمُ الردى ويصرعُه فى المأزق المتلاحِم
كأنك لم تسمعْ بقتل متوَّجٍ عظيم ولم تسمع بَفَتكِ الأعاجم
تَقَسَّم كِسرى رهطُه بسيوفهم وأمسى أبو العباسِ أحلام نَائِم
وقد كان لا يخْشَى انقلابَ مكيدةٍ عليه ولا جَرْىَ النحُوسِ الأَشائِم
مُقيماً على اللذّات حتى بَدتْ له وجوهُ المنايا حاسِرَاتِ العمائِم
وقد تَرِدُ الأيامُ غُرًّا ورُبَّما ورَدْنَ كُلُوحاً باديَاتِ الشَّكائِم
ومَرْوَانُ قد دارَتْ على رأسه الرحى وكان لما أجرمْتَ نَزرَ الجرائِم
فأصبحت تجرى سادراً فى طريقهم ولاتتَّقِى أشباهَ تلك النقائِم
تجرَّدتَ للإسلام تَعفُو سبيله وتُعْرِى مَطاهُ للُيُوث الضَّراغِم
فما زلتَ حتّى استنصر الدينُ أهله عليكَ فعاذُوا بالسّيوف الصوارم
فَرُمْ وزراً يُنْجيكَ يا بنَ سَلاَمةٍ فلست بِنَاجٍ من مَضِيم وضائِم

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٦٧٣ من طبعة الشعب .

لَحا الله قوما رأسوكَ عليهمُ   وما زلتَ مَرْءوساً خبيثَ المطاعِمِ
أقُولُ لِبَسَّامٍ عليه جَلالَةٌ   غدَا أرِيحًيا عاشِقاً للمكارِمِ
من الفاطميّينَ الدُّعَاةِ إلى الهدَى   جِهَاراً ومَنْ يَهْدِيكَ مثل ابنِ فاطِمِ
سِراجٌ لعين المستضىء وتارَةً   يَكون ظَلاماً للعدوِّ المزاحِمِ
إذا بلغَ الرأىُ المَشُورَةَ فاستعِن   برأْيِ نَصِيح أو نَصِيحةِ حازِمِ
ولا تجعَلِ الشُّورى عليك غضَاضَةً   فإن الخَوافِي قُوةٌ للقَوادِمِ

إلى أن قال :

وما قرع الأقوام مثل مشيع   أريب ولا جلّى العمى مثل عالم[١]

ديك الجن[٢] :

له مراث كثيرة فى الحسين إلا أن رأينا فيه كرأينا فى بشار ، وأنت تعرف أن ديك الجن من أشد الشعراء تعصبا على العرب .

دعبل[٣] :

أعتقد أنه أشد شعراء العصر تشيعا .

يقول عنه الأستاذ عباس العقاد فى كتابه «مراجعات فى الآداب والفنون» أنه وابن الرومى الهجاءان المطبوعان من بين شعرائنا ، ويقول عنه إنه رجل شديد الشعور بالنقمة ، وأنه صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة[٤] .

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٠٢ من طبعة الشعب

(٢) هو عبد السلام بن رغبان ، اشتهر بلقبه ديك الجن ، وهو من سلالة شخص يسمى تميا من أهل مؤتة بالشام أسلم على يد مولاه حبيب بن مسلمة الفهرى صاحب معاوية . وولد ديك الجن بحمص سنة ١٦١ هـ ، وكان يتشيع تشيعا حسنا وله مراث كثيرة فى الحسين بن على ، وقد ضاع أكثر شعره ، وتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة . انظر ترجمته فى الأغانى جـ ١٤ ص ٤٩٢٥ من طبعة الشعب ووفيات الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٢

(٣) هو دعبل بن على بن رزين ، وقيل دعبل لقبه واختلفوا فى اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن وهو من خزاعة صُلْباً لا ولاء ومن بيت شعر وهو شيعى إمامى ويقال إنه غير صادق فى تشيعه . ترجم له (صاحب الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٧٧٠ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة ص ٨٢٥) و (تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٣٨٢) و (المرزبانى : الموشح ص ٢٩٩) .

(٤) عباس العقاد : مراجعات فى الآداب والفنون ص ١٤٥ من طبعة المطبعة العصرية .

والهجاء المطبوع عند العقاد هو الذى يولد بفطرته ناقما هاجيا لايرضى عن شىء ولايستريح إلى مدح أحد ولايكف عن النقد والعيب ، كلفا بهما واندفاعا إليهما لاجلبا لكسب أو درء لمساءة ، أو ذلك الشاعر الذى أوتى من الفطنة وسعة المخيلة واستعداد الطبع ما يفتح له معانى الهجاء إذا أراده ناقما أو غير ناقم ومعتمدا مايقول أو عابثا فيه .

ولى فى دعبل رأى يخالف رأى الأستاذ مخالفة تامة .

أعتقد ببساطة أن هجاءه المتواتر للخلفاء والولاة أثر لتشيعه العميق ، لم ينج من لسانه خليفة وشعره قوى ، وأعتقد أنه ممثل الجاهلية فى العصر العباسى ، ولا أعرف من هو أصدق تمثيلا له منها فى شعره وخلقه على السواء .

انظر إلى هذه الأبيات ناطقة بذلك الكرم الذى طالما تمدح به وتغنى الشعراء الجاهليون :

بانت سليمى وأمسى حبلها انقضبا ... وزودُوك ولم يَرثوا لك الوصبا
قالت سلامةُ أين المالُ قلت لها ... المالُ ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
الحمدُ فرّقَ مالى فى الحقوق فما ... أبقينَ ذما ولا أبقينَ لى نشبا
قالت سلامةُ دعْ هذى اللبون لنا ... لصبيةٍ مثل أفراخِ القطا زُغبا
قلت احبسيها ففيها متعةٌ لهم ... إن لم يُنخْ طارقٌ يبغى القِرى سغبا
لما احتبى الضيفُ واعتلتْ حلوبتها ... بكى العيالُ وغنت قدرنا طَرَبَا
هذى سبيلى وهذا فاعلمى خُلُقى ... فارضى به أو فكونى بعض من ذهبا
مالا يفوت وما قد فاتَ مطلبُه ... فلا يفوتنى الرزقُ الذى كُتبا
أسعى لأطلبَه والرزقُ يطلبنى ... والرزقُ أكثرُ لى منى له طلبا
هل أنتَ واجدُ شىء لو عُنيتَ به ... كالأجرِ والحمد مرتاداً ومُكتسبا
قومٌ جوادُهُم فردٌ وفارسُهم ... فردٌ وشاعرُهم فردٌ إذا نُسبا(١)

رجل جاهلى تأخر به الزمن قرنين . وأعتقد أن غلوه فى التعصب للشيعة أنفة من الخضوع للسلطان وقديما كان الجاهلى يثور على السلطان إن رأى فى سلطنته ما يقيد حريته أو يحددها . لم ينج من لسانه خليفة ، كما قلنا ونمثل لذلك فيما يلى :

---

(١) الديوان ص ١٢١ – ١٢٢ من طبعة النجف ١٩٦٢

قال فى الرشيد وقد دفن فى طوس وبها قبر الرضا :

قبران فى طوسَ خير الناس كلّهم ... وقبرُ شرِّهم هذا من العبر
ما ينفع الرِّجْس من قُرْب الزكيّ ولا ... على الزَّكِيّ بقُرْب الرِّجْس من ضَرَرِ (١)

وقال فى المأمون يهدده ويذكره بمصرع أخيه الأمين :

أَيَسُومُنى المأمون خُطَّةَ جاهلٍ ... أو ما رَأَى بالأَمْسِ رَأْسَ مُحمد
يُوفِى على هام الخَلائِقِ مِثْلَما ... توفى الجبَالُ على رُءوسِ القَرْدَدِ
ونَحُلُّ فى أكنافِ كل مُمنَّع ... حتى يُذَلَّلَ شاهِقاً لم يُصعَدِ
إن التِّراتِ مُسهَّدٌ طُلاَّبُها ... فاكْفُفْ لُعَابَك عَنْ لُعَابِ الأَسْوَدِ
إنى من القوم الذين سيوفُهم ... قتلتْ أخاك وشرَّفَتْك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموده ... واستنقذوك من الحضيض الأَوْهد (٢)

وقال يعرض بإبراهيم بن المهدى وكان مغرما بالغناء :

يامَعشَرَ الأَجْنادِ لاتَقْنَطُوا ... وارْضَوْا بما كان ولا تَسْخَطوا
فسَوف تُعْطَوْنَ حُنَيْنِيَّةً ... يَلْتَذها الأَمْرَدُ والأَشْمَط
والمَعْبَدِيّات لقُوَّادِكُمْ ... لاتَدْخل الكيسَ ولا تُرْبَط
وهكذا يَرْزُق قُوَّادَه ... خليفةٌ مُصْحَفَه البَرْبط (٣)

وقال يهجوه :

نصر بن شكلة بالعراق وأهله ... فهفا إليه كل أخرق مائق
أَنَّى يكُونُ وليس ذاك بكائِن ... يَرِثُ الخلافةَ فاسق عن فاسِق
إن كان إبراهيمُ مُضْطلعاً بها ... فَلَتَصْلُحَنْ مِن بَعده لِمُخَارق (٤)

وقال يهجو المعتصم :

وقام إمام لم يَكنْ ذا هِدَاية ... فليس له دين وليس له لُب

---

(١) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٨٥٠ من طبعة الشعب

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨٤٩ بتحقيق أحمد شاكر

(٣) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٧٧٤ من طبعة الشعب وكذلك ص ٧٨١١ – ٧٨١٢ من نفس الطبعة

(٤) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٨٥١ من طبعة الشعب

وما كانت الأنباء تأتى بمثله　　بِمُلكٍ يوماً أو تدين له العُرْب
ولكنْ كما قال الذين تتابَعُوا　　من السلف الماضين إذ عَظم الخَطْب
ملوكُ بنى العباس فى الكُتُب سَبْعَة　　ولم تأتنا عن ثامن لهُم كتب
كذلك أهل الكهف فى الكَهْف سبْعة　　خيارٌ إذا عُدّوا وثامنهمْ كلب
وإنى لأُعْلى كَلْبَهم عنك رُتبة　　لأنك ذو ذَنب وليس له ذَنْب[1]

وقد تحدث صاحبه محمد بن القاسم بن مهرويه قال : كنت مع دعبل بالصيمرة[2] وجاءنا نعى المعتصم وقيام الواثق فأملى على البديهة :

خليفةٌ مات لمْ يَحْزن له أحَدٌ　　وآخَرٌ قام لمْ يَفْرَح به أحَد[3]

وفى المتوكل يقول :

ولستُ بقائلٍ قذَعاَ ولكن　　لأَمرٍ ما تعبَّدك العَبِيدُ[4]

يتّهمه بشىء ربما أشرنا إليه فى باب الغلمانيات .

وله فى الوزراء هجاء ليس أقل مرارة مما رويناه

نستطيع بعد ذلك أن نفهم قوله «أنا أحمل خشبتى على كتفى منذ خمسين سنة ولا أجد من يصلبنى عليها »

وقد عاش الرجل طول حياته طريدا مشردا فى الآفاق ، قيل عنه إنه من الشطار ، والشطار كلمة غامضة فى كتب الأدب . يقولون إن الشطار جماعة من اللصوص كانوا يقطعون الطريق على السابلة ، وكان لهم زى خاص ، وذلك القول يناقض المعقول إذ كيف يعلن لص عن نفسه ؟ وكيف يؤدى وظيفته بعد ذلك ؟

أنا أرجح استنباطا أن كلمة الشطار كانت تطلق على هؤلاء الفتيان المستهترين بكل شىء ، وأفهم أن حياة الشطار تشبه الحياة التى نقول عنها فى أيامنا هذه ، الحياة «البوهيمية » وليس من شك فى أن أبا نواس كان يفهم معنى الشطار أحسن مما نفهمه «وقد وردت هذه الكلمة إفرادا وجمعا أكثر من مرة فى ديوانه :

---

(١) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٨٠٤ من طبعة الشعب

(٢) الصيمرة ، موضعان ، أحدهما : بالبصرة على فم نهر معقل ، والآخر : بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان

(٣) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٨٠٧ من طبعة الشعب

(٤) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٨٠٧ من طبعة الشعب

بينما نحن عنده صرخ الورد إلينا يا أيُّها الشُّطَّار
عندنا قهوةٌ تغافَل عنها دهرُها فالوُجودُ منها ضِمار [١]

وقوله :

فقلنا أنسقاها على وجه أهيف له تيه معشوق وشخرة شاطر [٢]

وردت فى مثل هذه المناسبات كثيرا فى شعر أبى نواس المجونى .

إذا استثنينا هجاء دعبل للخلفاء ومن الخلفاء إلى الخلفاء [٣] من رجال الدولة فلسنا نعرف له هجاء إلا هجاءه لأستاذه مسلم بن الوليد ، ومع ذلك فهجاؤه لمسلم لا يشف عن جحود بل هو أقرب إلى الشعور بالألم منه إلى الحقد .

قال مسلم يهجوه :

أما الهِجاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ والمَدْحُ عنك كما عَلِمْتَ جَليلُ
فاذْهَبَ فأنت طَلِيقُ عِرْضِكَ إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنْتَ ذَلِيلُ [٤]

فبم رد عليه دعبل ؟ اكتفى ببيت واحد ، أرويه لك :

فَهْبك يمِينى اسْتأكلَت فقَطعتها وجَشَّمْتُ قَلْبى صَبْرةً فَتَشَجّعا [٥]

وهو قول ينم عن نبل فى الإحساس ، وشعور بالجميل والوفاء .

وأخيرا فرأى الأستاذ العقاد « أن الهجاء المطبوع هو الذى لايرضى عن شىء ولايستريح إلى مدح أحد ولا يكف عن النقد والعيب كلفا بهما واندفاعا إليهما لاجلبا لكسب ولا درءا لمساءة ، أو ذلك الذى أوتى من الفطنة وسفه المخيلة واستعداد الطبع ما يفتح له معانى الهجاء إذا أراده ناقما أو غير ناقم » [٦] .

والأستاذ لايعرف فى الأدب العربى غير شاعرين اثنين نابهين بهذه الصفة هما دعبل وابن الرومى . وعنده أن دعبلا هو ممثل النوع الأول ، فقد كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع

---

(١) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ١١٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) الديوان ص ٢٨١ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٣) وإذا استثنينا كذلك شعره فى هجاء مضر

(٤) الموازنة بين أبى تمام والبحترى جـ ١ ص ٦٠ من طبعة دار المعارف

(٥) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٨٢٣ من طبعة الشعب

(٦) عباس العقاد : مراجعات فى +الآداب والفنون ص ١٤٦ من طبعة المطبعة العصرية

النابية النافرة التى تخرج على المجتمع وتثور به ولاتزال فى حرب معه لامسالمة فيها ولا مهادنة إلى أن يواريها الموت فى ثراه .

ولست أرى أن دعبلا مريض النفس ، مريض الأعصاب ، كما يفهم من الأستاذ ولو أردت أن أمثل للنوع الأول من الهجاء لاخترت رجلا كأبى دلامة الذى يهجو أمه فيقول :

هاتيك والدتى عجوزٌ هِمَّةٌ مثلُ البَلِيَّة دِرْعُها فى المشْجبِ
مَهْزولةُ اللَّحْيَيْن من يَرَها يَقُلْ أبصرتُ غُولاً أو خيالَ القُطْرُب
ما إن تركتُ لها ولا لابنٍ لها مالايؤمَّل غير بَكْرٍ أجْرَب [1]

وهجاء زوجته قائلا :

شَوْهَاءُ مَشْنُأَةٌ فى بَطْنِها ثَجَلٌ وفى المفاصل من أوصالها فَدَعُ [2]

وقال فيها :

لـيس فى بـيتى لتمهـيـ ـد فـراشى من قـعيده
غـيـرُ عَـجْـفـاءَ عَـجُوزٍ سـاقُـهـا مـثـل الـقـديـده
وجـهُـهـا أقبحُ من حُو تٍ طَـرِيٍّ فى عَصِـيـده
مـا حـيـاةٌ مـع أُنْثَى مِـثْـل عِـرْسى بسعيدة [3]

أو لمثلت برجل كالحطيئة [4] وقد هجا أمه وامرأته وبنيه ونفسه ، أو برجل كابن بسام [5] وقد هجا الأمراء والحكام وإخوته وأهله جميعا .

ومجمل رأينا فى دعبل أنه صادق ومغال فى تشيعه وأنه جاهلى أنف من الخضوع للسلطان اعتزازا واعتدادا ، وأنه رجل قوى النفس كان يرى إخوانه أهل الشيعة تتمزق أوصالهم ويحرقون أحياء فتثور نفسه فينطق بأبيات ليست ثورة على المجتمع إنما هى صرخة الرجل اليائس ، يرى ماذا يفعل بإخوانه ويرى من بقى منهم نائما فيقول مثل قوله :

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٧٢٣ من طبعة الشعب
(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٧٠٢ من طبعة الشعب
(٣) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٧٢٧ من طبعة الشعب
(٤) توفى سنة ٥٩ هـ
(٥) توفى سنة ٣٠٣ هـ

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا[١]

وإنما خصصنا بالذكر هذا البيت لأن الأستاذ العقاد استشهد به[٢]

وأغلب شعر الشيعة فى ذلك العصر مراث للأئمة من أولاد على فهو شعر مطبوع بطابع الحزن الصحيح أو المزعوم حتى ليقال إنه الشعر الباكى . تسمعه فكأنك تسمع نواحة تنوح ، انظر إلى قول السيد الحميرى :

امْرُرْ على جَدَثِ الحُسَـ ـيْنِ فقُلْ لأعْظُمه الزّكيَّهْ
أأعـظـمـاً لازلتِ من وَطْـفـاء ساكبةٍ رَوِيَّه
وإذا مـررتَ بـقبره فأطِلْ به وقْفَ المطيَّه
وابكِ المطهَّر للمطهَّر (م) والمطهَّـرة النـقـيَّـهْ
كبُكاءِ مُعْوِلةٍ أتت يَوماً لواحدها المنيَّهْ[٣]

وقد رأينا الناس فُرسا وعربا يجتمعون فى مساجد الشيعة بالنجف ويخرجون إلى طرقاتها ليلة عاشوراء يوم كنا فى العراق فيصيحون ويلطمون ويولولون بكلام منظوم على شهيد كربلاء ، وخيل إلىّ فى هذه الليلة أن أبيات السيد الحميرى هذه أعدت للنواح ، وأن الناس كانوا يخرجون كما يخرج هؤلاء فيصيحون ويولولون .

رأينا علوج الرجال من الفرس يخرجون فى حلقات مثقلين رءوسهم بقلانس من نحاس يضربون عليها بأساور من نحاس مولولين بشعر فارسى ، ورأينا أجلاف العرب فى المساجد عراة الصدور يدقونها دقا شديدا ويلطمونها حتى ليكاد الدم ينبثق منها أو يتفجر يصيح فيهم مولولا بنغم إمام منهم والنساء يلطمن الخدود ويصحن بصيحات حزينة كما لو فوجئن بفقد وحيد .

فوددت والله لو استحال ميدان الكاظمية محطبا تتميز فيه النار وتحشر إليه هذه الزمر من المخلوقات المحسوبة على الإنسانية .

---

(١) عباس العقاد : مراجعات فى الآداب والفنون ص ١٤٦ من المطبعة العصرية بمصر

(٢) عباس العقاد : مراجعات فى الآداب والفنون ص ١٤٦ من طبعة المطبعة العصرية بمصر

(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٢٦٨٠ من طبعة الشعب

المعتزلة

فرقة ظهرت فى أواخر القرن الأول للهجرة . نشأ الاعتزال فى البصرة وانتشر منها إلى غيرها واعتنقه من الخلفاء الأمويين يزيد بن الوليد ومروان بن محمد .

وعظم شأن هذه الفرقة فى العصر العباسى ولا سيما فى عصر المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ إذ اعتنق المأمون مبادئ المعتزلة واشتط فى الانتصار لهم ونكل بكل من عارضهم فى فكرة خلق القرآن .

وتتلخص مبادئ المعتزلة فى القول بأن الإنسان مخير لا مُجبّر ، أى أنه هو الذى يخلق أعماله والقدر يسيّره أو يجبره .

وعندهم أن صاحب الكبيرة ليس مؤمنا ولا كافرا[١] ، إنما هو مذنب يستحق النار . ومبادئ أخرى فقهية حول التوحيد ونسبة الصفات إلى الله وغير ذلك مما ليس يعنينا فى هذا البحث .

والمعتزلة يعتمدون إلى حد بعيد على القياس العقلى فعمدتهم الجدل وهم بحق أصحاب اليد الطولى على « علم الكلام » وإن شئت فقل هو ربيبهم .

وقد ترجموا كثيرا من كتب الفلسفة اليونانية ولا سيما المنطق اليونانى ليستعينوا على ابن سيار المعروف « بالنظام »[٢] » والواصلية[٣] أتباع « واصل بن عطاء » والهذلية[٤] أتباع « محمد بن

---

(١) وقد قيل بل يرون أن صاحب الكبيرة مخلد فى النار لاتقبل له توبة

(٢) توفى النظام سنة ٢٣١ هـ ويقول الشهر ستانى إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وأنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلح لعباده وأن إرادته التى يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء . وكان ينفى الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزأ وأعلن فى مباحثه سلطان العقل إعلاء بعيداً . (الشهر ستانى : الملل والنحل ص ٣٧) .

(٣) توفى واصل بن عطاء بالبصرة سنة ١٣١ هـ وهو أول من قال بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسط بين منزلتى الإيمان والكفر وكان يكثر من جدال أصحاب الملل والنحل (المرتضى : الأمالى جـ١ ص ١٦٥ من طبعة الحلبى) .

(٤) توفى أبو الهذيل العلاف سنة ٢٢٧ هـ وقيل بل سنة ٢٣٥ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عُمر طويلا ويعد المؤسس الحقيقى للاعتزال وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلية وفرق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح وتحدث فى مسائل فلسفية كثيرة كمسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذى لايتجزأ أو مسألة الكمون ككمون النار فى الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية (الشهر ستانى ص ٣٤) (وأمالى المرتضى جـ١ ص ١٧٨) و (أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٩٨) .

الهذيل العلاف » والعمرية[١] أتباع « عمرو بن عبيد » .

واسم المعتزلة فيما يقال أصله أن واصل بن عطاء زعيم الفرقة الواصلية كان تلميذا للحسن البصرى ، فلما كفّرت الخوارج مرتكب الكبيرة وقالت الجماعة إنه مؤمن فسق بالكبيرة اعتزل واصل الفريقين وقال إن مرتكب الكبيرة بين الإيمان والكفر ولذلك تفسيرات أخرى كثيرة يخرجنا تفصيلها عن دائرة بحثنا .

وممن شغل بهجاء المعتزلة أبو نواس وكان يخص بهجائه واصل بن عطاء ، وفيه يقول :

فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفة عرفت شيئا وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرأ فطنا فإن حظركه فى الدين إزراء[٢]

بم تعلل خصومة أبى نواس ؟

أبو نواس رجل يلهو بحياته يدعو الناس إلى المجون وهؤلاء يضيّقون عليه بتعاليمهم باب الرجاء وهو واسع الأمل فى عفو الله ، لأن له فى الدين فلسفة خاصة ، أليس هو القائل :

تكثّر ما استطعْتَ من الخطايا فإنكَ بالغٌ ربًّا غفُورًا
ستبصر إن وردت عليه عفوا وتلقى سيدا ملكاً كبيرا[٣]

وإذن فلم لا يخاصم أبو نواس ومن على شاكلته من الشعراء المجان جماعة المعتزلة ؟ وقد قسا الأمين فى أواخر أيامه على أبى نواس وحبسه فى بيت الدجاج وله فى ذلك قصيدة طويلة ، وله قصيدة أخرى قالها فى سجنه وبعث بها إلى المأمون منها :

أما الأمين فلست أرجو دفعه عنى فمن لى اليوم بالمأمون

لكن المأمون لم يلتفت إليه بعد ذلك ، فإن صح أنه كان معتزليا ففى ذلك تعليل لمجافاة أبى نواس .

---

(١) عمرو بن عبيد ختن واصل بن عطاء وتوفى سنة ١٤٥ هـ وكان يكثر من الجدال (أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٦٩) و (ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٩٧) .

(٢) الديوان ص ٢٣٥ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٣) الديوان ص ٧٣٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

بشار بن برد :

يقال إنه كان زعيما من زعماء المعتزلة بل رئيسا لفرقة من فرقهم وله شعر يمدح فيه واصلا ويصفه بالبلاغة منها :

أبا حُذَيفَة قد أُتيتَ مُعْجِزَةً   من خُطْبَةٍ بدهت من غير تقدير
وإن قولاً يُروق الخالدَيْن معا   لمسكت مُخْرِس عن كل تحبير(١)

ومن قصيدة أخرى :

فهذا بَدِيهٌ لا كتَحبيرِ قائل   إذا ما أراد القوْل زَوَّرَهُ شهرا(٢)

وقال يمدحه وقد خطب خطبة تجنب فيها « الراء » وكانت به لثغة :

تكلَّفُوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلُوا   وحَبَّرُوا خُطباً ناهيكَ من خطَبِ
فقام مرتَجلاً تَغْلى بَدَاهَتُهُ   كَمِرْجَلِ القَيْنِ لما حُفَّ باللَّهَبِ
وجانَبَ الراءَ لم يَشْعُرْ به أحدٌ   قبل التصفُّح والإغراقِ فى الطلبِ(٣)

ولأمر ما قد انقلب بشار على المعتزلة وتحول « جبريا » وواصل حملته على واصل وهجاءه له بحيث لا يتجاوز نعته بعيوب خلقية ، مثال ذلك :

مالى أشايعُ غزَّالا(٤) له عُنُقٌ   كنِقْنِقِ الدَّوِّ(٥) إنْ وَلَّى وإن مثلا
عُنْقَ الزَّرافَةِ ما بالى وبالكُمُ   تُكَفِّرون رجالاً كَفَّروا رَجلا(٦)

ومن شعره فى مذهب الجبر :

طُبِعْتُ على ما فِىّ غيرَ مُخَيَّر   هَوايَ ولو خُيِّرتُ كنتُ المهذَّبا
أُرِيدُ فلا أُعْطى وأُعْطَى ولم أرِدْ   وقَصَّرَ عِلْمِى أنْ أنالَ المغيَّبا

---

(١) الديوان ص ٦٣ من طبعة المكتبة العربية

(٢) الديوان ص ٦٣ من طبعة المكتبة العربية والراغب : محاضرات الأدباء جـ ١ ص ٣٥

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤ من طبعة مصر ١٣٣٢ والأغانى جـ ٣ ص ١٠٧٠ من طبعة الشعب

(٤) عرف واصل بن عطاء بالغزال لكثرة جلوسه فى سوق الغزالين إلى أبى عبد الله مولى قطن الهلالى (الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٠)

(٥) الدو : الفلاة

(٦) الأغانى جـ ٣ ص ٩٩١ من طبعة الشعب ، (والبيان والتبيين جـ ١ ص٢٠) (والجواليقى : أدب الكاتب ص ١٠٦ من طبعة مكتبة القدسى)

فأُصرَفُ عن قَصْدِى وعلمى مُقَصِّرٌ ... وأُمْسِى وما أُعقِبْتُ إلا التعجُّبا(١)

وقوله :

تأتى المقيم وما سعى حاجاته ... عدد الحصى ويخيبُ سعىُ الساعى(٢)

وممن كان يهجو واصلا إسحق بن سويد العدوى :

برئتُ من الخَوارج لَسْتُ منهم ... من الغَزّال منهم وابن بابِ

ومنْ قوم إذا ذكَرُوا عليًّا ... يَرُدُّونَ السَّلامَ على السَّحابِ

ولكنى أُحِبُّ بكل قلبى ... وأعلَمُ أن ذاكَ من الصَّواب

رسولَ الله والصدِّيقَ حُبًّا ... به أرجو غَداً حُسْنَ المآب(٣)

على بن الجهم(٤) :

زعيم الشعراء الجبريين غير مدافع ، وهو هجّاء الشيعة .

وهو القائل :

ورافضة تقول بشِعْبِ رَضْوَى ... إمامٌ ، خاب ذلك من إمام

إمامُ مَنْ له عشرون ألفاً ... من الأتراك مُشْرَعة السِّهَام(٥)

وقد اضطهد ذلك الرجل فى حياته اضطهادا فصلب يوما إلى الليل عاريا ، وله فى ذلك قصيدة منها :

لم يَنْصِبوا بالشَّاذِياخ(٦) عَشِيَّة (م) الاثنين مسبوقا ولا مجهولاً

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٧٣ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٣٣ من طبعة المكتبة العربية

(٣) الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٢٣ من طبعة المكتبة التجارية

(٤) هو على بن الجهم بن بدر بن الجهم ، كان شاعرا فصيحا مطبوعا وخص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه وكان يهجو آل أبى طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة . ترجمته فى (الأغانى جـ ١٠ ص ٣٦٦٧ - ٣٦٦٩ من طبعة الشعب) .

(٥) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٦٦٩ من طبعة الشعب .

(٦) الشاذياخ من ضواحى نيسابور ببلاد خراسان وكانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر بن الحسين ملاصقاً مدينة نيسابور فبنى فيه دارا ثم أمر الجند بالبناء حوله فعمرت حتى اتصل بناؤها ببناء نيسابور وصارت من جملة محالها (معجم البلدان لياقوت) وكان المتوكل نفاه إلى خراسان وأمر واليها طاهر بن عبد الله بن طاهر بأن يصلب يوما إلى الليل مجردا . (الأغانى جـ ١٠ ص ٣٦٧٢ من طبعة الشعب)

نصَبوا بحمد الله مِلْءَ قلوبهم شرَفاً ومِلْءَ صدورهم تَبْجيلاً[١]

وسجن مرة وقال بعد خروجه من السجن :

قالت حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى حَبْسى وأىُّ مُهنَّدٍ لا يُغْمَدُ

أَوَ ما رأيت اللَّيْثَ يأْلَفُ غيلَه كِبْراً وأوباشُ السِّباع تَرَدَّدُ

والشمسُ لولا أنَّها محجوبةٌ عن ناظِرَيْكِ لما أضاء الفَرْقَدُ

والبدرُ يُدْرِكه السِّرارُ فتنجلى أيّامُه وكأنّه مُتَجَدِّدُ

والغيثُ يَحْصُره الغَمامُ فما يُرَى إلا ورَيِّقُه يَرُوع ويَرْعُدُ

والزاعِبيّةُ[٢] لا يُقيم كُعُوبَها إلا الثِّقافُ وجَذْوَةٌ تَتَوَقَّدُ

والنار فى أحجارها مخبوءةٌ لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأَزْنُدُ[٣]

ونرجح أن لمذهب الرجل فى الجبر وهجائه للفرق الدينية السياسية دخلا كبيرا فى اضطهاده . وله شعر كثير فى ذلك المذهب نعدل عنه ، فليس إلى الإسهاب والتفصيل سبيل .

وأخيرا نروى هذه المساجلة الفلسفية بين بشار وزعيم الجبرية جهم بن صفوان الأنصارى . فنرى كيف اصطبغ شعر الفرق الدينية فى هذا العصر بالفلسفة :

يقول بشار مفضلا النار على الطين فى قصيدة مطلعها :

إبليس أفضلُ من أبيكم آدمٍ فتَنَبَّهوا يا معشرَ الفُجَّارِ

النارُ عُنْصُرُهُ وآدمُ طِينة والطينُ لا يَسْمو سمُوَّ النارِ[٤]

وقوله :

الأرضُ مظلمةٌ والنار مُشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ[٥]

ونثبت فيما يأتى رد صفوان الأنصارى عليه لأنه ضرورة واضحة كل الوضوح لهذه المساجلات :

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٦٧٢

(٢) الزاعبية : رماح منسوبة الى رجل من الخزرج يقال له زاعب كان يعمل الأسنة

(٣) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٦٧٧

(٤) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران جـ ٢ ص ١٣٧ – نشر كامل كيلانى والأغانى جـ ٣ ص ٩٩١ من طبعة الشعب

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦ من طبعة مصر ١٣٣٢ هـ ومقدمة ديوان بشار ص ٢٤ من طبعة لجنة التأليف

زعمتَ بأن النارَ أكرمُ عُنصُراً   وفى الأرض تحيا بالحجارَةِ والزند
ويُخلقُ فى أرحامها وأُرومها   أعاجيبُ لا تحصى بخط ولا عقد
وفى القَعرِ من لُجّ البِحارِ منافعٌ   من اللؤلؤِ المكنونِ والعَنْبرِ الورد
كذلك سرُّ الأرضِ فى البحر كله   وفى الغَيْضَةِ الغنّاء والجبلِ الصَّلدِ
ولابدّ من أرضٍ لكلّ مطهّرٍ   وكل سَبُوحٍ فى الغمائِرِ من جدٍّ
كذاك وما يَنْساحُ فى الأَرضِ ماشياً   على بطنِه مشىَ المُجانبِ للقَصدِ
ويسرِى على جِلْدٍ يقيمُ حزوزهُ   تَعَمُّجَ ماءِ السيل فى صَبَبٍ حَرْد
وفى قُللِ الأَجْبالِ خَلفَ مُقطّمٍ   زَبَرْجَدُ أملاك الوَرَى ساعةَ الحَشْدِ
وفى الحرّةِ الرَّجْلاء تكفى مَعادِناً   لهنَّ مَغاراتٌ تُبَخَّش بالنقد
من الذّهب الإبريزِ والفِضةِ التى   تَرُوقُ وتُصْبِى ذا القناعَةِ والزُّهد
وكل فِلِزٍ من نحاس وآنُك   ومن زئبق حى ونوشادرٍ يُسْدِى
وفيها زَرَانيخٌ ومَكرٌ ومَرْتَكٌ   ومن مرقشيشا غير كابٍ ولا مكْدِى
وفيها ضُروبُ القارِ والشَّبِّ والنّهى   وأصنافُ كبريت مطاولة الوَقْد
ومن إثْمِدٍ جَوْنٍ وكِلْسٍ وفِضةٍ   ومن تُوتياءَ فى مَعادِنه هِندى
وفى كل أغوارِ البلاد معادنٌ   وفى ظاهرِ البَيْداء من مُسْتَوى نجْدِ
وكل يواقيت الأنامِ وحَلْيِها   من الأرضِ والأحجارُ فاخِرَةُ المجْدِ
وفيها مقام الخِلّ والركنُ والصَّفا   ومُسْتَلمُ الحُجاجِ من جَنَّةِ الخلْد
وفى صَخْرَةِ الخلدِ التى عند حوتها   وفى الحجرَ المُهْمَى لموسى على عَمْدِ
وفى الصخرة الصَّمّاء تَصْدَعُ آيةٌ   لأم فَصِيلٍ ذى رُغاءٍ وذى وَجْد
مَفَاخِرُ للطينِ الذى كان أَصْلَنا   ونحنُ بنوهُ غير شَكٍّ ولا جَحْد
فذلك تدبيرٌ ونَفْعٌ وحكمَةٌ   وأوضحُ بُرْهانٍ على الواحدِ الفَرْد
أتجعل عمرا والنِّطاسِىَّ واصلا   كأتباع دَيْصان وهم قمشُ المدّ
وتَفْخَر بالميلادِ والعِلْج عاصمٍ   وتضحكُ من جيدِ الرئيس أبى جَعْدِ
وتَحْكى لدَى الأَقْوامِ شُنْعَة رأيه   لتصرِفَ أهواءَ النفوسِ إلى الرَّدِّ
وسميتَهُ الغَزَّالَ فى الشّعرِ مُطْنِباً   ومولاكَ عند الظلم قصتُه تُرْدِى

فيابنَ حَليفِ الطينِ واللؤم والعَمى ... وأبعدَ خلقِ الله من طُرُق الرشدِ
أتهجو أبا بكر وتخلَعُ بعدَه ... عليا وتعزُو كل ذاك إلى بُرد
كأنكَ غضبانٌ على الدين كلّهِ ... وطالبُ ذَحْلٍ لا يَبيتُ على حِقْد
رجعتَ إلى الأمصار من بعد وَاصِلٍ ... وكنت شَريداً فى التَّهائِم والنَّجْدِ
أتجعلُ ليلى الناعِطية نَحْلَةً ... وكل عريق فى التناسخِ والرد
عليك بِدَعْد والصَّدُوف وفَرْتَنى ... وحاضِنَتَىْ كَفٌ وزاملَتىْ هند
تُواثِبُ أقماراً وأنت مُشَوَّهٌ ... وأقْرَبُ خَلق الله من شَبَهِ القرد (١)

وظهرت فرق جديدة كفرقة الحمزية ، وظهرت تلك الفرقة فى سنة ١٧٩ هـ أى أيام الرشيد وهم أتباع حمزة بن أكرك ومبادئهم باختصار مزيج من مبادئ الخوارج والقدريين . وقد حارب الدولة واستولى على بعض البلاد وجعل قاضيه أبا يحيى يوسف بن بشار ، وأمر على جيشه جسيبويه بن معبد وولى رئاسة الحرب عمرو بن صغد ، ولقبه أتباعه أمير المؤمنين ، يقول فيه شاعره طلحة بن فهد :

أميرُ المؤمنينَ على رشادٍ ... وخَيْر هداية نعمَ الأميرُ
أميرٌ يفضل الأمراءَ فضلاً ... كما فَضَل السُّها القمرُ المنيرُ (٢)

ومن شعرائه شاعر يقال له الجلندى .

وكان مقر فتنة خراسان وكرمان وسجستان وقهستان .

وقد هدد الدولة وانتصر عليها غير مرة وكانت تجرد عليه فى كل يوم بعض المدافع وعشرات الألوف من جندها . وقتل فى عصر المأمون .

الصوفية

الصوفية طائفة مبدؤها الرئيسى الاعتكاف على العبادة والنقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الناس من مال وجاه والابتعاد عن الخلق فى خلوة للعبادة ، أو هى فلسفة دينية إسلامية نشأت عن الزهد وتطرقت إليها بعض المبادئ

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦ - ١٧ من طبعة مصر ١٣٣٢

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٧ من طبعة مطبعة المعارف

الأجنبية فغيرتها هذا التغير.

والتصوف كما عرفه الكرخى « هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق »[١] أو كما يقول الجنيد « أن تكون مع الله بلا علاقة »[٢] . ويقول ذو النون المصرى[٣] « لا أحياء ولا أموات ولا صحاب ولا سكرى ولا مقيمون ولا ظاعنون ولا مضيقون ولا صرعى ولا أصحاء ولا مرضى ولا منتبهون ولا نوم فهم كأصحاب الكهف فى فجوة الكهف لا يدرون ما يفعل بهم وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » .

ويرى أبو نصر عبد الله بن السراج الطوسى[٤] أن اسم الصوفية ليس محدثا لأن الحسن البصرى الذى أدرك بعضا من الصحابة[٥] رأى صوفيا يطوف بالكعبة .

وعند الأستاذ نيكلسن أن هذا الرأى اختلاق من متصوفى العهد الأخير تبريرا لمسلكهم وإرجاعا بتعاليمهم إلى عهد الرسول[٦] .

ويرى ابن خلدون أن الصوفية لفظ مشتق من الصوف ويأخذ عنه ذلك الرأى الأستاذان نيكلسن ونولدكه ويناقضها قول القشيرى «من قال بالاشتقاق من الصفاء أو الصفة فبعيد من جهة الاشتقاق اللغوى وكذلك من الصوف لأن القوم لم يختصوا بلبسه[٧] .

لفظة الصوفية ، أول من استعملها وأول من أطلقت عليه

يظهر أن أول من استعملها من كتّاب العرب هو الجاحظ[٨] فى كتاب البيان والتبيين بقوله « الصوفية من النساك »[٩] .

على أن كلمة « لبس الصوف » وردت كما قال نولدكه كثيرا فى أدب الجاهلية ، وكان معناه « البعد عن زخرف الدنيا » ولكنها تخصصت وضاق نطاقها بعد الإسلام وصارت تطلق على

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٢٧ والسهروردى : عوارف المعارف ص ٥٤

(٢) كتاب اللمع فى التصوف للسراج الطوسى ، طبعة الأستاذ Nicholson

(٣) المتوفى سنة ٣٨٧ هـ

(٤) توفى سنة ١٤٦ هـ تقريبا

(٥) Literary History of the brabs, R.A. Nicholson-London 1923, p. 3.

(٦) مقدمة ابن خلدون

(٧) توفى ٢٨٧ هـ تقريبا / ٨٦٩م وذهب البيرونى إلى أنها مشتقة من كلمة «صوفيا» اليونانية بمعنى الحكمة (ماللهند من مقولة ص ١٦ من طبعة أوروبا) .

(٨) توفى سنة ١٩٦ هـ تقريبا ٧٧٨ م

(٩) جـ ٣ ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٣٢هـ

تلك الفئة الخاصة « الصوفية » .

وأول من أطلقت عليه هذه اللفظة أبو هاشم الكوفى [١] الذى عاش فى قرية من قرى « فلسطين » .

والظاهر أن هذه اللفظة جاءت بمعناها الخاص فى دورى الانتقال والتحول من الزهد إلى التصوف فى نهاية القرن الثانى للهجرة [٢] .

الفرق بين الزهد والتصوف

أولا – فى الغاية :

فالزهد يأمر بالانصراف عن ملذات الدنيا وإنكار النفس وشهواتها وتحمل مرارة الجوع والعطش طمعا فى الآخرة وجنات النعيم .

أما الصوفية فهى أن يفنى الصوفى فى حاضره فناء وأن يكون هدفه معرفة الله والاتصال به [٣] .

ثانيا – فى الفكرة :

فالزاهد محوط بجلال الله وجبروته وعقابه وبطشه .

والصوفى ناعم البال فى رحمته ولطفه وكرمه وفوق كل شىء محبته .

ثالثا – فرق عام :

الزهد عام فى جميع الأقطار وفى كل دين وجيل

أما الصوفية فنزعة خاصة ولدتها عوامل شتى فى ظروف خاصة تحت راية الإسلام .

---

(١) السراج الطوسى : اللمع فى التصوف ص ٢٢ من طبعة ليدن ١٩١٤

* جاء فى كتاب عوارف المعارف للسهروردى ص ٦٤ « روى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء » . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما .

(٢) Encyclopoedia of Religion and Ethiss-Edited by James Hastings 1921. Vol. XII. p. 10. Sulism-by Nicholson.

(٣) مثال ذلك ما روى عن رابعة العدوية – توفيت سنة ١٨٥ هـ

سئلت : أتحبين الله ؟ قالت نعم !

وسئلت : أتلعنين الشيطان ؟

قالت : إن حبى لله لا يترك متسعا من الوقت لألعنه فيه

الصوفية فى القرن الثانى والثالث

فى القرن الثانى :

نشأ عن الزهد ولم يكن للمتصوفة فى هذا الدور رابطة منتظمة تجمعهم أو مكان يزاولون فيه طقوسهم التى استنوها لأنفسهم بل كانوا يرحلون من مكان إلى آخر يرتلون القرآن ويؤلفون حلقات الذكر ، ولم تنشأ عندهم نظرية الشمول الإلهى[١] «Pantheism»

والصوفية فى هذا الدور إسلامية محضة لم تدخل فيها العناصر الثورية الهدامة ، وكانت غايتهم من التصوف « الاتصال » لا « الخلاص » Salvation .

وجملة القول أن التصوف فى هذه الفترة يجتاز المرحلة بين الزهد والمعرفة .

فى القرن الثالث :

دخلت العناصر فى التصوف ونظامه ، ومن أشهر تلك العناصر فكرة الشمول[٢] ، ويعتقد الأستاذ نيكلسن Nicholson أن أوليات ذلك الاعتقاد مسطورة فى القرآن الكريم ويستشهد على ذلك بقوله تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه)[٣] وقوله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[٤] وقوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله)[٥] .

وهكذا فى ظرف قرن انقلب الزهد إلى تصوف فيه عناصر الزهد ثم إلى تصوف محض .

---

(١) أى أن الله حال فى جميع القوى والنواميس الطبيعية وهى هو ، ومدخلها الحلاج الذى أعدم سنة ٩٢٢ م لادعائه أن الله حال فى جسده ، وفى ذلك يقول :

يارب أنت خلقتنى وخلقت لى وخلقت منى
سبحانك اللهم عما لم كل غيب مستكن
مالى بشكرك طاقة ياسيدى إن لم تعنى

وقد ساعد على رواج هذه النظرية اعتقاد الشيعة بالحلول « Insarnation » راجع التفاصيل فى C.Field, Mysties & Saints of Islam p. 4.

(٢) Ensyslopedia of Religion and Ethies, Vol. XII. P.II.

(٣) سورة القصص آية ٨٨

(٤) سورة الرحمن آية ٢٦ ، ٢٧

(٥) سورة البقرة آية ١١٥

والتصوف إلى الاتصال والاتصال أخيرا إلى نظريات الشمول . والراجح أن التصوف أصبح « زهدا وتصوفا ومعرفة وشمولا » نزعات مجتمعة متلاصقة لا فارق بين الواحدة والأخرى .

ويرى الأستاذ نيكلسن وغيره من المستشرقين « أن مبادئ الصوفية داخلة فى دائرة الإسلام ، وإن كان من الخطأ تجاهل أثر المسيحية لأن الصوفية نشأت عن الزهد والزهد فى طبيعة الإسلام .

ويقول الأستاذ نيكلسن أيضاً فى كتاب .The mystics of Islam « لو لم يحتك المتصوفة بغيرهم لبقوا كما كانوا فى طور الزهد ، فالتصوف كان سائراً إلى التحول شيئاً فشيئاً »[١] .

وقد اشتد الجدل بين المتصوفة ورجال النصرانية ، وأخذت آيات من الإنجيل تظهر فى أقوالهم ، وقد رويت قصة فى الكامل للمبرد توضح هذه الظاهرة خلاصتها « أن راهبين قدما من سوريا إلى البصرة فقال أحدهما للآخر : ألا نذهب لزيارة حسن البصرى فحياته كحياة المسيح[٢] » .

أما الأثر الذى تركته النصرانية فى حياة التصوف فهى « نظرية الحب الإلهى » ، خذ لذلك مثلا هذه القصة « مر المسيح عليه السلام بثلاثة قد نحلت أجسامهم واصفرت وجوههم فقال لهم : ما أتى بكم إلى هنا ، قالوا : محبة فى الله ، فهتف المسيح : أنتم أقرب إلى الله منى » .

فإذا أردت أن تعرف ما المعرفة عندهم تهت فى بيداء .

فقالوا « المعرفة إحضار السر بصنوف الفكر فى مراعاة مواعيد الأذكار على حسب توالى أعلام الكشوف » .

« إن الله عرفنا نفسه بنفسه ودلنا على معرفة نفسه بنفسه فقام شاهد المعرفة بالمعرفة بعد تعريفه المعترف به » .

يقول أحدهم « لا فرق بينى وبين ربى إلا بصفتين : جودنامه وتوامنابه » ولهم شعر كله ألغاز كقول الحلاج :

وَحَّدَنى واحِدى تَوْحِيدَ صِدْقٍ ما إليه من المسالك طُرُقْ
هو الحقُّ والحقُّ للحقِّ حَقٌّ ولابِسُ مَلْبَس الحقائقِ حقْ

---

(١) p. 20.

(٢) ص ٥٧ – ٥٨ من طبعة أوروبا

قد تَجلَّتْ طَوَالِعُ الزهرات يتشعشعنَّ لَوَامِعِ برَقْ[١]

وللحلاج شعر كثير ضاع معظمه ويقول Louis Massignon ناشر كتاب الطواسين وترجمه إلى اللغة الفرنسية باسم

"Kitab-Al Tawasin".

"Plus de cent an quants frangmens poetiques provenant ment de son Diwan Ash'ar monâyânt. Classés par ordre de rimes selon l'Usage."

واعتنق متصوفو المسلمين مبدأ « الحلول » ونعتقد أو نرجح على أقل تقدير أنه من عقائد الفرس القديمة ويقول الحسين بن منصور الحلاج [٢] البيضاوى البغدادى :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فـــإذا أبصرتنى أبصرتـــه وإذا أبصرتـه أبصرتـنا[٣]

ويقول :

عِلْمُ النبوّةِ مِصْبَاحٌ من النُّورِ مَعَانى الوَحى فى مِشْكَاةِ مأمورِ
فالله يَنْفُخُ فى جلدى لخاطِره وينْفُخُ الرُّوحَ إسرافيلُ فى الصور
إذا تجلّى لِرُوحى أن يُكلّمَنى رأيتُ فى غَـيْـبَتِى موسى على الـطـور[٤]

ويقول أيضا :

لم يَبْقَ بينى وبين الحقّ تبْيانٌ ولا دليل ولا آيات بُرْهانِ
هذا تَجلّى طُلُوع الحقّ ثائرةً قد أزْهَرتْ فى تَلألُئِها بِسُلْطَانِ[٥]

ويقول أيضاً :

رأيتُ ربِّى بِعَينِ رَبِّى فقال مَن أنتَ ؟ قُلْتُ أنتَ[٦]

---

(١) كتاب الطواسين ص ١٣٨ من طبعة باريس ١٩١٣

(٢) وقد أعدِمَ فى أوائل القرن العاشر بعد المسيح لاتهامه بالهرطقة . وقبل أن يفارق الحياة قال « أنا الحق » وكانت آيته التى طالما رددها . توفى سنة ٣٠٩ هـ (Kitab el-Tawasin, par lois massignon.)

(٣) طه عبد الباقى سرور : الحلاج ص ٢٣٢ من طبعة المكتبة العلمية

(٤) كتاب الطواسين ص ١٣٤

(٥) المصدر السابق ص ١٦١

(٦) المصدر السابق ص ١٦٧

ومن شعره :

جُـنُونى لك تَـقْـدِيسُ وظَـنّى فـيك تَـهْوِيسُ
وقَـدْ حَـيَّـرَنى حِبٌّ وطَـرْفٌ فـيـه تَـقْوِيسُ
وقَدْ دَل دَلِيلُ الحُبّ أن الـقُـرْبَ تَـلْبِـيسُ(١)

ومن شعره أيضا :

جحودى لَكَ تَقْدِيسُ وعَقْلى فيكَ تَهْوِيسُ
فمن آدم إلاّك ومن فى البين إبليسُ(٢)

وقال « اعلم أن من أهل النار أناسا عند الله أفضل من كثير من أهل الجنة ، أدخلهم دار الشقاوة ليتجلى عليهم فيها فيكون محل نظره من الأشقياء ، وهذا سرّ غريب وأمر عجيب يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد(٣) .

عن كتاب الطواسين المذكور يقول :

سبحان من أظهر ناسوته سِـرَّ سَـنـا لاهـوتـه الـثـاقب
ثم بـدا لخلقـه ظـاهـرا فى صورة الآكل والشارب
حتى لـقـد عـايـنـه خَلْقُه كلحظة الحاجب بالحاجب(٤)

ومن اعتقادات الصوفية فى العصر العباسى – ونظن هذا من أثر الفرس – أنه من وصل إلى مقام « المعرفة » أصبح له روحان قديمة لا تتغير بها يعلم الغيب ويفعل المعجز وأخرى تتبدل وتتشكل ، وفى ذلك المعنى يقول الحلاج :

أنت بين الشّغاف والقلب تجرى مثل جرى الدموع من أجفانى
وتحل الضمير جوف فؤادى كحلول الأرواح فى الأبدان
ليس من ساكن تحـرك إلا أنت حـركة خفى المكان

---

(١) كتاب الطواسين ص XVI من المقدمة .

(٢) المصدر السابق ص XVI من المقدمة

(٣) المصدر السابق ، المقدمة ص XXIII

(٤) الدكتور شوقى ضيف : العصر العباسى الثانى ص ٤٧٩ من طبعة دار المعارف وتاريخ بغداد جـ ٨ ص ١٢٩ من طبعة الخانجى

ومن المتصوفين :

ذو النون المصرى

هو أبو الفيض ثَوْبان وأبوه من أهل النوبة ، وقيل من أهل أخميم وهو مولى لقريش .

شعوذته :

سئل ذو النون عن سبب نونيته فقال « خرجت من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ، وفتحت عينى فإذا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض وخرج منها سكرجتان إحداهما من ذهب والأخرى من فضة وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذه وتشرب من تلك ، فقلت حسبى قد تبت ولزمت الباب إلى أن قبلنى » .

وقد اتهم بالزندقة ومات سنة ٢٤٥ هجرية بالحيرة وقيل ٢٤٦هـ وقيل ٢٤٨ هـ .

سيق ذو النون وفى يده الغل وفى رجليه القيد وهو يساق إلى « المطبق » والناس يبكون حوله وهو يقول « هذا من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياه وكل فعاله عذب حسن طيب » . ثم أنشد :

لك من قلبى المكان المصون ... كل يوم علىّ فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلا ... فيك والصبر عنك مالا يكون[1]

ومن شعره :

فيك يا سؤلى ومنيتى ... قد أبخل وقد كده
لو أن ما فى القلب من حبكم ... بالجندل الصلد لقد هده

وله شعر مشتت هنا وهناك .

---

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٦٦ – دار الفكر العربى .

رابعة العدوية

من المتصوفات الشهيرات ، وهى من أهل البصرة ، والراجح أنها توفيت سنة ١٨٥ هـ وهى تمثل (الحب الإلهى) فى دور الانتقال من عالم الخوف إلى عالم الحب ، قيل لها : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا فى جنته ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه ، ثم قالت :

أحبك حبين حبّ الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عَمَّنْ سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا(١)

وروى لها فى كتاب « عوارف المعارف » لشهاب الدين الطوسى :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسى وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى(٢)

ومن وصاياها « اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم »

وكانت تصلى طول الليل فإذا طلع القمر هجعت هجعة خفيفة فى مصلاها ثم وثبت صائحة « كم تنامين يا نفس ، وإلى متى تنامين يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور »(٣) .

وعند موتها أوصت خادمتها أن تكفنها فى جبة من الشعر كانت ترتديها فى تعبدها ، كما أوصتها ألا تخبر بموتها أحدا .

---

(١) طه عبد الباقى سرور : رابعة العدوية ص ١٠٦ من طبعة دار الكتاب العربى .
(٢) المصدر السابق ص ٩٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٤١ .

الشعر الصوفى

من ذلك أبيات لأبى نواس زعيم المجان ، أعتبرها من الشعر الصوفى ، قيل إنه كان يتغنى بها فى الطواف وقد خرج للحج :

إلهنا ما أعدلك لبيك إن الحمد لك
لبيك قد لبيت لك لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك والليل لما أن حلك
والسابحات فى الفلك على مجارى المنسلك .
لولاك يا ربى هلك كل نبى وملك
وكل من أهل لك سبح أو لبى فلك
يا مخطئا ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك لبيك إن الملك لك
والحمد والنعمة لك والعز لا شريك لك (١)

ولأبى نواس من قصيدة أخرى :

جَفنُ عَيْنِى قد كاد يَسْـ ـقُطُ من طُولِ ما اخْتَلَجْ
وفُؤادِى من حَرِّ حبِّك (م) والهجـر قـد نَضَجْ
خَبِّرِينِى فَـدَتْكِ نَفْسِـ ـى وأَهْلِى مَتَى الفَرجْ (٢)

وأنا أعرف أن الظريف اللعين عاد فقال :

كان ميعادُنا خرُو جَ زِياد فقَد خَرَجْ
أنت من قَتْلِ عائذ بك أَضْيَق الحَرَجْ (٣)

فخرج كما ترى من العشق الإلهى إلى العشق الإنسانى .

---

(١) الديوان ص ٦٢٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى والأغانى جـ ٢٢ ص ٧٦٩٨ من طبعة الشعب .
(٢) الديوان ص ٢٣٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى والأغانى جـ ٢٢ ص ٧٦٩٩ من طبعة الشعب .
(٣) الأغانى جـ ٢٢ ص ٧٦٩٩ من طبعة الشعب وهى نفس القصيدة السابقة .

لكن ذلك ليس يعنيني ، فأنا أعرف أنه ما خرج إلى الحج لأن العشق الإلهى صرفه عن عشق الغلمان والقيان ، ومن يدرى ؟ ربما خرج إلى الحج لأن جنانَ خرجت إليه فى هذه السنة ، إنما الذى يعنيني هو أن هذه الأبيات الدينية على نسق الشعر الفارسى الصوفى تحمل معانيه وتجرى على أسلوبه . أما أنه تغزل فى هذه القصيدة بصاحبته فذلك لا ينفى كون هذه القصيدة « صوفية » بأدق معانى هذه الكلمة ، فالصوفيون يخلطون فى شعرهم بين الصفتين . ويمثل مذهبهم قول الشيخ سعدى :

بجهان خرم أز أنم كه جهان خرم أز دست
عاشقم برهمه عالم كه همه عالم أز دست

« أنا سعيد فى هذه الدنيا والدنيا سعيدة به
أنا عاشق لكل العالم لأن العالم منه »

وإنى لأرى ذلك المعنى نفسه فى شعر لأبى العتاهية :

آه من غمى وكربى آه من شدة حبى
لم أنل منه نوالا غير أنْ كدر شربى
أنت ممن خلق الرحمن (م) من ذا الخلق حسبى[1]

والبيت الأخير يحمل معنى الشيخ سعدى وهو معنى طالما ردده شعراء الفرس .

ولذلك أقول إن فى زهد أبى العتاهية نزعة تصوفية وأحسبه كان متصلا بهذه الجماعة المتصوفة . ولو اتسع الوقت لقارنت بين نص لأبى العتاهية ومتصوفى الفرس .

الفرق الحلولية

تحدثنا عن الحلول وذكرنا الفرق الحلولية فى العصر الأموى وأهمها :

١ — السبئية (قالت بحلول روح الإله فى على)

٢ — البيانية (زعمت أن روح الإله دارت فى الأنبياء والأئمة واحدا فواحدا حتى انتهت إلى علىّ فانتقلت إلى ولده محمد بن الحنفية ثم إلى ولده هاشم ثم إلى بيان بن سمعان فوقفت عنده ولم تتجاوزه .

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٢٥٢ من طبعة الخانجى

٣ – الخطابية (زعمت أن الحسن والحسين وأولادهما أبناء الله ودخل فى أحلامها أن البرق ضوء علىّ والرعد صوته فكان الواحد إذا سمع الرعد قال « وعليكم السلام يا أمير المؤمنين » ويقال : إنهم أول من قال بخلق القرآن . فإن صح ذلك فنسبة الفتنة إلى عصر المأمون غير صحيحة .

وتكاثرت هذه الفرق الحلولية بعد العهد الأموى ونحن ذاكرون فيما يلى الفرق الحلولية فى العصر الجديد .

٤ – النميرية : زعمت أن روح الله حلت فى علىّ وأولاده وفاطمة بعد أن حلت فى النبى .

٥ – الجناحية : زعمت أن روح الله حلت فى علىّ وأولاده ثم فى عبد الله سليل عبد الله ابن جعفر .

٦ – الرزامية : ألّهت أبا مسلم وفضلته على جبريل وميكائيل وقالت إنه حى لا يموت ما قتل بل قتل شيطان تصور فى أبى مسلم .

٧ – المقنعية وقد تفرعت من الرزامية فزعيمها المقنع كان فى شيعتها ثم ادعى الألوهية . وقال إنه هو آدم ونوح وإبراهيم ومحمد وعلى وأبو مسلم « إنى إنما أنتقل فى الصور لأن عبادى لا يطيقون رؤيتى فى صورتى التى أنا عليها ، ومن رآنى احترق بنورى » . وقد أسقط عن أتباعه الصلاة والصيام وأنواع العبادات وأحل لهم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك . وكثر أتباعه وعظم أمره ، وحسبك أن الدولة ظلت تقاتله وجنوده أربعة عشر عاما .

٨ – الحلاجية : أتباع الحسين بن منصور الحلاج وقد تحدثت عنه عند الحديث عن الصوفية ونقول إنه صوفى فسدت صوفيته فاعتقد الحلولية وقد اختلف فى أمره الصوفية والمتكلمون ، أما الأولون فقالوا إن كلامه أشكل من أن يفهمه المتكلمون أو غير المتكلمين ، أما الآخرون فقد كفروه واستدلوا بعبارات نسبت إليه مثل « من هذب نفسه فى الطاعة والصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين ثم لايزال يصفو ويرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الإله الذى حل فى عيسى بن مريم ،، ولم يرد حينئذ شيئا إلا كان كما أراد وكان جميع فعله فعل الله تعالى » .

وقيل إن الحلاج ادعى لنفسه هذا المقام وقد ظفر بعضهم بكتاب أرسله إليه أحد أتباعه ، يقول « يا ذات اللذات ومنتهى غاية الشهوات نشهد أنك المنصور فى كل زمان بصورة وفى زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور ونحن نستجير ونرجو رحمتك يا علام الغيوب » .

وهناك روايات تصور الحلاج كزير نساء ، وتقول إنه ادعى ما ادعاه ليستهوى حرم الخليفة وإنه استهوى كثيرات من نساء القصر فإن صح ذلك فهو إمام راسبوتين Raspoteen

٩ – الحلمانية : نسبة إلى حلمان الدمشقى ، فارسى نشأ فى الشام ، زعم أن روح الإله حالة فى كل جميل ، فإن رأى أو رأى أحد من أتباعه جميلا أو جميلة أو فرسا رائعا أو طيرا مليحا أو شجرة فينانة خرّ على الأرض ساجدا .

وزعم أنه من تصفو نفسه وتشف يعفى من الواجبات الدينية ويحل له كل حرام . أما سجودهم للجميل فللاعتقاد بأن روح الله حالة فيه ومن تعليلهم قوله تعالى للملائكة فى آدم (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين)[١] .

---

(١) سورة الحجر ، آية ٢٩

الغزل

كلمة عن الرق

كان الإنسان الأول لا يدين إلا بالقوة ، فكان الاسترقاق نظاما اجتماعيا شائعا تستوى فيه الأمم والجماعات .

فلليونان أسواق شهيرة فى أثينا وقبرص وسلموس وغيرها . ومنزلة الرقيق كمنزلة المتاع يرهن كما يرهن الشيء . وأرسطو يعرّفه فيقول «آلة ذات روح ومتاع حى» .Une Machine animee, une p.roriste vivante وكان يعاقب بالجلد وبالطحن على الرحى .

والإفرنج جعلوا بين الأحرار والرقيق حدا فاصلا ، فالقانون « السالى » Loi Salique نص على أن الحر الذى يتزوج رقيقة يفقد حريته ، وكذلك الحرة تفقد بالتزوج من رقيق حريتها .

وكان الرقيق عند « الأنجلو سكسون » ملحقا بالأرض ، وكان الجرمانيون يقامرون على الرقيق كما يقامرون على المال . وعند اللومبارديين كانت الحرة إذا تزوجت رقيقا وجب إعدامها حرقا . ولا نحدثك عن الرق عند البابليين والآشوريين والمصريين والصينيين والهنود ، فأنت تعلم بأنه لم يكن أحسن حالا منه عند هذه الأمم .

الرق فى الجاهلية

والعرب فى الجاهلية كانوا يسترقون من يأسرونه

فما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا[1]

وكانوا يشترون الرقيق من الأمم الأخرى ، وهذا الرقيق كان يوضع فى عنقه حبل ويقاد إلى منزل شاريه ، كما تقاد السوائم ، وكانوا يؤجرون إماءهم للبغاء ، وقد أبطل ذلك الإسلام (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا[2]) .

---

(١) من شعر حاتم الطائى ، عبد الله عفيفى : المرأة فى جاهليتها وإسلامها جـ ١ ص ٤٥ من طبعة مصر ١٩٢١

(٢) سورة النور ، آية ٣٣ .

وكان الرقيق عند الجاهليين كالرقيق عند الرومانيين لا مال له : ما اكتسبه فلسيده وما غير ذلك فهو لمالكه . ومنهم من كان ملحقاً بالأرض وهو « القن » يقابل ذلك Serf فى النظام الرومانى يباع ويشترى ويؤجر مع الأرض .

وقليل ما كان يعتق جاهلى رقيقا فإن أعتق جزت ناصيته وأصبح مولى للمعتق أو لمن يشاء المعتق

كم من أسير فككناه بلا ثمن وجزّ ناصية كنا مواليها

والمولى منزلته بين الحرية والرق ، وهو أقرب إلى الرق فيما أرى إذ كان لا يجوز له الزواج من الحرة .

الإسلام والرق

وقوع الكافر أسيرا فى يد المسلم يجعله رقيقا ، ذلك حكم الإسلام . وهذا الرقيق كان كثيرا جدا فى صدر الإسلام وهو مال ، فحكمه حكم سائر الغنائم ، خمسه لبيت المال وأربعة أخماس توزع على الجيش المقاتل ؛ للراجل سهم وللفارس سهمان (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)(١) .

وخيّر الشارع الإمام فى الأسرى بين العفو والفداء وهو أن يفدى الإنسان نفسه بمال يقدره الإمام (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق فإما منّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)(٢) .

وقد عفا الرسول عن قريش بعد انتصاره فى غزوة الفتح إذ صعد المنبر وقال « يا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم » فقالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ! فقال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أما الفداء ، فقد افتدى الأسرى أنفسهم فى غزوة بدر ، فالغنى افتدى بالمال والفقير يقوم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة .

وكان الرسول إذا ضرب على الأسارى الرق وفرّقهم غنائم بين المسلمين ، دخل كل رقيق فى ملك سيده وصار السيد فى حل أن يطأ الأمة (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على

---

(١) سورة الأنفال آية ٤١

(٢) سورة محمد آية ٤

أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون)[١] (وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم)[٢] .

فالعلاقة الجنسية قوامها فى الشرع الزواج أو ملك اليمين وولد الجارية حر ، أو يزوجها غيره من الأرقاء أو الأحرار عند فقدهم مئونة النكاح (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله)[٣] .

وكان الرقيق مالا يتوارث بالأبناء عن الآباء ولا يحل للولد افتراش موطوءة الأب . الرق فى الجاهلية يختلف عن الرق فى الإسلام اختلافا كبيرا .

وأرى أن الإسلام لم يبح الرق إلا تمشيا مع عقلية الناس ، ولا يغضبن قولى المتعصبين فليس فيه ما يشين الإسلام . إنك تعط العليل دواء قويا فلا تحتمله أمعاؤه ويلفظه . كان لابد للإسلام من مجاراة العقول التى تلقى عليها تعاليمه وإلا ما احتملته ولا أبهت به . ويظهر أن هناك أمرا آخر قصده الشارع وهو نشر الإسلام وذلك مستفاد من قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا[٤]) ، نستطيع أن نفهم من جزء الآية الأخير « إن علمتم فيهم خيرا » أن الشارع أباح الرق لنشر الإسلام بضم هؤلاء إلى حظيرته حتى يتأدبوا بآداب هذا الدين الجديد ويرضوا عن أحكامه حتى رقابة المسلمين حتى إذا أنس السيد من رقيقه الميل إلى الصلاح والركون إلى التقوى وامتثال أوامر الشريعة رغّبه الشارع فى إطلاق سراحه وفك رقبته ، وفى القرآن آيات كثيرة تحض على العتق ، فالله لا يقبل ممن امتهن حرمة اسمه المقدس ومن حلف كاذبا عليه أن يفك رقبة عبد من عبيده (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة)[٥] ، وجعل العتق كفارة للظهار (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير[٦]) وجعله كفارة للقتل الخطأ (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية

---

(١) سورة المؤمنون الأيات ٥ ، ٦ ، ٧

(٢) سورة النساء آية ٣

(٣) سورة النور آية ٣٢

(٤) سورة النور آية ٣٣

(٥) سورة المائدة آية ٨٩

(٦) سورة المجادلة آية ٣

مسلمة إلى أهله[١]) جعله تارة آية للشكر وتارة كفارة (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنو وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة)[٢] وأوصى الله بالإحسان إليهم (وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا)[٣] .

وجاء الحديث متمما لدعوة القرآن « لقد أوصانى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » و « اتقوا الله فى الصلاة وفيما ملكت أيمانكم » و « اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة » .

وروى ابن عمر أن رجلا جاء إلى النبى فقال له « إلى كم أعفو عن عبدى فلم يجبه ، فأعاد عليه السؤال مرة ثانية وثالثة ولم يجبه ، فلما سأله المرة الرابعة صاح فى وجهه : اعف عن عبدك فى كل يوم إذا أردت نوال الأجر والثواب » .

رأى رجلا على دابة وغلامه يسعى خلفه فقال : احمله خلفك يا عبد الله فإنما هو أخوك وروحه مثل روحك . من كان له جارية فعلمها وأحسن تعليمها وتزوجها كان له أجران .

وحرّض على العتق كما حرّض القرآن « ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار » .

الغناء والموسيقا

فى الجاهلية :

أحسب أن أبوينا آدم وحواء كانا يغنيان . فالغناء طبيعة فى الإنسان وربما كان الغناء فى الجاهلية متفقا مع بساطة البداوة أقرب إلى الهزج والحداء منه إلى الصناعة الفنية . ولسنا نعرف عن موسيقا الجاهلية إلا الدف والناى والمزهر .

وأشهر مواطن الغناء فى الجاهلية المدينة والطائف وخيبر[٤]

---

(١) سورة النساء آية ٩٢

(٢) سورة البلد آيات ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨

(٣) سورة النساء آية ٣٦

(٤) كما ذكرها العقد الفريد وراجع فى ذلك الدكتور شوقى ضيف : الغناء فى الأمصار الإسلامية .

الغناء فى صدر الإسلام والعصر الأموى :

أهم موطن للغناء فى هذا العصر هو المدينة حيث كانت الأرستقراطية الحجازية التى انصرفت عن السياسة أو صرفت عنها بعبارة أوضح . عكفت على اللهو واشتهرت المدينة بذلك فى هذا العهد . يقول الشاعر المدنى ردا على شاعر كوفى :

قالوا المدينة أرض لا يكون بها — إلا الغناء وإلا اليمن والزير
لقد كذبت لعمر الله إن بنا — قبر النبى وخير الناس مقبور

ويلى المدينة فى الشهرة بالغناء مكة والطائف .

ولم يك فى دمشق غناء قبل الوليد بن يزيد – فيما يقول بعض المؤرخين – وكان بعض الخلفاء والولاة يكره الغناء والمغنين كمعاوية واشتط سليمان بن عبد الملك فى طردهم وأمر بإبعاد غير واحد منهم ، وهو القائل :

هدر الجمل فضبعت الناقة وهدر الحمام فهاجت الحمامة . وغنى الرجل فطربت المرأة .

ومن ولاة المدينة من اضطهد المغنين حتى هم بطردهم منها . أما عمر بن عبد العزيز فكان يقبل على الغناء أيام أن كان واليا على المدينة حتى أنه ألف فى فن الغناء ، فلما آلت إليه الخلافة كره الغناء أو أظهر ذلك الكره . وفتن الوليد بن يزيد به فتونا .

وفى هذا العصر دخلت الألحان الفارسية والرومية فى الغناء العربى ، ويقال إن أول من مزجه بها سعيد بن مسجح ، وقد سمع بعض البنائين الفرس يغنى إذ كان يجدد فى بناء الكعبة بعد هدمها فى أثناء محاربة الزبير ، فاقتبس هذه الألحان ثم سافر إلى فارس والشام وجوّد بعض الألحان ، وهو كما ترى كلام أشبه بالعروض منه بالوقائع .

ومهما يكن فإن المغنين الموالى لحنوا الأصوات فارسية ورومية ونقلوا منهم أنواعا مختلفة من الآلات الموسيقية كالعود والصنج وهما فارسيان ، والقيثارة والأرغن وهما يونانيان والكلكلة وهى هندية ، والطنبور وهو ديلمى (١) .

ومن الصعب أن نفرق بين هذه الآلات . وتنسب هذه إلى العصر الأموى وهذه إلى العباسى ، إلا أننا نرجح أن أغلبها وجد فى العصر الأموى . وفى تاريخ التمدن الإسلامى (٢) أنه

(١) عن المخصص

(٢) نقلا عن ابن الأثير

عشر فى معسكر الأمويين بأصبهان بعد سقوطه فى يد العباسيين على عدد لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير.

القيان

القيان هن الجوارى المغنيات، وللقيان فى الجاهلية بعض أخبار، ففى رواية لحسان بن ثابت أنه رأى عند جبلة بن الأيهم عشر قيان، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة [١].

وكان لعبد الله بن جدعان أمتان تغنيان فى الجاهلية وهبهما لأمية بن أبى الصلت الثقفى [٢] وكان يقال لهما الجرادتان.

تغنينا الجراد ونحن شرب   نعل الراح خالطها النشور

وفى أخبار عبد الله بن جدعان أنه كان نخاسا فى الجاهلية وأنت تعرف أن جدعان كان قائد قريش فى حرب الفجار وترى معى أن ذلك يدل على عظم شأن هؤلاء النخاسين فى الجاهلية. يقول دريد بن الصمة من قصيدة يمدح بها عبد الله بن جدعان:

رَحَلْتُ البلادَ فما إن أَرَى   شَبِيهَ ابن جُدْعان وَسْطَ العَرَبْ
سوى مَلِكٍ شامخٍ ملكُه   له البحرُ يَجْرِى وعينُ الذَّهَبْ [٣]

القيان فى صدر الإسلام:

فى تاريخ حسان بن ثابت أنه كانت له قينة تغنيه وأصحابه هى «سيرين» وأبو محجن الثقفى [٤] يقول:

وقد تَقُوم على رَأْسِى مُنَعَّمَة   فيها إذا رَفعت مِن صَوتها غَنَجْ
تُرَفِّع الصوتَ أَحْياناً وتَخفِضه   كَما يَطِنُّ ذُبابُ الرَّوْضة الهَزِجِ [٥]

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٤٥٣ من طبعة الشعب
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠٧٣ من طبعة الشعب
(٣) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٤٨٥ من طبعة الشعب والنويرى: نهاية الأرب جـ ٥ ص ٤٠ من طبعة دار الكتب
(٤) شهيد القادسية وأبلى فيها بلاء حسنا
(٥) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٢٣٣ من طبعة الشعب

القيان فى العصر الأموى :

أخبار القيان فى هذا العصر كثيرة وأشهر موطن لهن هو المدينة حيث كانت الأرستقراطية القرشية ، كما تقدم . ومن أشهر قيان هذا العصر « جميلة » مولاة الأنصار ، وهى أول من غنى بالمدينة ، وفيها يقول عبد الرحمن بن أرطأة :

إن الدَّلال وحسنَ الغنا ء وَسْطَ بيوت بنى الخَزْرج
وتلكم جميلةُ زينُ النساء (م) إذا هى تَزْدان للمَخْرَج
إذا جئتَها بَذلتْ وُدَّها بوجه مُنيرٍ لها أَبْلَجِ [1]

وسلامة القس وحبابة فاتنة يزيد بن معاوية [2] وعزة الميلاء وخليدة وعقيلة واللماسية ولذة العيش وفرعة ونبيلة والفرهة وسعيدة الزرقاء . ولكل منهن أخبار طوال لا نتعرض لها .

وقيان العصر الأموى لم يكن لهن فى الشعر الأموى أثر يذكر بالقياس إلى قيان العصر العباسى ، وإن كنا نعرف أن بعض شعراء الحجاز كعمر بن أبى ربيعة وابن أبى عتيق وابن الرقيات والأحوص كان متصلا بهن وبين أيدينا طائفة من أشعار فى سلامة القس [3] وحبابة وجميلة وغيرهن . بل غير شعراء الحجاز ، فالأخطل كانت له قينتان وهو القائل :

وقَد أكُونُ عَميدَ الشَّرْبِ تُسْمِعُنَا بَجَّاءُ تَسْمَعُ فى تَرْجِيعِها صَحَلا
مِنَ القِيَانِ هَتُوفٌ طَالَ مَا رَكَدَتْ بِفتْيَةٍ يَشتَهُونَ اللَّهْوَ والغَزَلا [4]

والفرزدق يقول فى أمة زنجية :

يارب خود من بنات الزنج تمشى بتنور شديد الوهج
أغر مثل القدح الخلنج يزداد طيبا بعد طول الهرج [5]

نكتفى بهذه النبذة عن قيان العصر الأموى فما قصدنا الحديث عنهن بل عن قيان العصر

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٩٣٢ من طبعة الشعب

(٢) وكان لها أثر كبير فى سياسة الدولة

(٣) فى رواية محمد بن سلام أن يزيد بن عبد الملك اشتراها بعشرين ألف دينار (وقد اشترى غيرها فى العصر العباسى بمائة ألف دينار)

(٤) الديوان ص ١٤٢

(٥) الديوان ص ١٤٣ من طبعة الصاوى

العباسي وأثرهن فى الشعر. ونقول بالإجمال : إن علاقة الشعراء الأمويين بالقيان لا تذكر بالقياس إلى شعراء بغداد وقيانها.

الغزل الأموى أغلبه كما رأيت ، فى امرأة بدوية أو امرأة حضرية من بنات الأشراف ذلك أن النساء فى العصر الأموى وفى صدر الإسلام كن سافرات يجلسن إلى الرجال ويرحبن بالضيف ويسامرنه وقد نزل على أهلهن فى غير ما حرج وربما برزن معهم فى صفوف القتال ، ثم تبدل الحال فى أواخر العصر الأموى منذ أيام الوليد بن يزيد وحجبت المرأة عن الرجل.

يعلل ذلك المؤرخون بسوء سيرة الوليد فيقولون إن الأشراف خافوا على نسائهم من الوليد فحجبنهن وقلدهم عامة الناس بالتدريج. وأراه تعليلا بعيدا ، وأحسب أن عادة الحجاب انتقلت إلى العرب باختلاطهم مع الفرس ، وأنت تعرف أن الفرس كانوا يحجبون نساءهم منذ أقدم عصور التاريخ الإيرانى.

لا ينشأ الحجاب فى بيئة بدوية وإنما ينشأ فى الحضارات ولا يزال الشاهد أمامنا فى مصر حيث تحجب المرأة فى المدن وتخرج الفلاحة إلى الحقل تشاطر الرجل فى الزراعة وتقضى حوائج البيت.

لا نستطرد ونعود إلى المرأة العربية فنقول إن بدعة الحجاب تسربت إلى العرب فى أواخر العصر الأموى مثلما كان العصر العباسى ، كان بين الرجل والمرأة سد منيع. فيمن يتغزل الشعراء ؟

أراك سبقتنى إلى الجواب ! بالقيان ، أليس كذلك ؟

اقتصر الغزل إذن على القيان فهن عرائس الشعر العباسى.

وقيان العصر العباسي – قيان بغداد – لا يُقسن بقيان العصر الأموى ، قيان المدينة ، فى الخلاعة والتهتك.

نقول ذلك فى شيء كثير من الاطمئنان بل يسرف غيرنا فيصف غير واحدة منهن بالنسك والتقوى فصاحب نهاية الأرب يحدثك عن إسلام عزة غير المشوب[1] وعن عفة جميلة ويقول أبو الفرج إنها لم تغن خارج منزلها قط.

---

(١) ويقول صاحب الأغانى «كانت . . . على خلق فاضل وإسلام لا يشوبه دنس ، تأمر بالخير وهى من أهله وتنهى عن السوء وهى مجانبة له فناهيك بها ما كان أنبلها وأنبل مجلسها» (جـ ١٨ ص ٦٤٤٩ من طبعة الشعب)

أقول إن فتيات المدينة لم يبلغن ما بلغته نساء بغداد فى فنون الخلاعة ، تفننت قيان بغداد فى التجمل حتى إن منهن من كانت تتزيّا بزى الرجال وهن الجوارى الغلاميات :

تأمل حسن جارية يحار بوصفها البصر
مذكرة مؤنثة فهى أنثى وهى ذكر [١]

والقول :

صور إليك مؤنثا ت الدل فى زى الذكور

ومن ضروب خلاعتهن أن كتبن على العصائب والثياب أبياتا من الشعر ، فما كتب على العصائب :

الكفر والسحر فى عينى إذا نظرت فاغرب بعينيك يا مغرور عن عينى
فإن لى سيف لحظ لست أغمده من صنعة الله لا من صنعة القين

وكتبت أخرى :

مالى رميت فلم تصبك سهامى ورميتنى فأصبتنى يا رامى

وغيره :

ظلمتنى فى الحب يا ظالم والله فيما بيننا حاكم

وكتبت إحداهن على قلنسوة خرجت بها على لناس :

تأمل حسن جارية يحار بوصفها البصر

. . . . . إلخ .

وكن بلا ريب أفتن من قيان العصر الأموى لأن تقدم الحضارة هيأ لهن أسباب التجمل فمنهن من كن يلبسن غطاء للرأس يشبه فى شكله « العزوزية » عند سيداتنا اليوم إلا أنه كان من ذهب لا من حرير ، وكان محاطا بالجوهر لا بالتطريز . وكن يصبغن الشفاه والخدود بأنواع الأصباغ ويتزين بخلاخل وأساور من فضة وذهب ، ويلبسن ثيابا من سندس وإستبرق ، ولم تكن أنواع الأصباغ معروفة فى هذا العصر .

وكثرت القيان فى العصر العباسى لكثرة الجوارى فقد كان فى بيت الرجل عشرات أو مئات من الإماء ، وكان فى قصر الرشيد ألف جارية منهن ثلاث مغنيات وعازفة ومن بينهن العوادة

---

(١) عبد الله عفيفى . المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها جـ ٣ ص ١٤ من طبعة المطبعة الرحمانية

والجنكية وضاربة الدف والناى . وهذه الكثرة سببها أن الجوارى فى العصر الأموى كن من السبايا . أما فى العصر العباسى فلم يكن التسرى مقصورا على السبايا بل تعداه إلى الاتجار ، فكثر النخاسون ، وكان فى بغداد دار للرقيق يجلب إليها أنواع هؤلاء من أملح الجوارى من الروم وأرمينيا وتركيا والحبشة والهند [١] وغيرها .

ومن المغنين من كان يتجر بالجوارى فقد كان ينتقى منهن من يتوسم فيهن حسن الاستعداد فيشتريها بثمن بخس ويعلمها أصول الغناء ثم يبيعها بربح وافر ولأبى عيينة فى ذلك شعر .

ومن الأدباء من كان يشترى الجارية الصبية المليحة ويعلمها العروض أو يرويها الشعر ثم يبيعها . ولذلك كثرت الجوارى الشواعر والأديبات فى هذا العصر ، وكان لهن فى الأدب أثر ظاهر . ومساجلات عنان وأبى نواس فى المجون شهيرة .

ومن الناس من كان يجمع عددا من القيان الوسيمات فى بيته ويفتح بابه لعشاق الغناء ومن هؤلاء يحيى بن نفيس وعبد الملك بن رامين . ومن جوارى ابن رامين :

الزرقاء وربيحة وسعدة وكلهن شهيرات . وفيهن يقول إسماعيل بن عمار :

هَلْ من شِفَاءٍ لِقلبٍ لَجَّ محزونِ ... صَبَا وصَبَّ إلى رِئْم ابن رامينِ
إلى رُبَيْحة إن الله فَضّلها ... بحُسنِها وسَماعٍ ذى أفانينِ
نَعَمْ شِفاؤكَ منها أن تقولَ لها ... أضْنَيْتِنى يوم دَيْر اللُّج فاشْفِينى
أنتِ الطبيبُ لداءٍ قد تلبَّس بى ... من الجَوىَ فانفُثى فى فىّ وارْقِينى
نَفْسِى تأبى لكم إلا طَوَاعِيَةً ... وأنت تأبَيْنَ لُؤماً أن تُطِيعينى

ومنها :

لا أنْسَ سَعْدَةَ والزَّرْقاءَ يومَ هُمَا ... باللُّجِّ شَرْقِيَّهُ فوق الدَّكاكين
يُغَنّيانِ ابنَ رامينٍ على طَرَبٍ ... بالمِسْجحىّ وتشبيب المحِبِّين
فما دعوت به فى عيش مملكة ... ولم نعش يومنا عيش المساكين [٢]

وخرج ابن رامين للحج مرة فساء حال الشعراء ، وفى ذلك يقول أحدهم :

أيّةُ حالٍ يا ابنَ رَامينٍ ... حالُ المُحِبِّين المساكين

---

(١) Short history of the Saracens, by Ameer Ali, Sayed.

(٢) الأغانى جـ ١١ ص ٤١٥١ من طبعة الشعب

تركتهم مَوْتَى وما مَوَّتُوا ... قد جُرِّعوا منك الأمرّينِ
ياراعىَ الذَّوْدِ لقد رُعْتَهُمْ ... وَيْلَكَ من رَوْعِ المُحِبِّين
فرّقتَ قوما لا يُرى مِثْلُهم ... ما بين كُوفانٍ (١) إلى الصّينِ (٢)

ومن أشهر قيان هذا العصر بصبص التى يقول فيها عبد الله بن مصعب :

فخُذْ عليها مجلسَىْ لَذّة ... ومَجْلِساً من قَبْلِ أن تَشْخَصا
أحْلِفُ بالله يَميناً ومَنْ ... يَحلفُ بالله فقد أخْلَصا
لو أنها تدْعُو إلى بَيْعةٍ ... بايعتُها ثم شَقَقت العَصا (٣)

ومن أشهر قيان العصر ذات الخال ، وكم تغزل بها الشعراء ، ودنانير مولاة خالد البرمكى .

والمساجلات بين الشعراء والقيان كثيرة جدا وكلها فحش ومجون ، ونحن نختار هذه المساجلة الخفيفة بين الحسن بن دعبل وإحدى الجوارى لترى كيف كان ألسنة هؤلاء القيان — من تأدب منهن — تنطلق بالشعر فى غير تكلف ولا جهد .

يقول صاحب الأغانى « حدثنى الحسن بن دعبل قال سمعت أبى يقول : بينما أنا جالس بباب الكرخ إذ مرت بى جارية لم أر أحسن منها وجها ولا قدًّا تتثنى فى مشيتها وتنظر فى أعطافها فقلت متعرضا لها :

دموع عينى بها انبساط ... ونوم عينى به انقباض

فأجابتنى غير متوقفة فقالت :

إن كنت تبغى الود منا ... فالود فى ديننا قراض

قال فما دخل أذنى قط كلام أحلى من كلامها ولا رأيت أنضر وجها منها ، فعدلت بها عن ذلك الوجه وقلت :

أترى الزمان يسرنا بتلاق ... ويضم مشتاقا إلى مشتاق

فأجابتنى بسرعة :

ما للزمان وللتحكم بيننا ... أنت الزمان فسرنا بتلاق

قال فمضيت أمامها أذم بها دارى . . . إلخ .

---

(١) كوفان : الكوفة وكوفان أيضا : قرية بهراة

(٢) الأغانى جـ ١١ ص ٤١٥٣ من طبعة الشعب ويقول : إن الشعر لإسماعيل بن عمار

(٣) شق العصا : يكنى به عن الخلاف ومفارقة الجماعة . الأغانى جـ ١٥ ص ٥٣٠٣ من طبعة الشعب

الغزل العباسى :

رأيت أن عروس الشعر الأموى لا تعدو واحدة من ثلاث :

امرأة بدوية تعيش مع أهلها فى خيام نصبت بالعراء يمرّ بخيمتّها صياد فيستسقيها ماء فيأسره جمالها ، أو راع يراها وهو سارح بغنمه تلعب وتلهو مع أترابها فيعلق قلبه بحبها فيتوجه إليها كما يتوجه الوثنى إلى اللات والعزى والمجوسى إلى المحطب والصابئى إلى الشعرى .

وامرأة تخرج مع القافلة فى المواسم فيراها فتى من صبيان الحجاز المترفين وهى فى هودجها أو طائفة بالكعبة أو مستلمة الحجر الأسود فيحتال إليها بالأساليب التى يحتال بها عشاق الحضر .

وامرأة أبت السياسة إلا أن يتغزل بها خصم سياسى لزوجها أو أبيها أو أخيها .

أما عروس الشعر العباسى فلها مهنة خاصة ولها بالناس صلة خاصة لا هى بدوية فقد مصرت الأمصار وعاش الشعراء فى هذه الأمصار فلا رعى ولا استسقاء ولا خيام ولا صحراء ، ولا هى زوجة أو أخت لزعيم سياسى لأن هذا النوع من الغزل شاذ استنه بعض الناس وتبعه البعض حينا ، ولأن الغناء فى خدورهن محجة ، فهن فى معتصم من افتراء الشعراء ، ولا هى امرأة تخرج فى مواسم الحج فشعراء العصر لا يعرفون مواسم الحج ولا شعائر الدين بل يعرفون اللهو والقصف .

لقد تغير العصر فانتصر الشباب ، وفى طليعتّهم الشعراء إلى الحياة الجديدة الفاتنة لأنهم — أى الشعراء — أسرع تحولا وأشد ميلا لأن نفوسهم أدق حساسية ولأنهم أيسر من غيرهم حالا وأوفر مالا . . قضى الأمر وانتصرت اللادينية فهاهم أولاء شعراؤنا يعيشون فى بغداد يقضون للشباب ديونه . . هاهم أولاء يسهرون الليل تغنيهم القيان فيستمعون إلى الأنغام العلوية وسرعان ما تنتبه الغريزة فيهم فيتوجهون إليها هى لا يغنون بلحنها ويقبلون عليها هى لا على صوتّها فحسب .

وهؤلاء القيان لا يعرفن التمتع والصول وإنما يعرفن التأبى والدلال.. فالصلات بينهن وبين الشعراء قائمة أو ستقوم وإنى لأترك لهؤلاء وصف هؤلاء القيان :

صَحَوْتُ فأبصرتُ الغوايةَ من رُشْدِى ... وأيقنتُ أنى كنتُ جُرْتُ عن القَصْدِ
فلا يَعْشَقَنْ من كان يَعْشَقُ قَينةً ... فما هو منها فى سعيدٍ ولا سَعْد
تَوَدُّكَ مادامت هداياك جَمَّةً ... وتَرْفدْكَ عِشْقاً ما غَنيتَ أخا رِفْدِ

إذا ما رأت فى مجلس مَنْ تَخَالُهُ غَنِيًّا حَبَتْهُ بالتحيَّة والودّ
وغَنَّتْ على أقداحه كلّ ما اشتهى وقالت له ماذا تُرِيدُ أنا أفْدِى
وتُومى إليه اشْرَبِ الرِّطْلَ واسْقِنِى فقد حُزْتَ قلبى واشتملتَ على وُدّى
فَيمْتَلىَ المغرورُ عند مَقالِها سُرُوراً يرى أن المقالَ على جدٍّ
فإنْ جاء وقتُ الانصراف تحازَنتْ لفِرْقَتِهِ حتّى يقوم على وَعْدِ
وَيغْدُو إليه فى الفِراشِ رَسُولُها يُسائِلُهُ ما كان حالُكَ من بَعْدِى
ويا ليت شعرى كيف بِتَّ فإنَّنى رَعَيْت نجوم الليل كَفِّى على خَدِّى
فلا يجد المغرورُ مِن دَفْع جَذْرِها سُرُورا بتعجيل الزيارة من بُدِّ
ويُسْرِعُ فى إتْيانِهِ لِيظُنَّها حَبَتْهُ بتعجيل المجىء على عَمْدِ
فإن هِىَ جاءت عانقَتْهُ وقبّلتْ يَدَيْهِ وأبْدَتْ فَرْحَةً قَلّ ما تُجْدِى
وتخْدُمُه عَمْداً فإنْ قالَ إنه لَيحزننى أن تَصْنَعى هكذا عِندِى
تَقُول له ذا البيتُ بَيْتِى وإنّما أؤمّلُ أن يَبْتاعَنِى سَيِّدِى وَحْدِى
فَتُصْبحُ عَيْنِى بالوِصالِ قَرِيرَةً وآمَنُ مِن سَوْمِ التفرق وَالبُعدِ
فذا دأْبُها حتى يعودَ مِنَ الهوى سقيمَ فُؤادٍ ما يُعِيدُ ولا يُبْدِى
فَتفْصِدُ لا مِن حاجةٍ لِفصَادِها ولكن لتَكلِيفِ الهدِيّةِ فى الفَصْدِ
فمن بين خلخالٍ يُصَاغُ وخَاتمٍ ومن دُمْلُج يُهْدَى على أثَرِ العِقْدِ
ومِنْ ثَوْبِ خَزٍّ بعد وَشْىٍ ومُلحِمٍ ومن مُصْمَتٍ يُشْرَى على أثَرِ البَرْدِ
ويالك من مِسْكٍ ذَكِىٍّ وعنبرٍ وعُودٍ وكافور نقىٍّ ومن نَدِّ
فذا فِعْلُها حتى إذا عاد مُفْلِساً تَجَنَّت وأبْدَت جَانِبَ الهَجْرِ والصَّدِّ
فقولا لِمَنْ يَهْوَىَ القِيانَ تفهَّموا مَقَالِى فإنى قد نصحتُ لكم جَهْدِى (١)

وبعد فهذه القصيدة غنية عن التعليق كل الغنى ومثيلاتها كثيرة بين أيدينا لكنا نكتفى بها . وإذن فطبيعى أن يكون هذا الغزل مطبوعاً بطابع الغريزة الجنسية اليقظة والحساسية الحيوانية المتوثبة .

وخودا أقبلَتْ بالقَصْرِ سَكْرَى ولكن زَيَّنَ السُّكْرَ الوَقارُ
وهز المشْىُ أردافاً ثِقَالا وغُصْناً فيه رُمّانٌ صِغارُ

(١) أبو الطيب محمد بن إسحاق الوشاء : الموشى أو الظرف والظرفاء ص ١١٩ – ١٢١ من طبعة الخانجى ١٩٥٣

وقد سَقَط الرِّدَا عن مَنْكبيهَا　　من التَّخْميش وانْحلَّ الإزارُ
فقلت : الوعد سيّدتى فقالت :　　كلامُ الليل يمحوه النهار (١)

ولأبى نواس :

ألا ربما زرت الملاح وربما　　لمست بكفى البنان المخضبا

ولمسلم بن الوليد :

فَقَطْتُ رُمَّانَ الصُّدُورِ للذَّةٍ　　ولَمَسْتُ أرْدافاً كَفعْلِ اللاعِبِ (٢)

والقول :

إن المطية لا يلذ ركوبُها　　حتى تذلّل بالزّمام وتُركبا
والحِبّ ليس بنافعٍ أربابه　　حتى يفصّل بالنظام ويثقبا (٣)

العباس بن الأحنف(٤)

هو الشاعر العباسي الوحيد الذى وقف شعره على الغزل ولذا يقرنه كثيرون بجميل والمجنون ، فلنلق نظرة عامة على شعر العباس غزل العصر.

كان يهوى فوزا جارية محمد بن منصور ثم اشتراها بعض البرامكة وحج بها ، فلما قدمت قال العباس :

أَلاَ قَدْ قَدِمتْ فَوْزٌ　　فَقَّرتْ عَيْنُ عبَّاسِ
لَمن بَشَّرنى البُشرى　　على العَيْنَين والرَّاسِ
ويَا دِيباجَة الحُسْنِ　　ويا رائحِةَ الآس
يَلومُونى على الحُبّ　　وما بالحُبّ مِنْ باس (٥)

---

(١) ابن منظور : مختار الأغانى جـ ٣ ص ٢٨٨

(٢) الديوان ص١٨٧ من طبعة دار المعارف

(٣) الديوان ص ٣٠٥ بتحقيق الدكتور سامى الدهان من طبعة دار المعارف وصبح الأعشى جـ ٢ ص ٣٠٥

(٤) العباس بن الأحنف عربى من بنى حنيفة ، كان آباؤه ينزلون فى خراسان واتصلوا بالعباسيين . راجع ترجمته فى ابن المعتز ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغانى جـ ٨ ص ٣٠٩٨ من طبعة الشعب وتاريخ بغداد جـ ١٢ ص ١٢٧ وشذرات الذهب جـ ١ ص ٢٣٤

(٥) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٣٤٢ من طبعة الشعب والديوان ص ٩٤ من طبعة الجوائب ١٢٩٨

أترى فى هذا الشعر ظلا لجميل . . . شتان ما هما ، وفى ذهابها للحج قال :

يارب رُدَّ علَيْنا مَن كان أنساً وزَيْنا
مَن لا نُسَرّ بعَيْش حتى يكُونَ لَدَيْنا
يا مَن أتاح لقَلْبى هَواه شُؤماً وحَيْنا
مازِلْت مُذْ غِبْتَ عَنِّى من أسْخَن الناس عَيْنا
ما كان حَجّك عِنْدى إلا بلاءً علَيْنا (١)

كلام مصنوع ولفظ مرصوص كما ترص حجارة البنيان .

وجه العباس رسولا إلى فوز فأخبره أنها تجد صداعا وأنه رآها معصوبة الرأس ، فقال العباس :

عَصَبتْ رَأسها فلَيْتَ صُدَاعاً قد شكَتْه إلىّ كان بَراسِى
ثم لا تشْتكى وكان لها الأجْـ ـرُ وكنْتُ السَّقامَ عنها أُقاسى
ذاك حتى يَقولَ لى من رآنى هكذا يَفْعل المُحبُّ المُواسى (٢)

ولست أعلق على هذه الأبيات فقد نطق البيت الأخير بزيف العاطفة وقال :

أما والذى أبْلى المُحِبَّ وزَادنى بَلاءً لقد أسْرَفْتِ فى الظُّلْم والهَجْرِ
فإنْ كان حَقاً ما زَعَمْتِ أتيتُه إليك فقام النَّائحات على قَبْرى
وإن كان عُدْواناً علىّ وباطِلا فلا مُتُّ حتى تَسْهَرى اللّيلَ من ذِكْرِى (٣)

ما هذه اللغة المخنثة « فقام النائحات على قبرى » ما كان لجميل ولا أمثاله من فتيان البادية العربية وعشاقها أن يقول مثلى بل يقولون :

من حبها أتمنى أن يلاقينى من عند بلدتها ناع فينعاها

ومن يدرى ؟ ربما كان بينه وبينها علاقة أخرى هى علاقة الذكر بالأنثى لا علاقة الشاعر بعروسه ، وإلا فكيف تفسر قوله :

هَزئَتْ إذ رأتْ كَئيباً مُعَنىًّ أقْصَدتْه الخطوبُ فهو حزِينُ

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٣٤٣ من طبعة الشعب والديوان ص ١٥٣ من طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٣٤٤ من طبعة الشعب والديوان ص ٩٣ من طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ
(٣) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٣٤٥ من طبعة الشعب

هَزِئَتْ بى ونِلْتُ ما شِئْتُ منها يـالـقـومى فـأيُّنا الـمَـغْبونُ [١]

وصاحبتنا فوز يظهر أنها كانت من طبقة مخصوصة من النساء يدل على ذلك شعر صاحبها :

ومُـظْـهـرة لِـخَـلْـق الله وُداً وتـلْـقى بـالـتَّـحـيّـة والسلام
أتـيتُ فُـؤادهـا أشْـكـو إلـيه فلم أخْلُص إليه من الزِّحَام
فـيـامَـنْ لـيس يَكفيه مُحِبٌّ ولا أَلْفَا مُحِبٍّ كُلّ عامِ
أظُنُّكِ من بَقِيَّةَ قَوم مُوسَى فهمْ لا يَصْبرون على طَعامِ [٢]

وقوله :

كَتبت تَلُوم وتَسْتَريب زِيَارتى وتَقُول لَسْتَ لنا كَعَهْد العاهِدِ
فأجَبْتها ودُموعُ عَيْنى جَمَّةٌ تَجْرِى على الخَدَّيْن غَيْرَ جَوامِد
يا فَوزُ لم أهْجُرْكُمُ لملامة مِنِىّ ولا لمقالِ واشٍ حاسد
لـكـنَّنى جَـرَّبـتُـكـم فـوجَـدتُّـكـم لا تَصْبرون على طعامٍ واحد [٣]

هؤلاء الجوارى بعثن روحا قويا جديدا فى بغداد فتن به الناس أى فتون ، وحسبنا دليلا أن شاعرا من الشعراء الذين رثوا بغداد بعد حريقها على يد الأتراك لم ينس البكاء على دار الرقيق فى بغداد :

فأين فتيان تستجيب لنغمها إذا هو لباها حنين المزامر

وختم بعض الشعراء رثاءه لبغداد بقوله :

ومهما أنس من شىء تولى فإنى ذاكر دار الرقيق [٤]

---

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٣٤٦ من طبعة الشعب والديوان ص ١٥٠ من طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ
(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٣٤٨ من طبعة الشعب والديوان ص ٥٤٢
(٣) الأغانى جـ ١٨ ص ٦٣٤٧ من طبعة الشعب
(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٩ من طبعة المطبعة البهية

الفنون الجديدة

الخمريات :

الخمريات من الفنون الجديدة فى الشعر العباسى ، وإن كان الأمويون والجاهليون ذكروها ووصفوها ، ذلك لأن هؤلاء لم يصفوها لذاتها بل وصفوها عرضا . أما العباسيون فوقفوا عليها قصائد كاملة وقصدوا إليها لذاتها .

وإذن أفلا يجوز أن نقارن بين ما قاله الشعراء الأمويون وما قاله الشعراء العباسيون فى الخمر ؟

بلى إنه ليجوز كما يجوز أن نقارن غزل جرير بغزل جميل .

لجرير قصائد فى مدح الخلفاء سبعون أو ثمانون من أبياتها فى الغزل وعشرة أو عشرون فى المدح ، فهلا يجوز أن نقارن هذه الأبيات الثمانين بقصيدة لجميل أو لعمر بن أبى ربيعة خاصة بالغزل ؟

وغزل الجاهليين ليس فنا مستقلا ، أفلا يجوز أن نقارن بين غزل الجاهليين وغزل الأمويين أو العباسيين ؟ يجوز بلا ريب ، وقد فعلناه .

لكن اعتراضا آخر قد يوجه ، فأنا إن قارنت خمريات أبى نواس بما سبقها خشيت أن يعترض علىّ بأن لأبى نواس ولعا خاصا بالخمر غريبا نطق به شعره ، فأنا مجيب بأن فيمن سبقه من فُتِن بالخمر افتتانه كالأعشى الذى قصد الرسول ليمدحه بقصيدة :

ألم تَغْتَمِضْ عيناكَ ليلة أَرْمَدَا   وعادك ما عاد السَّليمَ المُسَهَّدَا [1]

فلما اعترضه فى طريقه من قال له إنه سيحرّم عليك الزنى والخمر ، أجاب : « أطيعه فى الزِّنى ، أما الخمر فلا أستطيع »[2] ورجع .

بقى اعتراض واحد أخشى أن يوجه ، فأنا مجيب عليه لأمضى فى المقارنة مطمئنا . قد يقال إن الأمويين والجاهليين لم يحيوا فى ظل الحضارة والنعيم فليس يمكن أن يكون

---

(١) الأغانى جـ٩ ص ٣٢٤٥ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٤٦ من طبعة الشعب

وصفهم للخمر كوصف العباسيين . أجيب بأن من الجاهليين من عاش فى الحضارة والترف ووصف الخمر . منهم من لم ير الصوف والوبر وحدهما ، بل عرف الدمقس أو الحرير كالمنخل اليشكرى الذى يقول :

ولقد دَخلتُ على الفَتا ة الخِدْرَ فى اليَوْم المَطير
الكاعِب الحَسناء تَرْ فُل فى الدِّمَقْس وفى الحَرير[١]

وما لى أتلمس مظاهر الترف ؟

لقد كان المنخل يعيش فى الحيرة وينادم النعمان وأنت تعرف ما بلغته الحيرة إذ ذاك حتى قرنها بعض ببغداد وحتى استباح بعض الباحثين القول بأن الحيرة بلغت ما لم تبلغه العواصم الكبرى فى عصرنا هذا وهو قول فيه من الغلو والإسراف ما أنت به عليم .

لكننا على كل حال نقول بلغت مبلغا من الحضارة والترف .

ومن الشعراء الجاهليين من عاش فى ظل الحضارة فاستطاع أن يشبه الحباب بالدر كعدى ابن زيد :

وطفت فوْقَها فقاقيع كالدُّرِّ (م) صغار يثيرها التَّصْفيق[٢]

وهذا التشبيه الذى ألح عليه فيما بعد أبو نواس :

فمازالت مجالَ الشَّرْبِ حتى تَغالوْها وقالوا ما رَوينا
وإنا سوف تُدْرِكُنا المنَايا مُقَدَّرَةً لنا ومُقَدَّرِينَا[٣]

خمريات الأمويين

أشهر من تغنى بالخمر فى العصر الأموى الأخطل والوليد بن يزيد ، أما الأخطل شاعر القصر الأموى المتوج بالنار على رغم نصرانيته ، فقد كانت له على عبد الملك دالة حتى ليحكى أنه كان يدخل عليه ولحيته تنفض خمرا ، وقد طلب إليه عبد الملك أن يقلع عنها فأجاب « والله ما ملكك بالقياس إليها إلا مكنته من ماء الفرات » .

---

(١) الأغانى جـ ٢٣ ص ٨١٥٢ من طبعة الشعب

(٢) الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٧٣ من الطبعة ١٢ بدار المعارف

(٣) البيتان من شعر عمرو بن كلثوم ، انظر : جمهرة أشعار العرب ص ٣٣٨ من طبعة دار نهضة مصر

والأخطل هو القائل :

وَلَسْتُ بِقائِمٍ أَبَداً أُنادِي ... كَمِثْلِ العَيْرِ «حَيَّ على الفَلاحِ»
ولَسْتُ بِصائِمٍ رَمَضانَ طَوْعاً ... ولَسْتُ بآكِلٍ لَحْمَ الأضَاحِي
ولكِنِّي سَأَشْرَبُها شَمُولا ... وأسْجُدُ عِنْدَ مُنبَلَجِ الصَّبَاحِ (١)

وأول ما نلاحظه فى خمريات الأخطل أنها وصف لأثرالخمر لا للخمر ، وقد ترى فى خمرياته أبياتا متناثرة معدودة يصف فيها الخمر كقوله :

فَصَبُّوا عُقاراً فى إناءٍ كأنَّها ... إذا لَمَحُوها جُذْوَةٌ تَتَأَكَّلُ (٢)

لكنه يقتصر على هذا البيت فنفسه فى ذلك الميدان (ميدان الوصف) قصير جدا لأنه لا يجرى مع طبيعته فهو يتحول إلى طبيعته ويبدأ فى وصف الخمر :

فلذت لمرتاح وطابت لشارب ... وراجعنى منها مراح وأخيل
فما لبثنا نشوة لحقت بنا ... توابعها مما نعل وننهل
تدب دبيبا فى العظام كأنه ... دَبِيبُ نمالٍ فى نقا يتهيل
فقلت اقتلوها عنكم بمزاجها ... وأطيب بها مقتولة حين تقتل (٣)

وانظر إلى هذه الصورة البديعة فى وصف أثر الخمر (فى وصف مخمور) .

صَرِيعُ مُدَامٍ يَرْفَعُ الشرْبُ رَأْسَهُ ... لِيَحْيَا وقد ماتَتْ عِظامٌ ومَفْصِلُ
نُهادِيه أحياناً وحِيناً نَجُرُّهُ ... وما كادَ إلا بالحُشَاشَةِ يَعْقِلُ
إذا رَفَعُوا صَدْراً تحامَلَ صَدْرُهُ ... وآخَرُ مما نال منها مُحمَّلُ (٤)

الوليد بن يزيد :

الوليد شخصية فذة من بعض نواحيها ، ومن كل نواحيها .

كان الوليد ولى عهد يزيد بن عبد الملك فتوفى أبوه وهو غلام ونما الأمر لعمه هشام بن عبد الملك فوسوست له الأثرة بأن ينقل الملك لابنه ويهضم حق الوليد ، فاضطهده وحاربه

---

(١) الديوان ص ١٥٤

(٢) الديوان ص ٤

(٣) المرزبانى : الموازنة بين أبى تمام والبحترى ص ٨٥ من طبعة دار المعارف

(٤) الدكتور شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١٧٤ من طبعة لجنة التأليف ١٩٥٢

بكل سلاح مشروع وغير مشروع وأخذ يشنع عليه ويرميه بكل منقصة ، والوليد يعانى مايعانى ويسكن همومه فى المجون والشعر.

وأخبار الوليد أكثر من شعره وكلها طعن فيه مُر وقذف بالمنكر وإيهام بالكفر .

ولنا عودة إليه بعد بيان مكانة الخمر عند الجاهليين .

الخمر عند الجاهليين

أخبار الجاهلية تدل على شيوع الخمر فى الطبقات المختلفة ، ومن الشعراء من فتن بها فتونا كالأعشى الذى قصد الرسول ليمدحه ، وقد سبق أن عرّفنا بخبره .

وإذا استثنينا معلقة عمرو بن كلثوم فلنا أن نعرف قصيدة جاهلية بدئت بذكر الخمر :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحُصَّ فيهـا إذا ما المـاء خالطها سخينا
تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حـتّى يلينا
ترى اللحِزَ الشحيح إذا أُمِرَّتْ عليه لمـاله فيها مهينـا[(١)]

وأحب أن نقف عند هذا البيت وقفة فنلاحظ أن هذا المعنى هو الذى طالما ردده الشعراء الجاهليون فى الافتخار بإتلاف المال فى الخمر كما فى قول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
فإذا سَكِرت فإننى مُستْهلِكٌ مالى وعِرْضى وافرٌ لم يُكْلم
وإذا صحوتُ فما أَقَصِّرُ عن نَدى وكما علمت شمائلى وتكرُّمى [(٢)]

وهو معنى شائع لم يذكر الشعراء الخمر إلا ذكروه ، وربما ذكروا الخمر ليذكروه ، على أن منهم من وصف الخمر وأوصفهم لها عدى بن زيد ، وسنحدثك عنه فى موضع آخر . ومنهم من ذكر الندمان كعدى بن زيد :

وندامى لا يفرحون بما نا لُوا ولا يرهَبُونَ صَرْفَ المَنُون
قد سُقِيتُ الشّمُولَ فى دار بِشْرٍ قَهْوَةً مُرَّةً بماء سَخِينِ[(٣)]

(١) المبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٨٧ والبغدادى : خزانة الأدب جـ ٢ ص ٣٢٤

(٢) الأغانى جـ ٩ ص ٣٣٤١ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٢١

وكالجعدى :

تَذَكَّرْتُ والذِّكْرى تَهِيجُ على الفَتَى ومن حاجَةِ المَحْزُونِ أن يَتَذَكَّرا
نَدَامایَ عِنْدَ المُنْذِرِ بن مُحَرِّق أرى اليَوْمَ مِنْهم ظاهِرَ الأرْض مُقْفِرا (١)

ولا يمكن أن يعتبر ذلك أصلا لوصف مجالس الندمان فى شعر مسلم أو أبى نواس ، ومهما يكن فأغلب هذا الشعر الجاهلى فى الخمر لا يزن شيئا ، فهى أبيات ساذجة لا عمل فيها للعقل أو الخيال .

الخمر فى الشعر الجاهلى أغلبه أبيات غنائية قصد بها إلى الفخر – وقد ضربنا الأمثلة – أو الحماس ، كقول عمرو بن كلثوم :

وكأس قد شربت ببعلبك وأخرى فى دمشق وقاصرينا (٢)
إذا صمدتْ حُمياها أريبا من الفتيان خِلْتَ به جُنُونا (٣)

فالصورة التى يصوره بها المؤرخون من أقبح الصور وسيرته من أفحش السير ، وأبى الله إلا أن ينصف الرجل ، وقد درجت القرون فنشر الدكتور طه حسين من حديث الأربعاء فصلا من خير فصوله يدافع عن الرجل وينصفه من التاريخ (٤) .

ونعود مرة أخرى إلى الوليد بن يزيد :

لم يكن الوليد كما يصورون ، لكن حزب هشام نسب إليه ما شاء له التعصب ثم كانت الفتنة العباسية ، فأصبح بنو أمية جميعا فى رأى الخلفاء العباسيين وعامة الناس ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء – كفرة فجاراً وأصبح الوليد مثالاً لكفرهم وفجورهم وكذلك يكتب التاريخ فَيُظَلَّمُ فيه ناس من الحق ألا يظلموا – كما يقول الأستاذ ، وقد عصفت السياسة بشعر الوليد ، فلم يبق منه سوى أشتات مبعثرة هنا وهناك لا تنقع غلة الباحث .

وكان هذا الشعر معروفا شائعا أيام الوليد يحدثنا بذلك صاحب الأغانى ، ويكتفى بهذا الشيوع فلا يكلف نفسه عناء الرواية .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٩٠ بتحقيق أحمد شاكر
(٢) قاصرينا : بلد قرب بالس ، وبالس بلدة بالشام
(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ من طبعة دار نهضة مصر
(٤) طه حسين : حديث الأربعاء جـ ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٢ من طبعة دار المعارف الثانية عشرة

ويحدثنا بذلك شعر الوليد :

شاع شعرى فى سليمى وظهر ورواه كل بدو وحضر
وتهادته الغوانى بينها وتغنين به حتى انتشر [١]

أما سليمى هذه فهى سلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان ، كان الوليد زوجا لأختها فعشق سليمى وطلق زوجته فأشار هشام على أبيها بألا يزوجه سليمى ، فامتثل الرجل ، وندم الوليد على طلاق الزوجة ، وكان الوليد يحتال على رؤية سليمى فيتنكر فى ثياب الباعة .

وزفت إلى الوليد سليمى بعد موت هشام ولكنها ماتت بعد أربعين يوما من زفافها .

كان الوليد سيئ الطالع طول حياته ، فوجد فى الشعر نديماً وفى الخمر سميراً وهو فى خمرياته كسائر شعره سهل لا أثر للتكلف فيه .

الرجل يقول الشعر لأنه يجد فيه عزاء وليس يعنيه أن يعجب الناس شعره فهو ولى عهدهم ، ثم خليفتهم ، إنما كان يعنيه هذا العزاء ، كان يعنيه أن يشبع بشعره هواه ، فإنه يجد فيه صدى لصوت روحه .

كان الوليد يأمر بالشراب فيشرب ، ثم يقول الشعر ثملا ويسمعه من أفواه المغنين سكرانا :

علـلانى واسـقيـانى من شراب أصفهانى
من شراب الشيخ كسرى أو شراب الهرمـزان
إن بالكاس لمسكا أو بكفى من سقانى
إنما الكاس ربيع يتعاطى بالبنان
وحميا الكاس دبت بين رجلى ولسانى [٢]

أنا لا أعرف أطبع من هذا الشعر ولا أصلح للغناء :

ليت حظِّى اليومَ منْ كلِّ مَعاشٍ لى وزاد
قـهوةٌ أبـذُل فيها طـارفى ثم تِلادى
فـيظَلّ القلب منها هائما فى كلِّ واد
إن فى ذاك صلاحى وفلاحى ورشـادى [٣]

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٨٢ من طبعة المطبعة الأزهرية
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٨٥
(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٢٥١٠ من طبعة الشعب و ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٨٥ .

ويقول :

أدِرِ الكاسَ يمينا لا تُدِرْها ليَسار
اسْقِ هذا ثم هذا صاحبَ العُود النُّضارِ
من كُميت عتَّقوها منذُ دهر فى جرَارِ
ختَموها بالأفَاوِيـ ـه وكافور وقارِ
فلقد أيقنت أنى غيرُ مبعوث لنارِ (١)

ونقف عند البيت الأخير موقف الشك والتردد ، وينسب للوليد شعر كثير فى الكفر وإنكار البعث ، ولا يسعنا إلا الوقوف عنده وقفة المستريب . رجل تحاول السياسة أن تحطمه بأى وسيلة ، ألا يجوز أن تنسب وتزور عليه الشعر؟

ويقول المؤرخون إن الوليد ولى إمارة الحج فى سنة من السنين ، فضرب على الكعبة قبة وأخذ الندامى يشربون فيها ويسمرون ، ويتهمونه بنكاح زوجات أبيه ، ويقول فيه بعض معاصريه :

يا وليد الخنا تركت الطريقا واضحا وارتكبت فجا عميقا
وتماديت واعتديت وأسرفـ ـت وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات ثم هاتى ثم هاتى حتى تخر صعيقا
أنت سكران ما تفيق فما تَرْ تق فتقا وقد فتقت فتوقا (٢)

أما أنه سكران ما يفيق فقد سلمنا به ، أما ما عداه فعلمه عند الديان .

هذه الوصمات التى تنسب إلى الوليد بن يزيد وإلى محمد الأمين وإلى من لف لفهما من الملوك المغلوبين على أمرهم أغلبها اختلاق من خصومهم فى الهزيمة والموت .

يجب أن ننظر إلى الإنسان الماضى ونفهمه على صورة الإنسان الحاضر . الإنسان فى كل زمان إمعة يتشيع للقوة .

لنعد إلى خمريات الوليد !

أحب أن نلاحظ أن هذه الخمريات مختلطة فى شعر الوليد بغيرها ، وكذلك سائر شعره

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٤٨٦ من طبعة الشعب والمعرى : رسالة الغفران ص ١٤٥

(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٢٣٦ من الطبعة الثالثة بدار المعارف

سوانح متفرقة. انظر إلى هذه الأبيات :

عَلِّلانى بعاتقات الكروم واسْقِيانى بكأس أمِّ حكيم [١]
إنها تَشْرب المُدامة صِرْفاً فى إناءٍ من الزُّجاج عظيم
جَنِّبونى أذاة كُلِّ لئيم إنه ما علِمْتُ شرٌّ نَديم
ثم إنْ كان فى النَّدامَى كَريمٌ فأذيقُوه مَسَّ بَعض النعيم
ليت حظى من النساء سُلَيْمى إن سَلْمَاى جَنَّتى ونَعيمى
فدعُونى من الملامة فيها إنّ من لامنى لَغَيْرُ رحيم [٢]

وذكر الخمر والنديم وتشبّب بسلمى فى ستة أبيات : ذلك الرجل لا يصنع الشعر بل يلهو به لهوا . شعر وجدانى (غنائى) محض لايعتمد على الفكر ، بحوره ملائمة للوضوح حسنة الاختيار ، وإهمال اللفظ .

هذه خصائص شعر الوليد !

لست أدرى لم لاأذكر الوليد إلا ذكرت « موسيه » إن بينهما تشابها شديدا . كان « موسيه » يلهو بالشعر لهو الوليد ، وإن كان كلاهما جادا ، وكان موسيه نزقا منهمكا فى اللذة وفاقه فى ذلك الوليد لاختلاف ظروفهما .

خذوا مُلْككم لاثبّت الله ملككم ثباتاً يساوى ما حَيِيتُ عِقالا
دَعُوا لى سليمى والنبيذ وقينة وكأسا ألا حَسْبى بذلك مالا
أبالمُلْك أرجو أن أخلد فيكم ألارُبّ ملك قد أذَلَّ فزالا [٣]

ومن يقرأ موسيه يقرأ شاعرا يسكب قلبه فى شعره بقوله الشعر ليفرّج عن نفسه ، أما الفن الشعرى فما خطر بباله الحرص عليه كالوليد يؤدى المعانى كما تخطر له دون عناية بالألفاظ ، فإذا أدّاها فهولا يفكر فى تحوير الألفاظ لأنه يرى فرقا بين الشعر والصناعة على هؤلاء « المصحّين » شاعريتهم .

---

(١) أم حكيم كانت زوجة عبد العزيز بن عبد الملك ثم طلقها فتزوجها هشام بن عبد الملك وكانت منهومة بالشراب مدمنة عليه لا تكاد تفارقه وكأسها التى كانت تشرب فيها مشهورة عند الناس إلى اليوم .

(٢) الأغانى جـ ١٧ ص ٦٠٩٤ من طبعة الشعب

(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٢٥١٩ من طبعة الشعب وابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٨٥ من طبعة المطبعة الأزهرية ١٩٢٨ وأبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٣٨٠ من طبعة دار المعارف وص ٢٣٧ من طبعة كامل كيلانى

Que Celui -la raturne et barbouille à son aise. Il peut tant qu' il voudra á tour de bras... Grand homme si l'on veut, mais poéte non pas.

موسيه كان لا يقول الشعر إلا إذا جاشت فى صدره عاطفة واستخفه طرب وكذلك كان الوليد .

الفرنسيون يقولون عن موسيه إنه « طفل الشعر » وطفلنا نحن هو الوليد . وذلك شعر الوجدان الخالص :

علـلانى واسـقـيـانى من شراب أصفهانى
إن بـالـكـاس لمسكاً أو بكفى من سقانى
إنما الـكـاس ربيع يـتـعـاطى بـالـبـنـان
وحميا الكاس دبت بين رجلى ولســانى

انظر إلى هذه الشاعرية «الكاس ربيع يتعاطى بالبنان» ثم ماذا ؟

وحميا الكاس دبت بين رجلى ولسانى (١)

خمريات العباسيين

أول من أغرق فى وصف الخمر من العباسيين ابن عبد القدوس (٢) وتبعه كثيرون ، أو قل تبعوا روح العصر الجديد ، لكن أحدا من الشعراء لم يسرف فى حب الخمر بعد إسراف أبى نواس ، أليس هو القائل :

كأن قرقرة الإبريق بينهم رجع المزامير أو تغريد فأفاء (٣)

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٨٥ من طبعة المطبعة الأزهرية بمصر ١٩٢٨

(٢) هو صالح بن عبد القدوس ، بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسى الأصل وكان فى أول نشأته يتردد على حلقات الوعاظ والمتكلمين ، ولم يلبث أن تشوش عقله بما كان يسمع فى تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل ، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم . راجع ترجمته فى : (المرتضى : الأمالى جـ١ ص ١٤٤ من طبعةالحلبى) و (ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٠) و (أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ١٤٣ من طبعة أمين هندية) و (الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣٠٣)

(٣) الديوان ص ٢٣٦ من طبعة مصر ١٨٩٨

وقوله :

أجل عن اللئيم الراح حتى   كأن الروح تُعْصَرُ عن عظامى (١)

وقوله :

طربت إلى قطربل فأتيتها   بمال من البيض الصحاح وعين (٢)

يبيع ملابسه ليشرب الخمر :

ثمانين دينارا جياداً أعدُّها   فأنفقتها حتى شربتُ بدين
وبعت قميصا سابريا وجبة   وبعت إزاراً معلّم الطرفين
يقول لى الخمار عند وداعه   وقد ألبستنى الخمر خف حنين
ألارُحْ بزين يوم رحت مودعا   وقد رحت منه يوم رحت بشين (٣)

وقوله :

رُدُّوا على الكاس إنكما   لا تدريان الكاس ما تجدى
خوّفتمانى الله جُـهْـدكما   وكخيفتيه رجاؤه عندى
لا تعذلا فى الراح إنكما   لا تعلمان الرّاح ما تُسدى
لو نلتما ما نلت ما مزجت   إلا بدمعكما من الوجد
ما مثل نعماها إذا اشتملت   إلا اشتمال فم على خد
إن كنتما لا تشربان معاً   خوف العقاب شربتها وحدى (٤)

وهو أشهر وأحسن من وصف الخمر.

أبو نواس والسلف :

ليست معانى أبو نواس كلها مبتكرة ، كما يظن ، فكثير من معانيه مأخوذ عن القدماء ، وهأنذا مورد لك الأمثلة :

---

(١) الديوان ص ٢٠٣ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٢) الديوان ص ٢١١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٣) الديوان ص ٢١١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٤) الديوان ص ١٥٧ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

لفتيق المسك الفتيت إذا ما جلبت فى الإناء منها ذكاء [١]

وهو مأخوذ من قول الأخطل :

كأنَّما المِسْكُ نُهْبى بَيْنَ أرْجُلِنا فيما تَضَوَّعَ من نَاجُودِها [٢] الجَارى [٣]

ويقول أبو نواس :

نسج العنكبوت بيتا عَلَيْها فعلى دِنّها دقاق الغبار [٤]

ويقول :

لم تزل فى قعر دن مشعرا زفتا وقارا [٥]

والأصل فى شعر الأخطل :

لها رِدَاءان نَسْجُ العَنْكَبُوتِ وَقَدْ حُفَّتْ بِآخَرَ من لِيفٍ ومنْ قَارِ [٦]

ويقول أبو نواس :

خطبنا إلى الدهقان بعض بناته فزوجنا منهن فى خدره الكبرى
ومازال يغلى مهرها ويزيده إلى أن بلغنا غاية القصوى [٧]

والأصل فى شعر الأخطل :

عذراء لم يَجْتَل الخُطَّابُ بَهْجَتَها حتى اجْتَلاهَا عِبَادِىٌّ بدِينَارِ
إذا أقُولُ تَرَاضَيْنا على ثَمن ضَنَّتْ بها نَفْسُ خَبِّ البَيْعِ مَكّارِ [٨]

وقوله :

ودم الشادن الذبيح وما تجـ ـتلب الساقيات منها هواء [٩]

---

(١) الديوان ص ١٢١ من طبعة مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) كأسها وقيل الناجود أول ما يخرج من الخمر

(٣) الديوان ص ١١٩ من طبعة بيروت ١٨٩٨

(٤) الديوان ص ٢٨١ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٥) الديوان ص ٢٧٤ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٦) الديوان ص ١١٧ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٧) الديوان ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٢٧٧ هـ

(٨) الديوان ص ١١٧ ، ١١٨ من طبعة بيروت ١٨٦١

(٩) غير موجود بالديوان

وقوله :

فقلت قُم واصْطَبِحْ إن كنت مصـ ــطبحا من قهوة كدم أو ضوء مصباح (١)

ويقول أبو نواس :

كــأنها والمزاج يــقــرعُـهــا في قَعْرِ كأس نجيع أجواف (٢)

ويتبعها الأعشى بقوله :

وسلافـةٍ مما تُـعـتِّـقُ بـابل كدم الذَّبيحِ سَلَبْتها جِرْيالَها (٣)

ويقول أبو نواس :

واطـــبُـخْ الــرَّاحَ بشــمس فــكفى بــالشــمس نــارا (٤)

ويقول الأخطل :

لَيْسَتْ بِسَوْدَاءَ مَن مَيْثاء مَظلمةٍ ولَمْ تُعَذَّبْ بإِنَاءٍ من النَّارِ (٥)

وتبعها الأقيشر بقوله :

وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم تنغر بها ساعة قدر (٦)

وقوله :

كأنها الشمس إذا ما صفت وبينها الكبش أو الحوت

ويقول أبو نواس :

أشمسا أغْرت الأنس أم هى لمعة من البرق أم أقبلت بالكوكب السند (٧)

وقوله :

كأنما الكوكب الدرى وافقها في الكاس أو جمرة من لهب النار (٨)

---

(١) الديوان ص ١٥١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٢) الديوان ص ٣٠٥ من طبعة مصر ١٨٩٨ و ص١٨٩ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ١ ص ١٨١ من طبعة بيروت ١٩٦٤

(٤) الديوان ص ٢٨٥ من طبعة مصر ١٨٩٨ وص ١٧٦ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٥) الديوان ص ١١٧ من طبعة بيروت ١٨٩٨

(٦) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٦٢ من طبعة دار المعارف

(٧) الديوان ص ١٥٧ من طبعة مصر ١٢٧٧ هـ

(٨) الديوان ص ١٧٧ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

ويقول الأخطل :

فَجاءَ بها كأنما في أَنَائِه ... بها الكوكب المِرِّيخُ تَصفُو وتُزْبِدُ[١]

ويقول أبو نواس :

إذا أخذتها الكاس حارت بريحها ... تخال بها عطرا وما تعرف العطر[٢]

وقول الأخطل :

تَفُوحُ بماءٍ يُشْبِهُ الطِّيبَ طِيبُهُ ... إذا ما تَعَاطَتْ كأسُها من يَدٍ يَدُ[٣]

ومعان أخرى أخذها أبو نواس :

فاشْرَبْ سُلافاً كعَيْن الدِّيكِ صَافِيَةً ... من كفِّ ساقيةٍ كالرِّيم حَوْرَاءِ[٤]

وقول الأخطل :

وكأسٍ مثل عين الدِّيكِ صِرْفٌ ... تُنَسِّى الشاربين لها العقولا[٥]

وسبقها عدى بن زيد :

قدَّمته على عُقار كعين الديـ ... ـك صَفيّ سُلافَها الرَّاووق[٦]

ويقول أبو نواس :

ذهبيَّةٌ تَخْتالُ في أَلْوانِها ... كالدُّرِّ أَلَّفَهُ نظامُ الفائقِ[٧]

وقوله :

تفتر في الكأس حين تمزجها ... بماء مزن عن دُرّ أصداف

منـتـظـم وغير منـتـظـم ... تفور فيها وبعضها طافى[٨]

ويقول عدى بن زيد :

وطفت فوقها فقاقيع كالدُّرّ (م) صِغَارٌ يثيرها التصفيق[٩]

(١) الديوان ص ٣٢١ من طبعة بيروت ١٨٩٨ (٢) الديوان ص ١٢٥ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٣) الديوان ص ٣٢١ من طبعة بيروت ١٨٨٨

(٤) الديوان ص ٣٤ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٥) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠٤٢ من طبعة الشعب والديوان ص ٣٧١ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٦) الأغانى جـ ٦ ص ٢١٥٧ من طبعة الشعب

(٧) الديوان ص ١٩١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٨) الديوان ص ١٨٩ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٩) الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٧٣ من الطبعة ١٢ بدار المعارف

ويقول أبو نواس :

كأن صغرى وكبرى من فَقاقِعها حصباء در على أرض من الذهب [١]

وقول يزيد بن معاوية :

إذا ما طفى فيها الحباب حسبتها كواكب در فى سماء عقيق

ويقول أبو نواس :

كأن نجوم الليل فيها رواكد أقمن على التأليف آنسها البدر [٢]

وقول الحسين بن الضحاك :

كـأنما نُصْبَ كـاسـه قمرٌ يكرَعُ فى بعض أنْجم الفلك [٣]

معان عامة بسطها أبو نواس :

تشبيه الخمر بالعذراء :

قال أبو نواس :

فقلت لشيخ منهم متكلم له دين قسيس وفى نطقه كفر

أعندك بِكْر مُرَّة الطعْم قرقق طبيعة دهقانٍ تراخى له العمر

فقال عروس كأن كسرى ربيبها معتّقةٌ من دونها الباب والستر [٤]

وقوله :

فإنى خاطب مليح إليها ذو وشـاح مؤزر بـإزار

نقد المهر ثم زفت إليه فى سراويلها وفى الزنار [٥]

وقوله :

إنى بذلت لها لما بصرت به صاعا من الدر والياقوت ماثقبا

فاستوحشت وبكت فى الدن قائلة يا أم ويحك اخشى النار واللهبا

قُلْنا لها لا تخافى عندنا أحداً قالت ولا الشمس قلت الحر قد ذهبا

---

(١) الديوان ص ٢٤٣ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٢) الديوان ص ٢٨٠ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٣) الأغانى جـ ٧ ص ٢٥٩٥ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٢٨٠ من طبعة مصر .

(٥) الديوان ص ٢٨١

قالت فمن خاطبى هذا فقلت أنا ... قالت فبعلى فقلت الماء إن عذبا
قالت لقاحى ؟ فقلت الثلج أبرده ... قالت فبيتى فما أستحسن الخشبا
قلت القنانى والأقداح ولدها ... فرعون قالت لقد هيجت لى طربا (١)

وقوله :

عـتـقت فى الدن حتى ... شـمـطت مـن غير شعـر
فـفـتـحـنـا الخدر يومـا ... وأبـوهـا لـيس يـدرى
فـبـدت تسـعى إلـينـا ... عانسا من خوف عذرى
فـخـلـونـا بـعـروس ... بينـنا فى الكاس تجرى
تـلك هـى فى حـيـاتى ... يا خليلى يا ابن بشر (٢)

وغير ذلك .

وقد سبقه إلى ذلك المعنى بشار :

حُبستْ للسُّراة فى بَيْت رأس ... عُتّقتْ عانساً عليها الخِتامُ (٣)

أما أصل هذا التشبيه فهو قول الوليد بن يزيد : -

أشهى إلى الشَّرْب يوم جَلْوتها ... من الفتاة الكريمة النَّسب (٤)

وهو تشبيه غريب ، وما وجه الشبه بين العذراء والحمراء ؟

وقفت عند هذه التشبيهات حائرا حتّى فسّرها لى قول أبى نواس فى إحدى خمرياته :

وقـهـوة كـالـعـقـيـق صافـيـة ... يطيرُ من كأسها لها شَرَرُ
زوَّجتُها الماءَ حتّى تذِلَّ لهُ ... فامْتَعَضتْ حين مسَّها الذَّكَرُ (٥)

والمعنى واضح ، والخمر « تنفر » من الماء أول مرة :

بين المدام وبين الماء شحناء ... تتقد غيظا إذا ما مسَّها الماء (٦)

---

(١) الديوان ص ٢٧٤

(٢) الديوان ص ١٨١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٣) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٨١ من طبعة الشعب

(٤) الأغانى جـ ٧ ص ٢٤٥٩ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ٦٧٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٦) ديوان أبى نواس ص ١٢٣ من طبع حجر ١٢٧٧ هـ

قدم الخمر :

يتفنن فى ذلك أبو نواس فيقول :

دهرية قد مضت شبيبتها واستنشقتها سوالف الحقب (١)

وقوله :

عمّرت يكاتمك الزمان حديثها حتى إذا بلغ السآمة باحا (٢)

وقوله :

أدركت موسى بن عمرا ن على العهد ونوحا (٣)

وقوله :

قـــهوة حـــمـــراء حـــقـــا غـــرست أزمـــان نـــوح (٤)

وقوله :

فقلت لها كسرى حواك فعبّست وقالت لقد قصرت فى قلة الصبر
سمعت بذى القرنين قبل خروجه وأدركت موسى قبل صاحبه الخضر (٥)

وقوله :

فجاء بها قد أنهك العُمْر جسْمها وأوجَعَها فى الصيف حر الهواجر
فقلنا لها لما أضاء سناؤها على صحن كأس قد علا الكف زاهر
أبينى لنا يا خمر كم لك حجة فقالت لحاك الله لست بذاكِر
شهدت ثمودا حين حلّ بها البلا وأدركت أياما لعمرو بن عامر (٦)

---

(١) الديوان ص ١٣٧ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٢) الديوان ص ١٤٥ من طبعة حجر ١٢٧٧هـ
(٣) الديوان ص ١٥١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٤) الديوان ص ١٤٧ من طبعة حجر ١٢٧٧هـ
(٥) الديوان ص ١٧١ – ١٧٢ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٦) الديوان ص ١٧٤ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

وقوله :

فقلت لها من تذكرين فلم تزل تعدد أنسابا وقالت على الذكر
حَلَفْتُ ونوح فى السفينة لم يكن وآدم من قبل الخطيئة فى شهر(١)

وقوله :

ذخيرة نوح فيها الزمان الذى اجتنى فأدخلها فى الفلك إذ ركب الفلكا(٢)

وقوله :

نبئت أن أبا جدى تخيّرها من ذُخْرِ آدم أو من ذُخْرِ حوّاء (٣)

. . . . إلخ . . . . إلخ

وليس ذلك الوصف بالقدم جديدا فى خمريات أبى نواس فقد سبقه الوليد :

من قهوة زانها تقادُمها فهى عجوز تعلو على الحِقب (٤)

وسبقها الأخطل :

كُمّتْ ثلاثةَ أحْوالٍ بِطِينَتِها حتى إذا صَرَّحَتْ مِنْ بَعْدِ تَهْدَارِ (٥)

تخيل الخمر :

ومانحة شُرَّابَها المُلْكَ قَهْوَة يَهُودِيَّةِ الأَصْهَارِ مُسْلِمَة البَعْلِ (٦)

سبقه إليه الأخطل :

إذا شَرِبَ الفتى منها ثَلاثاً بِغَيْرِ الماءِ أوشك أن يَطُولا (١)

وقوله :

إذا ما نَدِيمى عَلَّنى ِ ثُمَّ عَلَّنى ثَلاثَ زُجَاجَاتٍ لهُنَّ هَدِيرُ

---

(١) الديوان ص ١٧٩ من طبعة حجر ١٢٠٧هـ

(٢) الديوان ص ١٩٢ من طبعة حجر ١٢٧٧هـ

(٣) الديوان ص ١٢٥ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٤) الأغانى جـ ٧ ص ٢٤٥٩ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ١١٧ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٦) لمسلم بن الوليد ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨٣٦ من طبعة دار المعارف

(٧) الديوان ص ٣٧١ من طبعة بيروت ١٨٩١

خرجت أجُرُّ الذَّيْل خلفى كأننى ... عليك أميرَ المؤمنينَ أميرُ (١)

وسبقها حسان :

ونَشْرَبُها فَتَتْرُكُنا مُلُوكاً ... وأُسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللقاءُ (٢)

وسبقهم جميعا المنخل اليشكرى :

فإذا سكرت فاننى ... رَبُّ الخَوَرْنَق والسّدير

وإذا صَحَوْتُ فإننى ... رَبُّ الشُّوَيْهَة والبَعير (٣)

هل جدد فى الخمريات شيئا ؟

رأيت كيف سلخ أبو نواس تشبيهات القدماء ، وإذا كان كل ذلك مسخا وفسخا فهل جرد الخمر فى خمرياته شيئا ؟

بعض تشبيهات جديدة :

كأنها دمعة فى عين غادية ... مرهاء رقرقها ذكر المُصِيبَات (٤)

وقوله :

فجاءت كالدموع صفاء وحسنا ... كمثل الدرع فى صافى الرخام (٥)

ولم أر من شبّه صفاء الخمر بالدمعة قبل أبى نواس :

فتنفّست فى الكاس إذ مزجت ... كتنفس الريحان فى الأنف (٦)

وهو يشبه رائحة الخمر حين مزجها بورقة الورد عند التنفس ، ويكمل إذ الخمر من لون الورد ، وهو تشبيه بديع ، والخيال فيه موج .

فإذا علاها الماء ألبسها ... حَبَباً شَبيه جلاجل الحجل

حتى إذا سكنت جَوَامِحُها ... كُتِبَتْ بمثل أكارِع النّمل

سَطْرَيْن من شتّى ومجتمع ... غُفْل عن الإعْجَام والشّكل (٧)

---

(١) الديوان ص ١٥٤ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٢) الديوان ص ١١ من طبعة مطبعة السعادة

(٣) الأغانى جـ ٢٣ ص ٨١٥٢ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ١٤٠ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٥) الديوان ص ٢٠٢ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٦) الديوان ص ١٨٨ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٧) ديوان أبى نواس ص ١٩٤ من طبعة حجر – مصر ١٢٧٧ هـ

ولم أر من شبه الخمر بالسطور ، وهو تشبيه ما كان للأقدمين أن يستنبطوه لأنهم كانوا وأغلبهم أميين ، فمن أين يعرفون الإعجام والشكل .

لها من المزج فى كاساتها حدق ترنو إلى شربها من بعد إغضاء (١)

أثر الفلسفة اليونانية :

١ – شيوع اصطلاحات علمية :

أنت من دونها الأيام حتى تعادم جسمها واللون باق (٢)

وقوله :

قامت ترين وأمر الليل مجتمع صبحا « تولد » بين الماء والذهب (٣)

وسنوضح ذلك عندما نحدثك عن الفروق الفنية فى العصرين عامة .

بل أسماء أعلام يونانية كذكره لجالينوس الطبيب اليونانى :

مما اقتنى جالينوس للملك الهند ى قد أنفذت له الصبرا (٤)

٢ – الاستقصاء :

فهو ، كما رأيت ، يذكر تشبيها : أباها وأمها ، عمرها ، لونها ، فورانها ، حبابها ، بريقها ، صوتها عند المزج ، أثرها ، وقد تجتمع هذه الأوصاف كلها فى قصيدة واحدة .

هذا الاستقصاء لا نشك أنه من خصائص الشعر العباسى الجديدة ، ولا نشك فى أنه من آثار الفلسفة اليونانية وتعاليمها .

٣ – وصف مجالس الخمر :

كثر وصف الشعراء لمجالس الخمر فى ذلك العصر ، كقول أبى نواس :

أقمنا حلبة اللهو فأجرينا بها كاسا

---

(١) لأبى نواس : الديوان ص ١٢٧ من طبعة حجر – مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) لأبى نواس : الديوان ص ١٩٠ من طبعة حجر – مصر ١٢٧٧ هـ

(٣) لأبى نواس : الديوان ص ١٣٣ من طبعة حجر – مصر ١٢٧٧ هـ

(٤) لأبى نواس : الديوان ص ١٨٠ من طبعة حجر – مصر ١٢٧٧ هـ

وأنشأنا به من طرف الريحان أجناسا
بميدان جعلنا خيله طاسا وأكواسا
بكى وانتحب العود وأبدى الدف وسواسا
وقام الناى يشكو بث ما لاقى وما قاسى
وصاح الصبح حتى أخرس الندمان إخراسا
. . . . . إلخ (١)

وقول صريع الغوانى :

وسادة سراة ما فيهم مسود
بان السّفاهُ عنهم فرأيهم سديد
يسقون صفو راح لذيذها موجود
كانت بعهد نوح وهم لها جنود
حتى إذا أبيدوا أوراثها ثمود
من عمل النصارى لم تغذها اليهود
وعندنا غزال بطرفه يصيد
فلم يزل يسقينا وعيشنا رغيد
مدامة لها من جدودنا توريد
كأن شاربيها فى سوقهم قيُود
فى مجلس نضير زيَّنَهُ الشهود
وعندهم دفاف وزامر وعود
حتى انتشوا وقاموا مجلسهم محمود
هذا الخلود عندى لو دام لى الخلود (٢)

وقوله :

ظللنا نناغى الخلد فى مشرع الصبا علينا سماء العيش دائمة الهطل

(١) الديوان ص ١٨٤ – ١٨٥ من طبعة حجر مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) الديوان ص ٢٩ – ٣١ من طبعة مصر ١٩٠٧

ودارت علينا الكأس من كف طفلة مبتّلة حوراء كالرشأ الطفل
وحن لنا عود فباح بسرنا كأن عليه ساق جارية عطل
تُضاحكه طورا وتبكيه تارة خَدَلْجة هيفاء ذات شوى عبل
وأسعدها المزمار يَشْدُو كأنه حكى نائحات بتن يبكين من ثكل
غدونا على اللذات نجنى ثمارها ورحنا حميدى العيش متفق الشكل (١)

ويصف هذه المجالس فى قصيدة أخرى ، فيقول :

ومهذبين أكارم لأكارم أدباء حازوا نجدة وكمالا
ثاروا إلى صفق الشمول فأشعلوا نيران حرب كأسها إشعالا
بوأتهم غرفا جعلت ترابها مدر العبير وعنبراً قسطالا (٢)

فهل وصف الأمويون مجالس الخمر ؟

لم يصفوها ! وذلك طبيعى لأن الشعراء لم يعرفوا مجالس الخمر . سيدهشك هذا القول لأن الخلفاء جميعا إذا استثنينا عَمْرا الثانى وهشاما ويزيد الثالث ، كانوا يشربون الخمر ، وكانوا يشربون بإفراط ويجلسون إلى المجالس .

يصف المؤرخون هذه المجالس فيقولون مثلا : إن الستائر الرقيقة كانت تعلق فى وسط البهو لتحجب الملك عن الندمان والمغنين ، وكان فى بيوت العظماء شىء من ذلك ، لكن مجالس الخمر هذه لم توصف فى العصر الأموى لأن الشعراء لم يكونوا بدمشق بل كانوا فى العراق والحجاز والبادية ، كما تعرف .

وإذن فيذكر الوليد بن يزيد قائلا : لم لم يصف المجلس شاعر كهذا ، ليله ونهاره لهو وقصف ؟

فالجواب أن الوليد ، كما قلنا ، لم يكن ينظم الشعر للناس بل كان ينظمه لنفسه . على أن الوليد له بعض أبيات فى الندمان ، ولا يمكن أن تعتبر أصلا لوصف مجالس الخمر فى العصر العباسى .

---

(١) الديوان ص ٦٥ من طبعة مصر ١٩٠٧

(٢) الديوان ص ٩٣ من طبعة مصر ١٩٠٧

الغلمانيات

تطور الفكر البشرى فى أواخر القرن الماضى تطوراً كبيراً ، وكان من آثار تطوره اتجاه العلماء فى أواخر القرن الماضى إلى بحث حقائق الحياة البشرية فى جو من الحرية الجريئة السافرة . ولعل لمباحث علم الإنسان .Anthropology أثراً كبيراً فى ذلك التطور .

من ذلك أنا أصبحنا نجد للمباحث التناسلية مكانا ظاهرا بين دائرة المعارف البشرية ، وزعيم هؤلاء الذين تناولوا تلك المباحث هو فرود Freud فقد سلك سبيلا جريئا أسخط عليه أوساطاً مختلفة ، وعدّه أيضا « حرية البحث » إماما . ومهما يكن فقد وضع « فرود » الحجر الأساسى فى بناء هذه الأبحاث ، وتوصل إلى نتائج هامة حتى عدّه أنصاره جبارا من جبابرة الفكر فى هـــذه العصور . ويكفى أن نقـــرأ مقدمة مباحثه (Introduction to Syco Analyses) وهى كتاب متوسط الحجم لترى فى أى جو يبحث هذا الرجل .

وممن تناول هذه المباحث غير فرود ، دوجال M.C. Dogal فى كتابه :

Elles : Psychology of sex Outline of abnormal Psychology Soial Psychology
Paul Bousfield[1] : Sex & Civilisation, J. Jenebaum: The Ridle of Sex.

وتناولت هذه المباحث فيما تناولته الاتصال الجنسى الشاذ ، وعقدت له فصولا مستقلة وأفردت له كتبا برمتها .

وفى سبيل هذا البحث المدعم ببعض ما كتب فى هذا الموضوع[٢] أقول إن المختصين فى التناسليات متناقضون فيه تناقضا شديدا ، ولكل حججه المدعمة بالبراهين وبالتجارب ، ولا أستطيع تلخيص هذه الآراء وعرض الحجج حرصا على البقاء فى منطقة البحث ، غير أن

---

(١) واشترك الجنس النسوى فى هذه الأبحاث ، وكتبت الدكتورة مارى ستوبس كتابا جريئا فى كل ما يتناول العلاقة الزوجية ، وقد طبع ست عشرة مرة

(٢) ولو شئت لهوّنت على نفسى الأمر وقلت ما قاله « الرجل الطيب » جورجى زيدان : « إن علة انتشار هذه الرذيلة هو المسكر الذى زين لهم مالم يعصمهم علمهم ولا أدبهم ولا مقامهم فى الدولة عن ارتكابها » .

ذلك ليس يمنع من الإشارة إلى جوهر الخلاف حرصاً على جلاء «البحث» . هذه الظاهرة غريزة أصيلة فى الإنسان تبعثها الظروف أهى غريزة تورث كما تورث الصفات والماديات من الآباء أم عادة ؟ ذلك جوهر الخلاف .

أما الرأى الأول فأهم حججه أن فى الإنسان مناطق شهوية أربعة يشترك الرجل والمرأة فى اثنين منها : الدبر والفم ، ولهم حجج مختلفة ، وهو رأى باطل ، يرد عليه مخالفوه بأدلة علمية تهدمه هدما ، إلا أننى أحرص على البقاء فى منطقة البحث كما قدمت .

والرأى الثانى يقول على قانون العادة القائل بأن تكرار شيء يحوّله إلى غـريزة Habit is secret nature إلى سلالة تنقل الصفات النفسية والأشياء المـادية ، فهى غريزة فى هذه السلالة ، أو هى على الأقل استعداد بالطبع ، وما الغرائز إلا ميول موروثة .

أما عن تحول العادة إلى غريزة فيعتمدون على الطب ، ويقولون إن الخلايا العصبية فى جسم الإنسان تنقسم إلى مورده ومصدره ورابطة ، وأن كل نوع من هذه الخلايا يتفق فى أشياء ثلاثة هى الجنس(١) والتوصيل(٢) والتغير(٣) ، فكلها تنفعل ثم توصل هذا الانفعال الواقع على جزء منها إلى سائر الأجزاء . وهكذا تتأثر الخلايا جميعا بهذا السير ، وتضعف مقاومة الأصل ، وبتكرار «عمل ما» يصبح التيار العصبى شديد الميل إلى الانحراف إلى هذا الطريق المعين ، ويقولون إن هذا الانحراف يسهل كلما كانت الغريزة الجديدة التى أنشأتها العادة متعا بغريزة أخرى ، فإذا ما انحرفت اكتسبت من الغريزة الأصلية قوة دافعة . وفى التجربة الأولى يقاوم «الوصل» التيار العصبى مقاومة شديدة جدا ، وفى العملية الثانية يقاوم مقاومة شديدة وفى الثالثة يقاوم مقاومة أضعف ، وهكذا يقولون إن كل عمل يخلف فى الجهاز العصبى أثرا ما . فإذا تكرر فإن العمل يصبح لاشعوريا يتم كما تتم الغريزة الأولى .

وهذا «اللاشعور» هو الذى يحول العادة إلى غريزة ، وقد تطغى الغريزة الجديدة على الغريزة الأولى الأصلية فتقتلها قتلا إذا ما قوى سلطانها بتكرارها وبتعطيل الغريزة الأولى ، وقد تسير معها جنبا إلى جنب إذا استخدمت الغريزتان ، وقد تُضعف الثانية الأولى إذا قل استخدامها .

أما الرأى الثالث فيقول ببساطة : إن من غرائز الإنسان الأولى «غريزة التجريب» وهى

---

(١) Iritability (٢) Conductivity. (٣) Modifiability.

ميل نظرى أى تقليب الأمور على وجوهها المختلفة ، أما أنا فمقتنع بالرأى الثانى وآمل أن تكون متفقاً معى برغم هذه الخلاصة الموجزة .

وعلى أساس هذا الاقتناع أقول : إن الأمر «غريزة عند الفرس»[١] ، وماظنك بقوم اشتهر هذا عنهم منذ ألفى سنة ونيّف ، لقد أحلها نبيهم «مانى» منذ ألف سنة ونيّف[٢] وتحليل «مانى» لها دليل على أنها أقدم من «مانى» فما الشرائع الوضعية إلا من روح المجتمع ، بل إن الشرائع السماوية لتحسب لذلك حسابا ، ثم لايزالون مشتهرين به فى أيامنا هذه ، وعندى هو تعليل الغلمانيات فى الشعر العباسى .

أبو نواس من الشعراء المولدين الذين ورثوا دماء فارسية تغزلوا بالغلمان وأنشئوا هذا الفن لأنهم يحبون بطبعهم ، بغريزتهم ، الغلمان – وليس يجوز أن يحتج علينا بشيوع هذه العادة فى عرب صميمين ، نحن نعرف أن البحترى تغزل بنسيم وشقران وشهدان ، ونعرف أن أول شعر البحترى فيما يزعمون بيتان فى شقران :

نَبَتَتْ لِحْيَةُ شُقْرا نَ شَقِيقِ النَّفْسِ بَعْدِى
حُلِقت كَيف أَتَتْهُ قَبل أن يَنْجِزَ وَعْدَى[٣]

ونعرف أنه ملأ الدنيا غزلا بنسيم .

ونعرف غير البحترى ، ونعرف أن بعض الخلفاء «العرب الخالصى العروبة» كان متهماً بعلاقات كهذه ولانميل إلى تبرئته ، ولكن ذلك نتيجة محتومة لاختلاط العرب بالفرس ، فإن شئت فقل امتزاجهم ، والاستهواء غريزة فى الجماعة ، أى أن بين العضو وبين المجموع نوعا من الجذب والتأثير ، فالفرد مؤثر فى الجماعة ، والجماعة مؤثرة فيه ولولا هذا الاستهواء الخارجى Hetero Suggestion ماعرفت البيئة بل لكانت كل جماعة أغصانا متفرقة ليس يجمعها طبيعة وليس يوحدها جذع ولولاه ما استطاع مصلح أن يبث فى الجماعة فضيلة ولا استطاع صاحب رذيلة نشرها ، فالفضيلة والرذيلة إيحاء قبل أن تكونا طبعين .

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٣٠٧

(٢) يحكى أنه حلل قضاء الشهوة فى الغلمان إن اهتاجت على الإنسان ، ويستشهد على ذلك باختصاص كل واحد من المانية بخادم يخدمه أمرد أجرد . وفى التاريخ القديم أن أبرويز ملك الفرس أهدى إلى يوريس ملك الروم مائة من أجمل غلمان الترك وفى آذانهم أقراط من لؤلؤ ودر وذهب .

(٣) الأغانى جـ ٢٤ ص ٨٢٠٧ من طبعة الشعب والديوان ص ٦٨٧ من طبعة دار المعارف والصولى : أخبار البحترى ص ٥٨ من طبعة لجنة التأليف

شاع «الأمر» فى العصر العباسى شيوعا غريبا وتواردوا الغزل الفاضح بالغلام فى شعر أغلب الشعراء، ومن خلا شعره من هذا الغزل لم تخل أخباره من الغلمانيات.

أما هؤلاء الغلمان فأغلبهم كانوا أرقاء بالشراء والأسر وهم من جنسيات مختلفة، فرس وخراسانيون وروم وصقالبة وترك، وأغلبهم كان يسقى الخمر وكانت أثمانهم تتفاوت تفاوتا كبيرا يتراوح بين أربعة آلاف دينار وستة آلاف وظهور هؤلاء الغلمان سافرين فى بغداد مظهر يتفق وشيوع هذا الميل العام.

لو شئت أن تلثمنى والناس حولى حلق
لقام لا تمنعه أبصارهم والحدق (١)

وأول ما يجبه الباحث ويلفت نظره أن هذه اللوطية طمعت فى البيت المالك نفسه وحامت حول الخلافة، فالتاريخ يحدثك بأن الأمين كان باهر الجمال، فى خُلقه خورولين، وأن الرشيد أباه كان يخشى عليه من ذلك الجمال، فعيّن نفرا من الرقباء والحراس له، وأن حماد عجرد يريد منه مأربا وأنه اتهم «قطرب» مؤدب الأمين بشىء من ذلك، فكتب رقعة إلى الرشيد يقول فيها:

قُل للإمام جَزاكَ اللهُ صالحة لاتَجمع الدَّهْرَ بين السَّخْل والذّيب
السَّخْل غِر وهَم الذئب فرصته والذئب يَعلَم ما فى السَّخل من طِيب (١)

فعزل الرشيد المؤدب وأبعده:

وأبو نواس يطمع فى تقبيل الأمين فيرجو أستاذه الكسائى أن يكون واسطة «خير» فى هذه القبلة، فيتحرج من ذلك الكسائى ويهدده أبو نواس أن يتّهمه لدى الرشيد بأنه يريد بتلميذه الأمين أمرا ليخاف الكسائى ويقول له «سأنكشف لك، غب عنا أياما، ثم احضر كأنك قادم من غيبة، فأسلم عليك وأعانقك فيفعل كذلك الأمين وتبلغ حاجتك فكان لأبى نواس ما أراد، وفى ذلك يقول:

قد أحدث الناسُ ظَرْفاً يَعْلُو على كلِّ ظَرْفِ
كانوا إذا ما تَلاَقَوْا تصَافَحُوا بالأكُفِّ

(١) لأبى نواس: الديوان ص ٢٥٩ من طبعة حجر، مصر ١٢٧٧

(٢) الأغانى جـ ١٤ ص ٥٢٠٨ من طبعة الشعب

فأحْدَثُوا اليومَ رَشْفَ الـ ـخُدودِ والرشفُ يَشْفِى[١]

ولما استخلف الأمين حشد قصره بالخصيان[٢]

ومن الصعب أن نتكهن بوظيفة هؤلاء الخصيان عند العرب فى العصور القديمة وكل ما نقوله أننا نرجح أن العرب أخذوا هذه العادة عن اليونان ، ونظن أن العرب فعلوا ذلك .

والشائع أن المأمون أول من جمع فى قصره الخصيان ، وليس كذلك ، ففى الأغانى أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى والى المدينة يقول : اخصِ من قبلك من الفتية المخنثين ، ويقول صاحب «ألف باء» ذكر ثابت فى الدلائل أول من اتخذ الخصيان من بنى أمية هشام بن عبد الملك ويقول فون كرامر Von Kramer إن أول من استخدم الخصيان هو الوليد الثانى . والروايتان غير صحيحتين لأننا نرى ذكرا لحديج خصى كان فى خدمة معاوية .

غير أن الأمين أفرط بلا ريب فى اقتنائهم . ويظهر أنه كان يميل إلى الغلمان الخصيان ميلا خاصا . وفيه وفى خصيانه يقول بعض الشعراء موجها الخطاب إلى الرشيد :

ألا يامُزْمِنَ المثوى بطوس غريباً ما يفادَى بالنُّفُوس
لقد أبقيت للخصيان بعلا تحمّل منهمُ شؤمَ البَسُوسِ
فأما نوفلٌ فالشأنُ فيه وفى بدرٍ فيالك من جليس
وما للمعصمى شيء لديه إذا ذكروا بذى سهم خسيس
وما حسن الصغير أخَسُّ حالا لديه عند مخترق الكئوس
لهم من عمره شطر وشطر يعاقر فيه شرب الخندريس
ومالِلغانيات لديه حظ سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيما فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلوعلم المقيم بدار طوس لعز على المقيم بدار طوس[٣]

وفيه يقول آخر :

صيّر الخِصْيانَ حتى صيّر التَّعنِينَ دينَا

---

(١) ابن منظور : مختار الأغانى جـ ٣ ص ١٦٢

(٢) أقدم من خصى الأشوريون والبابليون والفراعنة ، وعنهم أخذ هذه العادة اليونان ومن اليونان انتشرت فى بلاد العالم . وكان الخصاء فى سنى الطفولة الأولى .

(٣) الطبرى جـ ٨ ص ٥٠٨ من الطبعة الثانية بدار المعارف

فاقتدى الناس جميعا بأمير المؤمنينا[١]

وقال بعض الشعراء معرضا بالأمين :

أضاع الخلافة غش الوزير وحمق الأمير وجهل المشيرْ
لواطُ الخليفةِ أعجُوبة وأعْجَبُ منه خلاقُ الوزيرْ
فهذا يَدُوسُ وهذا يُدَاسُ كذاك لعَمْرى اختلاف الأمورْ
فلو يستعينان هذا بذا ك لكانا بعُرْضة أمر سَتِيرْ
فشُنّعَ فِعْلاهما منهما وصارا خِلافاً كبول البعيرْ
وأعجب من ذا وذا أننا نبايع للطفل فينا الصغيرْ
ومن ليس يُحْسِنُ غسل استِه ولم يَخْلُ من بَوْلِهِ حجْر ظيرْ[٢]

وكان فى خدمة المتوكل[٣] غلمان اشتهر منهم شفيع ، وكتب على عاتق قبائه الأيمن :

بدر على غصن نضير شرق الترائب بالعبير

وعلى الأيسر :

خطت صحيفة وجهه فى صفحة القمر المنير

أول من تغزل بالغلمان من الشعراء حماد عجرد[٤] ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وتبعهم الشعراء وربما كان أشهر من هؤلاء والبة بن الحباب[٥] وأبو نواس ، وكان ثانيهما صغيرا عندما تعرف به أستاذه والبة ونشأت بين الاثنين صداقة متهمة . ووالبة جرىء فى غلمانياته ، مكشوف الألفاظ :

قُلْتُ لِسَاقِينا على خَلْوَة أَدْن كذا رَأْسَك من راسِيَا

---

(١) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٥٧

(٢) راجع القصيدة فى الطبرى حوادث ١٩٥ هـ جـ ٨ ص ٣٩٦ من الطبعة الثانية

(٣) اتهم هو والأمين بالأبنة

(٤) عاش فى العصر الأموى وكان نديما للوليد بن يزيد ، وتوفى سنة ٦١ هـ على أرجح الأقوال وكان يهوى غلاما اسمه أبو بشير . (ترجمته فى الأغانى جـ ١٤ ص ٥١٩٤ والشعر والشعراء ص ٧٧٩ – ٧٨١) و (طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٦٩ – ٧٢) و (معجم الأدباء جـ ١٠ ص ٢٤٩ – ٢٥٤) و (وفيات الأعيان ص ٢٩٤ – ٢٩٦)

(٥) والبة بن الحباب كوفى من شعراء الدولة العباسية ، وهو أستاذ أبى نواس (ترجمته فى الأغانى جـ ١٩ ص ٦٨٦٣ من طبقة الشعب وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٨٧ – ٨٩)

ونَمْ على جَنبك لى ساعة ... إنى امرؤٌ أنكح جُلاَّسِيا (١)

وأجرأ منه وأكثر غزلا تلميذه أبو نواس :

حتى إذا ألقى قناع الحيا ... ودار كسر النوم فى مقلته
سرت حميا الكاس فى رأسه ... ودبت الخمرة فى وجنته
مـلّـكنى حـلّ سراويـلـه ... إذ شغلته الراح عن تِكتّه
فصار لايدفع عن نفسه ... وكـان لايـأذن فى قـبـلته
دبّ لـه إبـليس واقتاده ... والشيخ نفاع على لعْنته
عجبت من إبليس فى تيهه ... وخبث ما أضمر من نيته
تاه على آدم فى سجدة ... وصـار قوادا لـذريـتـه (٢)

والغريب فى هذا الرجل أن ينصب نفسه أستاذا وإماما للناس فى كل شىء فهولا يكتفى بالتغزل بالغلمان بل يعلن دائما أنه يفضل الغلام على المرأة ويحرص على هذا الإعلان :

ولو أنها فى الحُسْنِ كانت كيُوسفٍ ... وبلْقيسَ أو كانتْ كخط مثالِ
وقالت تزوَّجْنى على مهْرِ درهمٍ ... لقلتُ اعزبى عنّى فمهرُكِ غالِ (٣)

ويقول :

مَن كان تُعجبه الأُنْثَى ويُعْجِبُها ... من الرجال فإنى شَفَّنِى الذّكَرُ
فوق الخُماسِىّ لما طَرَّ شَارِبُه ... رَخْصُ البنان خلا من جِلْدِهِ الشَّعَرُ
لم يُجْفَ من كبِرِ عَمَّا يُرادُ به ... من الأُمورِ ولا أزْرَى به صِغَرُ (٤)

ويقول :

أنا امرؤٌ أُبغِضُ النّعاج وقد ... يُعْجِبُنى من نتاجها الحَمَلُ
من عذب الله بالزّنى فأنا ... لاناقة لى فيها ولا جمل
يعُجِبُنى الأمردُ الطرِّيرُ إذا ... أبصرتُه أهيفا له كفل (٥)

---

(١) الأغانى جـ ١٩ ص ٦٨٦٤ من طبعة الشعب
(٢) الديوان ص ٢٣١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٣) الديوان ص ٣١٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٤) الديوان ص ٢٤٣ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٥) ابن منظور : مختار الأغانى جـ ٣ ص ١٠٥

ويقول :

أأختار البحار على البرارى وأحيانا على ظبى الفلاة
دعيني لاتلوميني فإنى على ما تكْرهينَ إلى الممات
بذا أوْصى كتابُ الله فينا بتفْضيل البنينَ على البنات (١)

ويقول :

وليس لى فى الحرِ حاجة نَيْكُه عِنْدِى لجَاجَهْ
ما يُرِيدُ الحِرَ إلا كُلُّ ذى فقْر وحاجَهْ
أدْخِلوا بالله ياقَوْمُ مكانَ الأَيْرساجَة
وإذا نِكْتُمْ فنيكوا أمْرَداً فى لَوْنِ عَاجَهْ (٢)

وحدث أن تزوج أبو نواس بجارية جميلة فأمسى معها ليلة ، فلما أصبح طلقها وقال :

صاحبة القرقر لاتشغبى تحملى طالقة واذهبى
مرى فكم مثلك من حرة رائعة لم تك من مطلبى
لا أبتغى بالطمث مطمومة ولا أبيع الظبى بالأرنب
أولا فإن كنت غلامية من شرط مثلى فردى مشربى (٣)

وأبو تمام ليس أقل غزلا بالغلمان من أصحابه :

ظبى من الترك من هندىّ ناظره فى كل جارحة منّا جراحات

وقوله :

أشكو إلى ردفه المرتج لو سمعت شكوى الغريق من الأرداف أمواج

وهو تلميذ أبي نواس فى هذا المجون ، ألا ترى فى هذه الأبيات تقليدا لأبى نواس ظاهرا حتى فى بعض الألفاظ :

أبا علىٍّ لِصَرْف الدَّهْر والغِيَر وللحوادث والأيام والعِبَر (٤)

---

(١) الديوان ص ٧١٥ من طبعة أحمد عبد المجيد الغزالى ١٩٥٣

(٢) ابن منظور : مختار الأغانى جـ ٣ ص ٦٢

(٣) أبو هفان : أخبار أبى نواس بتحقيق عبد الستار فراج

(٤) حكايتها أنه كان يعشق غلاما خزريا للحسن بن وهب وكان الحسن يتعشق غلاما روميا لأبى تمام فرآه أبو تمام يعبث بغلام له . (الأغانى جـ ١٧ ص ٦٢٤٧ من طبعة الشعب) .

أعِندك الشَّمْسُ لم يَحْظ المغيبُ بها ... وأنت مُضْطَربُ الأحَشاءِ للقَمرِ
إن أنت لم تترك السَّيْر الحثيث إلى ... جآذر الرُّوم أعْنَقنا إلى الخزر
إن القَطُوبَ له مِنّى مَحَلُّ هَوىً ... يَحُلُّ مِنّى مَحَلَّ السَّمْع والبَصر
ورُبَّ أمْنع منه جانباً وحِمىً ... وتـكَّـتُـهُ مِنى على خـطَـرِ
جَرَّدْتُ فيه جُنودَ العَزْم فانْكشفتْ ... منه غَيابتُها عن نَبْكة هَدَر
سُبْحانَ من سَبَّحته كلُّ جارحة ... ما فيك من طَمَحَان الأَيْر والنظر
أنت المُقيم فما تَغْدو رَواحلُهُ ... وأَيْرُهُ أبداً منه على سَفَر(١)

وبالجملة فقد حل الغزل بالغلمان فى هذا العصر محل الغزل بالمرأة ، وقد شذ مسلم بن الوليد فخلا ديوانه من الغلمانيات ، ومع ذلك فأبو الفرج يحدثنا أنه كان يجتمع هو وأبو نواس ودعبل وأبو الشيص عند إسماعيل القراطيسى فيأتيهم بالخمر والغلمان والقيان . ونحن لانميل إلى تبرئة مسلم برغم نقاء شعره ، ونميل إلى رواية الأغانى ، ونحن نعرف أنه عندما كبر استحى من شعره الماجن فألقاه فى اليم ونحسب أن غلامياته كانت من نصيب اليم . أو أنه كان يشترك مع أصحابه فيكتفى بالفعل تاركا لهم القول ، وذلك من المحتمل جدا ، فمسلم فيما بين أيدينا من شعره رجل عف المقال ، ويظهر أن الاستحياء كان من طبعه ، وليس بين المجون والاستحياء تناقض ، أفلا نعرف بين أصحابنا مجانا لاينطقون بالفحش ولايتحدثون إلى الناس إلا فى العلم أو الأدب أو السياسة أو السباحة ؟ . يلوح لنا أن مسلما كان من هؤلاء . وشارح ديوانه المطبوع فى ليدن يقول تعليقا على قول مسلم :

نَـهَضْتُ إلـيـه فَـقَـبَّـلْـتُـهُ ... وعَانَقْتُهُ وحَلَلْتُ الإزَارا(٢)

هذا البيت إن كان مرويا هكذا صحيحا فلم يقله مسلم ، وإن كانت روايته «وتركت الإزارا» فهو له .

لا ! لا ! إنما كان مسلم كأصحابه متهتكا ، كان مسلم كأبى نواس إلا أن مسلما كان رجلا حييا ، وأبو نواس كان رجلا خشن الوجه سافرا .

لغير واحد من رجال الدولة فى الغلمانيات شعر كالحسن بن وهب عاشق سعيد ، وسليمان

---

(١) الأغانى جـ ١٧ ص ٦٢٤٧ – ٦٢٤٨ من طبعة الشعب والديوان ص ٣٥٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٢) الديوان ص ١٥٢ من طبعة بريل ١٨٧٥م

ابن وهب عاشق إبراهيم بن ميمون ، ويحيى بن أكثم قاضى المسلمين ، ومن شعره فى غلام كان يكتب بين يديه وقبّل هذا الغلام الحسن بن وهب[1] ولاعَبَ خدّه فغضب الغلام وألقى القلم وانتضى :

أيا قمراً خَمشْته فتغضبا وأصْبَح لى من تيهِهِ متجنبا
إذا كنت للتَّخْميش والعَض كارهاً فكن أبدا يا سيدى متنقبًا
ولا تظهر الأصْدَاغَ للناس فِتْنَة وتجعل منها فوق خَدّيْك عقربا
فتَقْتُل مِسْكيناً وتفتن ناسِكاً وتتْرُكَ قاضى المسلمين مُعَذّبا[2]

ومن الغلمانيات ما كان يغنى به فى ذلك العصر ، فمن ذلك لحن لمشدود :

لما استقل بأرداف تجاذبه وأخضر فوق حجاب الدر شاربه
وتم فى الحسن والتأمت محاسنه ومازجت بدعاءيها غرائبه
وأشرق الورد فى نسرين وجنته واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة فكان من رده ما قال حاجبه[3]

ولحن لدبيس أوله :

بدر من الأنس حفتَه كواكبه قد لاح عارضه واخضر شاربه[4]

ويخيل إلىّ أن إقراء قول على بن الجهم وقد بعث به إلى قينة :

دعى الهجر لا أسمع به منك إنما سألتُك أمراً ليس يُعْرى لكم ظَهْرا[5]

أقول : يخيل إلىّ أن الأمر قد اختلط إلى حد وجب معه البيان والإيضاح .

قبل العصر العباسى :

وليس بين الشعراء من عرف عنه شىء من ذلك خلا الأحوص ، فى الأغانى : قال

---

(١) أخبار تهتكه فى الأغانى وزهر الآداب

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٩٠ من طبعة بولاق

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ١١٣ – ١١٤ من طبعة المطبعة الأزهرية

(٤) أما غلمان ذلك العصر فأغلبهم من سقاة الخمر ومن الغلمان من كان يتزيًا بزى النساء تجملا والغناء فى العقد الفريد جـ ٤ ص ١١٤

(٥) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٦٧٤ من طبعة الشعب

أبو عبيدة «كان سبب نفى الأحوص أن شهوداً شهدوا عليه أنه قال : «لا أبالى أى الثلاثة أكون ناكحاً أو منكوحاً أو زانياً»[١] وفى الأغانى وخزانة الأدب أنه راود بعض وصفاء الوليد ابن عبد الملك ، فأرسل به الوليد إلى ابن حزم والى المدينة وأمره أن يجلده مائة جلدة ويصب على رأسه زيتاً[٢] .

ونحن نشك فى هذا الاتهام للأحوص لاتعصبا لأحد بل لأن الرجل أدلى فى السياسة بدلوه ، وطالما زوّرت هذه السياسة على الناس الاتهام الباطل .

وفى القاموس المحيط مادة (هيّت) «هيت مخنث نفاه النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة» وهيت كما ترى بعيد عن الأسماء العربية .

وفى الأغانى فى أخبار طويس المغنى مولى بنى مخزوم أنه «أول من ألقى الخنث بالمدينة» ويقول صاحب الأغانى[٣] أنه «أول من غنى بالعزلى بالمدينة وكان ينقر الدف» ، وكان ظريفا يضحك الثكلى ، وكان مع هذا مخنثاً «ما وُضع شىء إلا خنّثه»[٤] .

قال عبد الله بن جعفر لجماعة من أصحابه وهم فى الخلاء والسماء تمطر «ليس معنا جنة نستجن بها ، وهذه سماء أخشى أن تبل ثيابنا فهل لكم فى منزل طويس فإنه قريب منا فنستكن فيه ويحدثنا ويضحكنا . فقال له عبد الرحمن بن حسان : جعلت فداءك وما تريد من طويس — عليه غضب الله ! مخنث شائن لمن عرفه . فقال له عبد الله : لاتقل ذلك ، فإنه مليح خفيف لنا فيه أنس»[٥] ولقى طويس يزيد بن بكر بن دأب الليثى وسعيد بن عبد الرحمن بن حسان فدعاهما إلى منزله ، فقال سعيد : أين نذهب مع هذا المخنث[٦]

وفى الأغانى ذكر لمخنث يقال له «هيت» من موالى عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى[٧]

والذى نستطيع استنتاجه من هذه الأخبار أن هذا الخنث كان غالبا فى بعض الموالى ، وأرى أن هذه الأخبار فى العصر الأموى أو قبله نادرة جدا .

ليس من شك لدىّ ، فى أن هذا اللواط أثر من آثار الفرس فى العصر العباسى . ولولا

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٤٤٧ من طبعة الشعب
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٤٥٠ من طبعة الشعب
(٣) الأغانى جـ ٣ ص ٨٧٣ من طبعة الشعب
(٤) الأغانى جـ ٣ ص ٨٧٥ من طبعة الشعب .
(٥) الأغانى جـ ٣ ص ٨٧٨ من طبعة الشعب
(٦) الأغانى جـ ٣ ص ٨٧٩ من طبعة الشعب
(٧) الأغانى جـ ٣ ص ٨٧٦ من طبعة الشعب

الفرس لما سرى هذا الداء إلى العرب ، لأن العرب قوم بدويون ، والبداوة تتلاءم هى والفطرة ، ولا شك .

إن نظرة إلى تاريخ هذا الأمر ومنشئه تنبئنا أنه كان شائعا فى المدنيات القديمة ، وقد ظهر على أرجح الأقوال فى أواسط آسيا وانتقل إلى جزيرة كريت ، والميثولوجيا اليونانية تعطينا أمثلة من هذا الاتصال الجنسى بين الآلهة . وفى إسبانيا كان هذا الاتصال محرما على العبيد وكانوا يعاقبونهم عليه لأنه كان معتبرا نوعا عاليا من أنواع اللذة لايجوز للعبيد أن يستمتعوا بها .

وفى كريت كان يجوز للرجل أن يتزوج بغلام فى حفل رسمى حاشد[1] وكان ينظر إلى الشاب الذى تعدى سن المراهقة ، ولما يرتبط بغلام ، كما ينظر إلى العانس التى تعدت السن الصالح للزواج .

واتهم أرسطو بتلميذه أفلاطون كما هو مشهور ، وكان سقراط يخص بحبه شابا فاتنا اسمه Alaliades وكانت تتحرق غيرة خطيبة سقراط .«Anjippe» وعلى أنه كان يحب معاشرة الغلمان عامة ، وقد سئل فى ذلك فأجابهم متفلسفا « أفعل ما يفعل مروضو الخيل عندما يروضون المهر ! »

أما القرن الرابع فإن القرامطة كانوا يعبدون غلاما اسمه « ابن أبى زكريا الطامى » وكان فاجراً يؤجر نفسه ، وسن لهم قوانين عدة منها : الفجور بالغلمان على ألا يفرط فى الإيلاج ، ومن أفرط فى ذلك جُر على وجهه أربعين ذراعا ، ومن امتنع من الغلمان ذبح علنا عند القصاب وأمرهم بلعنة الأنبياء وأوليائهم .

وهذا المنكر منتشر اليوم فى ألمانيا وإنجلترا واليونان انتشارا فاحشا ، وتسرب إلى فرنسا أخيراً ، وقطع شوطاً بعيداً ، ويكفى دليلاً أن اسم أبى نواس شائع يعرفه أبناء المقاهى البلدية فى مصر ، أتظنهم يعرفون أبا العلاء أو أبا الطيب ؟ .

أما اليونان فكانوا ينظرون إلى هذا الاتصال الشاذ كمظهر من مظاهر إتلاف القوة والجمال فى الشباب .

وممن اتهم بشىء من ذلك نابليون وفكتور هيجو وأوسكار وايلد وغيرهم من المشاهير ، ولاحظ بعضهم شيوع هذه المظاهر بين الفنانين والشعراء والمغنين ورجال الموسيقا خاصة ، والذى يعنينا أن هذا الشذوذ لايمكن أن ينتج من البادية الخشنة الفطرية ، إنما نشأ هذا الخنث بين أحضان النعيم والترف .

---

(١) The Ridle of Sex. Jenenboan.

الزهـد

علل غيرنا من الباحثين فى بحث خاص بأبى العتاهية نشأة فن الزهد فى الشعر العباسى بقسوة الخلفاء وفظاعتهم ، ولا نرى ذلك رأيا .

والحق أن السياسة الأموية اشتملت على فظائع كثيرة ، ومع ذلك فلم ينشأ فى ظلالها قوة الزهد ، حسبنا أن نذكر الفظائع التى حدثت فى عهد الطغاة من عمال الدولة كزياد وعبيد الله ، ولقد قتل فى عهد الحجاج فيما يقول المؤرخون مائة وعشرون ألف رجل وكان فى السجون يوم مات خمسون ألف رجل . ومن هذه الفظائع التى تنسب إلى الحجاج أنه بعد هزيمة ابن الأشعث كان لايقبل البيعة ممن أقر على نفسه بأنه بخروجه قد كفر ، وقد امتنع شيخ طاعن فى السن عن الاعتراف فهوى عليه الحجاج إلى غير ذلك من الفظائع الشهيرة ، حتى إن بعض معاصريه قال فيه :

إذا ما بدا الحجاج للناس أطرقوا وأُسكت منهم كل من كان ينطق
فما هو إلا بائل من مخافة وآخر منهم ظلّ بالريق يشرق
وطارت قلوب الناس شرقا ومغربا فما الناس إلا مهجس وملقلق

ونستطيع أن نقرأ شعرا فزع فيه الشعراء إلى الخلفاء من العمال ، فترى كيف أن هؤلاء كانوا يضربون الناس بالسياط ، ويستنزفون منهم المال ، حتى كان الرجل منهم لايجد ما يعينه على الرحيل إلى الخليفة لتقديم ظلامته :

أخذوا حَمُولَته وأصبح قاعداً لايستطيع عن الديار حويلا
يدعو أمير المؤمنين ودُونَه خَرْقٌ تجرُّ به الرياح ذيولا

ثم هذا الصراع المجنون بين الأحزاب السياسية فى العصر الأموى الذى راح ضحيته الكثير ، أليس من شأنه أن يولد فى النفوس هذه العوامل التى تنتج الزهد ، لو صح ما ذهب إليه صاحب أبى العتاهية فى تعليل نشأة فن الزهد ؟ لقد استعملت فى هذا الصراع مختلف النصال بلا تفريق بينها ، فالأمويون فى سبيل تدعيم سلطانهم شووا بالنيران من امتدت إليه

يدهم من الشيعة ومزقوا أوصالهم ، ومنهم من ضرب حتى انبترت منه أعضاؤه ومنهم من قذف من علو شاهق ، كما يقذف الشيء .

والزبيريون ارتكبوا من المنكرات ماتأباه أول مبادئ الإنسانية ، فمن ذلك ما فعله مصعب ابن الزبير ، فإنه بعد أن انتصر على المختار ، وقتل المختار بعث إلى امرأتيه فقال لهما : ماتقولان في المختار ؟ قالت الأولى : أقول ماتقولون ، فخلى سبيلها . وسئلت الأخرى ، وهى بنت النعمان ابن بشير الأنصارى ، فقالت : «رحمه الله ! إنه كان عبدا من عباد الله الصالحين» فأمر مصعب بأن تضرب بحد السيف على مرأى من الناس فضربت ثلاث ضربات ثم سقطت تتخبط فى دمها ، وفى ذلك يقول عمر بن أبى ربيعة شعرا منه :

إن من أعجب العجائب عندى قَتْلَ بيضاء حرة عُطْبُولِ
كُتِبَ القتلُ والقتال علينا وعلى المُحْصَنَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ[1]

ويقول سعيد بن عبد الرحمن بن ثابت :

فلا هنأت آل الزبير معيشة وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب
كأنهم إذا أبرزوها وقطعت بأسيافهم فازوا بمملكة العرب

ولقد كدنا نستطرد فى فظائع العهد الأموى ومذابحه فنمسك أنفسنا عن الاسترسال ونقول مباشرة إنه لوسلمنا بأن العهد العباسى كان أفظع وأنكى من العهد الأموى فليس تعليلا صحيحا لنشأة الزهد ، وعندنا أن السياسة القاسية لاتحوّل الناس إلى الزهد ولا تصرفهم إلى الدين إنما ينشأ الزهد فى نفوس هادئة مطمئنة سكن روعها ، فأخذت تفكر فى هذا الكون وتتأمل . تفكر وتتأمل كما يفكر ويتأمل الفيلسوف . ينشأ الزهد فى نفوس هادئة ليس لها من ظروف الحياة ما يثقلها ويرهقها ، وتنصرف إلى التفكير فى الدين وفى المصير .

يظهر لى أن الزهد أثر من آثار الفرس ، وأنت تعرف كيف شحن تاريخهم القديم بأخبار النحل المتزهدة ، ثم هذه المذاهب الدينية المتعارضة فى العصر العباسى ثم «التوليد» ذلك التوليد الذى أعتقد أن من نتائجه المباشرة هذا المزاج السوداوى ويتمثل هذا المزاج فى قول سعيد بن وهب :

مَن كان فى الدُّنْيا له شارةٌ فنحن من نَظَّارة الدُّنْيا

(١) الديوان ص ٤٦٤ من طبعة مطبعة السعادة

نَرْمُقها من كَتَبٍ حَسْرَةً كأننا لَفْظٌ بلا مَعْنى[(١)]

وزعيم هذا النوع فى الشعر العربى هو أبو العتاهية[(٢)] وشعره أقرب إلى النظم التعليمى منه إلى أى شىء آخر ، والمحور الذى يدور عليه زهد أبى العتاهية هو «القناعة» وله أرجوزة فى الحكم قيل إنها بلغت أربعة آلاف بيت متضمنة مختلف الأمثال ، ولا شك فى أن أغلبها مقتبس من الشعر الفارسى ، وبعض حكمه مقتبس من الأحاديث النبوية كقوله :

ألا إنّما مالى الذى أنا مُنْفِقٌ وليْسَ لِىَ المالُ الذى أنا تَارِكهُ[(٣)]

وقوله :

إذا كُنْتَ ذا مَالٍ فبَادِرْ به الذى يَحِقُّ وإلا استَهلكَتهُ هَوَالكُه[(٤)]

والمعنى مأخوذ بلا ريب من الحديث الشريف «إن مالك من مالك ما أكلته فأفنيته أو لبست فأبليته أو تصدقت فأبقيته» .

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرة تركته حين يُجَـرُّ حَبْـلٌ يفرق

مقتبس من الحديث الشريف «لايلدغ المؤمن من جحر مرتين»

وليس شعره كله فى الزهد بل له شعر فى الغزل والمجون ، ويحدثنا المنصور أنه كان يجتمع وأبو نواس ومن إليهما من الشعراء المجان يقضون الليل مع غلام أو قينة أو على شراب ولهم فى ذلك مساجلات كثيرة ، ثم نسك وزهد .

وليس هذا الفن مقصوراً على أبى العتاهية ، فمن الشعراء الزهاد فى هذا العصر صالح بن عبد القدوس[(٥)] ، القائل :

---

(١) الأغانى جـ ٢٣ ص ٨٠٣٨ من طبعة الشعب

(٢) هو مولى واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ومنشؤه بالكوفة وكان فى أول أمره يتخنث ويحمل زمالة المخنثين ولد فى عين التمر بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ هـ وكان أبوه نبطيا من موالى بنى عنزة (ترجمته فى الأغانى جـ ٤ ص ١٢١٥ وجـ ١٥ ص ٥٦١١ من طبعة الشعب والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥ وابن المعتز ص ٢٢٨ وتاريخ بغداد جـ ٦ ص ٢٥٠ وابن خلكان . وفيات الأعيان وزهر الآداب للحصرى جـ ٢ ص ٣٤ ومروج الذهب للمسعودى جـ ٣ ص ٢٤٠ ، ٢٧٤ . ٣٥٨)

(٣) الديوان ص ١٩١ من طبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٨٨٧

(٤) الديوان ص ١٩١

(٥) صالح بن عبد القدوس بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسى الأصل . راجع ترجمته فى ياقوت : معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٦ وابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ١ ص ١٩١ وتاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣٠٣ وابن عساكر : تاريخ دمشق جـ ٦ ص ٣٧١ وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٠ وأمالى المرتضى جـ ١ ص ١٤٤ من طبعة الحلبى

أنستُ بوحْدتى ولزمتُ بيتى   فطاب الأنس لى وصفا السرورُ
وأدّبنى الزمانُ فلا أبالى   بأنى لا أُزارُ ولا أزُورُ
ولست بسائلٍ ما عشت يوماً   أسارَ الجندُ أم رَكِبَ الأميرْ(١)

والغريب فى هذا الزاهد أنه أول من أسهب فى وصف الخمر ، ولأبى نواس طائفة من الشعر فى الزهد منها :

ألارب وجه فى التراب عَتِيق   ويارُبّ حُسْنٍ فى الترابِ رقيقِ
ويارب حزْمٍ فى التراب ونَجْدةٍ   ويارُبّ رأىٍ فى التراب وثيقِ
فقلْ لقريب الدّار إنكَ داخل   إلى منزل نَائِى المحلِّ سَحِيقِ
وما الناس إلا هالك وابن هالك   وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امْتَحَن الدنيا لبيب تكشَّفَتْ   لهُ عن عدُوّ فى ثياب صديقِ(٢)

(١) بهاء الدين العاملى : الكشكول جـ ١ ص ١١ بتحقيق طاهر أحمد الزواوى من طبعة الحلبى (والصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان ص ١٧١ من طبعة مصر ١٩١١) .

(٢) الديوان ص ٦٢١ من طبعة أحمد عبد المجيد الغزالى ١٩٥٣ .

النظم

١ – النظم التعليمى

ظهر هذا الفن الجديد فى العصر العباسى الأول وزعيمه أبان بن عبد الحميد اللاحقى (١) شاعر البرامكة المقدّم ، والذى جعلوا إليه امتحان الشعراء .

عنى بنقل الكتب المنثورة إلى الشعر المزدوج والمسمط ، وإلى الرجز نقل كتاب كليلة ودمنة ، وقد ضاع هذا الكتاب ، وأول مقدمته :

هذا كتاب أدب ومحنة … وهو الذى يدعى كليلة ودمنة
فيه احتيالات وفيه رشد … وهو كتاب وضعته الهند
فالحكماء يعرفون فضله … والسخفاء يشتهون هزله (٢)

وعدد أبياتها سبعة وعشرون بيتا .

وقد أثبت الصولى فى كتابه « الأوراق » باب الأسد والثور ، وأوله :

وإن من كان دنىء النفس … يرضى من الأرفع بالأخسِّ
كمثل الكلب الشقىِّ البائسِ … يفرح بالعظم العتيق اليابسِ
وإن أهل الفضل لايرضيهم … شىءٌ إذا ما كان لايَعْنيهم
كالأسد الذى يصيد الأرنبا … .. .. إلخ (٣)

فاقرأه فى الأوراق .

---

(١) أبان بن عبد الحميد اللاحقى من موالى البصرة ، وبها منشؤه ومرباه ، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء وسرعان ما اصطدم بالمعذّل بن غيلان واستطار بينهما الشر ، ونرى المعذل فى هجائه يتهمه بأنه مانوى زنديق ، وهى تهمة ظلت عالقة به ، مما يدل على أن لها أساسا فى حياته كما أن الجاحظ لاينفيها عنه بل يثبتها ، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئا من العكوف على اللهو والمجون . (راجع ترجمته فى الأغانى ص ٩٣٠٩ من طبعة الشعب والصولى : الأوراق – قسم أخبار الشعراء من طبعة الصاوى ، وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٠٢ والجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١١ وتاريخ بغداد جـ ٧ ص ٤٤ والنجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٦٧

(٢) ابن منظور : مختار الأغانى جـ ١ ص ٥٠٣

(٣) الأوراق للصولى ص ٤٨ من طبعة الخانجى ١٩٣٤

ويقول ابن النديم[١] إنه نقل إلى الشعر العربي من كتب الفرس كتاب المزهر وكتاب سيرة أردشير ، وكتاب سيرة أنو شروان وكتاب «بلوهر» وكتاب «بروانيه» وكتاب حكم الهند ، وكتاب رسائل وكتاب السندباد وكتاب مزدك .

وله قصيدة فى الصوم والزكاة ، أولها :

« هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع » وهى طويلة جدا . وذكر ابن النديم أن له كتابا فى الصوم والزكاة ، فلعله يعنى هذه القصيدة المنظومة .

وله منظومة كبيرة فى وصف الهوى وضروبه والعشاق وأحوالهم ، وكلها من بحر واحد لكنها غير مقيدة بقافية ولا روى ، إنما قيد نفسه بذلك فى شطرى البيت الواحد ، وأولها :

ما بال أهل الأدب منا وأهل الكتب

ومنها :

وحالفوا السهادا وخالفوا الرقادا
فليلهم طويل ونومهم قليل
أبدانهم نحيلة متعبة عليلة
نفوسهم حزينة مشفوفة رزينة

وأغلب شعر أبى العتاهية فى الزهد أميل إلى اعتباره نظما تعليميا فهو أشبه بالنظم منه إلى الشعر ، كلام مصطنع لايشف عن نفسية زاهدة ولا له روعة الشعر . مثال ذلك النظم :

أقِمِ الصَّلاةَ لوقْتِهَا بِطُهُورِها وَمِنَ الضَّلال تَفَاوُتُ الميقَاتِ
وَإذَا اتَّسَعْتَ بِرِزْق ربكَ فاجْعَلَنْ مِنه الأجَلَّ لأوجُهِ الصَّدَقَاتِ[٢]

. . . إلخ .

وله :

من سَالَم الناسَ سَلِمْ مَنْ شَاتَمَ الناسَ شُتِمْ
من ظَلَم الناسَ آسى من رَحِمَ الناس رُحِمْ
من طَلَبَ الفَضْلَ إلى غَيْرِ ذَوِى الفَضْلِ حُرِمْ
من حَفِظَ العَهْدَ وَفَى من أحْسَنَ السَّمْعَ فَهِمْ

---

(١) ص ١٧٢ ، ٢٣٢ من كتاب الفهرست . (٢) الديوان ص ٤٣ .

مَن صَـــدَّقَ الله علا مـن طَـلَب العِلْـمَ عليمْ
من خَالَفَ الرُّشْدَ غوَى مـن تَـبِـعَ الغَيَّ نَـدِمْ
مـن لـزم الصَّمْت نَـجا من قال بالخَيْرِ غَنِمْ[(١)]

٢ – الصناعة :

تفنن الشعراء فى ضروب النظم فأصبح صناعة متشعبة المسالك ، ومن مسالكهم فى صناعة النظم أن أخذوا يرمزون إلى المعانى بحروف هجائية تبدأ أو تختم بها الأبيات ،

مثال :

اسمع بنعت عرائس الحانات وبأحرف قُسِمت على أبيات
ألف ألفتُ الراح فى قيطونها مع كل مخلوع العذار مواتى
باء بذلت دنانها فى جوسق وجعلتها للشرب فى الخلوات
تـاء تخير كـرمـهـا خمارهـا فى عهد آدم صاحب الكلمات
ثاء ثوت فى جحرها محجوبة فكأنها من أملح الفتيات
جيم جعلت المال ذمة نفسها وقتلتها بالماء فى الطاسات
حاء حلفت لها يمينا برة والرب لا أجفوك طول حياتى
خاء خلعت لها العذار مجانة ولصُحْبـة الأوتـار والـنايات
دال دعوت بدنها لما انتهت فى حسن رقتها إلى الغايات
ذال ذهبت لصوتها فترنمت شوقا إلى الطنبور والأصوات
راء رمت بصواعق من ضوئها تفرى بهن غلائل الظلمات
زاى زهت بشعاعها لما رأى أيدى الندامى منه مختضبات
سين سرت مهج الدجى بصيامها وتخص ضوء الصبح بالآيات
شين شربت زجاجة وسقيتها ظبيا بها متورد الوجنات
صاد صفت حتى استقر قرارها بمكانها فى أرفع الدرجات

---

(١) الديوان ص ٢٤٣

ضاد ضربت يدى على كف الذى كانت له بسكون سبع بَنات
طاء طلبت من النديم فزادها فى مهرها ودعوت بالبركات
ظاء ظفرت به وسدفة ليلنا تمحو العيون مطارف اللحظات
عين علوت على دساكر حانة معتمة بعمائم الزهرات
غين غدوت بفتية وقت الندى وفد الربيع بوشى كل نبات
فاء فضضت لها ختام مدامة تغنى عن المصباح باللمعات
قاف قضت أيامها فتنسمت كالبرق بين سحائب رجلات
كاف كفاك بأن يفوح نسيمها فيعطر الريحان بالنفحات
لام لهت بعتابنا مترنما كترنم الداعين فى عرفات
ميم ملأت الكاس منها فارعوت بشرابها كالرامى بالجمرات
نون نظرت إلى غزال مفتن بجميل منطقه وبالحركات
هاء هممت به فقال لسكره أقبلت تطلب أصعب الحاجات
واو وقفت على خصائص روضة مخصوصة بطرائف اللذات
لاء لأنى جئته متنبها فتركته وقد انتهى بسبات
ياء يغط فقمت من وجدى به فشفيت منه النفس قبل مماتى

٣ - الإلغــاز

صناعة شعرية غلبت على العلماء ، وأتقنهم لها أبو محمد الإيدى ، وقد روى الزبيدى فى الطبقات بيتين من الشعر تضمنا حروف الهجاء ، هما :

١ - ولقد شجتْنى طفلةٌ بَرَزَتْ ضُحاً كالشمْس خَثْماء العِظام بذِى غَضَا
٢ - فطلبتُها ومضى الفرزدقُ ظاعناً إذْ ضَجّ شَخْصٌ بالمغيْثَةِ كهمسا[١]

وله شعر تعمد فيه أن تؤلف أوائل الأبيات بيتا كاملا صحيح المعنى ، مثال ذلك :

فؤادى مشتاق وقَلْبِى تَائقٌ إلى ذات دَلٍّ بيتها لِىَ شائقُ

(١) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ص ٨٥ بتحقيق محمد أبو الفضل من طبعة دار المعارف وفى كل بيت منها حروف ا ، ب ، ت ، ث .

بجُمْلٍ صَبَا قلبي كما أنها صبتْ | متى تَدْنُ يوماً يألَفُ النومَ عاشقُ
مُعَنّى شكا ما تَشْتكيه فإنما | يحنُّ كلانا ذاتُ وجدٍ ووامِقُ
كئيبٌ تراهُ يُظهر الصبرَ جُهْدَهُ | على أن دَمْع العين بالشوق نَاطقُ
وجُمْلٍ بأرضٍ لو إليها تخلُّصٌ | لولّيتُ أسعى نحوها وأسابقُ
تضنُّ علينا زينبٌ بنَوالها | وهل إن دنتْ جُمْلٌ بنا لاتفارقُ
وليستْ كجُمْل زينبٌ جُمْلُ إن تُنبْ | أنيبُ وإن تَفْسُقْ فإنَى فاسقُ
تُثِيب إذا أحسنتُ والعذْرُ عندها | رحيبٌ إذا عاقتْ لديها العوائقُ

فلو أخذ من كل بيت كلمة لتكوّن من هذه الكلمات بيتا مفهوما له معنى ، وأوائل الأبيات ، كما ترى ، تؤلف بيتا هو :

فؤادى بجملٍ مُعَنّى كئيبُ | وجُمْلٌ تَضنُّ وليست تُثِيبُ(١)

٤ – المدح

أنا أفجؤك بأن كل ما قيل فى مدح الخلفاء والأمراء والوزراء والعمال وكل ما يقال ليس شعرا ، إنما هو كلام موزون مقفى ، وهو مع ذلك يهمنا لأنه وثيقة من وثائق التاريخ . وإذن فأنا أخرجه من الشعر جملة لأضمه إلى طائفة أخرى من الكلام اصطلح الناس على أنها شعر .

ليس شعرا ، كلام لايعتمد على عاطفة ، فالعاطفة عنصر من عناصر الشعر الأولى . أما أن الشعر هو « الكلام الموزون المقفى » كما عرفه القدماء فقول هراء ، وأنت تسلم معى بهذا ، فتعال بنا نبحث عن العاطفة فى هذا الكلام الذى قيل على أبواب الخلفاء والأمراء ، ومالنا لانختصر الطريق فننطق هذه النصوص ؟

جرير يمدح عمر بن عبد العزيز ، فيقول فى الختام :

إنى لأرجو منك خيراً عاجلا | والنفس مولعة بحب العاجل(٢)

---

(١) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ص ٨٤

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٩٤ من طبعة الحلبى

والأعشى[١] ، وهو كما تعرف من أشد أنصار الأمويين يمدحهم فيقول :

آل الزبير من الخِلافَة كالتى عَجَل النِّتاجُ بَحملها فأَحَالَها
أو كالضِّعافِ من الحُمولَةِ حَمَّلتْ مالا تُطِيقُ فضيَّعتْ أحْمَالها
قُومُوا إليهم لا تَنامُوا عَنْهم كم للغُواةِ أطَلْتُم إمْهَالَها
إن الخلافة فِيكُمُ لا فيهمُ ما زِلْتُم أرْكانَها وثِمالها
أمْسوا على الخَيْراتِ قُفْلاً مغْلقا فانهضْ بِيُمْنِك فافتحْ أقْفَالَها[٢]

فهو يمدح الأمويين ويكره الزبيريين لأن الأمويين يعطونه ، ولأن الزبيريين « قفل مغلق » وهذه الأبيات تصور المذهب السياسى لكثير من الشعراء السياسيين فى الدولتين على السواء .

وأبو محمد اليزيدى يمدح المأمون فيقول :

مَهِيبٌ عليه للوقارِ سَكِينةٌ جَرِىءُ جَنان لا أكعُّ هَيُوب
إذا ما علا المأمونُ أعْواد مِنْبرٍ فليس له فى العالمين ضَرِيب
وَرِثْتُم بَنِى العبّاس إرْثَ محمد فلَيْس لحىٍّ فى التُّراثِ نَصِيب[٣]

ثم يقول :

وإنى لأرجو يا ابن عم محمد عطاياك والراجيك ليس يخيب[٤]

وأبو نواس يمدح الخصيب فيختم بقوله :

وإنى جدير إذ بلغتك بالمنى وأنت بما أمّلت منك جدير[٥]

أو بقوله :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر
لاتقعدانى عن مدى أملى شيئا فما لكما به عذر
ويحق لى إذ صرت بينكما ألا يحل بساحتى فقر[٦]

---

(١) أعشى ربيعه

(٢) ديوان الأعشيين ص ٢٨١ من طبعة فينا ١٩٢٧

(٣) الأغانى جـ ٢٣ ص ٧٩١٨ من طبعة الشعب

(٤) من قصيدة طويلة ، راجع : السيرافى : طبقات النحاة

(٥) الديوان ص ٣٨ من طبعة حجر ، مصر ١٢٧٧ هـ

(٦) الديوان ص ٣٩ من طبعة حجر ، مصر ١٢٧٧ هـ

أو بقوله :

فاقنع بسبيك غلة نزحت بى عن بلادى وارتهن شكرى[١]

أبو نواس يمدح الخصيب ما أعطاه الخصيب ، فهو إذ يعطى يقول :

فإن يَكُ باقى إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب[٢]

وهو إذ منع قائل :

نفس الخصيب جميعها كذب وحديثه لجليسه كرب
تبكى الثياب عليه معولة أن قد يجر ذيولها كلب[٣]

وأبو نواس الذى يقول فى الخصيب :

فما جازه جُود ولا حَلّ دونه ولكن يصير الجود حيث يصير[٤]

هو الذى يقول فيه :

خبز الخصيب معلق بالكوكب يحمى لكل مسقف ومشطب
جعل الطعام على بنيه محرّما قوتا وحلله لمن لم يسغب
فإذا همُ رأوا الرغيف تطرّبوا طرب الصُّوام إلى أذان المغرب[٥]

وموقف أبى نواس يذكرنا بموقف المتنبى من كافور وبكثيرين غير المتنبى ، ونكره أن نسترسل فى كلام يطول .

لكننا لا نرى الإسراف رأيا ، فلسنا مخرجين من الشعر كل مدح ، بل لقد استثنينا شعراء الفرق المغلوبة والطوائف المهضومة ، ولابد أن نستثنى طائفة أخرى ، فرجل كالأخطل كان يمدح البيت الأموى ، فمن أى القبائل هو ؟ هو من تغلب ، وأنت تعرف أن تغلب كانت موالية للبيت الأموى ، فلابد أن ننظر إلى شعر الأخطل نظرة أخرى ، فالرجل كان يمدح عن هوى ، وإن كان المال هدفا بلاريب .

---

(١) الديوان ص ٤٠ من طبعة حجر ، مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) المرجع السابق ص ٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٧٠

(٤) المرجع السابق ص ٣٧

(٥) المرجع السابق ص ٧٠

ورجل كالنابغة الجعدى لايكفى مدحه ابن الزبير لاعتباره من أنصار الزبيرية ، ليس يكفى أن يقول الجعدى :

حَكَيْتَ لنا الصِّدِّيقَ لمّا وَلِيتَنا   وعثمانَ والفاروقَ فارتاح مُعدمُ
وسَوَّيْتَ بين الناس فى الحقّ فاستووا   فعاد صباحاً حالِك اللَّوْنِ مُظْلِمُ

لنعده زبيريا ، بل يجب أن نفهم بجانب ذلك قوله :

أتاك أبو ليلى يَجُوب به الدُّجى   دُجَى الليل جوابُ الفلاة عَثَمْثَمُ[١]
لتجبرُ منه جانباً زَعْزَعت به   صُروفُ الليالى والزمانُ المُصَمِّم[٢]

ذلك الشعر الذى كان يزن الخلفاء البيت الواحد منه بمائة دينار أو بألف لايزن عندنا شيئا بل نحن نخرجه — على كثرته الفاحشة — من الشعر غير آسفين .

بمثل هذه الدقة نستطيع أن نقسم ما قيل من المدح إلى قسمين : قسم صادق ، وهو ما نضمه إلى الشعر ، وقسم متسول تضيفه إلى طائفة أخرى من الكلام ، ونطلق على الجميع «فن النظم» أو بعبارة أصح «صناعة النظم» .

رواج المدح فى العصرين والمقارنة

كان المدح من أقوى فنون الشعر العربى فى العصرين الأموى والعباسى ، ذلك أن الحكام كانوا يتنافسون فى ترغيب الشعراء بالعطايا لأن الناس جميعا كانوا يفهمون الشعر ، فكان الشعر يذيع ويتنقل من قبيلة إلى قبيلة .

ومن لطيف ما يروى فى ذلك الصدد أن مسكينا الدارمى كسدت لديه بضاعة كبيرة من الخُمُر السُّود فصنع هذين البيتين :

قُلْ للمليحة فى الخمار الأسودِ   ماذا صنعت براهبٍ متعبِّدِ
قد كان شَمَّر للصلاة ثيابَه   حتى وقَفتِ له بباب المسجدِ[٣]

فسرعان ما ذاعا ورغب النساء فى الخُمُر السود فراجت تجارتها ونفدت بضاعة الرجل فى أيام .

---

(١) العثمثم : الجمل الشديد الطويل

(٢) الأغانى جـ ٥ ص ١٦٧٢ من طبعة الشعب

(٣) الأغانى جـ ٣ ص ٨٩٢ من طبعة الشعب

ومرَّ ذوالرمة فى طريقه على خيمة بالصحراء ، وكان يشكو ألما فى عينه فعرَّج عليها ، فعالجته خرقاء ربتها وهى امرأة متقدمة فى السن ، فأراد أن يجزى صنعها فتغزل بها فى شعر منه :

تمامُ الحَجِّ أن تقف المطايا   على خَرَقَاء واضعة اللِّثام[(١)]

فتسابق الخُطَّاب إلى خرقاء !

وأنت تعرف أن الأوانس والعوانس كن يتسابقن إلى ترضية غزل الحجاز عمر ليشبب بهن ! والنوادر فى ذلك كثيرة .

تسابق الشعراء الأمويون على أبواب الخلفاء ومدحوا عظماء الدولة كآل المهلب ، وخالد ابن عبد الله القَسْرى ، وتسابق العباسيون على أبواب الخلفاء ، وأشهر شعراء القصر : مروان ابن أبى حفصة ، ومنصور النمرى . وعلى باب البرامكة وأشهر شعرائهم أبان بن عبد الحميد اللاحق وابن مناذر والرقاشى وأشجع السلمى وكل ما أراه من فرق بين مدح الأمويين ومدح العباسيين أن معانى الأولين بسيطة قريبة إلى العقل بعكس العباسيين !

انظر إلى هذه البساطة فى قول جرير فى مدح الأمويين :

ألستم خيرَ مَّن ركب المطايا   وأندَى العالمين بطونَ راح[(٢)]

أو قول الأخطل :

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم   وأعظمُ الناس أحلاما إذا قدَروا[(٣)]

أو قول جرير يمدح الحجاج :

إن ابن يوسف فاعلموا وتَيَقَّنوا   ماضِى البَصِيرَة وَاضِحَ المِنْهاج

ماض على الغَمرات يمضى همّه   والليل مُختَلِفُ الطرائِقِ داجى[(٤)]

أو قول الحطيئة يمدح بغيض بن لأى :

تَزُورُ امرأ يُؤْتى على الحمد مالَه   ومن يُؤْتَ أثمان المحامد يُحْمَد

---

(١) الأغانى جـ ١٩ ص ٦٧٨٠ و ٦٧٨٢ وخزانة الأدب جـ ١ ص ٥٢

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧٨٧ من طبعة الشعب

(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠٥١ من طبعة الشعب

(٤) الديوان جـ ١ ص ٣٣ من طبعة مصر ١٣١٣

يرى البخل لا يبقى على المرء مالَه ويعلم أن المرءَ غير مُخلد
كَسُوبٌ ومِتْلافٌ إذا ماسألته تَهَلَّل فاهتزَّ اهتزازَ المُهَنَّد
متى تأته تَعْشُو إلى ضوء ناره تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عندها خيْرُ موقِد(١)

أو قول الأخطل يمدح الأمويين :

حُشْدٌ على الحَقّ عَيَّافُو الخَنَا أُنُفٌ إذا أَلَمَّتْ بهم مَكْرُوهَةٌ صَبَروا
لا يَسْتَقِل ذوو الأضْغَانِ حَرْبَهمُ ولا يُبَيَّنُ فى عِيدَانِهِمْ خَوَرُ(٢)

أو قوله :

بنى أُمَيَّـةَ نُـعْماكُـم مُجَلّلةٌ تَمّتْ فلا مِنَّةٌ فيها ولا كَدَرُ(٣)

وأخيرا انظر إلى الجمال والروعة فى قول حزين الكنانى(٤) ببساطة :

لما وقفتُ عليها فى الجُموع ضُحىً وقد تَعَرَّضَتِ الحُجَّابُ والخَدَم
حَيَّيْتُه بسلامٍ وهو مُرتفقٌ(٥) وضَجَّةُ القوم عند الباب تَزدحم
فى كَفِّه خَيْزُران ريحُها عَبِقٌ من كفٍّ أَروَعَ فى عِرْنينِه شَمَم
يُغْضِى حَياءً ويُغْضَى من مَهابته فما يُكلَّم إلا حين يَبْتَسم
كِلْتا يَدَيْه رَبِيعٌ غير ذى خُلُف فتلك بَحرٌ وهذى عارِضٌ هَزِم(٦)

انظر إلى الرجل كيف لطف وخف ظله ، فلطف ممدوحه وخف برغم هذه المبالغات الطفيفة والبيت الرابع على بساطته من أجمل ما مدح به الشعراء .

قد يروقنى قول أيمن بن خريم فى بشر بن مروان :

وليس بأوسعهم فى الغنى ولـكـن مـعـروفـه أوسـع

---

(١) أبو عبيد البكرى : سمط اللآلىء جـ ١ ص ٣٤٥

(٢) الديوان ص ١٠٤ ، ١٠٥ من طبعة بيروت ١٨٩١ .

(٣) الديوان ص ١٠٥

(٤) اسمه عمرو بن عبيد بن وُهَيْب ويكنى أبا الشعثاء ، والحزين لقب غلب عليه وهو من كنانة وأنه صلبية – أى خالص النسب – وهو من شعراء الدولة الأموية . وقال هذه القصيدة فى مدح عبد الملك بن مروان . (الأغانى جـ ١٦ ص ٥٦٧١ من طبعة الشعب)

(٥) مرتفق : متكئ على وسادة أو نحوها

(٦) الأغانى جـ ١٦ ص ٥٦٧٨ – ٥٦٧٩ من طبعة الشعب

أكثر مما يروقنى قول الراعى :

متى ما تَأْتِه تَرْجُو نَدَاه فلا بُخْلاً تَخاف ولا اعتذارا[١]

أكثر مما يروقنى :

من جوده لو قيل يا ابن محمد قل لا وأنت مخلد ما قالها

لكن الشعراء العباسيين لم يفطنوا إلى جمال البساطة أو تعمدوا التهويل والمبالغة .

أمثلة :

البحترى :

مفروضة فى رقاب الناس طاعته عاصيه من ربقة الإسلام منخلع

وقوله :

وليس بمسلم من لم يبايع خلافتكم ولو صلى وصاما[٢]

أبو الشيص :

ملك كأن الموت يتبع قوله حتى يقال قطيعة الأقدار

أبو تمام :

لو أن إجماعنَا فى فضل سُؤْدُدِهِ فى الدِّين لم يَخْتَلِفْ فى الأمة اثنَانِ[٣]

منصور النمرى يمدح الرشيد :

أىُّ امرئٍ بات من هارون فى سَخَط فليس بالصلواتِ الخمس ينتفعُ

إذا رفعت امرأً فالله يرفعه ومن وضعت من الأقوام مُتضع[٤]

(١) الأغانى جـ ٢٨ ص ٩٦١٢ من طبعة الشعب وشعر الراعى ص ٨١ من طبعة المجمع العلمى بدمشق

(٢) الديوان جـ ١ ص ١٩ من طبعة الجوائب

(٣) الديوان جـ ٣ ص ٣١١ من طبعة دار المعارف

(٤) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٦٥٩ من طبعة الشعب

وقوله [١] :

بِمُعْتَصِمٍ باللهِ قد عُصِمَتْ به عُرَا الدِّين والتَفَّتْ عليها وسَائِلُهُ
رَعَى اللهُ فيه للرَّعيّة رأفَةً تُزايلُهُ الدُّنيا وليست تُزايلُهُ
تَعوّدَ بَسْطَ الكفِّ حتى لو انه ثَنَاها لقَبضٍ لم تُطِعْهُ أنامِلُهُ
ولَوْ لم يكُنْ فى كفّه غيرُ رُوحِهِ لجادَ بها فلْيتّقِ اللهَ سائِلُهُ

العكوك يمدح أبا دُلَفْ :

أنت الذى تنْزِلُ الأيامَ مَنْزِلَهَا وتَنْقلُ الدَّهرَ من حالٍ إلى حال
وما مَدَدتَ مَدَى طرف إلى أحَدٍ إلا قَضَيْتَ بأرْزاقٍ وآجالِ [٢]

أبو نواس فى مدح الرشيد :

وأخفْتَ أهلَ الشِّركِ حتى أنَّه لتخَافُكَ النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ [٣]

ونجمل القول فنقول إن الشعراء الأمويين كانوا أقرب إلى البساطة والمعقول ، وهوّل العبّاسيون وجسّموا المعانى حتى نسب بعضهم إلى الممدوح صفات قد تجوز فى مقام الألوهية ، ويظهر أن تعليل هذا البون الكبير ليس عسيرا ، فالدولة الأموية كانت تصارع خصومها الكثيرين والأحداث تتألب عليها فتزلزلها كل يوم زلزالا عنيفا ، فكان شعراؤها أشبه بمحامين يدفعون عنها الخصوم .

أما الدولة العباسية فكانت أوطد مركزا وأدعم أساسا فلم يكن الخلفاء فى حاجة إلى محامين حاجتهم إلى إرضاء شهوة إنسانية هى حب الثناء .

ولقد روى فى أخبار الرشيد أنه أحرق فى يوم واحد ٣٠,٦٧٦,٠٠٠ بيتاً من الشعر فى المدح تأمل !

وإذا استثنينا السيد الحميرى والعباس بن الأحنف وصالح بن عبد القدوس ، فإننا لا نعرف شاعرا عباسيا تنزه عن المدح أجود من شعر السيد الحميرى ، وفيه نزعة أخلاقية :

أيها المادحُ العبادَ ليُعْطَى إن لله ما بأيدى العبادِ

---

(١) لم يكن هذا الشعر لمنصور النمرى ولكنه من شعر أبى تمام فى مدح المعتصم ، راجع ديوانه جـ ٣ ص ٢٦ من طبعة دار المعارف

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨٦٦ بتحقيق أحمد شاكر

(٣) الديوان ص ٤٠١ من طبعة أحمد عبد المجيد الغزالى ١٩٥٣

فاسأل الله ماطلبتَ إليهم وارْجُ نفع المُنَزِّل العَوَّاد
لاتَقُلْ فى الجَواد ماليس فيه وتُسَمى البخيل باسم الجَواد[١]

ولانستثنى من الشعراء الأمويين إلا بعض شعراء الفرق كالطرماح ، ومن لطيف ما يروى عنه وعن صاحبه الكميت أنهما دخلا على مخلد بن يزيد المهلبى ، فبدأ الطرماح ينشد شعره فقال مخلد : أنشدنا قائما ، قال الطرماح « كلا والله ما قدر الشعر أن أقوم له فيحط منى بمقامى وأحط منه بضراعتى وهو عمود الفخر ، وبيت الذكر لمآثر العرب » فأبى مخلد أن يسمع منه قاعدا ودعا الكميت لينشد ، فقام وأنشد فأجازه بخمسين ألف درهم . فلما خرج قال الكميت لصاحبه « أنت أبا ضبيبة أبعد همة وأنا ألطف حيلة » . وقسم المال بينه وبين صاحبه شطرين .

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٦٧٧ من طبعة الشعب

تدوين العلوم

الثقافات الأجنبية فى العصر العباسى :

كان العرب فى الجاهلية أميين ، لايحسن القراءة والكتابة فيهم إلا نفر من اليهود فيما يظهر ألا تلمس ذلك فى قول ذى الرمة :

كأنَ قَرا جَرْعَائها[1] رَجَّعَتْ به يهوديَّةُ الأقلام وحى الرسائل[2]

وعن هؤلاء اليهود أخذها نفر قليل من العرب منهم عثمان بن عفان فقد كان يكتب الوحى للنبي ﷺ . ولكن هؤلاء اليهود ، وهذا النفر الذى أخذ الكتابة عنهم كان ضئيلا بدليل خلو ذلك التاريخ الجاهلى من الآثار العلمية المدونة ، كما أن النبى فى غزوة بدر افتدى من يحسن الكتابة والقراءة من الأسرى بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة .

وجاء الإسلام وليس يعرف الكتابة إلا بعض اليهود ، ويظهر أنهم الغالبية وبضعة عشر نفرا من قريش . وكان من الصحابة من يعرف الكتابة وهم قليلون فكانوا يكتبون الآيات على سعف النخل والعظام والحجارة .

أما الورق الصينى فلم يجلب إلا فى العصر العباسى ، وكان الخط خاليا من النقط فتمم ذلك أبو الأسود الدؤلى وتلميذه يحيى بن يعمر .

ومن الثابت أن شعراء الأمويين – أغلبهم – كان يجهل الكتابة حتى ليدهشنا أن رجلا سما به أصل ومحتد كالفرزدق كان أميا ، بل لقد كانت الكتابة أمرا مشينا عند بعض القبائل إذ كان ذو الرمة يقرأ ويكتب ، ولكنه كان يكتم ذلك ، وقد سأله بعضهم : أتقرأ وتكتب ؟ فقال له : أكتب وأقرأ ، اكتُم علىّ ذلك فإنه عندنا عيب[3]

---

(١) الجرعاء : الرمل ، والوحى : الكتابة

(٢) دكتور يوسف خليف : ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٢٧ من الطبعة الثانية بدار المعارف

(٣) دكتور يوسف خليف : ذو الرمة ص ٢٤ من الطبعة الثانية بدار المعارف

الفلسفة اليونانية وأثرها

الثقافة الفارسية

كانت العلوم فى العصر الأموى لاتدون لذاتها ، إنما كان يدون منها ماكان متصلا بالدين . فكان مجهود النحويين للقرآن التماسا للدقة فى ضبط معانيه ، وجهود المؤرخين لمعرفة غزوات النبى ﷺ وللتفريق بين الأمم التى فتحت بحد السيف والتى دخلها العرب صلحا ، كما كانت العناية بالشعر لتفسير اللغة ، والعناية باللغة لأجل القرآن ، وهكذا يمكننا أن نمضى فى القياس . وماكان العلم يدرس لذاته لأن فى دراسته لذة أو فائدة بل لأن الله حث عليه فهو من الدين ، كما قال بعض العرب مستشهدا بقوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) .

كما أن النحاة الأول كانوا نحاة لأجل القرآن والمؤرخون كان تاريخهم شرحا لقصص القرآن[1] . ورأى قوم ذكر الشمس والقمر والأفلاك والأبراج فأخذوا يدرسون ما اتصل بهذه الأجرام ، وهذه الدراسة هى التى كوّنت فيما بعد علم المواقيت بل ضاقت عقليات بعض الناس إلى حد السخف ، فهى تأبى إلا أن تفسر كل شىء تفسيرا دينيا .

قال رجل من أهل مكة ما سمعت بأكذب من بنى تميم زعموا أن بيت الفرزدق :

بيت زرارة محتب بفنائه ومجاشع وبنو الفوارس نهشل

أنه فى رجال منهم . قيل له فما تقول أنت فيهم ؟

قال : البيت بيت الله ، وزرارة الحجر . قيل : فما مجاشع ؟ قال : زمزم جشعت بالماء .

قيل : فأبو الفوارس ؟ قال : أبو قبيس . قيل : فنهشل ؟ قال : نهشل أشدها . ففكر ساعة ثم قال : نهشل مصباح الكعبة لأنه طويل أسود[2]

(١) وليس يدهشنا هذا فلا يزال إلى اليوم من يؤلف فى الأدب والعلم لفكرة دينية ، ففى مصر كتاب مطبوع اسمه « أراجيز العرب » للسيد توفيق البكرى ، نستطيع أن نقرأ مقدمته القصيرة فنفهم أن فضيلته لم يؤلف الكتاب (أو يجمعه) إلا لأنه روى أن النبى ﷺ قال يوم حنين : أنا النبى لاكذب :

أنا النبى لاكذب أنا ابن عبد المطلب

وأنه قال إذ جرحت أصبعه :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت

وقال « فأما القصيدة من الشعر فلم يبلغنى أنه أنشد بيتا تاما على وزنه » وأن النبى كان يحب سماع الرجز من الشعر

(٢) عن ابن قتيبة .

تدوين الكيمياء :

كان خالد بن يزيد بن معاوية طامعا فى الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثانى فغلبه على ذلك مروان بن الحكم ، وانتقلت به الخلافة من بيت أبى سفيان إلى بيت مروان . ولما يئس من الخلافة وهو ذو مطامع وذكاء انصرف ذهنه إلى اكتساب العلا بالعلم ، وكانت صناعة الكيمياء رائجة وقتئذ فى مدرسة الإسكندرية ، فاستقدم جماعة من المشتغلين بها : منهم راهب رومى اسمه «مريانوس» طلب إليه أن يعلمه صناعة الكيمياء . فلما تعلمها أمر بنقلها إلى العربية . فنقلها له رجل اسمه «اسطفان القديم» ، وهذا أول نقل فى الإسلام من لغة إلى لغة ، وهو كذلك آخر تغن فى العصر الأموى . ومما يزيد ذلك وضوحا أن القس «هارون بن رامن» ألف فى اللغة السريانية فى عهد مروان بن الحكم كتابا فى الطب هو من أنفس الكتب نقله إلى العربية ماسرجـويه. فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب فى خزائن الكتب بالشام فنصحه بعضهم بإخراجه إلى المسلمين للانتفاع به فاستخار الله فى ذلك إذ تردد يوما ثم أخرجه إلى الناس وبثه فى أيديهم .

ذلك يدلنا على تردد الخليفة فى إخراج هذا الكتاب ، مع أنه من كتب الطب ، وأن فيه شفاء للناس ومنفعة للمسلمين .

أما الدولة العباسية فكانت فى إبان نشأتها تعمل جهدها لأن يكون لها أسمى درجة وأعظم منزلة فى العلوم والحضارة ، فسارت شوطا بعيدا فى سبيل الترجمة والتأليف حتى أن الخلفاء أنفسهم كانوا من فطاحل العلماء . والخلفاء الذين اهتموا بذلك النقل هم :

المنصور : وكان أغلب اهتمامه بالنجوم والطب

أما المهدى : فقلما اشتغل بذلك

والرشيد : لم ينقل فى أيامه إلا كتاب المجسطى

ثم المأمون : وهو الذى اهتم بنقل كتب الفلسفة والمنطق على الخصوص

أما نقلة العلم فى العصر العباسى فهم أهل العراق والشام وفارس والهند وأكثرهم من السريان والنساطرة لأنهم أقدر على الترجمة من اليونانيين وأكثر اطلاعا على كتب الفلسفة والعلم اليونانى .

ومن مشاهير أولئك النقلة آل بختيشوع السريانى النسطورى طبيب المنصور وآل حنين من

سلالة حنين بن إسحاق العبادى شيخ المترجمين وأحد أنصار الحيرة ، وحبيش الأعشم الدمشقى ابن أخت حنين والحجاج بن مطر ، والبطريق يحيى بن البطريق وأبو عثمان الدمشقى وغيرهم من أشهر نقلة العلم من اليونانى أو السريانى إلى العربى .

أما النقلة من الألسنة الأخرى فنهم من نقل من الفارسية إلى العربية كابن المقفع وآل نوبخت كبيرهم نوبخت ، ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد ، وكانا يخدمان دواوين عبد الله بن حميد بن قحطبة وينقلان له من الفارسية إلى العربية .

ولم يكن النقل مقصوراً على الفارسية بل تخطاه إلى اللغة السنسكريتية (الهندية) فنقل منها منكه الهندى ، وكان من جملتهم إسحاق بن سليمان بن على الهاشمى ينقل من الهندية إلى العربية .

أما الكتب التى نقلت فى ذلك العصر فعددها بضع مئات أكثرها من اليونانية ، منها ثمانية فى الفلسفة والأدب لأفلاطون وتسعة عشر كتاباً فى الفلسفة والمنطق والأدب لأرسطو وعشرة فى الطب لبقراط وثمانية وأربعون لجالينوس وثلاثون فى الرياضيات والنجوم .

وأما منقولات اللغات الأخرى فنها نحو عشرين كتابا نقلت عن اللغة الفارسية فى التاريخ والأدب ونحو عشرين كتابا عن اللغة السريانية أو النبطية أكثرها فى السحر والطلسمات .

وقد نقل ابن المقفع شيئا من مبادئ المانوية ، كما نقل كتب «ابن ديسان» إلى العربية ، وترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة وترجم على ما يظهر «قاطيفورياس» المقولات العشرة من الفارسية ، كما ترجمها إسحاق بن حنين من اليونانية .

وكذلك ترجم ابن المقفع وإسحاق «الأنا لوطيقا الأول» وهى تشمل القياس وأشكاله وتحليله ، كما ترجم «منطق أرسطو» و «إيساغوجى» أى المدخل أو المقدمة — وهو كتاب ألفه فرفريوس الصورى تمهيداً لدراسة المنطق .

أما نقلة الكتب اليونانية إلى العربية فهم السريان ، ترجموا كتب اليونان وترجموا كتبهم هم . وما الثقافة السريانية إلا الثقافة اليونانية ، فلقد كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم اليونانية والسريانية على السواء وأشهرها مدرسة الرها فى القرن الخامس الميلادى وقنسرين ونصيبين فى القرن السابع .

لقد كان عهد المنصور خصيبا فى الترجمة والإنتاج الأدبى فنقل فيه عدة مقالات عن أرسطوطاليس وكتاب المجسطى لبطليموس فى الفلك وكتاب إقليدس فى الهندسة ومواد أخرى عن اليونانية .

وفى سنة ١٠٦ هـ وفد هندى إلى بغداد يحمل مقالة فى الرياضيات وأخرى فى علم الفلك هى مقالة «سدهانتا» المعروفة عند العرب باسم كتاب «السند هند» فترجمها إبراهيم الفزارى .

أما المقالة الرياضية فكان لها أثر كبير فى الرياضيات فقد أدخلت الأرقام الهندية واتخذت أساسا للعدد فى العربية .

وقد كتب بختيشوع بن جورجيس السريانى النسطورى مدخلا لعلم المنطق ورسالة للمأمون فى التغذية والمشاريب وملخصا فى الطب أخذ عن ديوسقورس وجالينوس وبولص الأجانسطى .

ومن الكتب التى ترجمت من العربية إلى اليونانية كتاب «إيثولوجيا» المنسوب إلى أرسطوطاليس سنة ٢٢٦ هـ ، كما وضع إسحاق بن حنين كتابا فى منطق أرسطو ، كذلك ترجم إسحاق بن حنين لأرسطور يطوريقا فى الخطابة وأنواع الخطب ، كما ترجم «الديوتيقا» الشعر .

تدوين التاريخ

لم يفكر المسلمون فى القرن الأول فى تدوين التاريخ ، إنما بدأ الرواة يجمعون الأحاديث وسيرة النبى فيتناقلونها لا للتاريخ بل لتفسير أحكام الدين ، وهؤلاء أصحاب السير وآخرون عنوا بأخبار الحروب فى فجر الإسلام ، فتناقلوها لا لذاتها بل لتمييز البلاد التى فتحت بحد السيف من التى بسط المسلمون حكمهم عليها سلما ، وذلك لأن الدين يفرق بينها فى الجزية والخراج ، وهؤلاء هم أصحاب المغازى .

أما تدوين التاريخ لذاته فأمر بدأه المسلمون فى القرن الثانى عندما اشتد امتزاجهم بالموالى ، وكانوا يحسنون القراءة والكتابة ، ثم كانوا يفطنون إلى مزايا تدوين العلوم .

وأول كتاب جامع لذلك هو كتاب ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ فى السيرة وكتاب آخر له فى المغازى ، وقد ضاع كتاباه . لكن ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ لخصها فى سيرته . وألف الواقدى وهو من موالى بنى هاشم كتابين جليلين ، أحدهما فى المغازى والآخر فى فتوح الشام ، ونحا نحوه تلميذه ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ فألف كتاب الطبقات الكبير ، وهو لا يزال إلى اليوم من أوثق المراجع التاريخية وأهمها شأنا .

تدوين الشعر :

وابتدأ تدوين الشعر فى القرن الثانى وأشهر جامعيه أبو عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ جمع فيما يقولون شعر ثمانين قبيلة .

تدوين البلاغة :

أول ما ألف فى البلاغة كتاب لأبى عبيدة بن المثنى المتوفى سنة ٢١١ هـ .

تدوين النحو :

كان النحويون يرحلون إلى البادية ، كذلك كانوا يستقدمون الأعراب – أى سكان البوادى وكان هؤلاء الأعراب يتحدثون باللغة الفصحى سليقة ولا يفهمون ما عداها ، فإن قيل لأحدهم «ذهبت إلى أبو زيد» و «رأيت أبى عمرو» فهو لا يفهم شيئا[1] .

وكانوا يرحلون إلى القبائل التى اشتهر أمرها بالفصاحة ، وأول من رحل إلى البادية فيما نعرف يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ والخليل وخلف الأحمر المتوفيان فى أواخر القرن الثانى وأبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٥ هـ ثم الكسائى والنضر بن شميل . فكانوا يأخذون عن الأعراب .

ومن هذه القبائل التى كانوا يرحلون إليها تميم وقيس وهذيل . وإليك عبارة لأبى زيد يفهم منها أن هذه الرحلات لم تكن إلا إلى القبائل المعروفة بالفصاحة «لست أقول قالت العرب إلا إذا سمعت من هؤلاء بكر وهوازن وبنى كلاب وبنى هلال ، أو من عالية السافلة أو من سافلة العالية ، وإلا لم أقل قالت العرب» .

وفى سبيل القرآن عنى العرب بالنحو فوضعوا قواعده ودوّنوا نحوهم وألفوا فيه الكتب فى أواسط القرن الخامس للميلاد .

وأول من باشر ذلك منهم الأسقف ابن يعقوب الرهاوى الملقب بمفسر الكتب والمتوفى سنة ٤٦٠ م . والظاهر أن العرب لما خالطوا السريان فى العراق اطلعوا على آدابهم وفى جملتها النحو

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٥ من مطبعة المطبعة العلمية بمصر ١٣١١ هـ

فأعجبهم ، فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان . بدءوا بوضع النحو وهم فى العراق بين السريان والكلدان .

ومن دواعى استعمال العرب فى تدوين النحو استعجالهم فى الفتح ونشر الدين لأن الفتوح دعت إلى الاختلاط بالأعاجم ، والاختلاط دعا إلى فساد اللغة فأصبح الناس يهملون الإعراب علاوة على أن العرب عند ظهور الإسلام كانوا يعربون كلامهم على نحو ما فى القرآن ، إلا أن الموالى والمتعربين كانوا أيام النبى ﷺ يخطئون الإعراب . وقد ذكروا أن رجلا لحن بحضرة النبى ﷺ فقال «أرشدوا أخاكم فقد ضل» . وقال أبو بكر رضى الله عنه «لأن أقرأ فأسقط خير من أن أقرأ فألحن» ومع ذلك لم يكثر اللحن إلا بعد الفتوح وانتشار العرب فى الآفاق ، فتذمر العمال مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصا فى قراءة القرآن ، فأحسوا بحاجة شديدة إلى ضبط قواعد اللغة .

وتقول المصادر إن أبا الأسود الدؤلى هو واضع علم النحو بإشارة على بن أبى طالب وإرشاده ، ويطعن فى هذه النصوص أستاذ النحو بكلية الآداب ، وليس بعيدا أن يكون هذا الاعتقاد الشائع اختلاقا من الشيعة ، ولم لا يكون ؟ .

لقد زعموا أن عليا أملى شيعته نوعا من أنواع علوم القرآن ، بل زعم غلاتهم أن فيه روح على ، ولو صح ما يزعمون فأين هذه الكتب التى أملاها على ؟ أأكلها الضبع جميعا ؟ ! وإن كان أكلها فأين أشلاؤها حتى نطمئن ونصدق ؟

ويمكننا أن نقول فى عبارة موجزة إن العباسيين نقلوا إلى العربية معظم ما كان معروفا من الفلسفة والتاريخ والأدبيات والعلوم وغيرها فقد أخذوا من كل أمة أحسن ما عندها فتصيدوا الجواهر وتركوا الأصداف ، وأخذوا اللباب وتركوا الألياف .

ولا يستهان بما اقتضاه ذلك النقل عن أشهر الأمم فى ذلك العصر من التأثير فى الآداب الاجتماعية والتاريخ والفلسفة .

أثر الفلسفة اليونانية

يظهر أن الفلسفة الإسلامية نتيجة الفلسفة اليونانية ، فقد كان لليونانية أثرها العميق فى كل فرع من فروع الثقافة العربية المختلفة فى ذلك الوقت .

البلاغة :

إننا لا نستطيع فهم كتاب من كتب البلاغة القديمة إلا إذا كنا نتقن المنطق ، وما المنطق العربى إلا وليد المنطق اليونانى ، وليد منطق أرسطو الذى ترجم له العصر العباسى .

١ – فاطيفورياس « المقولات » .

٢ – بيرى أرمنياس « العبارة أو القضايا التصديقية » .

٣ – أنالوطيقا الأولى « القياس » .

٤ – أنالوطيقا الثانية « البرهان » .

٥ – طوبيقا « الجدل » .

٦ – سفسوطيقا « السفسطة » .

فى النحو :

وقد ظهر فى كل فرع من فروع العلم المعروفة فى هذا العصر ومظهره فى النحو ميل النحويين إلى التعليل فى القرن الثانى والثالث فكانت دراستهم فلسفية أكثر منها مدرسية وكتاب « الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصرة والكوفة » خير شاهد على ما نقول .

فى علم الكلام :

وكان للفلسفة أثرها فى نشوء علم الكلام « إن شئت فقل علم المنطق اليونانى » على يد المعتزلة بنوع خاص .

وكان لعلم الكلام أثر فى الشعر ظاهر – سنبينه فى موضعه – كذلك كان للفلسفة أثرها فى البلاغة ، وحسبك أن واضعى أسسها رجال درسوا الفلسفة وامتزجت بها عقولهم وأسبقهم فى

ذلك سهل بن هارون سنة ٢٢٠ هـ . وأنت واجد هذا الأثر أيضا فى هذه المحاورات البلاغية التى تشبه أن تكون محاورات كلامية ، وأجد فى هذه التحديدات البلاغية التى تجعل البلاغة أقرب إلى القضايا المنطقية منها إلى الأبحاث الأدبية الفنية ، وأنت واجد فى علم المعانى دقائق أبحاث المنطق .

الكتاب الثالث

المقارنة الفنية بين الشعر الأموى والعباسى

ما الشعر ؟

سلنى : ما الشعر؟ قبل أن تسمع منى مقارنة بين شعر وشعر .

سلنى : لتستطيع وأستطيع أن ننقد هذا الشعر على ضوء هذا التعريف .

سلنى : لتستطيع وأستطيع أن نزن بهذا الميزان .

سلنى : ما الشعر؟

الشعر عند Wordsworth هو « الحق يلقنه الشعور حيا إلى القول » وهو « فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت فى هدوء » .

وهو : عند ابن خلدون « الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف المفصلة بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله الجارى على أساليب مخصوصة .

وهو : عند رسكن « إبراز العواطف النبيلة عن طريق الخيال » .

وهو : عند أستاذنا الدكتور طه حسين « الكلام المقيد بالوزن والقافية والذى يقصد إلى الجمال الفنى » .

وهو عند : بروننج « التعبير عن العلاقة بين العالم والله أو بين المادة والدم أو بين العلاقة والمثال » .

وهو عند : أمرسون « الشوق الدائم للتعبير عن روح الأشياء » .

وهو عند : Boileau « ما أملاه الله وذلك مستفاد من قوله .

"Ce serait profaner son genie insulter son âme, en retrouchant ce que dieu leur a dicté".

والشعر عند :Hunt « التعبير عن الحق والقوة والجمال عن طريق التصور أو الخيال » .

والشعر عند Sully Prudhomme هو « الحلم الذى يحس فيه الإنسان بأن يعيش فى عالم أرق وأرفع » .

ويعرفه بعض الأدباء السوريين بقوله « الشعر شعور لطيف أحسته الأرواح قبل الأشباح ،

ووجدان وجد على الغرائز والفطر قبل الهيولى والصورة ، يجرى على الخواطر مجرى الكهرباء فى مسارى الهواء وتسيل فى الضمائر بسيل الماء فى ثنايا الإدماء ، فهو أشبه بسلك أثيرى بين القلب والدماغ يسرى على أهواء الضلوع ، وهذه تدفعه بقوتها المكهربة «تكهربا معنويا أو حيا على الرأى الحديث إلى مركز الدماغ ، ومنها إلى القوة الخيالية التصويرية ، ومن هناك تجذبه أسلة اللسان المغناطيسية ، فتحمله على جناح تموجاتها الهوائية (المجازية) إلى عالم الأدنى فيدخلها باستئذان أو بلا استئذان» !

الشعر هو الشعر ! لقد عرّف السادة النقاد الشعر بالشعر ، أين التعريف الدقيق المحدود ، التعريف العلمى ؟ . . . لهم العذر ، إذ ليس من الممكن تعريف الشعر . من اليسير أن تعرّف النحو والمنطق والجبر ، وليس من اليسير فحسب بل من المستحيل أن تعرف الشعر .

الشعر كالفن والروح والخلود والجمال والفتنة والسحر والعقل والفكرة وما وراء الطبيعة والذوق معان شائعة عن عقولنا وأنفسنا نفهمها فهماً ، بل إن منا من قد يحسون أثر الشعر فى جسومهم فيهتز لإنشاده أو سماعه منهم عضو أو أعضاء عن غير وعى ، وتختلج عيون وتخفق قلوب ، وقد تكون أنت وأنا من هؤلاء ، بل قد تكون أنت وأنا شاعرين ، ومع ذلك فأنت وأنا عند تعريفه محاولان ، محاول غيّر موقعه ، ومحاول خائب !

لقد حاول الشاعر الفرنسي العظيم Lamartine تعريف الشعر فقال «هو تجسم ظاهر لأعمق البواطن الإنسانية» وكأنه أحس بغموض قوله فأضاف «ثم هو تجسد للأصوات فأعذبُ ألحانها والطبيعة فى أجمل مظاهرها» فكان غموضا بعد غموض .

وحاول تعريفه الشاعر الإنجليزى الفحل «شلى» فكان الشعر عنده «هو الكاشف النقاب عن الجمال المخبأ فى هذا العالم» ، شاعر يعرف الشعر بالشعر !

وكأننا ببيكون تحيّر مثل حيرتنا وأحس مثل إحساسنا ، فقال : "Plus de cent an quants frangmens poetiques" ، وإذن فعلى أى أساس سأبنى هذا التعريف ؟ بأى دليل علمى نحس ، سأقارن بين شعر وشعر وبأى ميزان سأزن ؟

إنما سأقارن وأنقد مستمدا ما أبيّنه وما أفصله من فهمى الخاص وذوقى الخاص مستعيناً – بلا ريب – بما أفادتنيه دراسة النقد الأدبى ، وما أكسبنيه اتصالى به ، ذلك النقد الأدبى الذى يحاول أن يكون علماً كالعلوم وأن تكون له قوانين كقوانين العلوم المضبوطة من رياضية وطبيعية Exacte Sciences ، وأظنه مستطيعاً .

لا تطمع إذن فى فوارق وفواصل واضحة وضوح الشوارع المنطقية ظاهرة الحدود ظهور الرسوم الميزانية لا تكلفنى ما لا تكلفه نفسى لأن المقياس العلمى غير موجود .

وهب أن ذلك المقياس العلمى الذى يقاس به الشعر كان موجوداً وفى يمينى ، أفكنت تطمع فى هذه الفواصل والحدود ؟

هيهات ! فليس بين الشعر والشعر مثل هذا البعد ، الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان ، فطبيعى أن يتشابه ذلك الأثر المتصل «بأعمق البواطن الإنسانية» وإن اختلفت مصادره وتنوعت مراميه .

لكن مقارنة هذا التمهيد ليست مستحيلة وإن كانت عسيرة – هى عسيرة لأن الناس كما يقول ابن خلدون متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم ، وهى غير مستحيلة لأن الناس كما يقول ابن خلدون مختلفون مهما تشتد بينهم وجوه الشبه .

الناس كذلك ، والأدب هو المرآة التى تنعكس عليها الحياة الإنسانية . الأدب الأموى والعباسى متشابهان لكنهما مختلفان ، ونرجو أن نقدم لك من كل عصر صورة واضحة بعض الوضوح ، ولا نطمع إلى أبعد من ذلك .

لشد ما يخطئ Renan إذ يقول فى كتابه .

L'Avenir de la Science "L'etude de l'histoire litterature est destinée a remplacer en grande partie la lecture directe des oeuvres de l'esprit. humain".

أسرف .Renan برغم تحفظه، فتاريخ الأدب لا يغنى كثيراً ولا قليلاً عن قراءة الأدب ، وكان ينصف لو أنه قال إن تاريخ الأدب يعين على فهم الأدب .

نحن نطمع أن نقدم لك صورة واضحة بعض الوضوح ، أما الصورة الواضحة فلن يظهرك عليها سوى نصوص الشعر الأموى ونصوص الشعر العباسى .

الثورة على القديم

تمهيد :

نسج الأمويون على منوال الجاهليين فى استهلال القصائد بالوقوف على الدمن والبكاء على الطلول ، ثم وصف الآرام[1] والصحراء والنوق .

فيقول امرؤ القيس :

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فَتُوضِحَ فالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا   لما نَسَجَتْها مِنْ جَنُوبٍ وشَمْألِ[2]

ويقول طرفة بن العبد :

لخَوْلَة أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ   تَلُوحُ كَبَاقِى الوَشْمِ فى ظاهِرِ اليَدِ
وُقُوفاً بِها صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ   يَقُولُونَ لا تَهْلِك أَسًى وتَجَلَّدِ[3]

ويقول زهير بن أبى سلمى :

أمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تُكَلَّم   بحَوْمانةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ
ودارٌ لها بالرَّقْمَتَين كأَنَّها   مراجيعُ وَشْمٍ فى نَوَاشِرِ معْصَمِ[4]

ويقول لبيد :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها   بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُها
فَمَدَافِعُ الرَّيانِ عُرِّىَ رَسْمُها   خَلَقاً كما ضَمِنَ الوَحِىَّ سِلاَمُها[5]

وقوله :

أتعرف رسم الدار من أم معبد   نعم أو رماك الشوق قبل التجلد

ودرج الأمويون على هذا المنهاج :

---

(١) الآرام : من الظباء ، وهى خالصة البياض وتسكن الجبال

(٢) الديوان ص ١٢٤ من طبعة حسن السندوبى

(٣) الديوان ص ٣ من طبعة أوروبا ١٨٢٩

(٤) الديوان ص ٣ ، ٤ من طبعة برلين ١٩٠٥

(٥) الديوان ص ٤٨ من طبعة الدكتور إحسان عباس ، وطه حسين : حديث الأربعاء ص ٣٣ من طبعة الحلبى ١٩٣٧

فيقول جرير :

لِمنِ الدِّيارُ رسُومُهن خَوالى أقْفَرْنَ بَعْدَ تأنُّسٍ وَحِلالِ
عَفّى المَنَازلَ بَعْدَ مَنْزِلنا بها مَطَرٌ وعاصفُ نَيِّرجٍ مِجْفالِ[١]

ويقول الفرزدق :

أتنسى يوم حومل والدخول وموقفنا على الطلل المميل
وقلت قد نحلت وشبت بعدى يحق الشيب بعدك والنحول

فإن كان يمدح فهو متنقل من الأطلال أو الغزل إلى وصف الصحراء ثم الناقة التى ركبها فى طريقه إلى الممدوح .

فيقول النابغة :

كأنَّ رَحْلى وقد زال النَّهارُ بنا يومَ الجَلِيلِ على مُستَأنِسٍ وَحَدِ
فتلك تُبْلِغُنى النُّعْمانَ إنَّ له فَضْلاً علَى النَاس فى الأدْنى وفى البَعَدِ[٢]

ويقول :

وكم كُلِّفْتَ دونك من سهول ومن ليل يوصّل بالنهار
وأن العيس قد رفعت إليكم بعيد الأهل مُعتمد المزار

أو بعد وصف الناقة :

إليك أمير المؤمنين رَحلتها على الطائر الميمون والمنزل الرحب

وكأن المذهب فى الاستهلال والانتقال كان له شىء من القداسة وشىء من الحرمة لا يجوز أن يتخطاهما شاعر ، فقد عرّف الشعر ابن خلدون ، ذلكم الناقد الجبار ، فقال « هو الكلام الموزون المقفّى . . . الجارى على أساليب مخصوصة » . وأنكر القدماء على المتنبى وأبى العلاء شاعريتهما ، بل قالوا هما فيلسوفان أو حكيمان . أما الشاعر فهو البحترى لأنه لزم عمود الشعر العربى . وقال دعبل : لئن كان كلام أبى تمام شعراً فشعر العرب كله باطل !

هذا التقديس له أمثلة فى آداب الأمم الأخرى وهو جحود ، منشؤه التقليد لا يخرج الناس منه إلا ثورة متصلة تنبه الناس شيئاً فشيئاً إلى فساده .

---

(١) الديوان ص ٤٦٦ من طبعة الصاوى

(٢) الديوان ص ٢٥ ، ٢٩ من طبعة مطبعة السعادة بمصر

النزعة إلى الجديد والثورة على القديم فى العصر العباسى :

أدر الكأس أن تسقينا وانقر العود إنه يلهينا
ودع الوصف للطلول إذا ما دارت الكأس يسرة ويمينا(١)

الشاعر الأموى كالجاهلى حليف أسفار أنى رحل فنى رأسه ذكريات وفى قلبه وجيف يذكره بعهد غابر طلل دارس فهو على دمنه واقف وعلى أيامه ولياليه لاهف . حياته ستتسع لهذه الذكريات أو هى لا تتسع إلا لها ويقتضى ذلك الوفاء للراحل والمقيم ، فهو رجل بدوى أوكالبدوى يحيا حياة ساذجة لا لهو فيها ولا فتنة فيشغل بهما «عن حبيب ومنزل» .

ومن الطبيعى أن تتسع حياة قوم للهوى العذرى وحياة آخرين للهوى الحجازى . أما الشاعر العباسى فنى حياته ما يشغله عن الحبيب الراحل والطلل البالى ، فى بغداد لهو وقصف ، فى بغداد قينة وغلام وغناء وراح .

أجل ! لقد تطور الشعر العباسى لأن الحياة تطورت ، ولكن الشعر يغاير الشعر ، لأن الزمن يغاير الزمن ، وإنى لتارك الكلام لأبى نواس فهو قائل عنى ما أريد قوله :

صاح مالى وللرّسُومِ القِفَارِ ولنعْتِ المطىِّ والأكْوارِ
شَغَلَتْنِى المدام والقصفُ عَنْها بقراع الطُّنْبورِ والأوْتارِ
واسْتِماعى الغِنَاء من كل خودٍ ذاتِ دلٍّ بطرفها السَّحَّارِ
فدعونى فذاك أشْهَى وأحْلَى من سؤالِ التُّرابِ والأحْجارِ(٢)

وقوله :

أَحْسَنُ من منزلٍ بذى قَارِ منزلُ خمَّارَة بالأنبارِ
وشمُّ ريْحانةٍ ونرجِسَةٍ أحسَنُ من أيْنُقٍ بأكْوَارِ
وقبلة لا تزال تخلسها من رشَأٍ عاقد الزنَّارِ
ألذُّ من مَهْمهٍ أكِدُّ به ومن سَرابٍ أجوبُ غرارِ
ونَقْرُ عُودٍ إذا تُرجِّعُه بنانُ رَوْدِ الشَّبابِ مِعْطارِ

---

(١) ديوان أبى نواس ص ٣٣٨ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٢) الديوان ص ٦٧٦ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

أحسن عندى من أمّ نَاجيةٍ وأمٍّ عمروٍ وأمٍّ عمَّارِ[١]

وقوله .

دع الوقُوفَ على رسْمٍ وأطْلالِ ودِمْنَةٍ مثل سحق اليمْنةِ البالى
وعُجْ بنا يجْتلِى حمراء واقدةً فى حُمْرَةِ النَّارِ أوفى رقة الآلى
لم يذهب الدَّهْرُ عنها حدّ سَوْرتها ولم ينلها الأذى فى دهْرِها الخالى
فى بيتِ كافرة بالخمرِ تاجرةٍ شُمطَاء شاطِرةٍ تعتزُّ بالوالى
وعندها قمر فى طرفه حور فى دله خفر فى حسن تمثال
فعاكه خنث مؤنث أنث فى طرفه نفث قتال أبطال
فذاك أهنأ من ربع وراحلة ومن وقوف على ربع بأطلال[٢]

ترى أننى أكثر من ذكر أبى نواس وأستشهد بشعره . وألح فى تصويره وأخشى أن يتهمنى أحد بالإسراف قائلاً : إن أبا نواس ليس يصور إلا جماعة من المجان فى ذلك العصر ، وقد وجه فعلاً ذلك الاعتراض إلى بعض أساتذتنا يوماً من الأيام إذكان ينشر فى بعض الصحف صورا من العصر العباسى ، ورد عليه الأستاذ بعد أسبوعين من نشره ردا لا يزال عالقاً بذهنى لأنه يمثل الخصومة بين شيعة القديم ومقدسيه وبين قوم آخرين ، وكان فى استطاعتى أن أغفل ذكر أبى نواس ، وأنا أحدثك عن هذا التجديد فى العصر العباسى فليس أبو نواس المجدد الوحيد ، بل كان فى استطاعتى أن أصور التجديد فى هذا العصر مستشهداً بنكرة من النكرات ، إذ أقيس الفحول – مستشهداً بآثار شاعر كمطيع بن إياس ، القائل :

لأحسن من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعاً
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه صرعى

لكننى أعدل عن مطيع وأعدل عن شعر المجددين من فحول شعراء العصر إلى أبى نواس لا لشىء إلا لأن أبا نواس وشعر أبى نواس يمثلان عصر أبى نواس تمثيلاً واضحاً كل الوضوح .

ليس أبو نواس ممثلاً لفرقة من الفتيان المجان ، كما قد يظن بل يمثل أبو نواس المجتمع البغدادى ، يمثل كثيراً من أهل بغداد دهماءها وفضلاءها على السواء . ولم يكن أبو نواس

---

(١) الديوان ص ١٦٠ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٢) الديوان ص ٦٨٠ من الطبعة السابقة

نكرة من النكرات ، وإنما كان نديماً للخليفة جليساً وزعيماً للشعراء تلميذاً أو أستاذاً للعلماء حتى لعلماء الدين ، فابن عساكر فى كتابه «تاريخ دمشق» يذكر أن أبا نواس روى الحديث عن حماد بن حماد ، وحماد بن زيد وأزهر بن السمان وغيرهم ، وروى عنه عمرو بن الجاحظ ويعقوب بن زيد الفارسى ومحمد بن إبراهيم ومحمد بن إدريس الشافعى وغيرهم ، وأهل الفقه والعلماء يعرفون أقدار من ذكرنا .

ودخل أبو عمرو الشيبانى على المأمون فسأله من أشعر الناس ؟ فأجابه «لقد اختلف فى ذلك ، فقيل امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب» فقال له المأمون : دعنى من كل هذا ، فمن الذى يقول :

لا يَنْزِلُ الليل حيث حَلَّت فدهرُ شُرَّابِها نهارُ[1]

ومن الذى يقول :

فتَمشَّتْ فى مَفَاصِلِهِمْ كتَمَشِّى البُرْءِ فى السَّقَمِ[2]

ومن الذى يقول :

إذا ما أتتْ دون اللَّهاة من الفَتى دعا هَمَّه من صدرِه برحيلِ[3]

قال : أبو نواس .

فأجابه : هو أشعر الأولين والآخرين .

فلسفة أبى نواس :

أبو نواس مازح طروب ينظر إلى الحياة نظرة الفيلسوف المتفائل يسخر من أولئك الذين ينظرون إليها من خلال النظارة السوداء لأنه لا يعرف الحزن ، أو لأن الحياة عنده أهون من أن يحزن عليها ، هو لا يعرف الحزن ، ولم يحزن والأرض زهراء والخمر شمطاء ! إنه لا يحزن بل يقول للحزين :

أما يُسرُّكَ أن الأرضَ زهراءُ والخمرُ ممكِنَةٌ شمطَاءُ عذراءُ

---

(١) أبو نواس : مختار الأغانى لابن منظور جـ ٣ ص ٣٨

(٢) الديوان ص ٤١ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى وشرح ديوان زهير بن أبى سلمى ص ٧٣ من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٣) الديوان ص ١٦ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

ما فى قعودِكَ عذْرٌ عن مُعتَّقَةٍ كالليْلِ والدُهَا والأمُّ خضراءُ
بادِرْ فإن جِنَانِ الكَرْخِ مُونقَةٌ لمْ تَلْتَقِفْها يدٌ للحْربِ عسْراءُ[١]

عفا الطلل ! فليعف ولتعف معه الطلول ! إنه لا يبكى عليها بل هو يريد أن يحتلب من الحياة ثديها الحلو.

دعِ الربْعَ ما للرّبْعِ فيكَ نصِيبُ وما إنْ سَبَتْنِى زينبٌ وكَعُوبُ
ولكَن سَبَتْنِى البابليَّةُ إنها لمثْلَىَ فى طولِ الزمانِ سَلُوبُ[٢]

ويقول :

مالى وداراً دَرَسَتْ اسْتَوْحَشَتْ أم أَنِسَتْ
وما ادّكارى دِمَناً وَسْطَ عِراصٍ رُمست
وعرصة كان بِها طال بها ما خرست
وأتـرُكُ الكرمة لا أبكى لها إذ يَبِسَتْ[٣]

لِمَ يصفُ الأطلال ويبكى عليها ، إنما دنياه دار فانية ، فلمَ لا يستبق إلى لذتها ؟

اتركِ الأطلالَ لا تَعْبأ بها إنها من كلِّ بؤسٍ دانيَةْ
واشرب الخمر على تَحْريمها إنما دُنياكَ دارٌ فانِيَهْ[٤]

لِمَ لا يستبق إلى «فراجة الكرب» يناديها ويشكو همومه ؟ إنه ليس خلياً من الشجى وهل خلا من شجنها وشجاها أحد ؟

أدِيرَا علىّ الكأسَ تَنْكَشف البلوى وتَلْتَذُّ عينى طيبَ رائحةِ الدنْيا[٥]

وصاحبنا مقبل على الدنيا ودّ لو ازدادت الدنيا عليه إقبالاً فيزداد بإقبالها إقبالاً عليها ويلذ بأقصى ما يستطيع الملتذ.

ولو أنَّ مالِى يستَقِلُّ بلذتى لأَنْسَيْتُ أهلَ اللَّهْوكسرى وقيْصَرا[٦]

---

(١) الديوان ص ٧٠٠ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٢) الديوان ص ١١٠ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٣) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ١٩٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧
(٤) الديوان ص ١١٩ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٥) الديوان ص ١١٩ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٦) الديوان ص ٦٨٣ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

اللذة هى اللذة فهو يريد أن يحصل عليها من أى سبيل ، لتكن حراماً أو غير حرام

إن كنتما لا تشْرَبَان معى خوفَ العِقَابِ شربتُها وحْدى[١]

ويقول :

وإن قالوا حرام قل حرامٌ ولكنَّ اللذاذةَ فى الحرامِ[٢]

يريد اللذة ، فما للدين وماله ، لا الدين يمنعه ، ولا الاحتشام أمام الناس يردعه :

تركُ الصَّبُوحِ علامَةُ الإدْبارِ فاجْعَلْ قرارَكَ عَرصَةَ الخَّمارِ
لا تُطْلِع الشَّمْس المَنيرة ضَوْءها إلا وأنْتَ فضيحة فى الدار[٣]

رجل يائس من الحياة زاهدٌ فيها يلهو باللذات :

لا الصَّوْلَجانُ ولا الميدان يعجبنى ولا أَحِنُّ إلى صوتِ البَواشِيقِ
لكنما العيشُ فى اللذاتِ متكئاً وبالسَّماعِ وفى مَجِّ الأباريقِ[٤]

يعنى يتقاسمها الزهد واليأس وهى مع ذلك – أو لذلك – مقبلة على لذات الحياة فى شره ونهم .

وشاعرنا لا يريد أن يغنم اللذة وحده ، بل يريد أن يشرك الناس معه ، وهو كعادته يأبى إلا أن ينصب نفسه معلماً للناس (الخمر عذراء) والرياض مونقة واللهو مباح فلم لا يشترك الناس معه فى سروره .

يا إخْوتى ذا الصَّباحُ فاصْطَبِحُوا فقد تغنَّت أطيارُه الفُصُحِ[٥]

ويقول :

لا تَبْكِ ليلى ولاَ تَطْربْ إلى هند واشْرَبْ على الوردِ من حَمْراءَ كالوَرْدِ
كأساً إذا انْحدرتْ فى كَفّ شارِبِها أجْدَتْهُ حُمْرتها فى العينِ والخَدِّ[٦]

هذه دعوة أبى نواس الفلسفية فهل هى رسالة جديدة انفرد بها ؟ ليس كذلك بل هى

---

(١) الديوان ص ١٨٢ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٢) الديوان ص ٦٩٣ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٣) الديوان ص ٦٨٤ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٤) الديوان ص ٤٣ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٥) الديوان ص ٤٤ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٦) الديوان ص ٢٧ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

فلسفة العصر أوجدتها الحياة وخلقتها الظروف المشتركة فهى فى أبى نواس صدى لما تردد فى صدور الناس .

لكن صاحبنا فنان وله دعوة فى الفن جديدة ودعوته نبذ القديم من أساليب الشعر لأنه أصبح لا يلائم الحياة الواقعية ، فما دعوته فى الواقع إلا وليدة الدعوة الأولى ، فهى كذلك صدى لما جال فى خواطر أبناء العصر الجديد ، إنما كان أبو نواس جريئاً ، فجاهر بالدعوة وألح فيها . والدليل على أن الأمر كان يتطلب جرأة أن أبا نواس اضطر إلى مسايرة المذهب القديم أكثر من مرة ، وكان السلطان أشد الدعاة له ، فقد لام أبا نواس لعدوله عنه ، كما سنبين .

حمل أبو نواس على المذهب القديم وأخذ يتهكم على أصحابه فى لغة لاذعة :

يا نجى الديار كيف تناجيـ ـك ديار من الأنيس خلاء
ليس فيها إلا الجنادل والصُّـ ـمُّ وهام تجيبها الأصداء
وقبيح بعد الثلاثين والعشـ ـرين بدا لشيبه الكبير البكاء

وقوله :

قُلْ لمنْ يبكى على رسْمٍ دَرَسْ واقفاً ما ضَرَّ لوكان جلسْ(١)

وما فتئ يدعو إلى التحلل من هذه الأساليب العتيقة :

لستُ لِدَارٍ عفَتْ بِوصَّافِ ولا على رَبْـعِـهَـا بوقَّـافِ
ولا أُسَلِّى الهُمومَ فى غَسَقِ الـ ـليْلِ بِحَادٍ فى البِيدِ عَسَّافِ
لكنْ بوجْهِ الحبيبِ أشْربُها بين نـدامى وبين أُلَّافِ
فذاكَ أَشْهَى من الوقُوفِ على رسم لأَسْمَاءَ آيةُ عافِ(٢)

وقوله :

يا واصف البيد والقفار ويا واصـف أسرارهـا ومـكـاهـا
أحسن من ذاك نعت صافية تنزو إذا ما تدرعتها ماها(٣)

وقوله :

يـا طـلـلا غير مـأنوس قد حف بعد النعيم بالبوس

(١) الديوان ص ١٣٤ من طبعة مطبعة مصر

(٢) الديوان ص ١٤٩ من طبعة مطبعة مصر

(٣) الديوان ص ٢٤٠ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

لم يلمني فيك غير صافية خيرية من بنات قابوس
أخنى عليك الزمان كلكله واكتنفتها جنود إبليس
تاهت علينا بمنظر أنق وزهو نفس كزهو بلقيس

وقوله :

فاسقنيها وغنّ صو تا لك الخير أعجما
ليس فى نَعْت دمنة لا ولا زجر أشأما(١)

أبو نواس يبشر بالخمر ويهلل لها ويدعو إلى وصفها ، فهل ذلك كل حظه من التجديد ، يجب أن تفهم هذه الدعوة بأوسع معانيها ، فقد وهم الأستاذ «جورجي زيدان» وظن أن الأمر لا يعدو أبياتاً عرضية تخالف القديم مخالفة غير مقصودة ، والواقع أنها دعوة مقصودة وأنها دعوة جدية سلك فيها صاحبها السبيل الوحيد الذى يسلكه كل داعية جادٍ فى دعوته . ليست دعوة أبي نواس مقصورة على وصف الخمر ، ولو كانت ، لما اعتبرنا أبا نواس مجدداً ، وما أحدث أبو نواس شيئاً . فالواقع أن فى استهلاله بالخمر دعوة إلى وصف الحياة الجديدة بكل ما فيها ، فهو إن يكن قد استهل بالخمر فقد أتبعها بوصف الغلام مرة :

ولما استقرت فى يمينى قرعتها فدارت حما حمياها على ظهر كوكب
تدير عيوناً شاخصات كأنها نواظر مكرور على ظهر أشعب
يطوف بها ساق أغن كأنه من الوحش مركوم بدا وسط ربرب
يعطف أصداغاً على وجناته فتذهب بالأحداق فى كل مذهب
ويخطو بردف حشوه اللين وافر له شهوة تقضى على كل أعزب
وينظر من عينى غزال مكحل ويضحك عن صاف من الدر أشنب
وكم من غزال صدّعنى معرضا . . . .

وقوله :

كأن الزُّجَاجَ البيضَ منها عرائسٌ عليهنَّ بين الشَّرْبِ أَرْدِيَةٌ حُمْرُ
إذا قُهِرتْ بالماء راق شعاعُها عيُونَ الندامَى واسْتَمَّربها الأمْرُ
وصار من الدر المُضَاعَفِ فوقه بدر ومرجان تَأَلَّفَهُ الشَّذْرُ

---

(١) الديوان ص ٣٢٧ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨ والأغانى جـ ٢٩ ص ٩٨٥٤ من طبعة الشعب .

كأن نجومَ الليل فيها رواكدٌ أقمن على التأْليفِ آنِسُها البدْرُ
وظَبْيٍ خلُوبِ الظبي حُلْوٍ كلامُه مُقَبَّلُه سهل وجانبهُ وَعْرُ
نحلت له منها فخرَّ لوجْهه فقبلته والصب ليس له صبر
وقَلَّبَه ظهراً لبَطْنٍ وتارة يكون بساط الأرض بالباطن الظهرُ
إلى أن تجلَّى نومُهُ عن جفونه وقال كسبْتَ الذَّنْبَ قلتُ لِيَ العُذْرُ
فأعْرضَ مُزْوَرا فكان بوجهه تَفَقُّؤُ رُمَّانٍ وقد بَرَدَ الصَّدْرُ
فما زلْتُ أَرْقيهِ وأَلْثم خَدَّهُ إلى أن تغنَّى راضياً وله الشكْرُ
ألا يَا اسْلَمِي يا دار مَيَّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القَطْرُ(١)

أو هو يتبعها بذكر قينة أو ساقية فيصف ويتغزل :

قد عتّقَتْ فى دنّها حقَباً حتى إذا آلتْ إلى النّصْفِ
سلبُوا فقَاعَ الدن عن رَمَقٍ حيٍّ الحياةِ مُشَارِفِ الحَتْفِ
فتنفَّستْ فى الكاس إذْ مزجتْ كتنفُّس الريحان فى الأنفِ
دارتْ فواقعُها لناظرها متصنعاً بخِلافِ ما يُخْفِى
من كفٍّ ساقيةٍ مُقَرْطَقَةٍ ناهيكَ من حسنٍ ومن ظرفِ
نظرتْ بعينى جُؤْذرٍ خرِقٍ وتَلَفَّتَتْ بسوالِفِ الخِشْفِ
فشربت من فيها ومن يدها ورشفت غير ملعن رشفى
قالتْ وقد جعَلَتْ تَمَايَلُ لى كتمايلِ الماشى على الدفِّ
إلخ(٢)

أو هو يتبعها بوصف المكان :

جاءتك من بيت خمار بطينتها صهباء مثل شعاع الشمس تتقد
فقام كالبدر قد شُدّت مَناطِقهُ ظَبْىٌ يكاد من التَّهْيِيف ينْعَقِدُ
فسلّها من فم الإبريق فانبعثَتْ مثل اللسانِ جَرى واستمْسك الجسدُ
يا حُسْنَنَا وبحارُ القصف تغمرنا فى لُجَّةِ الليلِ والأوتارُ تغترِدُ

---

(١) الديوان ص ١٠٠ من طبعة مطبعة مصر
(٢) الديوان ص ٦٦ من طبعة مطبعة مصر

فى مجلسٍ حوله الأشجارُ مُحدِقَةً ... وفى جوانبه الأنهارُ تطَّرِدُ(١)

وقوله :

فَعَاطِ نَدْمانكَ من خمرةٍ ... مزاجُها من مُعْرِقِ القَطْرِ
على خـزامَـاهَـا وَحَـوْذانِـهـا ... ومشْكِلٍ من حُلَلِ الزهْرِ
فى مسرح يَرْتَعُ أكـنافَهُ ... شوادنٌ من بـقَـرٍ زُهْـرِ
يا حبذا الصُّبْحَةُ فى العُمْر ... وحبذا نَيسانُ من شهْرِ(٢)

أو هو يتبعها بالتحدث عن ندمائه :

ونَـدْمَـانٍ يرى غَبَناً عليه ... بأن يُمْسى وليس به انْتشاءُ
إذا ناديته من نومِ سُكْرٍ ... كـفـاهُ مـرة مـنك النِّدَاء
وليس بقائل لك إيه دعْنى ... ولا مُسْـتَـخْبِر لك مـا تشاءُ
إذا أدركتْـه فى الظهر صلى ... ولا عَصْـر عـلـيه ولا عِشَاء
يصلى هذه فى وقتِ هذى ... فكل صلاتِه أبداً قَضَاءُ
وذا محمـدٌ تـفـديـه نـفسى ... وحُقَّ له وقلَّ له الفِداءُ(٣)

هذه هى الحياة الجديدة فى بغداد يصفها أبو نواس ، كما ترى ، وصفاً شاملاً . هذه حياة الناس ، إلا أن أبا نواس كان أجرأهم ، ولترى كيف أن الأمر كان يتطلب جرأة ، أعرض عليك من شعر أبى نواس هذه الأبيات :

أيها الرائحانِ باللومِ لُومَا ... لا أذوقُ الـمُـدَامَ إلا شَـمِـيماً
نـالنى بـالـمَلاَم فيها إمامٌ ... لا أرَى لى خلافَه مُستقيماً
فاصرِفَاها إلى سواىَ فإنى ... لستُ إلا على الحديث نديماً
فـكـأنى ومـا أُزَيِّـنُ منـهـا ... قَـعَـدِىٌّ يُـزَيـنُ الـتـحـكيما
كَلَّ عن حَمْله السلاحَ إلى الحرْ ... بِ فأوْصَى المُطِيقَ ألاّ يُقِيما(٤)

(١) الديوان ص ٧٩ من طبعة مطبعة مصر
(٢) الديوان ص ٨٢ من طبعة مطبعة مصر
(٣) الديوان ص ٢٣ من طبعة مطبعة مصر والأغانى جـ ٢٩ ص ٩٩٠٠ من طبعة الشعب
(٤) الديوان ص ٢٩ من طبعة مطبعة مصر

وهذه الأبيات الأخرى :

أعاذلَ بعْتُ الجهل حيث يباعُ ... وأبرزْتُ رأس ما عليهِ قناعُ
نهانى أمير المؤمنين عن الصِّبا ... وأمر أمير المؤمنين مُطاع
ولهوٍ لتأديبِ الأمير تركتهُ ... وفيه لِلاَهٍ منظرٌ وسَمَاعُ
وريَّانَ من ماءِ الشباب كأنما ... يُظَمَّأُ من ضُمْرِ الحَشَا ويُجَاعُ
صبرت عليه النفس دون مدامةٍ ... هى اليْومَ حربٌ وهى بَعْدُ شياعُ[1]

وإذن فالخليفة لام أبا نواس فى الخمر ونهاه عنها ، فهل كان الخليفة يكرهها حتى يحرم ذكرها ، عندى أن الخليفة كان يشرب الخمر كما كان يشربها الناس ، كان الخليفة يلهو كما يلهو الناس ، وربما كان أسبقهم إلى ذلك والأدلة كثيرة .

والناس كانوا ينهون ، وما الناس إلا على دين ملوكهم ، لكن الخليفة مع ذلك كره أن يذاع هذا الشعر فى الناس وهو إمامهم فى مسوح الرهبان وثياب الأولياء فيقولون ماله يغضى عن شعر أبى نواس .

وفى الحق أن أبا نواس كان يعبث بالخليفة ، كان يصف الخمر والغلام ، كما كان يفعل ، ثم يجامل السلطان ببيت أو بيتين ، كقوله :

لو ترى الشَّرْبَ حولها من بعيد ... قُلْتَ قومٌ من قِرَّةٍ يَصْطَلُونَا
وغَـزالٍ يُـديـرهَـا بـبَـنَـانٍ ... ناعماتٍ يَزيدُها الغمْزُ لِينَا
كلما شِئْتُ عَلَّنِى بعُضابٍ ... يترك القَلْبَ للسرور قريناَ
ذاكَ عَيْشٌ لو دَامَ لى غيرَ أنى ... عِفْتُهُ مكرُها وخِفْتُ الأمينا[2]

يذكرنا موقف أبى نواس مع الأمين بموقف بشار مع المهدى ، كلاهما كان يمجن فى شعره ، وكلاهما نهاه الخليفة عن الخمر ، كلاهما عبث فى شعره بالخليفة عبثاً .

انظر إلى أبى نواس كيف يهزأ بالخليفة ويذكر نهيه ثم يعبث به ، ويمضى فى وصف الخمر :

أَطِعْ الخليفَةَ واعْصِ ذا عزْف ... وتَنَحَّ عن طَرَبٍ وعنْ قَصْفِ
عينُ الخليفة بى مُوَكَّلَةٌ ... عَقدَ الحِذَارُ بطرفها طرفى

---

(١) الديوان ص ١٢ من طبعة مطبعة مصر

(٢) الديوان ص ٣٠ من طبعة مطبعة مصر

فلئنْ وعَدتُك تركَها عِدةً إنِّى عليكَ لخائف خَلْفى
ومدامة يحيا الملوك ببابها جلَّتْ مآثِرُها عن الوَصْفِ
قد عتقت فى دنّها حقباً حتى إذا آلتْ إلى النصْفِ[١]

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فالخليفة لم ينه أبا نواس عن وصف الخمر لأنها الخمر فحسب بل نهاه لأن فى مذهبه الجديد عدولاً عن أساليب القدماء التى اصطلح الناس على أنها أساليب الشعب العربى ، فالعدول عن أساليب القدماء كان يتطلب كذلك جرأة ، فإن سألتنى فيم الاجتراء ؟ تركت أبا نواس يرد عليك :

أعِرْ شعركَ الأَطْلالَ والدِّمَن القفْرا فقد طال ما أزْرَى به نعتُكَ الخمرا
دعانى إلى وصف الطَّلولِ مُسلَّطُ يضَيقُ لسانى أن أجوزَ له أمْرا
فسمْعٌ أمير المؤمنين وطاعةٌ وإن كنت قد جشَّمتنى مركباً وعْراً[٢]

ولقد سمع صاحبنا وأطاع مجاملاً الخليفة مهادنا أنصار القديم غير مرة ، فقد استهل عدداً من قصائده بوصف الطلول :

لمن الديارُ تَسَرْبَلَتْ ببلاَهَا أَنْسَتْك رَبَّتها وما تنْسَاهَا[٣]

وأعقب ذكر الربوع بوصف الناقة ، ثم عطفها إلى الممدوح ، كما كان يفعل القدماء تماماً :

أربع البلى إن الخشوع لبادى عليك وإنى لم أخنك ودادى
فمعذرة منى إليك بأن ترى رهينة أرواح وصوت غوادى
ولا أدرأ الضَّراء عنك بحيلة فما يك فيها قائل بسعاد
وإن كنت قد بدلت بؤساً بنعمة فقد بدلت عينى قذى برقاد
سأرحل عن قود المهادى شَمْلَة مسخرة لا تستحث بحادى
مع الريح إن فاتت وإن هى أعصفت تهوس برأس كالفلاة وهاد
فكم حطمت من جندل بمفازة وخاضت كتيار الفُرات بواد

(١) الديوان ص ٦٦ من طبعة مطبعة مصر
(٢) الديوان ص ٢١ من طبعة مطبعة مصر
(٣) الديوان ص ٤٩٦ من طبعة مطبعة مصر

وما ذاك في حب الأمير وزوره ليعدل من عنسى مدب قراد[(١)]

«لمن طلل ، لم أشجه وشجاني» و «عوجا صدور النجائب . . .» و «أربع على الطلل الذى انتسفت . . .» و «دمن ألم بها فقال سلام» و «يا دار ما صنعت بكِ الأيام» .

لكن الرجل وطد دعامة بنيانه فتبعه نفر من الشعراء غير قليل ، بل كانوا يقلدونه حتى فى المعانى البسيطة فإذا قال أبو نواس :

لما نظرت إلى الكرى فى عينه قد عقل الجفنين بالإغفاء
حركته بيدى وقلت له انتبه يا سيد الخلطاء والندماء[(٢)]

حرص على تقليده الرقاشى ، وقال :

نبّهتُ نَدْمانَى الموفِى بذِمتّه من بعد إتعاب طاسات وأقداحِ[(٣)]

وإذا قال أبو نواس :

فناوله كأساً جلت عن فؤاده وأتبعها أخرى فثاب له لب
إذا أرعشت يمناه بالكاس رقصتْ به ساعة حتى يسكنها الشرب
فغنى وما دارت له الكاس ثالثاً «تعزى بصبر بعد فاطمة القلب»[(٤)]

فالرقاشى قائل :

فما حسا ثانيا أو بعضَ ثالثة حتى استدار وردّ الراحَ بالراح
فقال خذْ واسقِنى واشربْ وغَنّ لنا يا دار مَثْواى بالقاعَين فالساحِ[(٥)]

فها أنت ذا ترى أن حركة التجديد كانت ذات خطر وأثر ، وأن عامة الشعراء كانوا يتأثرون بزعماء الشعر تأثراً قوياً جداً ويحاكونهم محاكاة واضحة جداً ، كما يتأثر اليوم عامة الأدباء بزعماء الأدب تأثراً قوياً جداً ويقلدونهم تقليداً واضحاً جداً .

وبالإجمال نقول إن أبا نواس وصف كل جديد ودعا الشعراء إليه فتبعه فريق كبير لأن الحياة أصبحت لا تتلاءم مع الأسلوب القديم ، لأن فى الحياة ما شغل عن القديم :

---

(١) الديوان ص ٧٣ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨
(٢) الديوان ص ٢٤١ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨
(٣) ديوان أبى نواس جـ ١ ص ٥٣ بتحقيق إيفالد فاغنر من طبعة لجنة التأليف ١٩٥٨
(٤) الديوان ص ٢٤٤ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨
(٥) ديوان أبى نواس ص ٥٣ بتحقيق ايفالد فاغنر والشعر لأبى نواس وليس للرقاشى

يا ربع شغلك أنى عنك فى شغل ... لا ناقتى منك لو تدرى ولا جملى
على عين وأذن من مذكرة ... موصولة بهوى اللوطى والغزل

ومدرسة مسلم بن الوليد كانت عنايتها بالتجديد الشكلى وستتحدث عنها فيما بعد ، ونقول الآن إنها جددت شيئاً فى المعانى ، فمن تجديد مسلم وصفه للسفينة بدلاً من الناقة :

وَمُلْتَطِمِ الأَمْوَاجِ يَرْمِى عُبَابُهُ ... بَجَرْجَرَةِ الآذِىِّ لِلْعِبْرِ فالعِبْرِ
إذا اعْتَنَقَتْ فَيه الجَنُوبُ تَكَفَّأَتْ ... جَوَارِيهِ أو قامَتْ مع الرِّيحِ لا تجْرِى
كأن مَدَبَّ المَوْجِ فى جَنَبَاتِها ... مَدَبُّ الصَّبَا بَيْنَ الوِعاثِ من العُفْرِ
كَشَفْتُ أَهَاوِيلَ الدُّجَى عن مَهُولِهِ ... بِجَارِيَةٍ مَحْمُولَةٍ حَامِلٍ بِكْرِ
لَطَمْتُ بِخَدَّيها الحَبَابَ فأَصْبَحَتْ ... مُوَقَّفَةَ الدَّايَاتِ مَوْتُومَةَ النَّحْرِ
إذا أَقْبَلَتْ راعَتْ بِقُنَّةِ قَرْهَبٍ ... وإن أَدْبَرَتْ راقَتْ بقادِمَتَىْ نَسْرِ
تجافى بها النوتى حتى كأنما ... يسير من الإشفاق فى جبل وعر
تخَلَّجُ عن وَجْهِ الحَبَابِ كما انْثَنَتْ ... مُخَبَّأَةٌ من كِسْرِ سِتْرٍ إلى سِتْرِ[1]

والقصيدة طويلة وأنت ترى أنها سمجت بعض الشىء برغم جمال معانيها لإسرافه فى البديع كما فى قوله «بجارية محمولة حامل بكر» و «لطمت بخديها الحباب» . ولطف بديعه أحياناً فظهر المعنى رائعاً كما فى قوله :

تخلج عن وجه الحباب كما انثنت ... مخبأة من كسر ستر إلى ستر

ولا نعرف أن أحداً من القدماء سبقه إلى وصف البحر خلا طرفة بن العبد ، ولأبى نواس شعر شبيه بهذا ، يصف فيه «حراقات» الأمين .

ونختم هذا الفصل مسجلين أن بشار بن برد هو الأستاذ الأول لمدرستى أبى نواس ومسلم على السواء .

ولو أمهلنا الوقت لوضحنا ما نريد إيضاحاً ، فرددنا كثيراً من ظواهر شعر أبى نواس والزعيم الآخر مسلم إلى أصولها فى شعر بشار ، وليته أمهلنا .

---

(١) الديوان ص ٨٧ ، ٨٨ من طبعة ليدن ١٨٧٥

أثر الفلسفة اليونانية فى الشعر العباسى

الجدل والتدليل المنطقى من أظهر خواص الشعر العباسى ، وهاك الأمثلة :

يقول أبو العتاهية :

إذا المرء لم يُعتِق من المال نفسَه ... تَملّكه المالُ الذى هو مالكه

ألا إنما مالى الذى أنا مُنفِقٌ ... وليس لى المالُ الذى أنا تارِكُه [1]

ذلك أقرب إلى ...ل المناطقة منه إلى خيال الشعراء .

وانظر إلى قول أبان اللاحقى :

نشدتُ بحقِّ الله مَنْ كان مسلماً ... (أَعُمُّ) بما قد قلته العُجْمَ والعَرَب

أَعَمٌّ رسول الله أَقربُ زُلْفَةً ... لديه أَم ابنُ العَمِّ فى رتبة النَّسَب

وأَيهما أولى بـه وبـعـهـدِهِ ... ومن ذا له حَقٌّ التراث بما وجب؟

فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكمُ ... وكان علىٌّ بعد ذاك على سَبَب

فـأَبْـنـاء عباسٍ هُمْ يرثونه ... كما العَمُّ لابن العَمِّ فى الإرث قد حَجَب [2]

هذا الشعر جدلى محض تأمل كيف يسلك سبيل المناظر الذى يسد على خصمه المسالك فما يدع له حجة حتى يدحضها ويفندها .

ثم هذان الاصطلاحان المنطقيان (التعميم والرتبة) .

وانظر إلى قول مروان بن أبى حفصة يجادل الفاطميين :

فإن قالوا بنو بنت فحق ... ورد ما يناسب للذكور

وما لبنى بنات من حقوق ... مع الأعمام فى ورق الزبور [3]

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٢٣٠ من طبعة الشعب

(٢) الأغانى جـ ٢٧ ص ٩٣١٧ من طبعة الشعب

(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٦٥٥ من طبعة الشعب

يجادلهم بأسلوب من أساليب المناظرة فيقيم حجتهم عليهم (معارضة بالقلب) ، تقولون إنكم أبناء فاطمة بنت الرسول ، وهذا صحيح أسلم به ، وهى حجة لنا عليكم لا لكم علينا لأن الأعمام أحق بالميراث من أبناء البنات . . . وإنك لتكاد تلمس هذه الدعوى نتيجة لقياس منطقى تضمنه البيتان .

وكذلك قوله :

هل تَطْمِسون من السماء نجومَها بأَكُفكم أو تسترون هلالَها
أو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلَّغها النبى فقالها
شَهِدتْ من الأنفال آخرُ آية بتُراثِهم فأَرَدْتُمُ إبْطَالهـــا[1]

زعم وجوب الخلافة للعباسيين لأنهم أعمام النبي وحرمان بنى البنات منها ، والآية التى يشير إليها هى « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله »[2] وكأنه أساء فهم الآية واستشهد بها فى غير موضع لأنه يريد أن ذوى الرحم يتراحم بعضهم بعضا بحيث لا يزاحمون العصبية فى الميراث بل تنفرد العصبية بالاستيلاء على جميع التركة .

وشبيه بهذا الجدل قول مروان :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمـــام[3]

وانظر إلى هذا التدليل فى قول مسلم بن الوليد :

دَلَّتْ على عَيْبِها الدُّنْيا وصَدَّقَها ما اسْتَرْجَعَ الدَّهْرُ مما كانَ أعْطَانِى[4]

كذلك ازدحمت دواوين الشعراء بالاصطلاحات والآراء الفلسفية والعلمية كما فى قول أبى تمام :

وقديمة قبل الزمان حديثة جاءت وما نسبت إلى آناءِ
روح بلا جسدٍ تعين بلا قوى وقوى خلقنَ خفيةً من ماءِ[5]

فهو يصف الخمر بالقدم والحدوث قبل الزمان ويشبهها بالجواهر المجردة التى منها الأرواح

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٥٥١ من طبعة الشعب

(٢) سورة الأنفال آية ٧٥

(٣) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٤٨٩

(٤) الديوان ص ٩٩ من طبعة ليدن ١٨٧٥

(٥) الديوان ص ١٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩

التى يسميها بالقوى الخفية المدبرة للأجساد ، ولذلك يدعى قدمها قياسا على قدم النفوس الناطقة كما يزعم أرسطو زعيم الفلاسفة .

وانظر إلى هذه الأبيات من خمريات أبى نواس :

كرخية قد عُتِّقت حُقُبَة حتى مضى أكثر أجزائها
فلم يكد يدرك خمارها منها سوى آخر حوبائها[1]

فكأنك أمام عالم طبيعى يحدثك عن خواص الأجسام لا أمام شاعر يصف خمرا ، ومن ذلك قول الرقاشى :

ألم تر أن الشىء للشىء علة تكون له كالنار تقدح فى الزند

ومنه قول أبى نواس :

مازلت أستَلُّ روح الدَّنِّ فى لُطُفٍ (وأستَقى دمهُ غير مجروح)
حتى انْثَنَيْتُ ولى رُوحانِ فى جسدٍ والدنُّ مُنْطَرِحٌ جسْماً بلا روح[2]

وقوله :

وذَاتِ خَد مُورَّدْ قوهيّة المتجرَّدْ
تَأَمَّلَ العين منها مَحَاسِناً ليس تَنْفَدْ
وبعضها قد تناهى وبعضها يَتَولَّدْ[3]

وقوله :

تركْتُ مِنّى قليلاً من القليل أقَلاَّ
يكاد لا يتجزّا أقلُّ فى اللفظِ مِنْ لا[4]

---

(١) الديوان ص ٢٣٩ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٢) هكذا فى الديوان ص ٩٢ ورواها أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فى كتاب « مختلف الحديث » بشكل آخر

مازلت آخذ روح الدن فى لطف وأستبيح دما من غير مذبوح
حتى انثنيت ولى روحان فى بدن والزق مطرح جسم بلا روح

وصاحب العقد الفريد رواها رواية الديوان إلا أنه نسبها لإبراهيم النظام وراجع فيها كذلك الآمدى : الوساطة بين شعر أبى تمام والبحترى جـ١ ص ٨٥ بتحقيق السيد أحمد صقر من طبعة دار المعارف

(٣) الديوان ص ٢٣٢ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ٢٤٣ من طبعة مطبعة الاستقامة والأغانى جـ ٢٩ ص ٩٨٤٦ من طبعة الشعب .

ومن اصطلاحات علم الكلام « الجوهر » و« العرض » .

ويقول أبو تمام :

مودّةٌ ذهبٌ أثمارُها شبهٌ وهمّةٌ جوهرٌ معروفُها عَرَضُ (١)

وانظر إلى « الدعوى » و« الفلسفة » فى قول أبى نواس يخاطب النظام :

فقل لمن يدّعى فى العِلْمِ فلسفةً عرفت شيئاً وغابتْ عنْكَ أشْياءُ (٢)

وانظر إليه يشير إلى أن الخمر للطافتها وصفائها تشبه الصور الذهنية والمعانى المجردة عن أشخاصها الخارجية :

صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دق فى ذهن لطيف

وشبيه به قوله :

جاءتْ بخاتَمِها من بيت صاحبها روحٌ من الكرْمِ فى جسْمٍ من القارِ (٣)

وانظر إلى الغرض والنتيجة فى قول أبى تمام :

لك هضبة الحلم التى لو وازنت أجأً إذاً ثقلت وكان خفيفا (٤)

ونقول إجمالا فى أبى تمام أن عقليته تأثرت بالفلسفة اليونانية وبالمنطق بنوع خاص حتى أصبح « فنه » متسما « بالتركيب » .

يقول أبو تمام :

ولكننى لم أَحْوِ وَفْراً مُجَمَّعاً ففُزْتُ به إلا بشَمْلٍ مُبَدَّد

ولم تُعْطِنى الأيام نوما مُسَكَّنا أَلَذُّ به إلا بِنَوْم مُشَرَّد

وطُولُ مُقَامِ المرْءِ فى الحىّ مُخْلِقٌ لديباجتَيْه فاغْتَرِبْ تَتَجدَّد

ثم انظر إليه فى الرابع يأبى إلا أن يدلل على البيت الثالث فيعمد إلى التمثيل

فإنى رأيت الشَّمس زِيدت مَحبَّة إلى النَّاسِ أن لَيْسَتْ عليهم بسرْمد (٥)

---

(١) الديوان ص ٣٥٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ٧ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

(٣) الديوان ص ٦٨٦ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

(٤) الديوان ص ١٨٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٥) الأغانى جـ ١٧ ص ٦٢٣١ من طبعة الشعب والديوان ص ٩١ من طبعة بيروت ١٨٨٩

وانظر إلى قوله :

خرقاءُ يلعب بالعقول حبابُها كتلاعبِ الأفعالِ بالأسماءِ(١)

وإلى قوله :

أَغْلَى عَذارَى الشِّعْر إن مُهورَها عند الكِرام وإن رَخُصْنَ غَوال(٢)

من أين له بهذا التعبير « عذارى الشعر » . . . لئن كان هذا المعنى « بنات الشعر » شائعا اليوم فما كان شائعا فى القديم ، نظنه أخذه عن اليونانية ، وعرائس الشعر ، وآلهة الشعر ، كثيرة عند اليونان .

وأبو نواس كما رأيت متأثر بهذا الجو العلمى فكثير من معانيه الشعرية جار عليها العلم ، فأخفى الحسن فيها مثال ذلك قوله :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالمَ فى واحَد(٣)

وأنت إذ تسمع هذا البيت لأول مرة تعمل فيه فكرك لتفهمه ولو لحظة قصيرة من الزمن ، ومع ذلك فالمعنى بسيط صاغه جرير فى قالب آخر ، قال :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا(٤)

المعنى هو هو بعينه ، ومع ذلك فقد أعملنا الفكر فى البيت الأول ووصل المعنى فى بيت جرير بوصول الألفاظ إلى السمع ، فالأول أشبه بالكلام العلمى المحبوك لأن صاحبه متأثر بعلم الكلام وبالقضايا المنطقية والثانى يؤدى ذلك المعنى فى يسر وسهولة .

ويصرخ البحترى من هذا المنطق الذى تملك ألسنة الشعراء ويقول :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يكفى من صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ـطق ما نوعه وما سببه

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه(٥)

---

(١) الديوان ص ١٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الأغانى جـ ١٧ ص ٦٢٤١ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٤٥٤ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

(٤) الديوان ص ٢٨ من طبعة مصر ١٣١٣ هـ

(٥) الديوان ص ١٣٣ من طبعة الجوائب ١٣٠٠ هـ

وليس من شك فى أن البحترى أقرب شعراء العصر إلى الوجدانية ، بل فيه شىء من البداوة والسذاجة ، ومع ذلك فشعره لم يخل من تأملات فلسفية ، كقوله :

بربك أيها الفلك المدار أنهب ما تصرف أم خيار

أو ليس هذا مذهب الجبر والاختيار ؟

الحكم اليونانية

لقد أخذ الشعراء من تلك الحكم ما ضمنوه أشعارهم ، كما يتضح من الأمثلة الآتية :

– قال أرسطو « الحكيم الصالح لا يخادع أحدا والعاقل الكامل لا يخدعه أحد » .

فقال أبو تمام فى هذا المعنى :

لَيْسَ الغَبِىّ بِسيّدٍ فى قَوْمه لكِنّ سيّد قَوْمِه المُتَغَابِى (١)

– قال أرسطو « ليس شىء من خلقه بأدل عليه من شىء واحد » ردا على سؤال أفلاطون له « ما الدليل على وحدة البارى ؟ » .

فقال أبو العتاهية :

فيَا عَجَبا كيف يَعْصِى الإلَه أمْ كيف يَجْحَدُهُ الجاحِدُ

وفى كُل شىءٍ له آيَةٌ تَدلُ على أنه الواحِدُ (٢)

– رأى ديوجونيس لقيطا يرمى بالحجارة ، فقال له « لا ترم فلعلك تصيب أباك وأنت لا تدرى » وترى ذلك المعنى بأوضح ما فيه فى قول الشاعر أبى نواس :

لا تهج أسنَّ منك فربما تهجو أباك وأنت لا تدرى

– قال ديمستانس « يجب على من اصطنع معروفا أن يتناساه من ساعته » ، ألا ترى أن فيما قيل فى يحيى بن الفضل ما يتضمن ذلك المعنى :

ينسى الذى كان من معروفه أبدا إلى الرجال ولا ينسى الذى يعد

– رأى الإسكندر رجلين من أصحابه تخاصما ، وهتك كل واحد منهما صاحبه ، وكانا صديقين فقال « ليحق للرجل إذا آخى أن يكون حذرا فلا يسترسل فى ذكر ما قد يشينه » .

---

(١) الآمدى : الوساطة بين أبى تمام والبحترى جـ ٢ ص ١٠٣ بتحقيق السيد أحمد صقر من طبعة دار المعارف

(٢) الديوان ص ٦٩

مقارنة الأسلوب فى الشعر الأموى والعباسى

نلاحظ أن القصيدة فى الشعر العباسى أفكارها مرتبة ، بعضها آخذ برقاب بعض ، ونلاحظ عكس ذلك فى الشعر الأموى ، فالقصيدة أجزاؤها مهلهلة مفككة لا يربطها إلا الوزن والقافية وما استرسل من المعانى اتفاقا ، لا تعتمد إلا على وحدة البيت ، فلو أنك أحللت البيت الرابع محل البيت الثانى والخامس محل الثانى ، لما تغيّر المعنى أو فسد .

والشاعر المداح يبدأ قصيدته بالغزل ثم ينتقل فجأة إلى المدح ، كما فى قول جرير يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك :

قتلْتَنا بعيون زانها مرض ... وفى المراض لها شجو وتعذيب
حتى متى أنت مشغوف بغانية ... صب إليها طويل الدهر مكروب
هل يصبوَنَّ حليم بعد كبرته ... أمسى وإخْوَانُه الأعمام والشيب
إن الإمام الذى ترجى نوافله ... بعد الإمام ولى العهد أيوب (1)

ثم يمضى فى المدح .

أما الشاعر العباسى فهو على سنة الأوائل يبدأ بالغزل وقد يحوم حول الدمن والمغانى ، لكنه فنان يحاول أن يجعل قصيدته وحدة متماسكة يكمل بعضها بعضا فهو جاهد فى حسن التخلص من باب إلى باب ، جاهد فى خلق المناسبات لهذا الانتقال موفقا كان أو غير موفق .

فانظر إلى أبى نواس كيف يناجى الربوع ثم يصف ناقته ثم يمدح على نحو ما كان يفعل الجاهليون والأمويون وقصيدته مع ذلك متماسكة الأجزاء تراه فيها واثبا من هنا إلى هناك بل متنقلا بتؤدة وأناة .

أربْعَ البلى إن الخشوعَ لبادِ ... عليك وإنى لم أخُنْك ودَادِى
فمعْذِرة منى إليك بأن ترى ... رهينةَ أرْواح وصوبَ غوادِى

(1) الديوان ص ١٥ ، ١٦ من طبعة مصر ١٣١٣

ولا أَدْرَأُ الضَّراءَ عنك بحيلةٍ   فما يك فيها قائلٌ بسعاد
وإن كنتَ قد بدَّلت بؤسا بنعمة   فقد بدلت عينى قذًى برقاد
سأرحلُ عن قُودِ المهارى شِمِلَّةً   مسخَّرةً لا تستَحِثُّ بحادِى
على الريح إن قامت وإن هى أعْصفَتْ   نُهوزٌ برأسٍ كالعَلاةِ وهادِى
وما ذاك فى حب الأمير وزَوْرِهِ   ليعْدلَ من عنسى مدب قُرادِ
رأيت الفضل فى السماحة همة   أطالت لعمرى غيظ كل جوادِ[1]

وليس هذا التفكك فى القصيدة الواحدة وانقطاع ما بين أجزائها مقصوراً على الغزل والمدح ، كما قد يظن ، لكنك ترى ذلك عاما شائعا . فالشاعر الأموى ينظم القصيدة خواطر متفرقة ليس يوحدها موضع أو يؤلف بينها فكرة .

انظر إلى جرير يبدأ بالتحدث عن الأمير :

بكر الأمير لغُرْبَةٍ وتنائى   فلقد نسيت برامتين عزائى
إن الأمير بذى طلوح لم يبل   صدع الفؤاد وزفرة الصعداء

ثم هو منصرف عن حديث الأمير إلى حديث الحسان :

قلبى حياتى بالحسان مكلف   ويحبهن صداى فى الأصداء
ولقد وجدت وصالهن تخلّيا   كالظل حين تفئ للأفْياء
بالأعزلين عرفت منها منزلا   ومنازلا بقتادة الحرجاء

ومن الحسان ينتقل إلى خصومة الشعراء :

خزى الفرزدق والأخيطل قبله   والبارقى وراكب القصواء
ولأعورى نبهان كأس مرة   ولتيم برزة قد قضيت قضائى
ولقد تركت أباك يابن محب   حطم القوائم دامى السيساء
والمستنير أجير برزة عائذا   أمسى بألأم منزل الأحياء
وبنو البعيث ذكرت حُمْرة أمه   فشفيت نفسى من بنى الحمراء
فسل الذين قذفت كيف وجدتمو   بعد المدى والقاذف الأرجاء
فاركض قفيرة يا فرزدق جاهداً   واسأل قفيرة كيف كان جزائى

(١) الديوان ص ٤٧١ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

ثم هو عائد إلى الأمير عبد العزيز بن الوليد :

عبد العزيز هو الأغر نما به عيس تفرع معظم البطحاء[١]

فأنت ترى أن القصيدة ثوب رقيع كهذه الثياب الصفراء الخضراء الحمراء الدكناء التى يلبسها المتدروشون ذوو اللحى الطويلة والعمائم العريضة من مشعوذى حى السيد الحسين أوحى السيد البدوى .

أحب أن نقارن هذه القصيدة بقصيدة أخرى لأبى نواس فى نفس الموضوع (المدح) ولتكن قصيدته « أجارة بيتنا » فى مدح الخصيب ، نراه يبدأ بالغزل لكنه يتخلص منه إلى مدح الخصيب تخلصا نشعر معه بجهد عقلى يحاول أن يؤلف بين أجزاء القصيدة لأنه ، فيما نرى يدين بوحدة القصيدة لا بوحدة البيت :

أجارة بيتنا أبوك غَيُورُ ومَيْسُورُ ما يُرْجَى لديْك عسيرُ

فإن كنتِ لا حِلْماً ولا أنتِ زَوْجَةً فلا برحَتْ منا عليك سُتور

وجاوَرْتُ قوما لا تزاوُرَ بينهم ولا وَصْل إلا أن يكون نُشور

إلى أن يقول :

تقول التى عن بيتها خفّ مرْكبى عزيز علينا أن نراكَ تسيرُ

أما دون مصرٍ للغنى مُتَطلّبٌ بلى إن أسْبابَ الغِنى لكثيرُ

فقلت لها واستَعْجَلتْها بوادِرٌ جرتْ فجرَى فى جرْيهنَّ عبيرُ

ذرينى أكثر حاسديك برحْلةٍ إلى بلد فيه الخصيبُ أميرُ

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيبِ ركابُنا فأىُّ فتىً بعد الخصيبِ تَزورُ[٢]

ثم يمضى فى مدح الخصيب مطمئنا .

ومهما يكن فأنت تقرأ هذه القصيدة أربعين بيتا فتراها أفكارا متسلسلة مرتبة ، بينها كمال اتصال أو شبه كمال .

فما سر هذا التطور فى الشعر العباسى ؟

قد يقال إنه أثر من آثار المنطق اليونانى وقد ترجم إلى العربية ، ونحن نشك فى ذلك فقد

---

(١) الديوان ص ٦ ، ٧ من طبعة مصر ١٣١٣ هـ

(٢) الديوان ص ٤٨٠ – ٤٨١ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣ والأغانى جـ٢٩ ص ١٠٠١١ من طبعة الشعب .

اشترط أرسطو فى كتابه « بوليطيقا » وحدة البيت ، أهو أثر لطبيعته العقلية الآرية ، وشعراء العصر ، كما ترى ، يجرى فى عروقهم الدم الفارسى ؟

ومهما يكن فهذه ظاهرة استخلصناها من مقارنة الشعر الأموى والعباسى فنحن نسجلها تاركين التعليل .

البديع

ضروب الخيال والوهم والتصور موجودة بالفطرة فى كل إنسان مدنيا كان أم بدويا ، عالما أو سارحا ، رجلا أو طفلا . وما البديع إلا وليد الخيال والوهم والتصور ، فليس من شك فى أن البديع كان موجودا فى أقدم عصور الشعر العربى ، وزعيم المدرسة البديعية فى الجاهلية هو أوس بن حجر ، إلا أن هذا البديع فى الجاهلية وفى صدر الإسلام ، وفى العصر الأموى كان طبيعيا غير متكلف ، لم يكن البديع مذهبا شعريا يقصد إليه لذاته حتى كان العصر العباسى ومال الناس إلى التجديد وسبقهم الشعراء ، فهذا يجدد فى المعنى ، وهذا يجدد فى الأسلوب .

وأول من استكثر من ضروب البديع بشار بن برد ، فلما جاء مسلم بن الوليد جعل هذا البديع مذهبا شعريا وربما ضحى بالمعانى ليكسو الأسلوب محسنات لفظية . تقرأ مسلما فترى فنانا يصنع الشعر صنعا ، كما يصنع المثال تمثالا ، وكما يحوك الحائك بردا . ويظهر لنا أن هذا الإسراف طبيعى فى عصور التجديد والتطور الأدبى ، فقد كان من آثار التجديد فى القرن السابع عشر فى فرنسا شىء من ذلك ، فقد طلعت على الناس (صالونات الأدب) ولا سيما صالون الماركيزة ، بطائفة من البديعيات تشبه تماما بديع مسلم وأبى تمام ،

فاليد كانوا يسمونها : La belle mouvante.

والرِّجل كانوا يسمونها : Le chez souffrant.

والخد كانوا يسمونه : Le trône de la pudeur.

والشمعة كانوا يسمونها : Le supplement du soleil.

والمرآة كانوا يسمونها : Le conseiller des grâces.

والمقعد كانوا يسمونه : La commodité des conversations.

وكوبة الماء Un bain Interieur.

ولما توفيت الماركيزة سنة ١٦٦٥ م وتحول قواد ناديها إلى ناد (صالون) . طلع الصالون على الأدب ببديعيات أمعن تكلفا حتى ندد به جماعة من الأدباء ، وأسرف مليير فى السخرية بهذا البديع عندما كتب Les precieuses ridicules .

هذا البديع على ما فيه من سخف كان أصحابه من أرقى طبقات فرنسا نبلا وثقافة ، ورواد (صالون) Nv m de Rambouillet رجال عظام :

Conte de Guiche, Le Rochefou cauld, bondé

ومن السيدات :

M eme de Longueville وأختها M eme de Levigne conetė

و melle Angelique ومن الكتاب Malherbe و Chapelain, و Recan, Arthenice

سكرتير الأكاديمي الفرنسي و M elle Angelique و Ménage

Georges Severy و Mad'leine Searery و M m de la Fayhe

ما أشبه هذه الأمثلة من البديع الفرنسي ببديع أبي تمام في قوله :

كم صارمٍ عضبٍ أناف على فتى منهم لأعباء الوغى حمّالِ
سبق المشيبَ إليه حتى ابتزّهُ وطن النُّهى من مفرقٍ وقذال[١]

يريد بوطن النهى الرأس ، كما ترى ، ما أشبه « وطن النهى » هذا بقول أصحابنا مجددي الصالونات «عرش الحياء La trône de la pudeur» يريدون به الخد ، وما أشبه هذا التكلف بتكلف البحتري في بعض بديعه :

قلبٌ يطل على أفكاره ويد تمضي الأمور ونفس لهوها التعب[٢]

يريد بقوله « قلب يطل على أفكاره » أنه لا يحفل بالخطوب التي تشغل قلوب الناس . وما أشبه ما يقوله أبو نواس :

بحّ صوت المال مما منك يشكو ويصيح[٣]

أو قول أبي تمام :

وتقاسمَ الناسُ سخاءً مجزّأً وذهبتَ أنت لرأسهِ وسنامِهِ
وتركتَ للناسِ الإهابَ وما بقي من فرثِهِ وعروقِهِ وعظامِهِ[٤]

---

(١) الديوان ص ٢٣٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٢) الديوان جـ ٢ ص ٢٠٤ من طبعة الجوائب ١٣٠٠هـ
(٣) الديوان ص٧٠ من طبعة مصر ١٨٩٨ م
(٤) الديوان ص ٢٦٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩

أو قول ديك الجن :

لا ومكان الصليب فى النحْر مِنْـ ـك ومَجرى الزّنّار فى الخصرِ
والخال فى الخدّ إذا شبهه وردة مسك على ثرى تبر
وحاجب مذ خطه قلم الحسْـ ـن بحبر البهاء لا الحبر
وأقحوان بفيك منتظم على شبيه من رائق الخمر(١)

ما أثقل هذا الرد ، وعندى أن الأمر ليس يعدو أن يكون إسرافا فى التقدير ، فقد رأى هؤلاء أن اللغة فى القرن السادس عشر أصبحت دارجة إلى حد الإسفاف ، ورأوا أن الأدباء شديدو الحرص على أساليب خاصة مقتبسة من القديم (اليونانى واللاتينى) فأحبوا أن يجددوا فأساءوا التجديد كطبيب يريد أن يعالج مريضا فيصف له دواء ثقيلا لا تحتمله أمعاؤه فيزيده مرضا ، أو بعبارة أكثر اعتدالا يؤخر شفاءه .

رأى شعراؤنا فى العصر العباسى ما وصل إليه الشعر من جمود منشؤه الحرص على تقليد القدماء فى الجرى على أساليب مخصوصة فأحبوا أن يجددوا ، فجدد ابن هرمة وبشار بمقدار وأسرف مسلم وأبو تمام كل الإسراف .

ويروى الجاحظ أنه أنشد أبا شعيب القلال قصيدة أبى نواس :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس(٢)

فقال له : والله يا أبا عثمان إن هذا لهو الشعر .

والجاحظ يقول لمن هذه الأبيات ، لا أعرف شعرا يفضله .

على أن الناس لم يسلموا بهذا التجديد فهم يحافظون ويجددون شأن الناس اليوم والأمس والغد ، فكم قرأنا فى الكتب القديمة : أن من أفسد الشعر مسلم وتبعه أبو تمام ، ثم الشعراء بعده حتى انتهى السبق الى ابن المعتز .

ومن أنصار هذا التجديد إسحاق الموصلى وهو يقول عن مسلم أنه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين فضمنه المعانى اللطيفة وكساه الألفاظ الطريفة ، فله جزالة البدوى ورقة الحضرى .

---

(١) يحيى بن حمزة العلوى : الطراز جـ ١ ص ١٧٤ من طبعة المقتطف ١٩١٤

(٢) الديوان ص ٢٩٥ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

وفى الموشى : حدثنا فلان عن فلان . . . قال سمعت ابن الأعرابى يقول : إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل (يريد شعر أبى تمام) .

ولعل أوضح ما يمثل هذه المشادة بين المحافظة والتجديد ما رواه الأغانى من أن مسلما اجتمع وأبو العتاهية فى مجلس ، فجرى بينهما كلام ، فقال مسلم : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمدُ والنعمةُ لك والملكُ لا شريكَ لكْ
لبَّيْك إن المُلْك لكْ

لقلت فى اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكنى أقول :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ كأنه أجلٌ يسعىَ إلى أملِ
يَنال بالرِّفق ما يَعْيا الرجالُ به كالموتِ مُستعجِلاً يأتى على مَهَل
يكسو السيوفَ نفُوسَ الناكثين به ويجعلُ الهامَ تيجانَ القَنا الذُّبُل

فقال له أبو العتاهية : قل مثل قولى « الحمد والنعمة لك » أقل مثل قولك « كأنه أجل يسعى إلى أمل » (١) .

المشادة بين المحافظة والتجديد قائمة لابد منها فى كل تطور أدبى ، إلا أن هذا المذهب فى التجديد ، مذهب البديع ، غلب فى هذا غلبة العصر ، غلبة يكفى للدلالة عليها أن أبا نواس ، وهو زعيم مدرسة مجددة لا يمت تجديدها بصلة إلى البديع ، لا يمت بصلة إلى الشكل والصياغة ، بل هو تجديد فى الجوهر – أى فى المعانى – وأبو نواس ، كما نعرف ، أقرب فى شعره إلى الشعبية منه إلى المثالية ، أقول يكفى للدلالة على انتصار هذا المذهب البديعى إلى أن أبا نواس تأثر به تأثرا ظاهرا ، وهو ما نرجو أن نوضحه .

ويخيل إلينا أن غلبة هذا البديع أثر من آثار الفرس الذين امتزجوا بالعنصر العربى فى هذا العصر امتزاجا ، وقد اشتهر الإيرانيون بالميل إلى الغلو فى التعبير والتهويل .

تنفست نملة فى البحر فحولته أتونا مستعرا .

ونلخص ما نريد قوله فى أن البديع موجود من أقدم النصوص الأدبية فى الشعر الجاهلى ، وفى القرآن وفى الشعر الأموى ، وأنه كان لا يقصد إليه لذاته فى الشعر الجاهلى والأموى ، فأصبح فى الشعر العباسى صناعة فنية ، إذ يتبين ذلك فيما يلى بأوضح الأمثلة .

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٢٤٢ من طبعة الشعب

البديع فى العصر الجاهلى

الطباق لأوس بن حجر :

أطـعْـنـا ربَّـنـا وعصَـاه قـوم فذُقْنا طَعم طَاعَتِنا وذَاقُوا(١)

ولامرئ القيس فى الطباق :

بماءِ سَحَابٍ زَلَّ عَنْ ظَهْرِ صَخْرَة إلى بَطْنِ أُخْرَى طَيِّبٌ مَاؤُهَا خَصِر(٢)

ولتأبط شرا فى الجناس :

يرى الوحشة الإنسى الأنيس ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

ولامرئ القيس فى الطباق :

لقد طَمَحَ الطَّمَّاحُ من بُعْدِ أرْضِهِ لِيُلْبِسَنى مِنْ دَائِه ما تَلَبَّسَا(٣)

وقال أمية بن أبى الصلت :

فما أعتبت فى النائبات لمعتب ولكنها طاشت وضلت حلومها

ولأوس فى الجناس :

عُوجوا علىّ فحيّوا الحىّ أو سيروا(٤)

ولعنترة العبسى فى الجناس :

وذلكم أنّ ذُلّ الجار حالفكم وأن آلفكم لا يعرف الأنفا

وللخنساء فى الجناس أيضاً :

إن الـبـكـاء هـو الشـفـا ء من الجوى بين الجوانح(٥)

ولامرئ القيس فى الجناس :

وَسِنٍ كُسُنَّيْقٍ سَنَاءً وَسُنَّمًا ذَعَرْتُ بِمِدْلَاجِ الهَجِيرِ نهُوضِ(٦)

---

(١) الديوان ص ٧٩ من طبعة دار صادر ببيروت

(٢) الديوان ص ٨٤ من طبعة حسن السندوبى

(٣) الأغانى جـ ٩ ص ٣٢٢٠ من طبعة الشعب والديوان ص ٩٩ من طبعة حسن السندوبى :

(٤) وصدر البيت : « قد قلت للركب لولا أنهم عَجِلُوا » – الديوان ص ٤٠ من طبعة دار صادر ببيروت

(٥) الديوان ص ٢١ من طبعة الزيدانى ١٣٢٦ هـ

(٦) الديوان ص١١١ من طبعة حسن السندوبى

ولامرئ القيس فى المقابلة :

فَلَوْ أَنَّها نَفْسٌ تَموتُ سَوِيَّةً ولكِنَّها نَفْسٌ تُساقِطُ أَنفُسَا(١)

ولزهير فى التقسيم :

فإن الحقَّ مَقْطَعُه ثلاثٌ يَمِينٌ أو نِفَارٌ أو جلاءُ

فذلكُمُ مَقَاطِعُ كل حقٍّ ثلاث كُلُّهنّ لكم شَفاءُ(٢)

وكان عمر رضى الله عنه يتعجب من صحة هذه القسمة ويقول : لو أدركت زهيرا لوليته القضاء .

ولأمية بن أبى الصلت فى التقسيم :

لله نعمتنا تبارك ربنا رب الأنام ورب من يتأبد

ولتأبط شرا فى الغلو :

ويوم كيوم العَيْكَتَيْنِ وعطفة عطفت وقد مس القلوب الحناجر

فإن القلوب لا تصل إلى الحناجر ، وهى فى القرآن «وبلغت القلوب الحناجر» .

ولامرئ القيس فى الترصيع :

سَلِيم الشَّظَى عَبْلِ الشَّوى شَنِج النَّسَا لهُ حَجَبَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الفَال(٣)

وقوله :

وَأَوْتَادُهُ مَازِيَّةٌ وَعِمادُهُ رُدَيْنِيَّةٌ فِيها أَسِنَّةُ قَعْضَبِ(٤)

وللخنساء فى الترصيع :

حامى الحقيقة محمود الخليفة مهـ ـدى الطريقة نَفَّاع وضرّار(٥)

وفيه طباق أيضاً من جهة جمعها بين النفع والضر .

ولأوس فى الترصيع :

هُدْلاً مشافِرها بُحًّا حَنَاجِرها تزجى مرابيعها فى صَحْصَح ضاحى(٦)

---

(١) الديوان ص ٩٩ من طبعة حسن السندوبى

(٢) شرح الديوان ص ٧٥ من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٣) الديوان ص ١٤٤ من طبعة حسن السندوبى

(٤) الديوان ص ٤٠ من طبعة حسن السندوبى

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٢٨٢

(٦) الديوان ص ١٧ من طبعة دار صادر ببيروت

ولزهير بن أبي سلمى في الترصيع :

كَبْداءُ مُقْبِلَةً عجزاء مُدْبِرةً عرجاءُ فيها إذا استعرضتَها خَضَعُ (١)

ولتأبط شرا في الترصيع :

حمّال ألوية شهّاد أندية هبّاط أودية جوّال آفاق (٢)

وللخنساء في الترصيع :

فعال سامية وراد طامية للمجد نامية تعنيه أسفار
جواب قاصية جزاز ناصية عقاد ألوية للخيل جرار
حلو حلاوته فصل مقالته فاش حمالته للعظم جبار (٣)

ولأبي صخر الهذلي في الترصيع :

وتلك هيكلة خَوْدٌ مُبتَّلَةٌ صَفراءُ رِعْبِلَة في منصب سَنِم
عذب مقبلها خدل مخلخلها كالدعص أسفلها مخصورة القدم
سود ذوائبها بيض ترائبها محض ضرائبها صيغت على الكرم (٤)

وقوله :

سمح خلائقها دُرم مرافقها يُروى معانقها من بارد شَنَب

ولعنترة في التصدير :

فأجبتها إن المنية منهل لابد أن أسقى بذاك المنهل

ولامرئ القيس في التصدير :

إذَا المَرْءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بخَزَّانِ (٥)

ولعمرو بن معديكرب :

إذا لم تستطع شيئا فدَعْهُ وجاوزه إلى ما تستطيع

---

(١) شرح الديوان ص ٢٣٧ من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٢) المفضليات ص ٢٧ من طبعة دار المعارف

(٣) يحيى بن حمزة العلوى : الطراز جـ ٣ ص ٤١ من طبعة المقتطف ١٩١٤

(٤) شرح اشعار الهذليين جـ ٢ ص ٩٦٨ – مكتبة دار العروبة

(٥) الديوان ص ١٨٤ من طبعة حسن السندوبى

ولزهير فى التصدير :

والسِّتْرُ دونَ الفاحشاتِ وما يَلْقاكَ دونَ الخيرِ منْ سِتْرِ (١)

ولطرفة فى التتميم :

فَسَقَى بِلادَكَ غيْرَ مُفْسِدِها صَوْبُ الرَّبيعِ وَديمَةٌ تَهْمِى (٢)

وللخنساء فى التتميم :

وإن صَخْراً لتأتَمُّ الهُداةُ به كأنه عَلَمٌ فى رأْسه نار (٣)

يوجد كثير من المحسنات البديعية فى الشعر الجاهلى ، وإذا تصفحنا آى الذكر الحكيم وجدناها حافلة بهذه المحسنات ، فنى القرآن الكريم كثير من الطباق كما فى قوله تعالى (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) و (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) و (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرا) .

وفى التنزيل من الجناس (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) فالساعة الأولى القيامة ، والثانية الساعة الزمنية ، وقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) و (والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق) .

وفى الاستخدام قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فقد أراد بالشهر الهلال وبضميره وقت الصيام المعهود . وفيه من تأكيد المدح بما يشبه الذم قوله جل شأنه (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا) . وبه من القلب ، وهوكون الكلام يقرأ طردا كقراءته عكسا ، (وربك فكبر) و(كل فى فلك) .

وفى المذهب الكلامى وهو ذكر الحجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب ، ومن ذلك قوله تعالى (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أى واللازم وهو الفساد باطل ، فكذا الملزوم ، وهو تعدد الآلهة ، وقوله تعالى (وهو

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٧٦٨ من طبعة الشعب وشرح الديوان ص ٩٥ من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٢) شعراء النصرانية ص ٣١٦ من طبعة الآباء اليسوعيين

(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ٥٣٦٦ من طبعة الشعب والديوان ص ٥٨ من طبعة الزيدانى ١٣٢٦ هـ والبغدادى : خزانة الأدب جـ ١ ص ٢٩٣

الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى وكل ما هو أهون فهو أدخل تحت الإمكان فالإعادة ممكنة .

وفى القرآن غير ذلك من ضروب المحسنات البديعية ما لا يتسع المجال لسردها .

البديع فى العصر الأموى

للفرزدق فى الطباق :

لعنَ الإلهُ بَنى كُلَيْبٍ أنهُمُ لا يَغْدِرُونَ ولا يَفُونَ لجارِ
يستيقظون إلى نَهيق حمارِهِمْ وتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عن الأوْتارِ(١)

ولجرير مطابقاً :

وبَاسِطَ خَيْرٍ فيكُمُ بيَمينِه وقَابِضَ شَرٍّ عَنكُمُ بِشماليا(٢)

فقد جمع فى البيت ثلاثة تطبيقات بين البسط والقبض والخير والشر واليمين والشمال .

وللأخطل فى الطباق :

قُلْتُ المُقَامَ ونَاعِبٌ قَالَ النَّوَى فَعَصَيْتُ قَوْلى والمُطَاعُ غُرَابُ(٣)

وقال الفرزدق مجانسا :

جُفافٌ أجَفَّ اللهُ عَنْهُ سَحابَهُ وأوْسَعَهُ مِنْ كُلِّ سَافٍ وحاصِبِ(٤)

وله أيضا :

قد ساد فى أَسَلاتِنا أوْ عَضَّهُ عَضْبٌ بضربته المُلُوكُ تُقَتَّلُ(٥)

وللقطامى فى الجناس :

فلا ردها فى الشول شالت بذيال يكون لها لفاع

---

(١) الديوان ص ٤٥٠ من طبعة الصاوى

(٢) الديوان ص ٦٠٥ من طبعة الصاوى

(٣) الديوان ص ٣٧٨ من طبعة الصاوى .

(٤) الديوان ص ٢٩ من طبعة الصاوى

(٥) الديوان ص ٧١٥ من طبعة الصاوى

ولجرير فى الجناس :

ومازال مَعْقُولاً عن الندى ومازالَ مَحْبُوساً عن الخيرِ حابِسُ(١)

وقال الكميت مجانسا :

فقل لجذام قد جذمتم وسيلة إلينا كمختارى الرداف على الرحل

وقال النعمان بن بشير لمعاوية :

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا ولُبُّك عما نام قومك نائم

وللخارجية أخت ابن طريف الخارجى فى تجاهل العارف :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف(٢)

ولمجنون بنى عامر فى تجاهل العارف :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

ولعمر بن أبى ربيعة فى التورية :

أيها المنكحُ الثريا سُهَيلا عَمْرَكَ الله كيف يَلْتقيانِ

هى شامية إذا ما استقلّتْ وسُهَيلٌ إذا ما استقلّ يمانى(٣)

فإذا أراد محبوبته المسماة ثريا وقد تزوجت رجلا اسمه سهيل فهو يورى بالكوكبين المسميين باسميهما .

ولجرير فى الاستخدام وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا(٤)

فقد ذكر السماء فى الشطر الأول بمعنى المطر وأعاد الضمير عليه بمعنى آخر وهو النبات .

ولعمر بن أبى ربيعة فى التصدير :

ليتَ هنداً أنجزْتنا ما تَعِدْ وشَفَتْ أَنْفُسَنا مما نَجِدْ

---

(١) الديوان ص ٣٢٦ من طبعة الصاوى

(٢) التبريزى : شرح ديوان أشعار الحماسة جـ ٣ ص ٦٥ من طبعة مطبعة بولاق ١٢٩٦ هـ والطبرى جـ ٨ ص ٢٥٧ من الطبعة الثانية بدار المعارف

(٣) الأغانى جـ ١ ص ٢٣٤ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٣١ من طبعة المطبعة العلمية ١٣١٣ هـ

واستبدّتْ مرة واحدةً إنما العاجزُ من لا يَسْتبِدْ[١]

وللحطيئة فى جناس المضارعة :

مطاعينُ فى الهَيْجا مكاشيف للدُّجى بَنَى لهمُ آباؤهم وبَنَى الجدُّ[٢]

ولجرير فى الطباق :

كما طَرَدَ النهارُ سَوادَ لَيْلٍ فأَزْمَعْ حينَ حَلَّ به الذَّهابا[٣]

وله فى التصدير :

يُلَحِّفُها وتَحْسِبُهُ لِعاباً أساءَ غُلامُ جيرتكَ اللِّعابا[٤]

وله فى المبالغة :

إذا غضِبتْ عليكَ بنو تَميم حسبتَ الناسَ كلَّهُم غِضَابا[٥]

وله فى الاستطراد :

إذا سَعَلَتْ فَتاةُ بَنى تَميم تَلَقَّمُ بابَ عضرِطِها الترابا

تَرى بَرَصاً بأسفلِ إسكتَيْها كعَنْفَقَةِ الفرزْدَقِ حين شابا[٦]

وله فى التشكيك :

أتَصْحُو أمْ فؤادُك غيرُ صاحِ عَشِيَّةَ هَمّ صَحْبُك بالرَّواحِ[٧]

وللفرزدق فى اللف والنشر المرتب :

جَرِيرٌ وقَيْسٌ مِثْلُ كَلْبٍ وَثُلَّةٍ يَبِيتُ حَوالَيْها يَطُوفُ ويَنْبَحُ[٨]

ولجرير فى التصدير والطى والنشر المرتب :

بَدأْنا فى الْبِيارَةِ ثم عُدْنا فلا بَدْئى جَفَوتُ ولا مَعادِى[٩]

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٢٣١ من طبعة الشعب والديوان ص ١٤٥ من طبعة مطبعة السعادة .

(٢) ابن منظور : مختار الأغانى جـ ١ ص ١٨١ من طبعة الدار المصرية .

(٣) الديوان جـ ١ ص ٦١ من طبعة الصاوى .

(٤) الديوان جـ ١ ص ٦٤ من طبعة الصاوى .

(٥) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧٥٧ من طبعة الشعب والديوان جـ ١ ص ٧٨ من طبعة الصاوى .

(٦) الديوان جـ ١ ص ٦٩ من طبعة الصاوى .

(٧) الديوان جـ ١ ص ٩٦ من طبعة الصاوى .

(٨) الديوان جـ ١ ص ١٥٠ من طبعة الصاوى .

(٩) الديوان جـ ١ ص ١١٧ من طبعة الصاوى .

وله فى التلميح :

وشَبَّهْتَ نَفْسَكَ أشْقَى ثَمُودَ فقالوا ضَلَلْت ولم تَهْتَد
وقد أُجِّلوا حِينَ حَلَّ العَذابُ ثلاثَ ليالٍ إلى المَوْعِدِ(١)

يشير إلى قوله تعالى فى قصة ثمود (فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب)(٢) .

ولجرير فى التشكيك :

أهَوى أرَاكَ برامَتَيْنِ وُقُودَا أم بالجُنَيْنَةِ من مَدَافِعِ أُودَا(٣)

ولعمر بن أبي ربيعة فى الطباق :

قد خَلَوْنا فتَمَنَّيْنا بِنا إذْ خَلَوْنا اليَوْمَ نُبْدِى ما نُسِرْ(٤)

وله فى الجناس :

قالت لِتِرْبَيْها بعمركما هل تَطْمَعان بأن نَرَى عُمَرا(٥)

وأيضا له فى الجناس :

بَيْنا نُحاوِرُهُنَّ قُمْتُ إلى أقْفَائِهِنَّ لأسْمَعَ الحورَا(٦)

البديع فى العصر الأموى

البديع فى شعر بشار بن برد

من شعره فى المذهب الكلامى ، وقد كان يفضل إبليس على آدم والنار على الطين .

إبليسُ خيرٌ من أبيكم آدمٍ فتنبَّهوا يا معشر الفُجَّارِ
إبليس من نار وآدم طينةٌ والأرض لا تَسْمو سُموَّ النار(٧)

(١) الديوان جـ ١ ص ١٢٨ من طبعة الصاوى .

(٢) سورة هود آية ٦٥ .

(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٢٨٢٩ من طبعة الشعب والديوان جـ ١ ص ١٦٩ من طبعة الصاوى .

(٤) الديوان ص ٢٦٣ من طبعة مطبعة السعادة .

(٥) الديوان ص ٢٧١ من طبعة مطبعة السعادة .

(٦) الديوان ص ٢٧٢ من طبعة مطبعة السعادة .

(٧) الديوان ص ٢٤ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ .

فهذان بيتان قد ضمنهما الدعوى مقرونة بالبرهان الذى أقامه حجة لتدعيم دعواه . أما الدعوى فهى قوله « إبليس خير من أبيكم آدم » ، وأما البرهان فهو فى البيت الثانى ، أى وإذا كانت الأرض لا تسمو سمو النار فما خلق من الأرض وهو آدم لا يسمو سموّ من خلق من النار وهو إبليس .

وله فى حسن التعليل :

وإذا جَفَوْتَ قَطَعْتُ عنكَ مَنَافِعِى ... والدَّرُّ يَقْطَعُهُ جَفَاءُ الحالِبِ (١)

ألا ترى كيف استدل وعلل دعواه فى الشطر الأول وهى إيجاب الجفاء القطيعة ، وعدم الصلة بمثال جزئى مُحَسٍّ ومشاهد وهو ما فى الشطر الثانى من أن الحالب إذا أمسك يده وحبسها فى أثناء الحلب عن ضرع الماشية الحلوب حبست عنه درَّها فما تَبَضُّ منه بقطرة .

وله أيضاً فى الترضيع :

وخــذى ملابس زيـنـة ... ومصبَّغات فهى أفخر

وإذا دخـلت تـقـنّـعى ... بالخمر إن الحسن أحمـر (٢)

وله فى حسن التخلص من الغزل إلى المدح قوله :

يَرَى النَّاسُ ما نُبْدِى بزَيْنَبَ إذْ نَأَتْ ... عَجِيباً وما يَخْفَى مِنَ الحُبِّ أعْجَبُ

وَقَائِلَةٍ لى حِينَ اسْتُحِقَّ رَحِيلُنا ... وأَجْفانُ عَيْنَيْها تَجُودُ وتَسْكُبُ

أَغادٍ إلى حَرَّانَ فى غَيْرِ شِيعَةٍ ... وذِلِكَ شَأْوٌ عن هَواها مُغَرِّبُ

(فَقُلْتُ لها كَلَّفْتِنِى طَلَبَ النَّدَى ... ولَيْسَ وَراءَ ابنِ الخَلِيفَةِ مَطْلَبُ) (٣)

وله فى المبالغة ، وهى بلوغ وصف فى الشدة أو الضعف حدا يبعد أو يستحيل :

إذا ما غضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً ... هَتَكْنَا حِجَابَ الشمسِ أو نُقْطِرِ الدَّمَا

إذا ما أعَرْنا سَيِّداً من قبيلةٍ ... ذُرَا مِنْبرٍ صلَّى علينا وسَلَّما (٤)

وذلك لأنه يبعد على أى مخلوق مهما بلغ شأنه فى الشجاعة والقوة والعلم أن تخترق حجاب الشمس ويهتك سترها ، ومن المستحيل عادة أن تقطر الشمس دما .

---

(١) الديوان ص ١٦٧

(٢) الديوان ص ٦٤ من طبعة المطبعة العربية

(٣) الديوان ص ٢٩٤

(٤) الديوان ص ٤٣ من المقدمة

وله أيضا فى المبالغة ، وبالأخص فى نوع منها يسمى الإغراق ، وهو ما إذا كان الوصف ممكنا عقلا .

أولا :

يا واحدَ العرب الذى أمسى وليس له نَظيرُ

ثانيا :

لو كان مِثْلَك آخَرٌ ما كان فى الدنيا فَقيرُ (١)

وله فى الجناس المطلق :

رَبَابَةُ رَبَّةُ البيتِ تَصُبُّ الخلّ فى الزَّيتِ

لها عَشْرُ دَجَاجَاتٍ ودِيكٌ حَسَنُ الصَّوتِ (٢)

وله فى التشكيك ، ويسمى تجاهل العارف ، وهو أن يساق المعلوم مساق المجهول لنكتة كالتعجب :

خَلِيلَىَّ مَا بَالُ الدُّجَى لا تَزَحْزَحُ وما بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لا يَتَوَضَّحُ
أَضَلَّ النهارُ المُسْتَنِيرُ طَرِيقَهُ أمِ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ
كأن الدُّجَى زَادَتْ ومازَادَت الدُّجَى ولكنْ أَصْلُ اللَّيْلِ هَمٌّ مُبَرِّحُ (٣)

ولا يخفى ما فى البيت الأخير من الطباق فى الشطر الأول وحسن التعليل فى الشطر الثانى .

وله فى الطباق ، وهى الجمع بين متقابلين فى الكلام :

كأن لساناً ساحراً فى كلامها أُعينَ بصوتٍ للقلوب صَيُودِ
تُميتُ به ألبابَنا وقُلوبَنا مرارا وتُحيِيهنّ بعد هُمُودِ (٤)

وله فى التصدير ، وهو رد أعجاز الكلام إلى صدوره :

سبقت بالحب سلمى غيرها ورفيع القوم عندى من سبق (٥)

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٢٥ من طبعة الشعب

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٠٩ من طبعة الشعب

(٣) الديوان جـ ٢ ص ١٠٤ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٤

(٤) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٣٥ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ٧٣ من طبعة المكتبة العربية

وقال مصدرا أيضا :

لَعمْرِى لَقَدْ أَجْدَى علىّ بنُ برمَكٍ وما كلّ مَنْ كانَ الغِنَى عنده يُجْدِى (١)

وله فى التضمين ، قول امرئ القيس : « اليوم خمر وغدا أمر » .

اليوم خمر ويبدو فى غد خبر والدهر ما بين إنعام وإيئاس (٢)

وله :

بضَربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه وتُدْرِك من نجى الفرارُ مَثَالِبُهْ

فراحوا فريقٌ فى الإسار ومثلهُ قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُهْ

إذا الملك الجبّار صعّر خدَّه مَشْينا إليه بالسُّيوف نعاتبهْ (٣)

فنى البيت الأول قسمان : موت وحياة ، تورث عارا ، ولا ثالث لها . وفى البيت الثانى ، ثلاثة أقسام : أسير وقتيل وهارب ، فاستقصى جميع الأقسام ، ولا يوجد فى ذكر الهزيمة زيادة على ما ذكر .

وله فى التقسيم أيضا :

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يُسليك أو يتوجع (٤)

فإن صاحب المروءة لا يخلو عند استجدائه من هذه الأحوال الثلاثة حيث لا رابع لها .

وله فى الطى والنشر غير المرتب « المعكوس » وهو أن يُذْكَرَ متعدد ، ثم يذكر بالكل من إفراده شائعا من غير تعيين اعتمادا على تصرف السامع فى رده ذلك إليه ، من ذلك قوله يهجو حماد عجرد :

ما لمت حمادا على فسقه يلومه الجاهل والمائق

وما هما من إيره واسته ملكه إياهما الخالق

ما بات إلا فوقه فاسق ينيكه أو تحته فاسق (٥)

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٣٨ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٦٩ من طبعة المكتبة العربية

(٣) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٨٣ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٧٠ من طبعة المكتبة العربية

(٥) الديوان ص ٧٣ من طبعة المكتبة العربية

وله فى اللف والنشر غير المرتب :

وضيف عمر وعمرو يسهران معا عمرو لبطنته والضيف للجوع(١)

وله فى ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وهو لين العبارة ورقتها فى مواقف الغزل وضخامتها ومواطن الفخر والحماس ، ففى الغزل قوله :

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أَنَمْ ونَفَى عنِّى الكرى طيفٌ أَلمْ
وإذا قلتُ لها جُودى لنا خرجتْ بالصَّمْت عن لا ونَعْم
رَوِّحى عنى قليلا واعلَمى أننى يا عَبْدَ من لحمٍ ودمْ
إن فى بُرْدَىَّ جسما ناحِلا لو تَوَكأْتِ عليه لا نهَدمْ(٢)

وله فى الجناس اللفظى :

خُذى من يدى ما قلّ إن زمانَنا شَمُوسٌ ومعروف الرجال رقيقُ
لقد كنتُ لا أرضَى بأدنى مَعيشة ولا يَشْتِكى بُخلا علىّ رفيقُ(٣)

وله فى جناس القلب :

أنا من خراسان وبيتى فى الذرا ومن لَدَى المسعات فرعى قد سَبَقْ
وإنى لمن قوم خراسانُ بدارهم كرام وفرعى فيهم ناضر بَسَقْ(٤)

ومن شعره ملتزما مالا يلزم :

نهاره أخبث من ليله ويومه أخبث من أمسه
وليس بالمقلع عن غيّه حتى يوارى فى ثرى رمسه(٥)

وله فى ذلك :

لما طَلَعْنَ من الرقيـ ـق علىّ بالبردَانِ خمساً
وكـأنهنّ أهـلَّـةٌ تحت الثيابِ زَفَفْن شمساً
بـاكَـرْنَ عِطْرَ لَطِيمَةٍ وغُمِسْنَ فى الجادِىّ غمساً
لما طَـلَـعنَ حَـفَـفْـنَـها وأَصَخْنَ ما يَهْمِسْنَ هَمْسَا

---

(١) الديوان ص ٧٠ من طبعة المكتبة العربية
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٩٩٧ من طبعة الشعب
(٣) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٨٦ من طبعة الشعب
(٤) الديوان ص ٧٣ من طبعة المطبعة العربية
(٥) الديوان ص ٢٧ من طبعة المطبعة العربية

لـيتَ الـعيونَ الـطارفا تِ طُمِسْنَ عنا اليومَ طَمْسا (١)

وله فى الاتهام ويسمى التوجيه ، وهو أن يؤتى بكلام يحتمل معنيين على السواء ، كهجاء ومديح لأجل أن يبلغ القائل غرضه بما لا يُمسك عليه :

خَـاطَ لى عَمْرو قَبَاء لـيت عـيـنـيـه سواء

قلتُ شعراً ليس يُدرى أمـديـح أم هِـجـاءَ (٢)

البديع فى شعر مسلم بن الوليد

له فى الطباق :

هَوًى يَجد وحَبِيبٌ يَلْعَبُ أنت لقًى بينهما مُعَذَّبُ (٣)

فقد جمع بين الجد واللعب فى الشطر الأول

وله فى الطباق أيضا :

أرى بهجة الدُّنيا رَجيعَ دَوائر لهن اجتماع مرة وشتات (٤)

وقوله :

غَدَتْ والثَّرى أَوْلى بها من وَلِيّها إلى مَنْزِلٍ ناءٍ لِعَيْنك دانى (٥)

وقد جمع بين الطباق والتصدير فى بيت واحد ، إذ يقول :

يَجُودُ بالنَّفْس إذ ضَنَّ الجوادُ بها والجُودُ بالنَّفْس أقْصَى غايةِ الجُودِ (٦)

ففى الشطر الأول طباق بين الجود والضن (الشح) والتصدير فى البيت ظاهر.

وله فى المشاكلة ، وهى أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته :

يقرى المنيَّة أرواح الكُماةِ كما يَقْرى الضُّيُوفُ شُحُوم الكُوم والبُزُلِ (٧)

فالمنية لا تطعم ولا تضاف ، ولكنه لما ذكر قرى الضيوف أتى بلفظ فى الشطر الأول يناسب

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠١٥ ، ١٠١٦ من طبعة الشعب

(٢) مقدمة الديوان ص ١٤ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٣) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٢٦٧ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٣٠٧ بتحقيق الدكتور سامى الدهان من طبعة دار المعارف

(٥) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٣٠١ من طبعة الشعب

(٦) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٢٦٧ من طبعة الشعب

(٧) الديوان ص ١١ بتحقيق الدكتور سامى الدهان من طبعة دار المعارف

القرى ويشاكله ، وأراد به إسلام أرواح الشجعان إلى المنية ومساعدتها على قطع آجال الكماة .

وله فى الترصيع :

مُوفٍ على مُهجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ كأنه أجَل يَسْعى إلى أمَلِ[1]

وله فى التتميم :

يا ليت علته بى غير أن له أجر العليل وأنى غير مأجور[2]

فهو يتمنى أن ينتقل المرض من معشوقته إليه ولكنه يريد البرهنة على صدق إخلاصة فى الحب ولو أنه فى المودة تمَّم أمنيته بأن تنزل له عن أجر المرض .

وله فى المذهب الكلامى :

فافخَرْ فالك فى شيْبانَ مِنْ مَثل كَذاكَ ما لِبَنى شيْبان من مَثَلِ[3]

فهو يقصد أن ممدوحه ليس له من يماثله ويساميه ، ولكنه قد مدحه على وجه يفهم منه مراده ومقصوده وهو أنه خير قبيلته – بنى شيبان ، وأن بنى شيبان خير القبائل . وإذاً يفهم مما ذكر المعنى الذى يقصده وهو أنه خير من بقية أفراد سائر القبائل .

وله فى حسن التعليل :

إن يقعدوا فوقى بغير نزاهة وعلوّ مرتبة وعزّ مكانِ
فالنار يعلوها الدخان وربما يعلو الغبارُ عمائم الفرسانِ[4]

فهو يزعم أنه أرجح من غيره عقلا وأعلى مرتبة وأعز مكانا وأنزه أخلاقا وإن تكن صروف الدهر قد ساعدتهم على التقدم دونه وقادت إليهم رفيع المناصب والرتب ، فليس ذلك يحط من منزلته أو يذل من مكانته أو يقدح فى نزاهته أو ينقص من رجاحة عقله ، ثم علل دعواه المزعومة بما فى البيت الثانى وهو أن العلو شيمة الدخان إياها فهى أطيب منه عنصرا وأغزر نفعا ، وكذلك عمائم الكماة يعلوها الغبار حين شبوب نار الهيجاء فى حين أن العمائم التى تستر الرءوس المفكرة وتحمى العقول الجبابرة أشرف وأغلى من مثار الغبار الذى يقلب ميدان الوغى ليلا مظلما تتهاوى كواكبه ، وأيضا فالغبار موطئ النعال فى حين أن العمائم تيجان تزين هامات الرجال .

(١) الديوان ص ١١ بتحقيق الدكتور سامى الدهان من طبعة دار المعارف

(٢) الديوان ص ٣٢٣ من الطبعة السابقة

(٣) الديوان ص ٢١ من الطبعة السابقة

(٤) الديوان ص ٣٣٤ من الطبعة السابقة

وقال مصدرا :

تظَلَّمَ المالُ والأعْداءُ من يَدِهِ ما زالَ للمالِ والأعْداءِ ظَلاّما(١)

وله فى حسن التخلص من الغزل إلى المدح :

أحبك هل تدرين إنْ غبت ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
صبرت لها حتى تَجَلَّت بغُرَّة كغُرَّةِ يحيى حين يُذْكر جعفر(٢)

وله فى المقابلة :

ولما تلاقَيْنا قَضَى الليلُ نَحْبَهُ بوجْهٍ لوجه الشَّمْسِ من مائه مِثْلُ(٣)

وله :

تساقِط يُمْناه النَّـدَى وشِمـاله الرَّدى (م) وعُيون القَـوْل مَنْطِقه الفَصْل(٤)

وله فى الجناس المطلق قوله :

« فارفق به إن نوم العاشق اللوم »

وله فى الجناس :

وليس يبالى حين يحتك جمرها صدود صُداء واجتناب بنى جَنْبِ(٥)

وقال مطابقا :

إذا ما نكحنا الحرب بالبيض والقنا جعلنا المنايا عند ذاك طلاقها(٦)

وله فى الطباق :

شججتها بلُعابِ المُزْنِ فاعتَزَلَتْ نَسْجَيْنِ ما بين مَحْلُولٍ ومَعْقُودِ(٧)

وله فى الترصيع :

يمْضِى بَعزْمِكَ أو يجرى بشأوك أو يَفْرِى بِحَدِّك كَلٌّ غير مَحْدود(٨)

---

(١) الديوان ص ٦٤ بتحقيق الدكتور سامى الدهان من طبعة دار المعارف
(٢) المصدر السابق ص ٣١٦
(٣) المصدر السابق ص ٢٦١
(٤) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٢٩٩ من طبعة الشعب
(٥) الديوان ص ٣٠٥ بتحقيق الدكتور سامى الدهان من طبعة دار المعارف
(٦) المصدر السابق ص ٣٢٨
(٧) المصدر السابق ص ١٥٢
(٨) المصدر السابق ص ١٧٠

وله أيضاً فى الترضيع :

تساقط يمناه الندى وشماله الرّدى (م) وعيون القول منطقه الفصل[(١)]

البديع فى شعر أبى نواس :

من شعره المتضمن للجناس المطلق قوله :

سقيا لوجه شبابها بحسنه المنعوت
إذا راح يمشى الهوينا عشية الناعوت

وله فى التصدير :

تُعَيِّرنى الذنوب وأى حر من الفتيان ليس له ذنوب
غربت بنوبتى ولجحت فيها فشق الآن جَيْبُك لا أتوب[(٢)]

وله فى المبالغة :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافُك النُّطَفُ التى لم تُخلَق[(٣)]

ولأبى تمام فى الاقتباس من القرآن :

كان الذى خِفْتُ أن يكُونا « إنا إلى الله رَاجِعُونا »[(٤)]

وله فى التشريع وهو بناء البيت على قافيتين يصح المعنى عند الوقوف على كل منهما :

علىّ بأهيف قد تناوم لحظه من غير نوم — بل يتيه ويفتن
قالت ألست تخاف حين تزورنى سطوان قومى — كم تبوح وتعلن
فأجبتها فى نيل وصلك لم أكن لأخاف قومى — فهو عندى هيّن

وله فى الترصيع :

سلاف دِنٍ كشمس دجن كدمع جفن كخمر عدن
طبيخ شمس كلون ورس ربيب فرس حليف سجن

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٧٢٩٩ من طبعة الشعب
(٢) الديوان ص ٢٤٥ من طبعة إسكندر آصاف
(٣) الديوان ص ٦٢ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨ والأغانى جـ ٢٩ ص ٩٨٧٩ من طبعة الشعب
(٤) ينسبه المؤلف لأبى نواس وهو كما أثبتناه لأبى تمام (الديوان جـ ٤ ص ٦٧٧ من طبعة دار المعارف)

رأيت علجاً بباطر نجا لها توجى فلم يثن
حتى تبدت وقد تصدت لنا وملت حلول دن
فاحت بريح كريح شيح يوم صبوح وغيم دجن
يسقيك ساق على اشتياق إلى تلاق بماء مزن
يدير طرفا يغير حتفا إذا تكفى من التثنى
على غناء وصوت ناءٍ دواء داء من التجنى
ولثم خد كطعم قند لذات قد وهى تغنى
غنى بدل وضرب طبلٍ وحسن شكل وخبث جنى
يامن الحانى على زمانى اللهو شانى فلا تَلُمْنى
أطلت عذلا فلا تقل لا يريد إلا السلو عنى
أسخنت عينا تراك زينا فأين أين الفرار منى
هتكت سترى فباح سرى وعيل صبرى بطول حزنى (١)

وله فى لزوم مالا يلزم :

اترك الأطلال لاتعنى بها إنها من كل بؤس دانية
واشرب الخمر على تحريمها إنما دنياك دار فانية
من عقار من رآها قال لى صيدت الشمس لنا فى آنية (٢)

وله فى الاقتباس من القرآن :

يعذب من يشاءُ بمقلتيْهِ إذا رنَّا ويرحمُ من يشاء (٣)

وله فى التلميح إلى قصة السامرى مع موسى :

بليتُ من الشَّقَاءِ بسَامِرِيّ يعامِلُنِى الغداةَ بلا مِسَاسِ (٤)

وهو يشير إلى حكاية موسى السامرى الذى أضل قوم موسى عليه السلام حين زين لهم

(١) الديوان ص ٣٤٦ - ٣٤٧ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨
(٢) الديوان ص ٣٥١ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨
(٣) الديوان ص ٣٢٨ تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى
(٤) الديوان ص ٧٠٦ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

عبادة تمثال العجل ، وهذه القصة مذكورة في قوله تعالى(وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى)[1] إلى قوله تعالى (قال فما خطبك ياسامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعداً لن تخلفه)[2]

وله فى لزوم مالايلزم :

فتلت تقبيلاً على خده ومال منكباً على فراشه
فالسكر فيما كان من فعله ويذله للحسن الحرشى

وله فى لزوم مالا يلزم والطى والنشر المرتب :

إن الرقيب وأدمعى سدا على طرق احتيالى
منع الرقيب من الزيارة (م) والدموع من الخيال

وله فى الجناس :

ولى أير لشقوته ألوف ينغص عيشتى عند الوصال
فلو أنى ألفت الهجر يوماً بكيت عليه فى زمن الوصال

وله فى التلميح :

أيا من إليه مقاليد ال علياء عن حق تسلم
مات السماح فكنت فى حياة عيسى بن مريم

وله فى الغلو فى وصف الخمر :

توهمتها فى كأسها فكأنما توهمت شيئاً ليس يدرك بالعقل
وصفراء أبقى الدهر مكنون روحها وقد مات من مخبورها جوهر الكل
فما يرتقى الكييف منها إلى مدى تحدّبه ألا ومن قبله قبل

فقد جعل الخمر لا تدرك بالعقل ووصفها بالقدم وقوله جوهر الكل والكييف فى غاية التكلف ونهاية التعسف .

---

(١) سورة طه آيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

(٢) سورة طه آيات ٩٥ – ٩٧

بديعيات أبي تمام :

من شعره الجناسي في نوع منه يسمى المماثلة أو الجناس التام :

لَيَالِينَا بِالرَّقْتَيْنِ وَأَهْلِهَا سقى العهدَ منك العهدَ والعهدُ والعهدُ[1]

العهد الأولى (الوقت) والعهد الثانية (الحفاظ) والعهد الثالثة (الوصية) والعهد الرابعة (المطر) وله في الجناس المطلق وهو توافق الحروف وترتيبها بدون أن يجمعها اشتقاق :

ما مُقْرِبٌ يختالُ في أشطانه ملآنَ من صلفٍ به وتلهوق

بجوافرٍ[2] خُفُرٍ وصُلْبٍ صُلَّبٍ وأشاعرٍ شُعْرٍ، وخُلْقٍ أخْلَقِ[3]

وقال :

مَلِيَتْكَ الأحسابَ أيُّ حياةٍ وحَيَا أَزْمَةٍ وحيَّةُ وادى

لو تراخت يداك عنها فُواقاً أكلتها الأيام أكل الجرادِ[4]

ومن شعره في نوع من التجنيس يسمى المضارعة وهو أن يزيد حرفا أو ينقص آخر.

السَّيْفُ أصدق أنباء من الكتبِ في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعِب

بيضُ[5] الصفائح لا سودُ الصحائف في بطونهنَّ جلاء الشك والريبِ[6]

وله في الجناس الخطى :

رُبَّ خَفْضٍ تحت السُّرَى وغناءٍ من عناءٍ[7] ونضرةٍ[8] من شحوب[9]

وله في الجناس المذيل ، وهو زيادة حرف في اللفظ الثاني من لفظين متجانسين :

---

(١) الديوان ص ١٠٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) جناس تام

(٣) الديوان ص ١٨٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٤) الديوان ص ٧١ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٥) مضارعة وطباق

(٦) الديوان ص ١٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٧) جناس خطى

(٨) مطابقة

(٩) الديوان ص ٣٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

يمدّونَ من أيدٍ عواصٍ عواصم تَصُولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضِب[١]

وفى شعره الجناس التام والجناس المطلق فى قوله :

والسيفُ مغفٍ[٢] غير أن غرارَهُ[٣] يَقِظٌ إذا هَاد هداهُ[٤] لهادِ[٥]

وله فى الجناس المحرف وهو اختلاف اللفظين فى حركات الحروف :

نُوارٌ فى صَوَاحبها نَوَارُ كما فاجاك سربٌ أو صوارُ[٦]

وله فى الجناس وإن كان غير ظاهر ، بل الظاهر أنه تكرار ممقوت ومُتَكَلَّف .

فرفْدك الزائرَ مجْدٌ ولا كرفْدك الزائِرِ للزائرِ[٧]

وله أيضا :

بيضٌ فهنَّ إذا رُمقنَ سوافراً صُوَرٌ وهنَّ إذا رُمقنَ صِوار[٨]

فى حيثُ يُمْتَهَنُ الحديثُ لدى الصبا وتَحدَّمنُ الأسرارُ[٩] والأسرار[١٠]

وله فى الطباق :

مها الوحشِ إلا أنَّ هاتا أوانسٌ قنا الخطِّ إلا أن تلك ذوابلُ[١١]

وله فى الترديد ، وهو تعليق اللفظ بمعنى ثم تعليقه ذاته بمعنى آخر :

خفت، دموعكَ فى أثر الحبيب لَدُنْ خفت من الكُثُبِ القضبانُ والكثُبُ[١٢]

وله فى المقابلة ، وهى مواجهة كل لفظ بما يستحقه فى الحكم :

لقد أصبح الثُّغْرانِ سَدَّيْن بعد ما رأوا سَرَعَانِ الذلِّ فذًّا وتوءما

---

(١) الديوان ص ٤٣ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) فيه طباق بين الإغفاء واليقظة

(٣) جناس مضارع

(٤) جناس تام وهادى الثانية بمعنى عنق والأولى بمعنى مرشد

(٥) الديوان ص ١٢٠ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٦) قطيع بقر الوحش — الديوان ص ١٢٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٧) الديوان ص ١٢٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٨) جناس مطلق

(٩) جناس تام والأولى جمع السر— معروف ، والثانية جمع سر وهو الفرج

(١٠) الديوان ص ١٢٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(١١) الديوان ص ٢٢٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(١٢) الديوان ص ٤٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩

فكنتَ لناسيهم أباً ، ولكَهْلِهم أخاً ولذى التَّقْويس والكبرة ابنا[١]

وله فى التصدير :

ولم يحفظ مضاعَ المجدِ شيء من الأشياء كالمال المضاعِ[٢]

وله أيضا فى التصدير :

نعم الفتى عُمَرٌ فى كلِّ نائبةٍ نابت وقل له نِعمَ الفتى عُمَر[٣]

وله فى الترصيع وهو تسجيع أجزاء البيت الواحد :

تدبير معتصمٍ بالله منتقمٍ لله مرتقبٍ فى الله مرتهب[٤]

ومن ترصيعه قوله :

سأحمد نصراً ما حييت وإننى لأعلمُ أن قد جلَّ نَصْرٌ عن الحمدِ
تجلَّى به رشدى وأثرت بهِ يدى وفاض به ثدبى وأورى بهِ زندى[٥]

وقال مرصعا :

والبيضُ لامعةٌ والسمرُ شارعةٌ والأسدُ رائعةٌ والعزُّ منتصبُ[٦]

وله فى الإغراق : وهوالخروج فى الوصف عن الواجب والمتعارف :

عن مثل نَصْلِ السَّيْف إلا أنهُ مُذْ سُلَّ أوّلَ سَلّةٍ لم يُغْمَدِ[٧]

وله فى التشكيك :

فو الله ما أَدرى أأحلامُ نائمٍ ألمَّت بنا أمْ كان فى الركب يوشعُ
وعهدى بها تحيى الهوى وتميتُهُ وتشعبُ أعشارَ الفؤادِ وتصدعُ[٨]

فى البيت الأول مع التشكيك تلميح وهو الإشارة فى الكلام إلى قصة مشهورة وهى أن النبى يوشع عليه السلام قاتل الجبارين يوم الجمعة فلما أَدبرت الشمس خاف أن تغرب قبل أن

(١) الديوان ص ٢٦٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٢) الديوان ص ١٧٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٣) الديوان ص ١٣٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٤) الديوان ص ١٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٥) الديوان ص ١٠٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٦) الديوان ص ٣١٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٧) الديوان ص ١١٣ من طبعة محمد جمال
(٨) الديوان ص ١٦٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

يفرغ من قتالهم ويدخل يوم السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله فأبقى له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

وفى البيت الثانى طباق فى كلا الشطرين ، كما لا يخفى .

ولهُ فى حسن التعليل :

لست أبكى ذهابَ عينى لعينى ... غيرَ أنى أبكى لئلا أراكَا [١]

وقوله :

لا تنسيَنْ تلك العهودَ فإنما ... سُمِّيت إنساناً لأنك ناسى [٢]

وله فى المذهب الكلامى :

إقدامُ عمرٍو فى سماحة حاتمٍ ... فى حلمِ أحنفَ فى ذكاءِ إياس

لا تنكروا ضربى له مَنْ دُونَه ... مثلا شروداً فى الندى والباسِ

فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره ... مثلا من المشكاةِ والنبراسِ [٣]

ألا ترى كيف ادعى أن المذكورين دون الممدوح فى هذه الأوصاف المنسوبة إليهم ، وأنه لا حرج فى أن يشبهه بهم ، وإن كانوا أقل وأدون ، ثم يستدل على دعواه بهذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم) [٤]) .

ومثله فى المذهب الكلامى قوله للمعتصم حاضا إياه على الحرب وينبهه إلى فضلها :

دع النجُومَ لصوفى يعيشَ بها ... وبالعزائِم فانْهَضْ أيُّها الملكُ

إن النبى وأصحاب النبى نَهَوْا ... عن النّجومِ وقد أبْصَرْتَ ما مَلكُوا [٥]

---

(١) الديوان ص ٤٠٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ١٥٣ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٣) الديوان ص ١٥٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٤) سورة النور ، آية ٣٥

(٥) ورد الشعر فى النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٠٢ وينسب لمجهول .

وقوله :

إن وجه الجمال وجهٌ صفيقٌ حين تسطو به نهاراً جهارا
لم تَشِن وجهه المليحَ ولكن جعلَتْ وردَ وجنتيهِ بهارا[١]

وله فى براعة الاستهلال ، وهو أن يأتى بكلام يناسب المقصود ، كقوله فى أول قصيدة رثائية :

كذا فليجل الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يُفِض ماؤُها عُذرُ
توفّيتِ الآمالُ بعد محمّدٍ وأصبح فى شُغلٍ عن السفَر السفرْ[٢]

ولا يخفى ما فى آخر البيت من الجناس :

وله فى الاقتباس من القرآن :

مِلء عينى ملاحةً وجمالا وفؤادى مهـابـةً وجلالا
فاعذلوا فيه كيف شئتم وقولوا (وكفى الله المؤمنين القتالا)[٣]

وله فى الطى والنشر المرتب :

جرَّت لهُ أسماءُ حبل الشموسْ والهجرُ والوصلُ نعيمٌ وبوسْ[٤]

وله فى ذلك أيضا ولا يبعد أن يكون تقسيما :

الهوى ظالمٌ وأنتَ ظلومٌ كيفَ يقوى عليكما المظلومُ
لا للهوى جرأة ومنك صدودٌ ليس لى منكما محبٌّ رحيمُ[٥]

وله فى تأكيد المدح بما يشبه الذم :

مجلس لم يكن لنا فيه عيبٌ غير أنّا فى دعوةِ الأحلام[٦]

ومثله قوله :

له خلق نه القرآن عنه وذاك عطاؤه السرف البذاء

يشير إلى قوله تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) .

---

(١) الديوان ص ٣٩٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٢) الديوان ص ٣٢٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٣) الديوان ص ٤٠٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٤) الديوان ص ١٥٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٥) الديوان ص ٤١١ من طبعة بيروت ١٨٨٩
(٦) الديوان ص ٤٦٠ من طبعة محمد جمال

وله فى التتميم ، يصف حلة كساه إياها محمد بن الهيثم :

كالسرابِ الرقراقِ فى النعتِ إلا　　أنه ليس مثلَهُ فى الخداعِ [١]

فهو قد شبهه بالسراب إلا أنه أراد أن ينفى ما يختص بالسراب ، وهو أنه يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهذا هو المذاع ، فأراد تشبيهه به فى اللمعان والصفاء لا فى الخداع .

وله فى التلميح :

عذنا بموسى من زمانٍ أنشرت　　سطواتُهُ فرعونَ ذا الأوتادِ [٢]

وله فى الاطراد ، وهو ذكر أعلام متعاقبة من غير حشو :

عمرُو بنُ كلثوم بن مالكٍ بن عتاب　　م بن سعدٍ سهمُكم لا يسهمُ [٣]

فيه تكلف من حيث تنوين مالك مع أنه يجب حذف التنوين :

وأيضا له فى الاطراد :

مطّردُ الآباء فى نسبةٍ　　كالصبح فى إشراقِهِ الساطعِ

مناسبٌ تحسبُ من ضوئها　　منازلا للقمر الطالعِ

كالدلو والحوتِ وأشراطِه　　والبطن والنجم إلى البالعِ

نوحُ بن حوّى بن عمرو　　بن حوّى بين الفتى المانع [٤]

---

(١) الديوان ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ١١٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٣) الديوان ص ٢٤٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٤) الديوان ص ١٧٦ من طبعة بيروت ١٨٨٩

مقارنة النحو فى الشعر الأموى والعباسى

إنك إذا تصفحت دواوين الشعراء فى كلا العصرين الأموى والعباسى وجدت بينهما من الفوارق ما يسهل لك الحكم على الشعر الأموى بأنه أكثر شذوذا وأشد خروجا على الضوابط الشعرية والأقيسة اللغوية ، ذلك لأن الشعراء فى ذلك العصر كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة لكل منها لسان عربى يمتاز به عن نظيراتها من القبائل الأخرى .

وكان الشاعر حرا طليقا غير مقيد بما يسمونه « النحو » وكل شاعر يرى نفسه إماما وقدوة فى اللغة يسلك فى شعره مناحى متشعبة لا يكاد يضبطها قياس أو تحصرها قاعدة ، ومع ذلك فهو غير مؤاخذ على ما يجرى على لسانه من الشواذ .

ومن الأسباب الأساسية التى لها عظيم التأثير فى كثرة الشواذ فى هذا العصر عدم تدوين قانون للعربية يضبط قواعدها ويجمع موادها حتى ينهج الشاعر على سننها ويعقل لسانه عن عصيان نواميسها والتمرد على سلطانها بخلاف الشعر فى العصر العباسى ، فهو شعر سلس الأسلوب مضبوط لا تكاد تجد فيه من الأخطاء والشواذ إلا النزر اليسير ، ذلك لأن مدارس النحو قد أسست فى ذلك العصر وضبطت القواعد وصارت علما خطيرا كان فى مقدمة العلوم التى يعنى بها العلماء إبان الخلافة العباسية ، لذلك نجد وضع علم النحو وتدوين قواعده وضبطها فى أبواب محصورة وتعليلها بالأقيسة والبراهين المقبولة ، كل ذلك كان سببا ذا خطر جليل ضبط ألسنة الشعراء العباسيين وعصمهم من التعثر فى هذه الشواذ التى وقع فيها الشاعر الأموى ، والفضل فى ذلك يرجع إلى العناية بالأقيسة النحوية التى مهدها لهم أساتذة علم النحو فى ذلك العصر .

لم نجد من شعراء العصر العباسى من يفرط فى الشواذ والأخطاء العربية إلا أبا نواس ومع ذلك فلا تبلغ شواذه المبلغ الذى تجده فى شعره الفرزدق أو جرير . وسنسرد لك الشواذ والأخطاء التى وقعت لكل من شعراء العصرين ليتبين لك صدق ما حكمنا به .

الشواذ والأخطاء النحوية فى عصر بنى أمية

من شواذ عمر بن أبى ربيعة :

وما أنْسَ مِ الأشياءِ لاأنْسَ مجلِساً ... لنا مرَّةً منها بقَرْن المنازِلِ (١)

فيه حذف الألف من الفعل (أنسى) ولم يتقدمه جازم ، وكذلك فى حذف النون من حرف الجر (من) ، وهذه ضرورة فاحشة . ومثل هذا الحذف حذف النون فى (من) من قوله :

بخَيْنَ نَقْضِي اللهوَ فى غير مأْثَم ... وإن رَغِمَتْ مِ الكاشحين المعاطس (٢)

ومن شواذ الأحوص قوله :

ألا يانخلة من ذات عرق ... عليك ورحمة الله السلام

والشاذ فيه من حيث تقدم المعطوف على المعطوف عليه .

ومن شواذ الأخطل قوله :

ألم أفنكم قتلاً وأجدعِ أنُفكم ... بفتيان قيس والسيوف الصوارم (٣)

فقد حرك آخر الفعل المضارع (أجدع) مع أنه معطوف على الفعل المجزوم ، ولم يعهد ذلك إلا فى الفعل المعطوف على فعل الشرط إذا تخلل الشرط والجزاء ، فإنه ينصب أو يجزم ، قال ابن مالك :

وجزم أو نصب لفعل إثر فا ... أو واو ان بالجملتين اكتنفا

ومن شواذ جميل قوله فى مطلع القصيدة :

« رسم دار وقفن فى طلبه »

فقد حذف رب ولم توجد الواو أو بل اللتان تنوبان عنها ، ومع ذلك فقد كسر الميم فى (رسم) قال ابن مالك :

وحذفت رب فجرت بعدبل ... والفاً وبعد الواو شاع فى العمل

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ١٨٩ من طبعة الشعب

(٢) الأغانى جـ ١ ص ٩٩ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٣٧٠

ومن شواذ ذى الرمة :

ولَاعيْبَ فيها غير أن سَرِيعَها قَطُوفٌ وأن لاشَىء منهن أكْسَلُ[١]

فقد قدم الجار والمجرور (منهن) الذى هو معمول لأفعل التفضيل .

ومن شواذ مجنون ليلى :

فلو أن واشٍ باليمامة دارُه ودارِى بأعلى حَضْرَ مَوْتَ اهتدَى ليَا[٢]

فقد حذف ياء المنقوص مع أنه يجب إظهار الفتح فى النصب

قال ابن مالك :

والثّانِ منقوص ونصبه ظهــر ورفعه ينوى كذا أيضاً يجـر

ومن شواذ الفرزدق أو أخطائه النحوية قوله :

إذا قِيلَ أىُّ الناسِ شرٌّ قَبِيلة أشارت كُلَيْب بالأكُفِّ الأصابعُ[٣]

فإنه يريد أشارت إلى كليب ، ولكنه حذف الجار وأبقى الاسم مجروراً ، ومن ضروراته الشعرية التى لاتبيحها العربية :

بالباعِث الوارِثِ الأمْواتِ قَدْ ضَمِنَتْ إيَّاهُمُ الأرْضَ فى دهر الدَّهارِيرِ[٤]

فيه فصل الضمير(إياهم) فى حين لامسوغ للانفصال ، اللهم إلا أن يكون ضرورة من ضروات الشعر ، قال ابن مالك :

وفى اختيار لا يجىء المنفصل إذا تأتى أن يجىء المتصل

ومن شواذ الفرزدق الصرفية ، قوله :

وإذا الرجالُ رأوْا يزيد رأيتهمْ خُضُعَ الرِّقاب نواكِسَ الأَبْصار[٥]

فإنه جمع (خاضع) على خضع مع أنه غير قياسىّ كما قال ابن مالك :

وفعـل لاسم رباعى بمـــد قد زيد قبل لامٍ أعلالا فقـــد

ما لم يضاعف فى الأعم ذو الألف

وأيضاً فقد جمع ناكساً الذى هو وصف المذكر العاقل على نواكس فى حين أن فواعل

---

(١) الديوان ص ٤٦١ من طبعة كمبردج ١٩١٩

(٢) الأغانى جـ ٢ ص ٤٨٧ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٥٢٠ من طبعة الصاوى

(٤) الديوان ص ٢٦٤ من طبعة الصاوى

(٥) الأغانى جـ ٢٥ ص ٨٦١٠ من طبعة الشعب والديوان ص ٣٧٦ من طبعة الصاوى

مفرداته ما ذكرها ابن مالك فى قوله :

فواعل لفواعل وَفاعَلِ وفاعلاء مع نحو كاهل
وحائض وصاهل وفاعله وشذ فى الفارس مع ما ماثله

قال ابن هشام فى أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك « وشذ فى فوارس ونواكس وسوابق وهوالك »

ومن شواذ جرير قوله :

ذُمَّ المنازلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى والعَيْش بعد أولئك الأيام[1]

فقد أشار إلى الأيام التى هى غير عاقلة بأولاء وهى إنما يشار بها إلى جمع العاقل أو العاقلة
ومن أخطائه النحوية قوله :

ظل ابن هِنْدابَة الثَّرْمَاءَ مُبْتَرِكاً يَرْوِى لَقَيْن وما يُنْدَبْ لإسعاد[2]

فقد جزم الفعل (يندب) وليست (ما) هنا من أدوات الجزم هكذا وجدت بديوانه ، ولعله (ولم يندب) وحينئذ لا شذوذ ولا خطأ . ومن أخطائه القبيحة التى لا تجوزها الضرورة النظمية قوله :

وما رامَ الأُخَيْطِلُ من صَفاتى وقد صَدَّعْتُ صَخْرَةَ من أرادِى[3]

فإنه حذف نون الوقاية قبل ياء المتكلم التى هى مفعول به ويجب اقترانها بالفعل ولم يعهد حذف نون الوقاية فى مثل هذه المواضع .

ومن شواذ جرير أيضاً قوله :

إذا سايرت أسماء يوماً ظعينة فأسماء من تلك الظعينة أمْلَحُ[4]

فقد قدم معمول أفعل التفضيل عليه مع أنه لايسوغ ذلك إلا فى حالة الاستفهام . ومن شواذه أيضاً كثرة نون جمع المذكر السالم ونون الملحق به فى قوله :

عَرَفْنا جَعْفَراً وبنى أبيه وأنكرْنا زَعانِفَ آخَرِينِ

---

(١) الديوان ص ٥٥١ من طبعة الصاوى
(٢) الديوان ص ١٤٠ من طبعة الصاوى
(٣) الديوان ص ١٤٥ من طبعة الصاوى
(٤) الديوان ص ١٠٧ من طبعة الصاوى

وماذا يَبْتغي الشعراء مني   وقدْ جاوَزْتُ حَدّ الأربعينِ (١)

ومن شواذه أيضاً قوله :

أتمرون الديار ولم تعوجوا   كلامكم عليّ إذن حرام (٢)

فقد حذف باء الجر وذلك الحذف شاذ عند جمهور النحاة ، وهذا الشذوذ هو مايسمونه النصب على التوسع بنزع الخافض .

ومن شواذ الفرزدق قوله ، وقد حذف النون من اللذان واللتان :

أبني كليب إن عمى اللذا   قتلا الملوك وفككا الأبطالا (٣)

وقوله :

هُمَا اللّتا لَوْ وَلَدَتْ تَمِيمُ (٤)

ومن الشواذ النحوية قال علقمة بن عبدة :

كأن إبريقهم ظبي على شَرَف   مفدَّم بسبا الكتّان ملثومُ (٥)

أراد سباسب الكتان فحذف الحرفين الآخرين لأجل ضرورة الوزن .

ومن الأخطاء الصرفية قول القطامى :

وقوْلُ المرء ينْفُذُ بعدَ حينٍ   مَواضِعَ ليس ينْقُذُها الإبارُ (٦)

وهو يريد جمع الإبرة ، ولم يعهد أن (فِعْلَه) يجمع على فعال .

---

(١) الديوان ص ٥٧٧ من طبعة الصاوى

(٢) الديوان ص ٥١٢ من طبعة الصاوى

(٣) الأغانى جـ ١١ ص ٣٨٤١ من طبعة الشعب

(٤) مطلع البيت للأخطل ، الديوان ص ٣٩٨

(٥) أبو عبيد البكرى : سمط اللآلئ فى شرح آمالى القالى جـ ١ ص ١٣ بتحقيق عبد العزيز الميمنى

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ١٩٨ من طبعة مطبعة الاستقامة

الشواذ والأخطاء النحوية
فى الشعر العباسى

من هذه الشواذ ما ارتكبه أبو تمام لأجل الضرورة الشعرية فى قوله :

أنا أفدى ساجى الجفون مليحاً وكأنى ببعضِ عبد الحميد [1]

فقد حذف الفتحة من المنقوص فى حالة النصب .

ومن أخطاء أبى نواس النحوية قوله :

كأن صُغْرَى وكُبْرى من فَوَاقِعِها حَصْبَاءُ دُرٌّ على أرضٍ من الذهبِ [2]

وهذا لحن منه فإن أفعل التفضيل إذا أضيف إلى نكرة أو جرد من الإضافة والألف واللام ، وجب إفراده وتذكيره ، وقد أتى به أبو نواس مؤنثاً فى هذا البيت ، قال محمد بن مالك فى ألفيته :

وإن لمنكور يُضف أو جرداً ألزمه تذكيرا وأن يوحدا

ومن شواذ أبى نواس :

رشأٌ تواصيْنَ القيانُ به حتى عَقَدْنَ بأذنه شَنَفًا [3]

فقد أتى بضمير النسوة مع وجود الظاهر (القيان) وكان الواجب حذف النون ، فهلا قال « رشأ تكلفت القيان به » أو « رشأ تعهدت القيان به » .

ومن شواذه أو قل من خطئه قوله :

مازال يمطل من ينتاب حانته حتى أتتنى وكانت ذخر مونائى [4]

فإنه هنا فى هذا البيت قد مدّ المقصور (موتانى) مع أن النحويين لم يجوزوا ذلك حتى فى الضرورات الشعرية إلا نفر قليل منهم (الكوفيون) فقد جوزوه محتجين بأدلة قد تعسفوا فيها وتكلفوها . ومثل تلك الشواذ قوله مادا المقصور :

إنى لأشرب من عينيه صافية صرفا وأشرب أخرى مع ندامائى

(١) الديوان ص ٤٣٨ من طبعة محمد جمال

(٢) الديوان ص ٧٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٣) الديوان ص ٤٣٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) أبو هفان : أخبار أبى نواس ص ٣٩ بتحقيق عبد الستار فراج

ولائم لامنى فيه فقلت له إنى وعيشك مشغول بمولائى (١)

ومن أخطاء أبى نواس قوله :

وبذل المجهود من نفسه وصار مملوكا بلا رقا

هكذا وجدت بديوانه والخطأ فيه ظاهر ولعله هكذا « وصار مملوكا له رقا » .

ومن أخطاء أبى نواس فى النحو :

فلم يجز فى مذهبى أخذها بل يصقع اللائط فى عنقا

والخطأ فى هذا البيت ظاهر ، ومن أخطائه الصرفية قوله :

بميدانٍ جعلنا خيـلهِ طاساً وأكواسًا (٢)

فإنه يريد جمع الكأس وهو لا يجمع إلا على كؤوس وأكؤس على أن الكأس وهو مهموز الأصل ، وجمع التكسير يرد الأسماء إلى اصولها ، فأين همزة الأصل ؟

(١) أبو هفان : أخبار أبى نواس بتحقيق عبد الستار فراج .

(٢) الديوان ص ٢١٧ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

اختلاف اللغات وأثر ذلك
فى الشعر الأموى

كان لاختلاف لغات القبائل فى الجاهلية أثره الظاهر فى الشعر الأموى ، فكثرة « الغريب » فيه مرجعها – بلا ريب – إلى هذا التعدد فى اللغات ، وقد خطر لنا أن نلقى نظرة على « المخصص » فرأينا « للبعير » ألف مرادف وللناقة ٢٥٥ وللماء ١٧٧ وللخمر ١٠٠ وللأسد ١٢١ ورفعها بعضهم إلى ٣٥٥ وبعضهم إلى ٦٠٠ ، وأحصينا للذئب ٧٤ مرادفا وللحية ١١٢ ورفعها بعضهم إلى ٩٠٠ . . إلخ .

وكذلك كثرت صيغ الجمع على غير قياس فناقة مثلا تجمع على ناقات ونوق وناق وأيانق ونياق وأيْنُقْ وأنْوُقْ .

ولهذا كثرت الأضداد كذلك فعلى سبيل المثال نقول إن الإسرار هو الكتمان لا الإظهار ، وبعد فى بعض اللغات بمعنى قبل وأحمر بمعنى أبيض والبعض بمعنى الكل وقسط بمعنى جار وعدل ، والنّد بمعنى الضد والمثل . وولى بمعنى أقبل أو أدبر ، وهل بمعنى قد فى بعض اللغات ، والشجاع للقوى وللضعيف ، وفى بعض اللغات بمعنى المنون وفى بعضها بمعنى الأرز وفى بعضها بمعنى الثعبان ، والسدفة للضوء وللظلمة والمساجد فى بعض اللغات بمعنى المنتصب . . إلخ .

وقال الواسطى فى كتابه « القراءات » إن فى لغة القرآن كلمات من أربعين لغة عربية هى : قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج . . هذا ولم يكن الخلاف بين اللغات مقصوراً على الكلمات ، إنما تعداها إلى أصول النحو ، قال الأصمعى «جاء عيسى بن عمر ونحن عند أبى عمرو بن العلاء ، فقال يا أبا عمرو ما شىء بلغنى عنك تجيزه ؟ قال وما هو قال : بلغنى أنك تجيز « ليس الطيبُ إلا المسكُ » قال أبو عمرو : نمت وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ولا فى الأرض تميمى إلا وهو يرفع ، ثم قال : قم يحيى – يعنى الزيدى – وأنت يا خلف – يعنى (خلف) الأحمر فاذهبا إلى المهدى (أعرابى بالحجاز) فلقناه الرفع واذهبا إلى المنتجع (أعرابى من تميم) فلقناه النصب فإنه لا ينصب ، قال : فذهبا فأتيا

أبا المهدى فإذا هو يصلى ، فلما قضى الصلاة التفت إلينا وقال : ما خطبكما ؟ قلنا جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب ! قال : هاتها . فقلنا كيف نقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال « أتأمران بالكذب على كبر سنى » فقال لى خلف ليس الشراب إلا العسل . قال اليزيدى : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها فأعادها بالنصب ، فرفعها ثانية ، فقال ليس هذا لحنى ولا لحن قومى . قالا فكتبنا ما سمعنا ، ثم أتينا أبا المنتجع فلقناه النصب وجهدنا به فلم ينصب وأبى إلا الرفع .

ومن اختلاف اللغات استعمال ذوات بمعنى الذى فى لغة طيئ .

جمعتها من أينق بوارق ذوات ينهضن بغير سائق

بمعنى اللائى – جمع ذات – وطيئ تستعملها فى معنى التى ، ويقولون ذو بمعنى الذى .

فأما كرام موسرون لقيتهم فحسبى من ذو عندهم ما كفانا

و « ذو » هذه وردت كذلك فى شعر أبى نواس :

حب المدامة ذو سمعت به لم يُبق فىّ لغيرها فضلا

ومن اختلاف اللغات أن بعض القبائل « الحرث بن كعب وبعض ربيعة » تحذف نون اللتين واللذين فى حالة الرفع ، وعلى هذه اللغة يقول الفرزدق :

أبنى كُلَيب إن عَمَّىَّ اللذا قتلا الملوكَ وفكَّكَا الأبطالا (١)

ويقول الأخطل :

هُمَا اللَّتَا لَوْ وَلَدَتْ تَميمُ لَقِيلَ فَخْرٌ لَهُمُ صَمِيمُ (٢)

ومن اختلاف اللغات فى الجمع :

تَنْفِى يداها الحصَى فى كلّ هاجرةٍ نَفْىَ الدراهيمَ تنقادِ الصَياريفِ (٣)

وليس يمكن أن يجيزه كضرورة من ضرورات الشعر ولو أن غيرنا أجازه .

وقول عمر بن أبى ربيعة :

صَدَدْتِ فأطْوَلْتِ الصُّدَودَ وصالٌ على طُولِ الصُّدُودِ يَدُودِ (٤)

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٣٨٤١ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٣٩٨

(٣) من أبيات سيبويه ، البغدادى : خزانة الأدب جـ ٤ ص ٣٢٤ من طبعة السلفية ١٣٥١

(٤) الديوان ص ٥٠٢ من طبعة المكتبة التجارية

وهو قبيح وقد أورده سيبويه فى كتابه فى باب «ما يحتمل من الشعر» .

ومن اللغات ما يحذف النون من حرف الجر «من» مثل «ما أنسى ملأشياء لا أنس . . إلخ» ، أى «ما أنسى من الأشياء لا أنسى كذا» وهى لغة شائعة ولا سيما فى شعر عمر وجميل . وإنما أردت التمثيل والإشارة .

ومجمل القول أن لاختلاف اللغات أثر كبير فى صعوبة الشعر الأموى وتعقيده ولاسيما شعر البادية ، وكفى بشعر الشماخ بن ضرار وذى الرمة شاهدا على ما نقول . . ومنهم من يقول «لا أياك» بدلا من «لا أبالك» .

وقد مات شماخ ومات مزرب   وأى كريم لا أباك مخلد

وبعد ، فأقول إن اختلاف اللغات كان له أثر كبير فى تعقيد الشعر الأموى وصعوبته ، فلما كان القرن الثانى ماتت هذه اللغات الضعيفة أو كادت .

الخيال فى الشعر الأموى والعباسى
والتشبيهات الجديدة

قيل لابن الرومى : لِمَ لاتشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال لعاذله : أنشدنى من شعره ماتستمعه عنه ، فأنشده فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر[1]

قال : زدنى ، فأنشده قوله فى الآدريون :

كـــأن آدريـونها   والشمس فيه كالية

مداهن من ذهب   فيها بقايا غالية[2]

فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لايكلف الله نفسا إلاوسعها ، ذاك إنما يصف بنيه لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف ؟ إنما أصف ماأرى وأنشده بعض نماذج منها ، قوله فى صانع رقاق :

---

(١) نجيب العقيقى : الأدب المقارن ص ١٠٨ من طبعة دار المعارف ١٩٤٨ ، وأبو عبيد البكرى : سمط اللآلىء جـ ١ ص ٤٤٢

(٢) الديوان ص ٨٩ من طبعة المكتبة العربية

ماأنَس لا أنْسَ خبَّازاً مررتُ به يدحو الرُّقاقة مثْلَ اللمح والبَصَر
ما بين رؤيتها فى كفّه كُرةً وبين رؤيتها قَوراءَ كالقَمَر
إلا بمقدار ماتنداح دائرةٌ فى لُجَّة الماء يلقى فيه بالحَجَر

وكذلك أقول إن هذه التشبيهات الجديدة التى ازدحمت بها دواوين الشعراء العباسيين وعطلت منها دواوين الأمويين ليست دليلا على خصب خيال العباسيين وفقر خيال الأمويين أوجموده .

عاش العباسيون فى بيئة يقول عنها بشار بن برد :

قد عشت بين الندمان والراح والمزهر فى ظل مجلس حسن

فطبيعى أن تنشأ هذه التشبيهات الجديدة لأن الحياة الجديدة مليئة بمادتها الطبيعية ، أتظن رجلا عاش فى البصرة أوالكوفة أوبادية العراق أواليمامة يستطيع أن يقول :

كأن الخزامى أسهم من زبرجد لهم نصل من فضة شابها دم
كأن رسوم الورد والورد فوقها سماءٌ لها من خالص الترب أنجم

فإن ذكّرنا أحد دمشق وملاعبها فأنت تعرف أن الشعراء كانوا يشدون الرحال إليها ليمدحوا الخلفاء وأن الشام كان فقيراً من الشعراء .

كيف يستطيع أموى أن يقول :

فحططنا إلى رياض عيون ناضرات ما إن بهن اعورار
فكان الأكفان فيها ابيضاض ومكان الأحداق فيها اصفرار

أو :

فتنفست فى الكأس إذ مزجت كتنفس الريحان فى الأنف

أو :

يا من بمقلتــه العقــار وبوجـنـتـيــه الجـلـنــار

أو :

ظبى كــأن الله ألــبسـه قشور الــدر جــلـــدا
وتــرى على وجــنـــاتــه م فى أى حين شئت وردا

أو :

أحـــبـبت ريما غــنـجــا ذا وجــنـــة كــالــذهــبــة

أو :

وشـادن كـالقضيب قـامتـه يسكب لى فضة على الذهب

أو :

بشمائـــــل ومحاجــــر لـــكنها قد غشيت حسنا قشور زبرجد

أو :

وجـلــنـــار مشرق على أعالى الشجرة
كأن فى رءوسه أحــمــره وأصــفــره
قراضة من ذهب فى خرقة معصفرة

أو :

وزهر خشخاش بدا أحمرا كـأنه فى رونـق وابتهاج
أقداح بلور وقد أنزحت عن خمرة لم تختلط بالمزاج

أو :

سقيا لأرض إذا مانمت نبّهنى بعد الهجوع بها ضرب النواقيس
كأن سوسنها فى كل شارقة على الميادين أذناب الطواويس

أو :

ولا زوورديــة تاهت بزرقتها فوق البياض على زرق اليواقيت
كأنها فوق طاقات نهضن بها أوائل النار فى أطراف كبريت (١)

. . . . إلخ

أنت ترى أن هذه التشبيهات مقتبسة هى ومادتها من البيئة الجديدة ، والآن نحب أن نوازن بين خيال الأمويين وخيال العباسيين أى بين خيال العرب الخلص والموالى والمولدين .

نحب أن نلاحظ أولا ماهوية الخيال العربى فنقول عن التشبيه فى شعر الأمويين والجاهليين إنه منتزع من البيئة البدوية العربية ، وطبيعى أن يكون كذلك امرؤ القيس يشبه لون الأنف

---

(١) أبو العتاهية : الأدب المقارن لنجيب العقيقى ص ١٢٦ من طبعة دار المعارف ١٩٤٨

فيقول « لون كلون دم الغزال » فهذا تشبيه بدوى محض منتزع من صور الصحراء ، لو أن شاعراً عباسياً أحب أن يؤدى هذا المعنى لشبهه بلون الزهر أو الجلنار فى غير ما شك .

الأخطل يشبه صوت الخمر وقد صُبَّ عليها الماء فيقول :

غر الشراب فأقبلت مشروبة   هدر الدنان بها هدير الأفْحل

عربى يشبه لون الأنف وعربى يشبه صوت الخمر وليس بين اللون والصوت جامع ، ومع ذلك فكلاهما ينتزع تشبيهه من الصحراء الغزال والجمل » .

شبه الأخطل صوت الخمر بهدير الإبل ، فأبو نواس يؤدى ذلك المعنى نفسه فكيف يؤديه ؟ يقول :

كأن قرقرة الإبريق بينهم   رجع المزامير أوتغريد فأفاء[1]

طبيعى ! فأبو نواس يسمع رجع المزامير والأخطل يسمع هدير الإبل .

وأبو تمام يقول فى الرثاء :

والموت نقاد على كفه   جواهر يختار منها الجياد[2]

أما جرير فيقول :

أمسى بنوه وقد حلّت مصيبتهم   مثل النجوم هوى من بينها القمر

أو :

كنا كأنجم ليل بينها قمر   يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

أبو تمام رجل متأثر بالحضارة الجديدة يرى « الجواهر » أينما حل ، وجرير رجل بدوى يرى السماء والصحراء فلايشبه بالجواهر وإنما يشبه بالنجوم والقمر .

ولو أن الشعراء الأمويين عاشوا فى البيئة التى عاش فيها العباسيون لافتّنوا فى هذه الأوصاف الحضرية وأبدعوا .

ولقد روى عن على بن الجهم أنه وفد على المتوكل فمدحه بقصيدة منها :

أنت كالكلب فى حفاظك للود   م وكالتيس فى قراع الخطوب

فعنف وتلطف المتوكل والتمس له العذر بأنه يستمد تشبيهاته من بيئته البدوية ، وحدث بعد ذلك أن عاش ابن الجهم فى بغداد فرق شعره فى ذلك العهد وعذب ومن ذلك قوله :

---

(١) الديوان ص ٢٣٦ من طبعة مصر

(٢) نجيب العقيقى : الأدب المقارن ص ١٢٦ من طبعة دار المعارف ١٩٤٨

عُيونُ المها بين الرُّصافة والجَسْر جلبن الهوى من حيث أدرى ولاأدرى
سلمن وأسلمن القلوب كأنما تُشَكّ بأطراف المثقفة السمر
أعدن لى الشوقَ القديم ولم أكن سلوتُ ولكن زدن جمرا على جمر
خليلى ماأحلى الهوَى وأمرّه وأعرفنى بالحلو منه وبالمرّ
بما بيننا من حُرمة هل علمتما أرقّ من الشكوى وأقسى من الهَجر (١)

لكننا لم نعد ذكر أبيات رق لفظها وسلس أسلوبها . فلنرو لك هذه الأبيات من قصيدة له فى ذلك العهد حضرية المعانى :

وَطِئنا رياضَ الزَّعْفران وأمْسَكَتْ علينا البزاةُ البِيضُ حُمْرَ الدَّرَارِجِ
ولم تَحْمِها الأَدغالُ منا وإنما أبَحْنا حِمَاها بالكلاب النوابج
بُمْسْتَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها على الأرض أمثالَ السِّهام الزوَالج
ومُسْتَشْرِفاتٍ بالهَوَادى كأنها وما عَقَفَتْ منها رءوس الصَّوَالج
ومنْ دالِعاتٍ ألْسُناً فكأنها لحى من رجالٍ خاضعين كَوَاسج
فَلَيْنا بها الغِيطانَ فَلْياً كأنها أناملُ إحدى الغانيات الحوالج (٢)

ونلاحظ أن نوع الخيال الذى برع فيه العرب هو الخيال « المصور » ويظهر أن ذلك طبيعى ، والعرب قوم تنبسط أمامهم الصحراء انبساطا لانهاية له لايشغل فضاءها شىء ، وإليك صور هذا الخيال :

الراعى يصف ذئبا أنحله الجوع فيقول :

متوشّحَ الأقراب فيه نهمة نَهْشُ اليدينِ تخاله مَشْكُولا
كدخان مرتجلٍ بأعلى تَلعَة غرثانَ ضَرَّمَ عرفجا مبلولا (٣)

أتعرف أجمل من هذا الخيال ؟ ذئب ناحل يعدو يشبهه بالدخان ، تشبيهٌ بدوى محض منتزع من صور الحياة اليومية ، لكننى أراه على بساطته لايتفق إلا لمخيلة فطنة متوقدة . وهاك صورة أخرى متحركة من شعر امرئ القيس :

---

(١) أبو عبيد البكرى : سمط اللآلىء جـ ١ ص ١٦٢ بتحقيق عبد العزيز الميمنى من طبعة لجنة التأليف والعاملى : الكشكول جـ ٢ ص ١٣٧

(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ٣٦٩١ من طبعة الشعب

(٣) شعر الراعى من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٦٤

وقد أغتدى والطيرُ فى وُكُناتها بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ
مِكَر مِفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبِرٍ معاً كجُلْمودِ صَخرٍ حَطَّه السَّيْلُ من عَلِ (١)
له أَيطلا ظبى وساقا نَعَامَةٍ وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وله : صورتان ، صورة فى البيتين الأولين متحركة ، وصورة ثابتة فى البيت الأخير.

وأنت تعرف نبوغ ذى الرمة فى التصوير الشعرى حتى ليجوز أن يقال إنه نابغة الخيال العربى ، ولا أتعرض له بل أتجاوزه إلى غيره ، فقد كتب عنه بعض زملائنا مافيه الكفاية ، وأحب أن أشير إلى أن الخيال عند ذى الرمة أقرب كذلك إلى البساطة البدوية كتشبيه الطلل الدارس بالرداء البالى .

والآن أضع بين يديك هذه الصورة من شعر البحترى فى وصف بركة المتوكل :

تنْصَبُّ فيها وُفُودُ الماءِ مُعْجِلَةً كالخَيْلِ خارجَةً من حَبْلِ مُجْرِيهَا
كأنما الفِضَّةُ البيْضَاءُ سائِلَةً من السَّبائِكِ تجرى فى مجاريها
إذا عَلَتْها الصَّبَا أبْدَتْ لها حُبُكاً مِثْلَ الجَواشِنِ مَصْقُولاً حَوَاشِيهاَ
إذا النُّجُومُ تَرَاءتْ فى جَوَانِبِهَا لَيلاً حَسِبْتَ سَماءً رُكِّبَتْ فيها
لايَبْلُغُ السَّمَكُ المحْصُورُ غَايَتُهاَ لِبُعدِ مابينْ قَاصِيها ودَانِيها
يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مُجَنَّحةٍ كالطيرْ تَنفضُ فى جوٍّ خوافِيها
لَهُنَّ صَحْنٌ رَحيبٌ فى أسَافِلها إذ انحطَطْنَ وبهْوٌ فى أعَالِيها
صُورٌ إلى صُورَةِ الدُّلْفَين يؤنِسُها مِنه انزِوَاءٌ بعينيه يوَازِيها
محفُوفَة بِرياضٍ لا تزَالُ تَرَى رِيشَ الطَّواويسِ تحكِيهِ ويحكيهَا (٢)

ذلك هو الشعر الخالد حقاً صور لا تعتمد على طلاء ، وإنما على فكر آخذ بعضها برقاب بعض ، تمر أمام عينيك كما يمر شريط سينمائى ، وهى بعد رائعة فى كل زمن لأنها صور منتزعة مما هو كائن ومما كان ومما يكون .

ثم أحب أن أعرض عليك صوراً أخرى متحركة من شعر بشر بن عوانة (٣) فى وصف

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ٣١٩٠ من طبعة الشعب والبغدادى : خزانة الأدب جـ ٢ ص ٣٦٥ من طبعة مصر

(٢) الديوان ص ٢٤١٩ بتحقيق حسن كامل الصيرفى من طبعة دار المعارف

(٣) بشر بن عوانة العبدى ، اسم اخترعه البديع الهمذانى لشاعر وضع له قصة خلاصتها : أنه عرض له أسد وهو ذاهب يبتغى مهرا لابنة عم له فثبت للأسد وقتله وخاطب أختا له سماها البديع فاطمة (مقامات بديع الزمان ص ٩٢ ، ٩٣) من طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ

صراع بينه وبين أسد :

أفاطم لوشهدت ببطن خبت … وقد لاقى الهزبر أخاك بشراً
إذا لرأيت ليثا زار لثيا … هزبرا أغلبا لاقى هزبرا
تبهنس حين أحجم عنه مهرى … محاذرة فقلت عقرت مهراً
أبل قدمى ظهر الأرض أنى … رأيت الأرض أثبت منك ظهراً
وقلت له وقد أبدى نصالاً … محددة ووجهاً مكفهراً
يكفكف غيلة إحدى يديه … ويبسط للوثوب علىَّ أخرى
يدل بمخلب وبحد ناب … وباللحظات تحسبهن جمرا
وفى يمناى ماضى الحد أبغى … بمضربه قراع الموت أثرا
ألم يبلغك مافعلت ظباه … بكاظمه غداة لقيت عَمْراً
وقلبى مثل قلبك ليس يخشى … مصاولة فكيف يخاف ذعراً ؟
وأنت تروم للأشبال قوتا … وأطلب لابنة الأعمام مهراً
ففيم تسوم مثلى أن يولى … ويجعل فى يديك النفس قسراً
نصحتك فالتمس ياليث غيرى … طعاماً إن لحمى كان مراً
فلما ظنّ أن الغشن نصحى … وخالفنى كأنى قلت هجْراً
مشى ومشيت من أسدين راما … مراما كان إذ طلباه وعرا
هززت له الحسام فخلت أنى … سللت به لدى الظلماء فجرا
وجدت له بجائشة أرته … بأن كذبته ما منه عذرا
وأطلقت المهند من يمينى … فقد له من الأضلاع عشرا
فخر مجندلا بدم كأنى … هدمت به بناء مشمخرا
وقلت له يعز علىّ أنى … قتلت مناسبى جلداً وفخرا
ولكنْ رمت شيئاً لم يرمه … سواك فلم أطق ياليث صبراً
تحاول أن تعلمنى مزاراً … لعمر أبيك قد حاولت نكراً
فلا تجزع فقد لاقيت حراً … يحاذر أن يعاب فمت حراً

كأننا فى ملعب للوحوش « سيرك » وكأن علجاً من علوج الرياضة البدنية يصارع وحشاً من

الوحوش الضارية ، وكأننا نتمثل كل وثبة وكل مراوغة .

هذه صور من الخيال العربى . وليس استعداد العرب الخيالى مقصوراً على هذا الخيال « المصور » بل إن لهم فى الخيال « المؤلف » آيات رائعات ، ومن ذلك الخيال المؤلف قول أبى العباس :

وجدول ماء كالمجرة أسبغت بحافاته الأنهار من نسجها بسطا
صفا ماؤه حتّى كأن انصبابه حسام إذا ما سُلَّ أو حيّة رقطاً

ونكتفى مضطرين حرصاً على الإيجاز بهذه الأمثلة ونعيد ماقلناه ، وهو أن كلا الخيالين : الخيال العربى والخيال الأجنبى فى شعر الموالى والمولدين ولاسيما الخيال الآرى يستمد مادته البيئية التى صبغته بها الأجيال ، وأنت تذكر رأينا فى الوراثة وإيماننا بأن أدق الخصائص العقلية تورث كما تورث الصفات النفسية والظواهر الجسدية .

لوأن شاعراً غير عربى أراد تشبيه الضباب بماء النهر لما شبهه بالحسام المسلول أو بالحية الرقطاء إنما بالبلور يجرى أو سبائك تسيل .

لكننا نصر على أن الخيال العربى الخالص أبرع فى الخيالين « المصور والمؤلف » أما غيرهم من شعراء العصر العباسى فعمدتهم الخيال « الواهم » وقد عرضنا أمثلة منه ، ونحن الآن نعرض لخيال أبى نواس فرأيت كيف أنه يشبه الخمر بالعذراء ثم يتخيل أنه يساوم الخمار على مهرها وأنها زفت إليه بعد ذلك « فى سراويلها » وفى « الزنار » إلى غير ذلك من ضروب الخيال الواهم وهو لايقارن بغيره من فنون الخيال إلا إذا كان حلماً من الأحلام معجزاً أو تصورا لا يمكن أن يخطر لعامة الناس .

ونحن أبعد الناس عن إطلاق القضايا أحكاما مطلقة فلسنا نعنى بالخيال الأجنبى كل خيال غير عربى ، إنما نحن نعرف أن ابن الرومى أوتى من قوة التصوير حظا لم يؤته كثير من العرب الخالصين ، وبالتحديد أن الخيال العربى خصب فى ناحيتى « التصوير والتأليف » وأن الخيال الآرىّ معظمه وهمى ، وقد يبدو ذلك غريبا لأن بلاد إيران غنية بجبالها وهضابها ومناظرها العجيبة ، لكنه الواقع نلمسه فى شعرائنا المولدين والموالى ، ومنهم من تجرى فى عروقهم دماء آرية كما نلمسه فى شعر الفرس الخالصين ، ولو اتسع الوقت والمجال لعرضنا عليك نصوصا من الشعر الفارسى نؤيد بها دعوانا فعسى أن يحقق ذلك من يخطر له أن يبحث بحثا خاصا موضوعه « الخيال فى الشعر العربى » أو عسى أن تتيح لنا الأيام فرصة نقوم بها بهذا البحث .

الواقعية فى الشعر العباسى

نريد بالواقعية وصف الأشياء كما هى وصفا مفصلا دقيقا يمثل لك الصورة التى أرادها الشاعر تمثيلا ناطقا ، ولسنا نعرف فى الشعر الأموى من ذهب هذا المذهب إذا استثنينا عمر بن أبى ربيعة . وإنى لأعرض عليك هذه الصورة الواقعية فى شعر بشار بن برد ، وهو أول من ذهب هذا المذهب من الشعراء العباسيين :

يا عجبا للخلاف يا عجبا ... بِنِى الذى لام فى الهوى الحَجَرُ
حَسْبِى وحَسْبُ الذى كَلِفْتُ به ... مِنِىّ ومنه الحديث والنّظرُ
أو قُبلَةٌ فى خلال ذاك وما ... بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لِى الأُزُرُ
أو عَضّةٌ فى ذراعها ولها ... فوق ذراعى من عَضِّها أثَرُ
أو لمَسةٌ دون مِرْطها بيدى ... والبابُ قد حال دونه السُّتُرُ
والساقُ برَّاقَةٌ مُخَلخَلُها ... أو مَصُّ رِيقٍ وقد علا البُهُرُ
واسترخت الكفُّ للعِراك وقا ... لتْ إيهِ عنّى والدَّمعُ مُنحَدِرُ
انهَضْ فما أنتَ كالذى زعموا ... أنتَ وربىّ مُغَازِلٌ أَشِرُ
قد غابَت اليوم عنك حاضِنَتى ... واللهُ لى منكَ فيك يَنْتَصِرُ
يا ربِّ خُذْ لى فقد ترى ضَرَعى ... من فاسقٍ جاء ما به سَكَرُ
أهوَى إلى مِعْضَدِى فرضَّضهُ ... ذو قوةٍ ما يُطاقُ مُقتدِرُ
ألصقَ بى لِحْيَةً له خَشُنتْ ... ذاتَ سوادٍ كأنها الإِبَرُ
حتى عَلاَنى وأُسرتى غَيَبٌ ... وَيْلِى عليهم لو أنهم حَضَرُوا
أُقسِم باللهِ لا نجوتَ بها ... فاذهبْ فأنت المُساوِرُ الظّفِرُ
كيف بأمىّ إذْ رأتْ شَفَتِى ... أم كيف إن شاع منك ذا الخبَرْ
قد كنتُ أخشى الذى ابتُلِيتُ به ... منك فماذا أقولُ يا عبرُ
قلتُ لها عند ذاك يا سَكَنِى ... لا بأسَ إنى مُجَرّبٌ خَبِرُ

قُولِى لها بَقَّةٌ لها ظُفُرٌ إن كان فى البقِّ ما له ظُفُرٌ (١)

وزعيم هذا المذهب الواقعى بعد بشار هو أبو نواس ، ولنمثل لذلك :

كان القدماء يبدءون المدح بوصف الطلول :

أَتَعْرِفُ من أَسْماءَ بِالجُدِّرَوْسَمَا مُحِيلاً ونُؤْياً دَارِساً قِد تَهَدَّمَا

ومَوْضِعَ أَحْطَابٍ تَحَمَّلَ أَهْلُهُ ومَوْقِدَ نارٍ كالحَمامَةِ أَسْحَما (٢)

أما صاحبنا فيبدأ أبو صف الورد :

كنت من الحب فى ذرى نيق أرود منه مراد مومـوق

مجال عينى فى زاهر الرو ض وشربى من غير ترنيق

وكانوا ينتقلون إلى آلام الهوى وحرق الجوى ، أما صاحبنا فينتقل بكل بساطة إلى ما هو « واقع » .

تشوب عزا بذلة فلها ذل محب وزهو معشوق

وردفها كالكثيب نيط إلى خصر رقيق اللف ممشوق

أمشى إلى جنبها أزاحمها عمدا وما بالطريق من ضيق

أرأيت إلى أى حد كان أبو نواس يدعو إلى التجديد وإلى المذهب الواقعى معا .

إنه يمدح فلا يتحدث عن دار هند ودعد بل يتحدث عن الزهر ثم لا يتحرج وهو يمدح رجلا كالعباس بن الفضل من وصف مجونه فى الطريق ، هو يأبى إلا أن يصور حياته كما هى ويصور المجتمع الذى يعيش فيه كما هو .

وإذا كان القدماء والمحدثون من أنصار القديم اتخذوا الناقة وسيلة إلى الممدوح فقالوا :

هل تُبْلِغَنِّى يَزِيداً ذَاتُ مَعْجَمَةٍ كأنها صَخْرَةٌ صَمَّاءُ صَيْخُودُ

من اللَّوَاتِى إذا لانَتْ عَرِيكَتُها كان لها بَعْدَه آلٌ ومَجْلُودُ

تَهْدِى سَوَاهِمِ يَطْوِيها العَنِيقُ بنا فالعِيشُ مُنْعَاةٌ أَقْرابُها سُودُ (٣)

فأبو نواس لا يذكر النوق إنما يذكر الخيل :

إذا الجياد جرت يوم الرهان جرت جرى السوابق تحنو فى نواصيها

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٢٩ - ١٠٣٠ من طبعة الشعب

(٢) الأخطل : الديوان ص ٢٤٧ (٣) ديوان الأخطل ص ١٤٨

بحور الشعر واستعمالها
فى العصرين

شعراؤنا الفنانون :

الشاعر العباسى فنان يختار لموضوعات الشعر ما يلائمها من بحور العروض . فمثله كمثل الحائك الخبير بفنون الحياكة يقيس ويقص بمقصه اللباس لكل قدٍّ بمقياس . أو كالمثّال يبسط ويجعد الأسارير وينحل ويملأ الخصور .

انظر إلى أبى نواس كيف يعمد إلى البحر «الطويل» الفخم فى المدح :

أربع البِلَى إن الخشوع لبادِ ... عليك وإنى لم أخنك ودادى
فعذرة منى إليك بأن ترى ... رهينة أرواح وصوت غوادى
رأيت لفضل فى السماحة بدعة ... أتاحت لعمرى غيظ كل جواد[1]

وعندما يذكر الخمر وما إلى الخمر ، يعمد إلى البحر القصير «مجزو الرمل» والأسلوب المتناسق واللفظ المنتقى فكأن القطعة أعدت للترنم والغناء لا للإنشاد :

أَحْيِ لى ياصاح روحى ... بغبوق وصبوح
واسقنى حتى ترانى ... رادعا ردع الجموح
قهوة حمراء حقا ... غرست أزمان نوح
تشخص الهم ويرتا ... ح لها قلب الشحيح
تلك لا أعدمنيها الله ... م روحى دون روحى
يجنح القلب إليها ... فى الهوى أى جنوح
عطفت نفسى عليها ... بهوى غير نزوح

وهكذا تراه فى الغزل أو الملح مختارا أقصر البحور كالمضارع والمقتضب والهزج والمجتث أو مجزوات البحور الطويلة «ياقضيبا فى كثيب» و «يالاعبا بحياتى» و «إننى أبصرت شخصا» و «يا من بمقلته يصير» و «اسقنيها يا رفاقه» و «أيامن طرفه سحر» و «قد قلت ليلة ساوا»

(١) المرزبانى : الموشح ص ٢٧٣ من طبعة جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣

و «أيامن ريقه خمر» و «حامل الهوى تعب» و «ياسائلى عن هواى» و «شهدت وجه حبيبى» و «طاب الهوى لعميده» و «ياربة الوجه الجميل» .

بحور قصيرة أو مجزوة وأعاريض مشطورة ومنهوكة وأسلوب سلس ، فإنه تحرر من قيد البحور القصيرة والمجزوة فهو لا يتعداه إلا إلى بحر من البحور المتوسطة كالكامل :

ماذا لقيت من الظباء الخرد

أو الوافر : ومقرور مزجت له شمولا

أما الرثاء فأبو نواس فقير فيه ، ومع ذلك فليس من الصعب أن تلاحظ ذوقا فى اختيار بحوره ، فهو يختار من البحور ما كان بطبعه رقيقا لينا كالرمل «مايريد الدهر منى ويحه ؟ » أو كالهزج «يابهجة الدنيا التى » أو الوافر «أعزى يامحمد عنك نفسى » . ومن اليسير كذلك أن نلاحظ ملاءمة القوافى :

فاضت دموعى ساكبة حــزنــا لمصرع والــد

وتعال بنا نلق نظرة على شعر أبى تمام فى الرثاء ؛ سنلاحظ للنظرة الأولى أن البحور الغالبة هى : المتقارب «نعاء إلى كل حى نعاء » والوافر «أعيدى النوح معولة أعيدى » والكامل «مازالت الأيام تخبر سائلا » .

وليس الكامل بحرا لينا لكن فيه من الهدوء ما يجعله صالحا لأكثر من فن ، وأبو العتاهية عندما يتغزل يقول :

ألا ما لسيدتى مالها دلالٌ فأحمل أدلالها (١)

وعندما يمدح الرشيد يقول :

وهَارُون مَاءُ المزن يشفى من الصَّدَى إذا ما الصَّدى بالريق غَصَّت حَنَاجِرُه (٢)

ويقول :

رحلت عن الربع المحيل قعودى إلى ذى زحوف جمة وجنود

أما الشعراء الأمويوم فلم يفرقوا بين البحور ، فأنت واجد الطويل مثلا فى مساجلاتهم الهجائية ، فللفرزدق : (على مقعد الأستاه أنتم زعمتمو) واجده وغيره فى المدح لجرير (حيوا أمالة واذكروا عهدا مضى) . وفى الهجاء لجرير (لقد هتف الحمام ليطربا) و (عجبت لهذا الزائر

---

(١) المرزبانى : الموشح ص ٢٦٠ من طبعة جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣

(٢) ابن منظور : مختار الأغانى جـ١ ص ٢٢ من طبعة الدار المصرية للتأليف

المترقب) وفى المدح (أبث بعينيك الدموع السوافحا) . وفى الرثاء (خليلى كم من زفرة قد رددتها) وفى النسيب (تفرق بثين فهمو) وفى الملح (وعكلية قالت لجارة بيتها) وفى الحماسة (لقد زادنى حباً لنفسى أننى) .

وأخيرا لسنا ننسى ما قلناه فى حديثنا عن الوليد بن يزيد (باب الخمريات) وقلنا إنه إمام لمدرسة الشعراء العباسيين ، فالوليد أول من حرص على البحور القصيرة فى موضوعات الغزل والخمر وما إليهما ، انظر إلى قوله فى سلماه :

أنا فى يمنى يديها ... وهى فى يسرى يديّه
إن هذا القضاء ... غير عدل يا أخيّه
ليت من لام محبا ... فى الهوى لا فى منيّه
فاستراح الناس منه ... ميتة غير سويه

وقوله :

خبّرونى أن سلمى ... خرجت يوم المصلى
فإذا طيرٌ مليح ... فوق غصن يتفلّى
قلت ياطير ادْنُ منّى ... فدنا ثم تدلّى
قلت هل تعرف سلمى ... قال لا ثم تولى[1]

وقوله :

لعل الله يجمعنى بسلمى ... أليس الله يفعل ما يشاء
ويأتى بى ويطرحنى عليها ... فيوقظنى وقد قضى القضاء
ويرسل ديمة مِن بعد هذا ... فتغسلنا وليس بناء عناء

أوزان وفنون جديدة

ومما استحدثه سلم الخاسر زيادة عما ابتكره أبو العتاهية من الأوزان والبحور الجديدة نوع من بحور الشعر يسمى المقطع فقد مدح سلم موسى الهادى بقصيدة أولها :

موسى المطر غيث بكر ... ثم انهمر ألوى المرر

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٤٧٦ من طبعة الشعب

كم اعتسر ثم ايتسر وكم قدر ثم غفر
عدل السير باقى الأثر خير وشر نفع وضر
خير البشر فرع مضر بدر بدَر والمفتخر
لمن غبر(١)

ومن الأوزان التى ولدها الخليل نوع من البحور يسمى المسند عكس المديد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن)

قد شجانى حبيبى واعترانى ادكار ليته إذ شجانى ما شجته الديار

وهناك نوع مما ابتكره شعراء العصر العباسى وقد أسموه «المواليا» (المواويل) وأول من اخترع هذا النوع مولاة للبرامكة حين نكبهم الرشيد ، وكانت ترثيهم به صائحة بعد كل قطعة «واموالياه» فحملت إلى الرشيد لأنه حظر على الشعراء رثاء البرامكة بالشعر أو النثر ، فلما مثلت بين يديه قالت «ليس هذا شعرا لأنه عامى ملحون ، ولم يجر على الأوزان المعروفة . فعفا عنها ، ومن نظمها من ذلك الحين «المواليا»(٢)

ومن مراثى تلك المرأة قولها :

يادار أين ملوك الأرض أين الفرس أين الذين حموها بالقنا والفرْسْ
قالت أراهم رممْ تحت الأراضى الدرسْ خفوت بعد الفصاحة ألسنهم خرْسْ

ومن الجديد ما يسمى «الكان كان» وهو كناية عن الأحاديث التى لايعتنى بها ، إذ يقال «كان وكان»(٣) ، وهو من اختراع العصر العباسى ، مثال :

ياقاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
أفنيت مالك وحالك فيما لاينفعك ليتك على دى الحالة تقنع عن الأحرار

---

(١) ابن رشيق : العمدة جـ ١ ص ١٢٣ من طبعة الحلبى ١٩٠٧

(٢) المواليا فن من القول يتكون من نظم مداخل أعنى تدخل أشطار مختلفة من قوافى متغيرة . وهذا اللون من القول خليق بأن ينسب إلى الموالى أعنى غير الفصحاء من العرب والموالى بمعنى الدخلاء إلى العربية لا الموالى بمعنى الأسياد . (راجع كتابنا فنون الزجل — سلسلة كتابك بدار المعارف) .

(٣) هذا الفن يلحق بالمواليا فى أنه فن ملحون أعنى أنه يخرج على قواعد الإعراب ثم هو كذلك يخرج على مقاييس اللغة . وهذا النظم خاص بالحكايات والخرافات أعنى أنه بمثابة الشعر المستوعب للقصص والمتضمن سرد الأحدوثات والخرافات . (راجع المصدر السابق) .

ومما استجد فى هذا العهد «القوما» وهو نوع اخترع للتنبيه وإيقاظ النائمين لتناول السحور فى رمضان ، وسمى هذا الاسم نسبة إلى قوم المسحرين لقول بعضهم لبعض «قوما لنْسْحر قوما» فغلب هذا الاسم على أمثالها [١] . وقد مدح بعضهم أحد الخلفاء وهو ينادى بالسحور فى رمضان فقال :

لازال سعدكْ جديد دايم وحدكْ سعيد
فى الدهر انت الفريد وفى صفاتك وحيد
والخلق شعر منقح وأنت بيت القصيد

وقد استحدث «المسمط» وهو تنصيف مصراعى البسيط «مستفعلنْ فاعلنْ» مثال له :

ياصحبنا عرجوا نقف بكم أسُحُ
مهريه دلج فى سيرها بعج
طالت بها الرجل

ومن مخترعات الشعر العباسى بحر «المقتضب» وهو فى شعر أبى نواس . مثال له :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحب ينتحب
كلما انقضى سبب منك جاءنى سبب
تعجبين من سقمى صحتى هى العجب

وقد اختصروا من البسيط فحذفوا التفعيلة الأخيرة من كل مصراع من مصراعيه ، ثم حذفوا من التفعيلة الباقية آخر الوتد المجموع وسكّنوا ما قبل الآخر من الوتد مع إدخال الخبن فى هذه التفعيلة ، ومن ذلك قول أبى تمام :

قد كان ما خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعونا [٢]

وقوله :

اختصم الجود والجمال فيك فصارا إلى جدال

---

(١) راجع ما كتبناه عن القوما – فنون الزجل – سلسلة كتابك بدار المعارف .
(٢) ينسب المؤلف هذا البيت إلى أبى نواس وسبق أن أثبتناه إلى أبى تمام .

فقال هذا يمينه لى للغرف والجود والنوال
وقال آخر وجهه لى للظرف والحسن والكمال
فافترقا فيك عن تراض كلاهما صادق المقال

لانتعرض لما طرأ على القوافى من تغيير فذلك لايجوز فيما نرى إلا فى بحث عروضى مستقل .

أما بعد وأما قبل

أكتب هذه الكلمة لأقدم هذا البحث بعد ساعة أو ساعتين من الزمان ، وكنت أَقَدّرُ أنى سأقدمها مغتبطا وقريرا فكيف السبيل إلى الغبطة وأنا لا أقدم رسالتى إنما أقدم بعض أجزائها ، والبعض الآخر مبعثر فى أوراق وكراسات عن يمينى وشمالى .

هجم الوقت هجوما فعمدت إلى ما استطعت استخلاصه من الأبواب المشتتة هنا وهناك وألفت بينها التأليف الممكن ونسقتها دون تجميل أو طلاء وجلست إلى مكتبى أملى هذا البحث إملاء عجول متتابع النفس ينظر إلى أوراقه تارة ويطويها طيا كلما لمح عقارب الساعة .

جلست أملى وأدفع ما أمليه دون مراجعة ولا نظر . أقدم هذه الرسالة فى شىء من الألم اللاذع وقد كدت أذكر « الألم العميق » لولا تمرة من الأنفة تذكرنى فى كل أزمة من أزمات نفسى أن ليس فى الحياة ما يستوجب الألم العميق ، وأن الحياة أهون من أن تساويه .

أقدمها فى شىء من الألم اللاذع لا لأننى حاولت فيها التمويه ، معاذ الخلق ، ولا لأننى ألقيت الأحكام كما تلقى الخواطر ، جلّ العلم ، وجلّت الأمانة ! بل لأننى أقدم أجزاء من رسالتى ، وكنت أحب أن أذكر فى هذه الكلمة رءوس المباحث الأخرى وهى مدونة فى أوراق ، لكننى ذكرت أن هذه الرسالة تقدم فى امتحان رسمى وخشيت أن يؤول كلامى أنواعا من التأويل ، ومثلنا فى مثل هذا الظرف منهم ضنين فطويت فيما طوى غير آسف .

ومهما يكن فى هذه الرسالة التى أقدمها اليوم جهد أو جهود ، ولو كان غيرنا لرضى كل الرضا ، لكننى لا أرى الرفق رأيا ولا أصطفيه مذهبا .

أى والله لو أنصفت نفسى لوجب أن أرضى ، فهذا بحث شُغلت به ودبجته فى شهور لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة عدا — شهور أى شهور ، شهور كانت أحوج ما تكون إلى بال فارغ إلا من هذا البحث ، ويعلم الله وحده ظروفى المختلفة فيها . وبحث متشعب كهذا يحتاج إلى درس مفصل جدًّا وعميق جدًّا ، وهذا الدرس المفصل العميق يحتاج إلى البال الرخىّ والزمن المديد ، والزمنُ ليس يسعفنى .

ومع ذلك كله فأنا أرجو أن أكون قد وضعت بهذا البحث الذى أقدمه اليوم لبنة فى ذلك

البناء الشامخ الذى تقوم ببنيانه المدرسة الجديدة ، فإن كنت فعلت فى ذلك ما قد يرضينى وإن كنت قد أخْلَفْتُ فليس ما يؤسفنى ، إنما عملنا وإنما سنعمل لأننا وُجدنا فى هذه الحياة فلابد من العمل . إنما عملت وإنما سأعمل لأملأ أيامى ، أى لأملأ فراغها ، إما أن تحفل بى الحياة أو أطوى فى صحائفها بين من

سيطوى ومن قد طوى فذلك أمر ما خطر ببالى ولا شغلت به بالبالى
والسلام عليك يا قارئى ورحمة الله

١٧/٤/١٩٢١

عزيز فهمى

المراجع

مراجع عربية

١ – **الآثار الباقية** – البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد المتوفى ٤٤٠ هـ)
طبعة Edward Sachau

٢ – **أخبار أبى نواس** – أبو هفان (عبد الله بن أحمد بن حرب)
تحقيق عبد الستار فراج

٣ – **أخبار البحترى** – الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى) المتوفى ٣٣٥هـ
طبعة لجنة التأليف والترجمة

٤ – **أخبار الرجال** – الكشى (محمد بن عمر بن عبد العزيز)
طبعة بومباى

٥ – **الأخبار الطوال** – الدينورى (أحمد بن داود)
طبعة ليدن ١٨٨٨

٦ – **أخبار النحويين البصريين** – السيرافى (أبو سعيد الحسن بن عبد الله المتوفى ٣٦٨هـ)
مصر

٧ – **أدب الكتاب** – الصول (أبو بكر محمد بن يحيى)
المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١هـ

٨ – **أدب مصر الإسلامية** – الدكتور محمد كامل حسين
دار الفكر العربى

٩ – **الأدب المقارن** – نجيب العقيقى
دار المعارف ١٩٤٨

١٠ – **أراجيز العرب** – السيد توفيق أحمد البكرى
مصر ١٣١٣هـ

١١ – **الاشتقاق** – ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن المتوفى ٣٢١هـ)
الخانجى

١٢ – **الأغانى** – أبو الفرج الأصفهانى
طبعة الشعب ودار الكتب

١٣ – **ألحان الحان** – عبد الرحمن صدقى
دار المعارف ١٩٥٧

١٤ – **الأمالى** – أبو على القالى
بولاق ١٣٢٤هـ

١٥ – **الأمالى** – السيد المرتضى
الحلبى ١٩٠٧

١٦ – **الإمامة والسياسة** – ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
الحلبى ١٣٢٥ هـ

١٧ – **بشار بن برد** – طه الحاجرى
(سلسلة نوابغ الفكر) دار المعارف

١٨ – **البيان والتبيين** – الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)
المطبعة العلمية بمصر ١٣١١هـ

١٩ – **تاريخ الآداب العربية** – كارل نالينو
دار المعارف

٢٠ – **تاريخ آداب اللغة العربية** – مصطفى صادق الرافعى
طبعة مطبعة الأخبار ١٩١١

٢١ – **تاريخ الأمم الإسلامية** – محمد الخضرى
مطبوعات الجامعة المصرية

٢٢ – **تاريخ الأمم والملوك** – الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى ٣١٠هـ)
الطبعة الثانية بدار المعارف

٢٣ – **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** – الخطيب البغدادى (الحافظ أبو بكر أحمد بن على المتوفى ٤٦٣ هـ)
القاهرة ١٩٣١م

٢٤ – **تاريخ التمدن الإسلامى** – جورجى زيدان
طبعة دار الهلال

٢٥ – **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة** – السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين المتوفى ٩١١هـ) طبعة الحلبى

٢٦ * **تاريخ دمشق** – ابن عساكر (الحافظ أبى القاسم على بن الحسن) تحقيق صلاح المنجد
المجمع العلمى العربى بدمشق

٢٧ – **تاريخ الشعر السياسى** – أحمد الشايب
النهضة المصرية ١٩٤٥

٢٨ – **تحقيق ماللهند من مقالة مقبولة أو مرذولة** – البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد)
أوروبا

٢٩ – **التطور والتجديد فى الشعر الأموى** – الدكتور شوقى ضيف
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢

٣٠ - **ثمرات الأوراق** - الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى)
طبعة الصاوى
٣١ - **جمهرة أشعار العرب** - (أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى)
دار نهضة مصر
٣٢ - **جميل بثينة** - عباس العقاد
سلسلة اقرأ بدار المعارف
٣٣ - **حجج القرآن** - الرازى (أحمد بن محمد بن المظفر)
القاهرة ١٣٢٠ هـ
٣٤ - **حديث الأربعاء** - الدكتور طه حسين
دار المعارف
٣٥ - **الحلاج** - طه عبد الباقى سرور
المكتبة العلمية
٣٦ - **خزانة الأدب** - البغدادى (الحافظ أبو بكر أحمد بن على ، المتوفى ٤٦٣ هـ)
طبعة بولاق
٣٧ - **ديوان ابن الرومى** - (أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى)
المكتبة العربية
٣٨ - **ديوان أبى تمام** - (حبيب بن أوس الطائى)
طبعة دار المعارف وطبعة بيروت ١٨٨٩
٣٩ - **ديوان أبى العتاهية** - (إسماعيل بن القاسم)
طبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٨٨٧
٤٠ - **ديوان أبى نواس** - (الحسن بن هانئ)
طبعات مختلفة
٤١ - **ديوان الأخطل** - (غياث بن غوث بن الصلت)
طبعة بيروت ١٨٩١
٤٢ - **ديوان الأعشى** - (ميمون بن قيس) تحقيق محمد محمد حسين
مكتبة الآداب
٤٣ - **ديوان امرئ القيس** - (امرؤ القيس بن حجر)
طبعة حسن السندوبى
٤٤ - **ديوان أوس بن حجر**
دار صادر ببيروت

٤٥ – **ديوان البحترى** – (الوليد بن عبيد بن يحيى) تحقيق حسن كامل الصيرفى
دار المعارف وطبعات أخرى مختلفة
٤٦ – **ديوان بشار** – (بشار بن برد بن يرجوخ)
لجنة التأليف والترجمة والنشر
٤٧ – **ديوان جرير** – (جرير بن عطية الخطفى)
دار المعارف وطبعات أخرى
٤٨ – **ديوان جميل** – (جميل بن عبد الله بن معمر)
طبعة بيروت
٤٩ – **ديوان حسان بن ثابت**
مطبعة السعادة
٥٠ – **ديوان الحطيئة** – (جرول بن أوس)
طبعة أوروبا
٥١ – **ديوان الخنساء** – (تماضر بنت عمرو بن الحارث)
طبعة الزيدانى ١٣٢٦ – دار صادر ببيروت
٥٢ – **ديوان دعبل** – (دعبل بن على بن رزين)
طبعة النجف ١٩٦٢
٥٣ – **ديوان ذى الرمة** – (غيلان بن عقبة)
طبعة كمبردج ١٩١٩
٥٤ – **ديوان زهير بن أبى سلمى**
طبعة برلين ١٩٠٥ وطبعة دار الكتب ١٩٤٤
٥٥ – **ديوان صريع الغوانى** – (مسلم بن الوليد)
تحقيق سامى الدهان ، بدار المعارف
٥٦ – **ديوان طرفة بن العبد**
طبعة أوروبا ١٨٢٩ ، ١٩٠٠
٥٧ – **ديوان العباس بن الأحنف**
طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ
٥٨ – **ديوان عباس العقاد**
طبعة المقتطف
٥٩ – **ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات** – تحقيق محمد يوسف نجم
بيروت

٦٠ – **ديوان عزيز فهمى**
دار المعارف
٦١ – **ديوان عمر بن أبى ربيعة**
مطبعة السعادة
٦٢ – **ديوان الفرزدق** – (همام بن غالب)
المطبعة التجارية وطبعة أوروبا
٦٣ – **ديوان كثير عزة** – تخريج الدكتور إحسان عباس
طبعة لبنان
٦٤ – **ديوان لبيد** – (لبيد بن ربيعة بن مالك) تحقيق الدكتور إحسان عباس
٦٥ – **ديوان المجنون** – (مجنون بنى عامر – قيس بن الملوح) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد
المكتبة التجارية
٦٦ – **ديوان المعانى** – أبو هلال العسكرى
طبعة القدسى
٦٧ – **ديوان النابغة** – (زياد بن معاوية)
مطبعة السعادة بمصر
٦٨ – **ذو الرمة** – الدكتور يوسف خليف
الطبعة الثانية بدار المعارف
٦٩ – **رابعة العدوية** – طه عبد الباقى سرور
دار الكتاب العربى
٧٠ – **رسالة الغفران** – أبو العلاء المعرى
نشر كامل كيلانى
٧١ – **الرسالة القشيرية** – أبو القاسم بن عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى ٤٦٥ هـ
مصر
٧٢ – **زهر الآداب وثمر الألباب** – الحصرى (أبو إسحاق إبراهيم بن على)
طبعة ١٩٥٤
٧٣ – **سمط اللآلئ فى شرح أمالى القالى** – أبو عبيد البكرى
تحقيق عبد العزيز الميمنى
٧٤ – **شذرات الذهب فى أخبار من ذهب** – ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ)
مكتبة القدسى ١٣٥٠ هـ
٧٥ – **شرح أدب الكاتب** – الجواليقى (أبو منصور موهوب بن أحمد)
مكتبة القدسى

٧٦- **شرح أشعار الهذليين** – (أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى المتوفى ٢٧٥ هـ)
دار العروبة

٧٧- **شرح ديوان أشعار الحماسة** – التبريزى (أبو زكريا يحيى بن على)
بولاق ١٢٩٦ هـ

٧٨- **شرح القصائد السبع الطوال** – أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، تحقيق عبد السلام هارون
دار المعارف

٧٩- **شعر الخوارج** – الدكتور إحسان عباس
دار الثقافة ببيروت

٨٠- **شعر الراعى** – (عبيد بن حصين)
من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٦٤

٨١- **الشعر والشعراء** – ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم)
دار المعارف وبيروت ١٩٦٤

٨٢- **شعر القطامى (عمير بن شميم)** – تحقيق إبراهيم السامرائى
بيروت ١٩٦٠

٨٣- **شعراء النصرانية** – لويس شيخو
طبعة الآباء اليسوعيين

٨٤- **صبح الأعشى** – القلقشندى (أبو العباس أحمد)
دار الكتب المصرية

٨٥- **الصبح المنير فى شعر أبى بصير ويشمل الأعشيين الآخرين**
طبعة فينا ١٩٢٧

٨٦- **الصناعتين** – أبو هلال العسكرى
الآستانة ١٣٢٠ هـ

٨٧- **ضحى الإسلام** – أحمد أمين
الطبعة الثانية ، مصر ١٩٢٤

٨٨- **طبقات الشعراء** – ابن سلام (محمد بن سلام)
ليدن

٨٩- **طبقات الشعراء** – ابن المعتز (عبد الله بن المعتز المتوفى ٢٩٦ هـ)
الطبعة الثانية بدار المعارف

٩٠ – **طبقات النحويين واللغويين** – الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن)
تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف

٩١ – **الطراز** – يحيى بن حمزة العلوى
طبعة المقتطف ١٩١٤

٩٢ – **العصر العباسى الأول** – الدكتور شوقى ضيف
دار المعارف

٩٣ – **العصر العباسى الثانى** – الدكتور شوقى ضيف
دار المعارف

٩٤ – **عصر المأمون** – أحمد فريد رفاعى
دار الكتب المصرية ١٩٢٧

٩٥ – **العقد الفريد** – ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد بن محمد)
المطبعة الأزهرية ١٢٩٣ هـ

٩٦ – **العمدة** – ابن رشيق (الحسن بن على المتوفى ٤٦٣ هـ)
الحلبى ١٩٠٧

٩٧ – **عوارف المعارف** – السهروردى (عمر بن محمد المتوفى ٦٣٢ هـ)
القاهرة ١٢٩٢ هـ

٩٨ – **عيون الأخبار** – ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
دار الكتب المصرية ١٩٢٥

٩٩ – **فجر الإسلام** – أحمد أمين
مطبعة الاعتماد ١٩٢٨

١٠٠– **الفرق بين الفرق** – البغدادى (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر)
مطبعة المعارف

١٠١– **الفصل فى الملل والأهواء والنحل** – ابن حزم (على بن أحمد بن سعيد)
مصر ١٣١٧ هـ

١٠٢– **الفكاهة والائتناس فى مجون أبى نواس** – جمع منصور عبد المتعال
مصر ١٣١٦ هـ

١٠٣– **الفهرست** – ابن النديم (أبو الفرج بن إسحاق)
طبع أوروبا

١٠٤– **فى الأدب الجاهلى** – الدكتور طه حسين
دار المعارف

١٠٥– **الكامل فى التاريخ** – ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم المتوفى ٦٣٠ هـ)
مصر ١٣٥٦ هـ

١٠٦- **الكامل فى اللغة والأدب** – المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)
مطبعة الاستقامة

١٠٧- **الكشكول** – بهاء الدين العاملى ، تحقيق أحمد الزواوى
طبعة الحلبى

١٠٨- **اللمع فى التصوف** – السراج الطوسى (أبو نصر عبد الله بن السراج)
ليدن ١٩١٤

١٠٩- **محاضرات الأدباء** – الراغب الأصفهانى
طبعة مصر

١١٠- **مختار الأغانى** – ابن منظور (محمد بن مكرم الأنصارى ، كمال الدين المتوفى ٧١١ هـ)
بولاق

١١١- **مراجعات فى الآداب والفنون** – عباس العقاد
المطبعة العصرية

١١٢- **المرأة فى جاهليتها وإسلامها** – عبد الله عفيفى
المطبعة الرحمانية ١٩٢١

١١٣- **مروج الذهب** – المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على المتوفى ٣٤٦ هـ)
المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ

١١٤- **المستطرف فى كل فن مستظرف** – الابشيهى (شهاب الدين محمد بن أحمد)
المطبعة المليجية ١٣٣٠ هـ

١١٥- **المعارف** – ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
مصر ١٣٠٠ هـ

١١٦- **معجم الأدباء** – ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ، المتوفى ٦٢٦ هـ)
طبعة أحمد فريد رفاعى ، القاهرة ١٩٢٦ – ١٩٣٨

١١٧- **معجم البلدان** – ياقوت الحموى
القاهرة ١٩٠٦

١١٨- **معجم الشعراء** – المرزبانى (أبو عمرو عثمان بن مرزوق)
تحقيق عبد الستار فراج – دار المعارف

١١٩- **المعلقات** – شرح التبريزى (يحيى بن على بن محمد)
أوروبا

١٢٠- **المفضليات** – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون
الطبعة الخامسة بدار المعارف

١٢١- **مقامات بديع الزمان الهمذانى**
طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ

١٢٢- **مقدمة ابن خلدون** - (عبد الرحمن بن خلدون ، أبو زيد ولى الدين)
مصر ١٣٢٢ هـ

١٢٣- **الملل والنحل** - الشهرستانى (محمد بن عبد الكريم المتوفى ٥٤٨ هـ)
القاهرة ١٩٤٧

١٢٤- **الموازنة بين أبى تمام والبحترى** - المرزبانى (أبو عمرو عثمان بن مرزوق)
دار المعارف

١٢٦- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** - المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ، المتوفى ٨٤٥ هـ)
بولاق ١٢٧٠ هـ

١٢٧- **الموشح** - المرزبانى (محمد بن عمران بن موسى - تحقيق عبد الستار فراج
طبعة جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ

١٢٨- **الموشى أو الظرف والظرفاء** - أبو الطيب محمد بن إسحاق الوشاء
الخانجى ١٩٥٣

١٢٩- **النجوم الزاهرة** - ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ
دار الكتب المصرية

١٣٠- **نقائض جرير والأخطل** - أبو تمام (حبيب بن أوس)
بيروت ١٩٢٢

١٣١- **نقائض جرير والفرزدق** - رواية السكرى (الحسن بن الحسين)
ليدن ١٩٠٥

١٣٢- **نقد الشعر** - قدامة بن جعفر
مصر ١٩٤٨

١٣٣- **نكت الهميان فى نكت العميان** - الصفدى (خليل بن أيبك)
مصر ١٩١١

١٣٤- **نهاية الأرب فى فنون الأدب** - النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)
دار الكتب المصرية ١٩٢٨

١٣٥- **الوزراء والكتاب** - الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) القاهرة ١٩٣٨

١٣٦- **الوساطة بين شعر أبى تمام والبحترى** - الآمدى (على بن محمد) تحقيق السيد أحمد صقر
دار المعارف

١٣٧- **وفيات الأعيان** - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى
المتوفى ٦٨١ هـ) طبعة جوتنجن وطبعة مصر

مراجع أجنبية

١٣٨- **Ameer Ali, Sayed:** Short History of the Saracens, London, 1900

١٣٩- **C. Field mysties & Saints of Islam**

١٤٠- **Le Gouve:** Histoire morale de Feumes.

١٤١- **Ms. Millicent Sedimn:** Hotes on the development of child

١٤٢- Literary History of the Brabs, London 1923

١٤٣- **Renard Persy:** The first three years of Children

دوائر معارف

١٤٤- دائرة معارف وجدى

١٤٥- Encyclopoedia of Religion, 1921.

الفهارس

١ – الأعلام

(أ)

أبان بن عبد الحميد اللاحقى : ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٦٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٤١

إبراهيم الإمام : ٥١ ، ١٣٣ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٤

إبراهيم بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن أبي طالب : ٢١٨

إبراهيم الفزارى : ٣١٥

إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الحسن : ١٣٥

إبراهيم المهدى : ٢١٥ ، ٢٢١

إبراهيم بن موسى الطالبى : ٢١٥

إبراهيم بن ميمون : ٢٩١

ابن أبي زكريا الطامى : ٢٩٣

ابن أبي عتيق : ٢٥١

ابن الأثير : ٤٧

ابن إسحاق : ٣١٥

ابن الأشعث : ١٨٧ ، ٢٩٤

ابن بسام (شاعر) : ٢٢٤

ابن جنادة العذرى : ٨٦

ابن حزم (والى) : ٢٩٢

ابن حصن التيمى : ١٢٣

ابن خلدون : ١٧٠ ، ٢٣٣ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧

ابن ديسان : ٣١٤

ابن رشيق : ٢٣

ابن الرومى : ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥

ابن الزبرقان : ١٦٨

ابن الزبير (انظر : عبد الله بن الزبير)

ابن زياد : ١٢٣

ابن سعد : ٣١٥

ابن سيار (النظام) : ٢٢٦

ابن عتيق : ٩٧

ابن عساكر : ٣٣٠

ابن عمر : ٢٤٨

ابن قتيبة : ٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٤

ابن مالك : ١٨٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

ابن المعتز : ٣٥٣ ، ٣٨٨

ابن المقفع : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٣١٤

ابن مناذر : ١٤٦ ، ٣٠٦

ابن النديم : ٢٩٨ ، ٢٩٩

ابن هرمة : ٣٥٣

ابن هشام : ٣١٥ ، ٣٨٢

ابن يعقوب الرهاوى (الأسقف) : ٣١٧

ابو الأسود الدؤلى : ١٣٥ ، ٣١١ ، ٣١٧

أبو بجير (شاعر) : ١٨٣

أبو بكر الصديق : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٩٧ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٣١٧.

أبو تمام : ١٦٧ ، ٢٠٧ ، ٢٨٩ ، ٣٠٨ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ .

أبو جعفر المنصور : ١١١ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٩١ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤ .

أبو حفص العليمي (شاعر) : ٨٥

أبو الخطار بن ضرار الكلبي : ٥٠

أبو دلف : ٣٠٩

أبو دهبل الجمحي (شاعر) : ٨٦

أبو دلامة : ١٤٦ ، ٢٢٤

أبو زيد الطائي : ١٨١

أبو سعد المخزومي : ٢١١

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب : ٢٩ ، ٥٤ ، ٦٠

أبو سلمة الخلال : ٢١٤

أبو شعبي الفلال : ٣٥٣

أبو الشيص (شاعر) : ٨٥ ، ٨٦ ، ١٥٠ ، ١٦٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٨

أبو صخر الهذلي : ٣٥٧

أبو الطيب المتنبي : ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٧

أبو العباس (شاعر) : ٣٩٥

أبو عبيدة بن الجراح : ٣٩

أبو عبيدة المثنى : ٣١٦

أبو العتاهية : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٤٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠

أبو عثمان الدمشقي : ٣١٤

أبو عمرو الشيباني : ٣١٦ ، ٣٣٠

أبو العنبس : ٢٠٦

أبو العلاء المعرى : ٢٩٣ ، ٣٢٧

أبو الفرج الأصفهاني : ٥٥ ، ٦٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٥ ، ٢٥٢ ، ٢٩٠

أبو قراط : ١٥٥

أبو محمد الثقفي : ٢٥٠

أبو محمد الإيدي : ٣٠١

أبو محمد اليزيدي : ٣٠٣

أبو مسلم الخراساني : ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٤ ، ٢٤٣

أبو موسى الأشعري : ١٢٩ ، ١٣٠

أبو نصر عبد الله بن السراج الطوسي : ٢٣٣

أبو نواس : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ .

أبو هاشم الكوفي : ٢٣٤

أبو هاشم بن محمد بن الحنفية : ١٣٢

أبو يحيى يوسف بن بشار : ٢٣٢

أبو يزيد الأنصاري : ٣١٦

أحمد أمين (الأستاذ) : ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٨١

أحمد البدوى (السيد) : ٣٤٩

أحمد زكى (باشا) : ٢٤
أحمد بن محمد بن المظفر الرازى : ١٤٠
الأحنف بن قيس : ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٨٩
الأحوص (محمد بن عبد الله بن عاصم) :
١٠٦ ، ٢٥١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٨٠
الأخطل (غياث بن غوث بن الصلت التغلبى) : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٨٠ ، ٣٩١ .
أرسطو : ١٤٨ ، ٢٤٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣١٧ ، ٣١٥ ، ٣١٣ ، ٣١١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٠ ، ٣١٧ ، ٣٥١ .
أرسطو طاليس : ٣١٤ ، ٣١٥
أزهر بن السمان : ٣٣٠
أسامة بن زيد : ١٨٥
إسحاق بن حنين : ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٥٣
إسحاق بن سليمان بن على الهاشمى : ٣١٤
إسحاق بن سويد العدوى : ٢٢٩
اسطفان القديم : ٣١٣
الإسكندر : ٣٤٦
إسماعيل بن جعفر الصادق : ١٣٢
إسماعيل بن عمار (شاعر) : ٢٥٤
إسماعيل القراطيسى : ١٦٨ ، ٢٩٠
إسماعيل بن يسار النسائى : ١٨٨
الإسلام : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ،
أشجع السلمى : ٣٠٦
الأصمعى : ٣٨٦
الأعشى (أبو بصير) : ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ١٩٦
أعشى ربيعة : ٢٦٤ ، ٣٠٣ ، ٣٣٠
أغاشير : ١٦١
أفلاطون : ١٦ ، ٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣٤٦
إقليدس : ٣١٤
أم البنين (زوجة الوليد بن عبد الملك) : ١٠٦ ، ١٠٧
أم حكيم (زوجة قطرى بن الفجاءة) : ١٢٤ ، ١٢٦
امرؤ القيس : ٧١ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٥٠ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢
أمرسون ؛ ٣٢٣
الأمين (انظر : محمد الأمين)
أمية بن أبى الصلت : ٢٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦
أوس بن حجر : ٧٧ ، ٨١ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦
أوسكار وايلد : ٢٩٣
أيمن بن خريم الأسدى : ١٣٤ ، ٣٠٧
أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٣٤٧

(ب)

بثينة (معشوقة جميل) : ٨١ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤
البحترى : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٨٤ ، ٣٠٨ ،

٣٢٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٩٣
بختيشوع السريانى النسطور : ٣١٣ ، ٣١٥
براون : ١٢٥
برناردشو : ١٥٨
برونج : ٣٢٣
بشار بن برد : ١١١ ، ١٤٦ ، ١٧٥ ، ١٩٢ ،
٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ،
٢٣٠ ، ٢٧٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٥١ ،
٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧
بشار المرعب : ١٦٨
بشر بن عوانه : ٣٩٣
بشر بن مروان : ٥٤ ، ٥٥ ، ٣٠٧
بشير بن سعد : ٣٩
بصبص (قينة) : ٢٥٥
بطليموس : ٣١٤
البعيث : ١٠٩
البغدادى : ١٢٥
بغيض بن لأى : ٣٠٦
بقراط : ٣١٤
بكر بن وائل : ١٢٦
بوران بنت الحسن بن سهل : ٢١٥
بولص الأجانسطى : ٣١٥
بيان (زعيم البيانية) : ١٣٩
بيان بن سمعان : ٢٤٢
بيكون : ٣٢٤

(ت)

تأبط شرا : ٣٥٦ ، ٣٥٧
تروان (شريعة) : ٧٨
تولستوى : ١٩

(ث)

ثابت قطنة (شاعر) : ١٤١ ، ١٨٥
الثنوية (ديانة) : ٣٣

(ج)

جالينوس : ٢٧٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥
الجاهلية : ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
٦٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٩ ،
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ،
٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،
٣١١ ، ٣٥١ ، ٣٨٦
جبرة (زوجة محمد بن هشام) : ١٠٨
جبلة بن الأيهم : ٢٥٠
الجحاف (شاعر) : ٤٧
جرير بن عطية الخطفى : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٥٠ ،
١٨٢ ، ٢٦١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ،
٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
٣٦٢ ، ٣٨٢ ، ٣٩١
جعفر البرمكى : ٢١٥
جعفر الصادق : ١٣٢ ، ١٣٩
جلبان (أم أبى نواس) : ١٩٧
الجلندى (شاعر) : ٢٣٢
جميل بن محفوظ : ١٦٨
جميل بن معمر : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ،
٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٢٦١ ،
٣٨٨
الجمهور بن منصور الكلبى : ٥١

جميلة (مغنية) : ٢٥١ ، ٢٥٢
جندل : ١٥٠
الجنيد : ٢٣٣
جهم بن صفوان الأنصارى : ٢٣٠
جواس بن قعطل (شاعر) : ٤٧
جورجى زيدان : ٧٥ ، ٧٨ ، ١٦٨ ، ٣٣٤
جوستاف لوبون : ١٦١

(ح)

حاتم طيئ : ٥٢
الحادرة : ١٥٠
الحارث بن غزوان : ٨٤
حبابة (مغنية) : ٢٥١
حبيش الأعشم الدمشقى : ٣١٤
الحجاج بن مطر : ٣١٤
الحجاج بن يوسف الثقفى : ٤٨ ، ٤٩ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٩٤
حجر بن عدى : ١٣١
حرب الفجار : ٢٥٠
الحرث بن كعب : ٣٨٧
حزين الكنانى : ٣٠٧
حسان بن ثابت : ٣٠ ، ٦٠ ، ١١٥ ، ٢٥٠ ، ٢٧٨
حسيبويه بن معبد (قائد) : ٢٣٢
الحسن البصرى : ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦
الحسن بن دعبل : ٢٥٥
الحسن العسكرى : ١٣٢
الحسن بن على : ٤١ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ٢١٤ ، ٢٤٣
الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب : ١٣٩
الحسن بن وهب : ٢٩٠ : ٢٩١
الحسين بن الضحاك : ١١٦ ، ٢٧٤
الحسين بن على بن أبى طالب : ٤١ ، ١١٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٤٣
الحسين بن منصور الحلاج : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
الحطيئة : ٢٢٤ ، ٣٠٦ ، ٣٦١
حفص بن أبى وردة : ١٦٨
حفص الكوفى : ١٧٨
الحكم بن أبى العاص : ٥٢
الحكم بن قنبر المازنى (شاعر) : ٢٠٨ ، ٢٠٩
حلمان الدمشقى : ٢٤٤
حماد بن أبى ليلى (الراوية) : ١٦٨
حماد بن حماد : ٣٣٠
حماد بن زيد : ٣٣٠
حماد عجرد : ١٤٦ ، ١٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٦٥
حمزة بن أكرك : ٢٣٢
حمزة بن بيض (شاعر) : ٥١
حمزة بن عبد المطلب : ٦٠
حنين بن إسحاق العبادى : ٣١٤

(خ)

خالد البرمكى : ٢٥٥
خالد بن عبد الله القسرى : ٤٩ ، ٥٠ ، ٣٠٦
خالد بن يزيد : ٤٦ ، ٣١٣
الخريمى (أبو يعقوب إسحاق بن حسان بن قوهى) : ٢٠٢
الخصيب : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٤٩
خلف الأحمر : ٣١٦ ، ٣٨٦
خليدة (مغنية) : ٢٥١

الخليل بن أحمد : ٣١٦ ، ٤٠١
الخنساء : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
الخيزران : ١٤٦

(د)

دارون : ١٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦
دبيس : ٢٩١
دريد بن الصمة : ١٠٨ ، ٢٥٠
دعبل بن علي الخزاعي : ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٩٠ ، ٣٢٧
دنانير (قينة) : ٢٥٥
دوجال : ٢٨٢
دوزى : ٤٥
ديك الجن (عبد السلام بن رغبان) : ١٤٦ ، ١٦٩ ، ٢١٩ ، ٣٥٣
ديستانس : ٣٤٦
ديوجونيس : ٣٤٦
ديوسقورس : ٣١٥

(ذ)

ذات الخلا (قينة) : ٢٥٥
ذو الرمة : ٣٤ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٩ ، ١٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣٨١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٣
ذو النون المصرى : ٢٣٣ ، ٢٣٩

(ر)

رابعة العدوية : ٢٤٠
الراعى (عبيد بن حصين) : ٣١ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٩٦ ، ١٥٠ ، ٣٠٨ ، ٣٩٢
ربيحة (جارية) : ٢٥٤
الرجعة (مذهب) : ١٣٦ ، ١٣٧
رسكن : ٣٢٣
الرشيد (انظر : هارون الرشيد)
الرقاشى : ١٤٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣
رملة بنت عبد الله بن خلف : ١٠٠
رملة بنت معاوية : ٤٤ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٥
الرهين المرادى (شاعر) : ١٢٧
روفائيل (رسام) : ١٩
الرياشى : ١٤٦
ريبو : ٣١
رينان : ٣٢٥

(ز)

زبيدة (السيدة) : ٢٠٧
الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن) : ٣٠١
الزبير : ١٢٩ ، ٢٤٩
الزجاج : ٣١
الزرقاء (جارية) : ٢٥٤
زفر بن الحارث الكلابى : ٤٦ ، ٤٧ ، ١١٦
زهير أبى سلمى : ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
زولا : ١٩
زياد بن أبيه : ١٨٩
زياد الأصفر : ١٢١
زياد بن الأعجم (شاعر) : ٦١
زيد بن على بن الحسين : ١٣١
زينب بنت موسى الجمحية : ١٠٠

(س)

سارتل مارتل : ١٨٨
سبنسر : ١٥٦
سديف بن ميمون : ١٣٥
سراقة البارقى : ٥٣
سعد بن عبادة : ٣٩
سعدة (جارية) : ٢٥٤
سعدى الشيرازى : ٢٤٢
سعيد (غلام) : ٢٩٠
سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ٢٩٢ ، ٢٩٥
سعيد بن مسجح : ٢٤٩
سعيد بن وهب : ٢٩٥
سعيدة الزرقاء (مغنية) : ٢٥١
سقراط : ٢٩٣
سقيفة بن ساعدة : ٣٩
سكينة بنت الحسين : ١٠٠
سلم الخاسر : ١٤٦ ، ١٦٧ ، ٤٠٠
سلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان : ٢٦٦ ، ٢٦٨
سليمان بن عبد الملك : ٤٨ ، ٤٩ ، ١١٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٦
سليمان بن وهب : ٢٩١
سهل بن حنيف : ١٢٩
سهل بن هارون : ٣١٩
سلامة (أم المنصور) : ١٤٦
سلامة القس : ٢٥١
سيبويه : ٢٠٠ ، ٣٨٨
السيد الحميرى (شاعر) : ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٣٠٩
سيرين (مغنية) : ٢٥٠

(ش)

شبيب : ١٢٤
شحرة بن جندب : ١٨٩
شفيع غلام : ٢٨٧
شقران : ٢٨٤
شلى : ٣٢٤
الشماخ بن ضرار : ٣٨٨
الشماسية (مغنية) : ٢٥١
الشنقيطى : ٧٢
شهاب الدين الطوسى : ٢٤٠
شهدان : ٢٨٤

(ص)

صاحب بن زرارة : ٧٧
صالح بن عبد القدوس : ٢٦٩ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩
صريع الغوانى (انظر : مسلم بن الوليد)
صعصعة بن ناجية : ٦٢ ، ٧٥
الصولى : ٢٩٨

(ض)

الضحاك بن قيس : ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٤٦

(ط)

طرفة بن العبد : ٧٣ ، ١٥٠ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ، ٣٥٨
الطرماح بن حكيم : ٥٢ ، ١٢٧ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٣١٠
طلحة بن فهد (شاعر) : ١٢٩ ، ٢٣٢
طه حسين (الدكتور) : ٤٥ ، ٧٣ ، ٢٦٥ ، ٣٢٣
طويس : ٢٩٢

(ع)
عاتكة بنت يزيد بن معاوية : ١٠٦
عائشة (السيدة) : ١٢٩
عائشة بنت طلحة : ١٠٠
العباس بن الأحنف : ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ١٤٥ ، ١٦٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٩
عباس العقاد : ٨٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥
العباس بن الفضل : ٣٩٧
عبد الله بن إياض : ١٢٢
عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومى : ٢٩٢
عبد الله بن أبي السرح : ١٣٠
عبد الله بن أبي الشعبى : ١٥٠
عبد الله بن جدعان : ٢٥٠
عبد الله بن جعفر : ١١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٩٢
عبد الله بن حميد بن قحطبة : ٣١٤
عبد الله بن رواحة (شاعر) : ٣٠
عبد الله بن الزبعرى : ٢٩
عبد الله الزبير : ٤١ ، ٤٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٨
عبد الله بن سبأ : ١٣٦
عبد الله السفاح : ١٩١ ، ٢١٤ ، ٢١٥
عبد الله بن عامر : ١٢٩
عبد الله بن عباس : ٤١ ، ١٢٩
عبد الله بن مصعب : ٢٥٥
عبد الحميد العبادى (الأستاذ) : ٤١ ، ٤٥
عبد الرحمن بن أرطأة : ٢٥١
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت (شاعر) : ٣٠ ، ٤٤ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ٢٩٢
عبد الرحمن بن الحكم : ٣٠
عبد الرحمن الغافقى : ١٨٨
عبد الرحمن بن ملجم : ١٢١ ، ١٣٠
عبد العزيز بن مروان : ١٠٦
عبد العزيز بن الوليد : ٣٤٩
عبد الملك بن رامين : ٢٥٤
عبد الملك بن مروان : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ٢٦٢
عبد الملك بن هشام : ١٨٦
عبيد الله بن زياد : ١٣٢
عبيد الله بن قيس بن الرقيات : ١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ٢٥١
عثمان بن حذيفة : ١٢٩
عثمان بن عفان : ٤١ ، ٩٧ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٩ ، ٢١٦ ، ٣١١
عدى بن أرطأة : ٧٩
عدى بن زيد : ٢٦٢ ، ٢٦٤
العرجى (عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان ابن عفان) : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٨
العرم (سيل) : ٣٣
عروة بن أدية : ١٢٣
عزة الميلاء : ٨٣ ، ٩٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٢
عطية الخطفى : ٦٤
علقمة بن عبدة : ٣٨٣
العكوك : ١٤٦ ، ٣٠٩
على بن أبي طالب : ٤١ ، ٦٣ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٣١٧
على بن الجهم (شاعر) : ٢٢٩ ، ٢٩١ ، ٣٩١
على الحنفى : ١٣٢
على بن الخليلى : ١٦٨

على الرضا : ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٢٢١
عمارة بن حمزة : ١٦٨
عمارة بن شهاب : ١٢٩
عمر بن أبي ربيعة : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٩٥ ، ٣٦٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨
عمر بن أبي عمر اليوناني : ١٧١
عمر بن الخطاب : ٣٩ ، ٤١ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٣٥٦
عمر بن عبد العزيز : ٤٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ٢٤٩ ، ٣٠٢ ، ٣١٣
عمر بن لجأ : ٥٩
عمران بن حطان (شاعر) : ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦
عمرو بن بحر الجاحظ : ١٥٨ ، ١٦٨ ، ٢٣٣ ، ٣٣٠ ، ٣٥٣
عمرو بن الجلى الكلبى : ٤٧
عمر بن صغد : ٢٣٢
عمرو بن العاص : ٤١ ، ١٢١ ، ١٣٠
عمرو بن عبيد : ٢٢٧
عمرو بن العلاء : ٣٨٦
عمرو بن كلثوم : ٦٥ ، ٧٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٣٧٨
عمرو بن معديكرب : ٣٥٧
عمرو بن هند : ٦٥
عنان : ٢٥٤
عنترة العبسى : ٩٢ ، ٩٤ ، ٢٦٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧
عيسى بن عمر : ٣٨٦
عيسى بن مريم (المسيح) : ٢٣٦ ، ٢٤٣

(غ)

غالب بن صعصعة : ٦٣ ، ٧٧
غزوة الفتح : ٢٤٦

(ف)

فاطمة (بنت رسول الله ﷺ) : ١٢٨ ، ١٣٢ ، ٢٤٣ ، ٣٤٢
فاطمة بنت الأشعث : ١٠٠
فاطمة بنت عبد الملك بن مروان : ١٠٠ ، ١٠٧
فتنة ابن الأشعث : ٤٩ : ١٨٧
الفرزدق : ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ٢٥١ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ، ٣٥٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩٩
فرعة (مغنية) : ٢٥١
الفرهة (مغنية) : ٢٥١
فرويد : ٢٨٢
الفضل بن سهل : ١٦٧
الفضل بن العباس بن عتبة : ١٣٥
فكتور هيجو : ٢٩٣
فلهوزن : ٤٥
فوز (جارية) : ٢٥٩
فولتير : ١٥٣
فون فولتن : ٥٢
فون كرامر : ١٧٠ ، ٢٨٦
فيروز الفارسى (أبو لؤلؤة) : ١٨١

(ق)

قتيبة بن مسلم : ٤٨ ، ١٨٧
قدامة بن جعفر : ١٩ ، ٢٣ ، ٨٤
قرقريوس الصورى : ٣١٤

القشيرى : ٢٣٣
قضاعة بن معد : ٨١
القطامى (عمير بن شميم) : ١٥٠ ، ٣٥٩ ، ٣٨٣
قطرب (مؤدب الأمين) : ٢٨٥
قطرى بن الفجاءة : ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦
قيس بن سعد : ٨٠ ، ٩٢ ، ١٢٩
قيصر : ١٣١ ، ٣٣١

(ك)

كافور الإخشيد : ٣٠٤
كثير عزة : ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨
كثيرة (امرأة) : ١١٧
الكرخى : ٢٣٣
الكرمانى : ١٩١
الكسائى : ٢٨٥ ، ٣١٦
كسرى : ١٣١ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٧٦ ، ٣٣١
كعب بن جعيل (الشاعر) : ٤٤ ، ٥٩ ، ١١٢ ، ١١٥
كعب بن زهير (الشاعر) : ٢٩ ، ١٥٠
كعب بن مالك (الشاعر) : ٣٠
الكلبى : ١٨١
كلثم بنت سعد المخزومى : ١٠٠
كلثوم بن عياض القشيرى : ١٢٣
الكميت بن زيد (الشاعر) ٥٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٣١٠ ، ٣٦٠
كنفوشيوس (شريعة) : ٧٨

(ل)

لبابة بنت عبد الله بن العباس : ١٠٠
لبيد (الشاعر) : ٣٢٦
لمبروز : ١٥٩
لذة العيش (مغنية) : ٢٥١
لومبارد (شريعة) : ٧٨
ليلى العامرية : ٨٠ ، ١٠١

(م)

ماسرجويه : ٣١٣
ماسينيون : ٢٣٧
المأمون : ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٨٦ ، ٣٠٣ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٠
المانوية (شريعة) : ٧٨ ، ٣١٤
مانى : ١٤٧ ، ٢٨٤
المتوكل (الخليفة) . ١٤٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٢ ، ٢٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٣
مجنون بنى عامر : ٨٠ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ٣٨١ ، ٣٦٠
محمد بن إبراهيم : ٣٣٠
محمد بن إدريس الشافعى : ٣٣٠
محمد الأمين : ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٦٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٤٠
محمد الباقر : ١٣٢
محمد بن بشير (شاعر) : ١٨٣
محمد التقى : ١٣٢
محمد بن الحنفية : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٤٢

محمد الخضرى (الأستاذ) : ٣٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨
محمد بن عبد الله بن الحسن : ١٣٥ ، ١٣٦
محمد بن عبد الله بن عباس : ١٣٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥
محمد بن القاسم بن مهرويه : ٢٢٢
محمد بن منصور : ٢٥٨
محمد المهدى : ١٣٢
محمد بن الهذيل العلاف : ٢٢٧
المخبل السعدى : ٧٤
المختار بن أبى عبيد : ١٣٢
المختار بن عبيد الثقفى : ١٣٢ ، ٢٩٥
مخلد بن يزيد المهلبى : ٣١٠
مراجل (أم المأمون) : ١٤٦
مرداس بن أدية : ١٢٣
المرقش الأكبر : ٧٤
مروان بن أبى حفصة : ١٤٦ : ١٦٧ ، ٣٠٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
مروان الأول : ٥٢
مروان بن الحكم : ٤٦ ، ٥١ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٩٧ ، ٢٢٦ ، ٣١٣
مريانوس (راهب رومى) : ٣١٣
مسعود الماردانى : ١٩٧
مسكين الدارمى (شاعر) : ١١٣ ، ١١٤ ، ٣٠٥
مسلم بن الوليد : ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٦٧
مسلمة بن عبد الملك : ٤٩
المسيح (انظر : عيسى بن مريم)
المسيحية : ٤٠ ، ١٣٦ ، ٢٣٦
مسيلمة : ٤٠
مشدود : ٢٩١
مشيل أنجلو : ١٩
مصطفى صادق الرافعى : ٣٦
مصعب بن الزبير : ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٩٥
مصقلة بن هبيرة الشيبانى : ١٣١
مطيع بن إياس : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٨٧ ، ٣٢٩
معاذ بن جوين الخارجى : ١٢١
معاوية بن أبى سفيان : ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٦٣ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٤٩ ، ٢٨٦
معاوية الثانى : ٤٦ ، ٣١٣
المعتصم (الخليفة) : ١٤٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٧٦
معن بن زائدة الشيبانى : ٢١٢
المقنع (زعيم فرقة المقنعية) : ٢٤٣
مكحول (القاضى) : ١٨٩
ملر : ٤٥
مليير : ٣٥١
المنخل اليشكرى (شاعر) : ٢٦٢ ، ٢٧٨
منصور النمرى (شاعر) : ١١٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨
منقذ بن عبد الرحمن الهلالى : ١٦٨
منكة الهندى : ٣١٤
المهدى : ٢١٦ ، ٣١٣ ، ٣٣٧
المهدى (أعرابى بالحجاز) : ٣٨٦ ، ٣٨٧
المهلب بن أبى صفرة : ٥٢
المهلبى : ١٥٠
موسى (عليه السلام) : ٣٧١

موسى بن خالد : ٣١٤
موسى السامرى : ٣٧١
موسى الكاظم : ١٣٢
موسى الهادى : ١٤٦ ، ٤٠٠
موسيه : ٢٦٨ ، ٢٦٩
مى : ٨٥
ميسون بنت بجدل (زوجة معاوية) : ٤٤

(ن)

النابغة الجعدى : ٢٦٥ ، ٣٠٤
النابغة الذبيانى : ٣٢٧ ، ٣٣٠
نابليون : ٢٩٣
نافع بن الأزرق : ١٢١
نائلة (زوجة عثمان بن عفان) : ١٣١
النبى محمد ﷺ : ٤٠ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٩٢ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٤٢
نبيلة (مغنية) : ٢٥١
نبيه الأسود : ٩٢
النجاشى العلوى : ١١٣
نجدة بن عامر : ١٢١ ، ١٢٢
نزار بن معد : ٨١
نسيم : ٢٨٤
نصر بن سيار : ٤٩ ، ١٤١ ، ١٩٠
النصرانية (انظر : المسيحية)
النضر بن شميل : ٣١٦
النعمان بن بشير (شاعر) : ٤٤ ، ٤٥ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٥٠ ، ١٨١ ، ٢٩٥ ، ٣٦٠
النعمان بن المنذر : ٢٦٢
النفس الزكية (انظر : محمد بن عبد الله)
النمر بن تولب : ٧٤
نوبخت : ٣١٤
نولدكه : ٢٣٣
نيتشه : ١٥٨
نيكلسن : ٢٣٣ ، ٢٣٦

(هـ)

هارف : ١٥٥
هارون بن رامين : ٣١٣
هارون الرشيد : ٤٤ ، ١١٩ ، ١٤٦ ، ١٧١ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠١
هارون بن سعيد العجلى : ١٣٩
هاشم بن حديج : ٢١٠ ، ٢١١
هاشم بن محمد بن الحنفية : ٢٤٢
هاكل : ١٥٥ ، ١٥٦
هانت : ٣٢٣
هدبة بن خشرم : ٨١
هشام بن عبد الملك : ٤٩ ، ٥٠ ، ١٠٨ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٦
هشام بن محمد بن الحنفية : ١٣٣ ، ١٣٨ ، ٢١٤
هند بنت عتبة : ٦٠
هيت : ٢٩٢
الهيثم بن عدى : ٢٠١
هيجل : ١٥٢ ، ١٥٦

(و)
الواثق : ٢٢٢
الواسطى : ٣٨٦
واصل بن عطاء : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
الواقدى : ٣١٥
والبة بن الحباب : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٠١ ، ٢٨٧
وايزمان : ١٥٦ ، ١٥٧
وضاح اليمن (شاعر) : ١٠٧
الوليد بن أبي عتبة بن أبي سفيان : ١٠٠
الوليد بن طريف : ٤٤
الوليد بن عبد الملك : ٤٨ ، ٨٢ ، ١٠٧ ، ٢٩٢
الوليد بن يزيد : ٥٠ ، ٥١ ، ١٠٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٤٠٠

(لا)
لامارتين : ٣٢٤
لامارك : ١٥٦

(ى)
يحيى بن أكثم : ٢٩١
يحيى بن البطريق : ٣١٤
يحيى بن زياد : ١٦٧ ، ٢٨٧
يحيى الزيدى : ٣٨٦ ، ٣٨٧
يحيى بن عبد الله : ٢١٥
يحيى بن الفضل : ٣٤٦
يحيى بن نفيس : ٢٥٤
يحيى بن يعمر : ٣١١
يزدجرد بن شهريار : ١٨١
يزيد بن بكر بن دأب الليثي : ٢٩٢
يزيد الثالث : ٥١
يزيد بن عبد الملك : ٢٦٣
يزيد بن الفيضى : ١٦٨
يزيد بن معاوية : ٤٥ ، ٤٦ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٥١ ، ٢٧٤
يزيد بن المهلب : ٤٩
يزيد بن الوليد : ٥١ ، ٢٢٦
يعقوب بن زيد الفارسي : ٣٣
اليهودية (ديانة) : ١٣٦
يوسف بن خالد : ٣١٤
يوسف بن عمر الثقفى : ٤٩ ، ٥١
يوشع (عليه السلام) : ٣٧٥
يوم دولاب : ١٢٦
يوم ذى قار : ١٨٠
يونس بن أبي فروة : ١٦٨
يونس بن حبيب : ٣١٦

٢ – شعوب وفرق وقبائل

(ا)

الإباضية (فرقة) : ١٢٢ ، ١٢٧

الاثنى عشرية (فرقة) : ١٣٢

الأرمن : ١٤٦

الآريون : ١٦٢

الأزارقة : ١٢١

الأزد : ٣٢ ، ٤٠ ، ١٢٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢

أسد (قبيلة) : ٣٢ ، ٣٦

الإسماعيلية (فرقة) : ١٣٢

الأشوريون : ٢٤٥

الأعاجم (انظر : العجم)

آل أبي عيينة : ١٥٠

آل البيت : ١٢٨ ، ٢١٤

آل دارم : ٦٣

آل المعدل : ١٥٠

آل المهلب : ٤٩ ، ٣٠٦

الألمان : ١٥٨ ، ١٦١

الأمويون : ٤٦ ، ٤٨ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٩

الأنباط : ١٩٧

الأنجلوسكسون : ٢٤٥

الإنجليز : ٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ١٦١

الأندلسيون : ١٨٨

الأنصار : ٣٠ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٠ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٨٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠

أهل السند : ١٤٦

الأوس : ٣٩ ، ٥٢

أولاد إلياس : ١٨١

الإيرانيون : ٣٥٤

(ب)

البابليون : ٢٤٥

باهلة : ٢٠٠

بجيلة (قبيلة مضرية) : ٤٩

البرامكة : ١٦٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٥٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٤٠١

البربر : ١٢٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨

بكر : ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٣١٦

بنو أسد : ٢١٠

بنو أمية (انظر : الأمويون)

بنو تميم : ٣١٢

بنو حنيفة : ٤٠

بنو شيبان : ٣٦٨

بنو الفيد : ١٨٢

بنو كليب : ٥٧

بنو كلاب : ٣١٦
بنو هاشم : ١٣٤ ، ٢٠٣ ، ٣١٥
بنو هلال : ٣١٦
البيانية (فرقة) : ١٣٨ ، ٢٤٢

(ت)
الترك : ١٤٦ ، ١٨٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٥
تغلب (قبيلة) : ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٣٠٤
تميم (قبيلة) : ٣٢ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٣١٦
تنوخ : ٣٢
التوابين : ١٣٢

(ث)
ثمود : ٣١

(ج)
الجاهليون : ١٠٨ ، ٣٤٧ ، ٣٩٠
جديس : ٣١
جذام : ٣٢
الجرمانيون : ٢٤٥
الجناحية (فرقة) : ٢٤٣
جهينة : ٣٢

(ح)
الحلمانية (فرقة) : ٢٤٤
الحمزية (فرقة) : ٢٣٢
حمير (قبيلة) : ٣١ ، ٣٢ ، ٨١

الحلاجية (فرقة) : ٢٤٣

(خ)
خثعم : ٣٨٦
الخراسانيون : ١٤٦ ، ٢٨٥
خزاعة : ٧٤
الخزر : ١٨١
الخزرج : ٣٩ ، ٢٥١ ، ٣٨٦
الخطابية : ٢٤٣
الخلفاء الراشدون : ١٨٥ ، ١٨٦
الخوارج : ٤٣ ، ٤٤ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢

(د)
دارم : ٥٢

(ذ)
ذبيان : ٣٢ ، ٤١ ، ٥٢

(ر)
الرافضة : ١٣٩
ربيعة : ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٢ ، ٣٨٧
الرزامية (فرقة) : ٢٤٣
الروم : ٣٣ ، ١٤٦ ، ١٨٠ ، ٢٤٦ ، ٢٨٥

(ز)
الزبيريون : ٤٢ ، ٤٦ ، ١٠٦ ، ١١٢ ،

١١٦ ، ١١٨ ، ٢١٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣
الزرادشتية : ١٣٦
الزنوج : ١٤٦ ، ١٦١
الزيدية (فرقة) : ١٣٢

(س)

الساسانيون : ١٨١
السبئية (فرقة) : ١٣٦
السجستانية (فرقة) : ١٢٢
السريان : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٧
السوريون : ٣٢٣

(ش)

الشراة : ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢١٣
الشطار : ٢٢٢
الشيعة : ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٩٥ ، ٣١٧

(ص)

الصابئة : ٤٠
الصحابة : ٢٣٣ ، ٣١١
الصغد : ١٨٧ ، ٢٠٢
الصفرية (فرقة) : ١٢١ ، ١٢٢
الصقالبة : ٢٨٥
الصوفية : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
الصينيون : ٢٤٥

(ط)

طسم : ٣١
طيئ : ٣٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٣٨٧

(ع)

عاد : ٣١
عاملة : ٣٢
العباسيون : ١١١ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٨٦ ، ٢١٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٤٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠
عبد شمس : ٥٢
عبد القيس (قبيلة) : ١٢٦ ، ١٨٣
عبس : ٣٢ ، ٤١ ، ٥٢
العجم : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٣١٧
العدنانيون : ٣٢ ، ٥٢ ، ٨١ ، ٢١١
عذرة : ٣٢
العرب : ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٣ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠

العرب الأندلسيون : ١٨٧
العلويون : ١١٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥
العمرية : ٢٢٧

(غ)

الغساسنة : ٣٣
غطفان : ٣٢

(ف)

الفاطميون : ٢١٩ ، ٣٤١
الفرس : ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٥٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠١
الفرنج : ١٨٨ ، ٢٠٧ ، ٢٤٥
الفرنسيون : ٧٩ ، ٢١٥ ، ٢٦٩

(ق)

القبط : ١٤٦ ، ١٨١
قحطان : ٣١
القديلية (فرقة) : ١٢٢
القدريون : ٢٣٢
القرامطة : ٢٩٣
قريش : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٨٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٣١١ ، ٣٨٦
قضاعة : ٣٢ ، ٣٦ ، ٨١
القعدة : ١٢٥
قيس : ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ٣١٦

(ك)

كلب (قبيلة) : ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢
الكلدان : ٣١٧
كنانة : ٣٢ ، ٧٤ ، ٣٨٦
كهلان : ٣١
الكوفيون : ١٣٢ ، ٣٨٤
الكيسانية (فرقة) : ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧

(ل)

لخم : ٢١٢
اللاتينيون : ١٦١
اللومبارديون : ٢٤٥

(م)

مجاشع : ٥٧ ، ٦٣
المجوس : ١٩٦
المحمدية (فرقة) : ١٣٦
مذحج : ٣٢
المرجئة : ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١
المسلمون : ٢٩ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٧٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٩١ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥
المصريون : ٢٠ ، ٣٤ ، ٢٤٥
مضر : ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ،

٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ١١٦ ، ١٩٠ ، ١٩١
المعتزلة : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣١٨
معد (انظر : العدنانيون)
المقنعية (فرقة) : ٢٤٣
المناذرة : ٣٢
المهاجرون : ١٨٥

(ن)

النجدية (فرقة) : ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥
النزاريون (انظر : العدنانيون)
النساطرة : ٣١٣
النصارى : ٢٩
النميرية (فرقة) : ٢٤٣

(هـ)

هاشم : ٥٢
الهجيم (قبيلة) : ٦١
هذيل : ٣٢ ، ٢٢٦ ، ٣١٦ ، ٣٨٦
الهنود : ١٣٦ ، ١٦١ ، ٢٤٥
هوازن : ٣٢ ، ٣١٦

(و)

الواصلية : ٢٢٦ ، ٢٢٧
وائل : ٣٢
الوهابيون : ١٢٥

(ى)

يربوع : ٥٢
اليمانيون : ٣١ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ١٩١ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢
اليهود : ٢٩ ، ٤١ ، ٢٨٠
اليونانيون : ٧٧ ، ١٠٩ ، ١٤٦ ، ٢٨٦ ، ٢٩٣ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٤٥

٣ – الأماكن

(ا)

أثينا : ٢٤٥

أحد (موقعة) : ٦٠

أرمينيا : ٤٨ ، ١٨١ ، ٢٥٤

أزدشير : ١٣١

إسبانيا : ٢٩٣

إسبرطة : ٧٧

آسيا : ٢٩٣

أصفهان : ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢٥٠

الأكاديمية الفرنسية : ١٩

ألمانيا : ٢٩٣

أمريكا : ١٦١

إنجلترا : ٢٩٣

الأندلس : ٤٨

الأهواز : ١٢٣ ، ١٩٧

أوروبا : ٤٤ ، ٧٨ ، ١٥٨ ، ١٨٨

إيران : ٣٩٥

(ب)

باب الكرخ : ٢٥٥

باريس : ١٧٠ ، ١٨٨

البحرين : ٤٠ ، ١٧٠

بدر (موقعة) : ٤٥ ، ٢٤٦ ، ٣١١

البرازيل : ١٦١

برلين : ١٧٠

البصرة : ٢٤ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٣١٨ ، ٣٨٩

بغداد : ٢٤ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٩١

بواتيه : ١٨٨

البويب (موقعة) : ١٨١

بلاد الروم : ١٨٠ ، ٢٥٤

بلاد العرب : ٣٣

بلاد الفلرا : ١٦١

بلاط الشهداء (موقعة) : ١٨٧

بين النهرين : ٣١٤

(ت)

تركيا : ٢٥٤

(ج)

الجابية : ٤٦

جرجان : ١٦٧

الجزائر : ١٢٧

الجزيرة العربية : ٣١ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤١

الجسر (موقعة) : ١٨١

جلق : ٢٤

الجمل (موقعة) : ١٢٩ ، ١٣١

(ح)

حاجر (جبل) : ١٣٦
الحبشة : ١٧٠ ، ٢٥٤
الحجاز : ٩٧ ، ٩٩ ، ١٨٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٨١ ، ٣٨٧
الحجر الأسود : ١٠٠ ، ٢٥٦
حران : ٥١
الحرة (موقعة) : ٤٥
حصن النجير : ٤١
حمص : ٥١
الحميمة : ٢١٤
حوض السند : ٤٨
الحيرة : ٣٣ ، ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٣١٤

(خ)

خراسان : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٣٢ ، ٣٦٦
خرشنة : ١٤٦
خيبر : ٢٤٨
الخيمة : ١٣٣

(د)

دار الرقيق : ٢٦٠
دبا (موقعة) : ٤١
دمشق : ٥١ ، ١٩٧ ، ٢٤٩ ، ٢٨١ ، ٣٨٩
دهلك (جزيرة) : ٤٩ ، ١٠٦
الدولة الاسلامية : ٤١
الدولة الأموية : ٢١٣ ، ٢١٤
الدولة العباسية : ٥١ ، ٢١٣
دولة المناذرة : ٣٢

(ر)

روسيا : ١٧٠

(ز)

زبيد : ٣٣
زمزم : ٣١٢

(س)

سان دومنج : ١٦١
سجستان : ٢٣٢
سد مأرب : ٣٣
سر من رأى : ٢٠٦
سلموس : ٢٤٥
سوريا : ٢٣٦

(ش)

الشاذياخ : ٢٢٩
الشام : ٣٣ ، ٣٥ ، ٥١ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٨٩
شبام : ٣٣
الشراة : ١٩١

(ص)

صعدة : ٣٣
صفين : ١٢٠ ، ١٣٠
صنعاء : ٣٣
الصيمرة : ٢٢٢
الصين : ٧٨ ، ١٧٠

(ط)

الطائف : ٤٠ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

طوس : ٢٢١ ، ٢٨٦

(ع)

عدن : ٣٣

العراق : ٣٢ ، ٥١ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٨١ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٨٩

عقرباء (موقعة) : ٤١

عمان : ٤٠

(ف)

فارس : ١٨٠ ، ١٩٤ ، ٢٤٩ ، ٣١٣

فرنسا : ١٤٨ ، ٢٩٣ ، ٣٥٢

فلسطين : ٢٣٤

(ق)

القادسية : ١٢٤

قبرص : ٢٤٥

قرطبة : ١٨٨

قنسرين : ٥١ ، ٣١٤

قهستان : ٢٣٢

القوقاز : ٤٨

(ك)

كربلاء : ١٣٢ ، ٢٢٥

كرمان : ١٧٠ ، ٢٣٢

كريت : ٢٩٣

الكعبة : ٨٣ ، ١٠٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٣١٢

كلية الآداب : ٣١٧

الكوفة : ٢٤ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢١٤ ، ٣١٨ ، ٣٨٩

(ل)

لندن : ١٧٠

ليدن : ٢٩٠

(م)

ما وراء النهر : ٤٨

المدائن : ٢٠٦ ، ٢١٢

مدرسة الإسكندرية : ٣١٣

مدرسة الرها : ٣١٤

المدينة : ٤٠ ، ٤٥ ، ٩٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ٢١٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢

المربد : ٥٣

مرج راهط : ٤٦

مرو : ١٩٠

مصر : ٢٤ ، ٩٠ ، ١٢٩ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢ ، ٢٩٣

المغرب : ٤٨ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٨٧

مقدور (موقعة) : ١٢٣

مكة : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٣١٢

ميدان الكاظمية : ٢٢٥

(ن)

ناربون : ١٨٧

نجد : ١٣٦

نصيبين : ٣١٤
نهاوند : ١٨١
نهر الزاب : ١٩١
نهر الفرات : ٢٦٢
نهر اللوار : ١٨٨
النهروان (موقعة) : ١٢١
النوبة : ٢٣٩
نيسابور : ١٧٠

(هـ)

الهند : ١٧٠ ، ٢٥٤ ، ٣١٣

(ى)

يوم الثرثار الأول (موقعة) : ٤٧
يوم الثرثار الثانى : ٤٧
يوم البئر (موقعة) : ٤٧
يوم السكير (موقعة) : ٤٧
يوم الشرعبية (موقعة) : ٤٧
يوم الفدين (موقعة) : ٤٧
يوم ماكسين (موقعة) : ٤٧
يوم المعارك (موقعة) : ٤٧
اليمامة : ٤٠ ، ١٨٥ ، ٣٨٩
اليمن : ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢١٢ ، ٢١٥
اليونان : ٢٤٥ ، ٢٩٣

فهرس قوافى الشعر

القافية	البحر	الصفحة
	(الهمزة)	
خلاءُ	الطويل	٩٩
سواء	مجزوء المديد	٣٦٧
أشياءُ	بسيط	٢٤٧ ، ٣٤٤
الماءُ	»	٢٧٥
عذراءُ	»	٣٣٠
حواء	»	٢٧٧
إغضاء	»	٢٧٩
فأفاء	»	٢٦٩ ، ٣٩١
موتائى	»	٣٨٤
ندامائى	»	٣٨٤
يشاءُ	وافر	٣٧١ ، ٤٠٠
اللقاء	»	٢٧٨
افتراء	»	١٣٥
انتشاء	»	٣٣٦
جلاء	»	٣٥٦
البذاء	»	٣٧٧
بالإغفاء	كامل	٣٣٩
آناءِ	»	٣٤٢
بالأسماءِ	»	٣٤٥
عزاءِ	»	٣٤٨
قضائى	مجزوء الكامل	٨٠
شعواءُ	خفيف	١١٦
الظلماءُ	»	١١٧
عذراءُ	خفيف	١٩٥
هواءُ	»	٢٧١
ذكاءُ	»	٢٧١
خلاءُ	»	٣٣٣
	(الألف)	
أخرى	طويل	٩٨
يهوى	»	١٧٣
كسرى	»	١٩٨
الكبرى	»	٢٧١
	(الباء)	
زينبا	طويل	٧٩
المهذبا	»	٢٢٨
المخضبا	»	٢٥٨
سبابُ	»	٨٧
يشربُ	»	٧٩
وأغضبُ	»	١٣٤
قواضبُ	»	٣٧٤
أعجبُ	»	٣٦٣
لبُ	»	٢٢١ ، ٣٣٩
العربُ	»	٣٤١
وكعوبُ	»	٣٣١
يخيبُ	»	٣٠٣

القافية	البحر	الصفحة
هيوبُ	طويل	٣٠٣
قعضبُ	»	٣٥٦
أجيبُ	»	٩٨
الضرائبِ	»	٦٣
مرقبِ	»	٩٥
وأرحبِ	»	١٣٤
والحربِ	»	٢٩٥
الرحبِ	»	٣٢٧
كوكبِ	»	٣٣٤
وحاصبِ	»	٣٥٩
بني جنبِ	»	٣٦٩
حبى	مجزوء المديد	٢٤٢
الوصبا	بسيط	٢٢٠
ثقبا	»	٢٧٤
احتلبوا	»	١١٦
خربوا	»	١١٥
يسكبُ	»	١٧٣
الغضبُ	»	١٩٠
وتعذيبُ	»	٣٤٧
التعبُ	»	٣٥٢
الكتبُ	»	٣٧٤
متصبُ	»	٣٧٥
والذهبِ	»	١٠٩ ، ٢٧٩
مغلوبِ	»	١١٨
والحسبِ	»	١٨٢
العربِ	»	٢٠١
خطب	»	٢٢٨
الذهبِ	»	٢٧٤ ، ٣٨٤
الحقبِ	»	٢٧٦

القافية	البحر	الصفحة
والذيبِ	بسيط	٢٨٥
شنبِ	»	٣٥٧
واللعب	»	٣٧٣
مرتهب	»	٣٧٥
الذهب	مخلع البسيط	٣٩٠
كلابا	وافر	٥٦
شابا	»	٥٦
غضابا	»	٦٤ ، ٣٦٠ ، ٣٤٥ ، ٣٦٦
الترابا	»	٣٦٦
اللعابا	»	٣٦٦
الذهابا	»	٣٦٦
العجيبا	»	١١٥
الخطوبُ	»	١٩٤
ذنوبُ	»	٣٧٠
بابِ	»	٢٢٩
الرطبِ	مجزوء الوافر	٢٠١
ربا	كامل	١٠٠
وتركبا	»	٢٥٨
كربُ	»	٣٠٤
غرابُ	»	٣٥٩
الكتابِ	»	٥٩
بجوابي	»	٨١
حبائب	»	١٦٧
المشجب	»	٢٢٤
اللاعب	»	٢٥٨
النسب	»	٢٧٥
ومشطب	»	٣٠٤
المتغابي	»	٣٤٦

القافية	البحر	الصفحة
الحالب	كامل	٣٦٣
ثيابها	مجزوء الكامل	٩٩
معذبُ	رجز	٣٦٧
واذهبي	»	٢٨٩
الكتب	مجزوء الرجز	٢٩٩
ذبابا	رمل	١٧٨
الثاقب	سريع	٢٣٨
والكتبُ	منسرح	١١٧
فاللببِ	»	١٧٥
الكعاب	خفيف	١٧٢
العقاب	»	١٧٢
الأنساب	»	١٨٩
شحوبِ	»	٣٧٣
الخطوب	»	٣٩٧
الطرب	مقتضب	٤٠٢
العربْ	متقارب	٢٥٠
تثيبْ	»	٣٠٢
عاتبا	»	١٠٢
متجنبا	»	٢٩١

(التاء)

القافية	البحر	الصفحة
استحلت	طويل	٨٤
ملت	»	٩٦
حلت	»	٩٦
وشتات	»	٣٦٧
جراحات	بسيط	٢٨٩
المصيبات	»	٢٧٨
اليواقيت	»	٣٩٠
الزيت	مجزوء الوافر	٣٦٤
الميقات	كامل	٢٩٩
أبيات	»	٣٠٠
المنعوت	مجزوء الكامل	٣٧٠
وبيت	رجز	٧٥
عانات	»	١٩٥
أنست	مجزوء الرجز	٣٣١
أنت	سريع	٢٣٧
الحوت	»	٢٧٢
البنات	متقارب	٧٥

(الثاء)

القافية	البحر	الصفحة
تأنيثا	بسيط	١٧٦

(الجيم)

القافية	البحر	الصفحة
وحجيجُ	طويل	٩٦
سحرج	»	٣١
الدرارج	»	٣٩٢
الديباجا	مديد	١٩٨
زجاج	مجزوء المديد	٢٠٠
غنج	بسيط	٢٥٠
اختلج	مخلع البسيط	٢٤١
المنهاج	كامل	٣٠٦
تحرجي	رجز	١٠٨
الوهج	»	٢٥١
منهج	سريع	١٠٠
ابتهاج	»	٣٩٠
الديباجا	خفيف	١٩٨
الخزرج	متقارب	٢٥١

القافية	البحر	الصفحة
	(الحاء)	
يراحُ	طويل	١٠١
يتوضحُ	»	٣٦٤
وتنبح	»	٣٦٦
أملح	»	٣٨٢
بالقوادح	»	٨٤
الذرارح	»	٩٣
ونوحا	مجزوء المديد	٢٧٦
ويصيح	»	٣٥٢
نوح	»	٢٧٦
وصبوح	»	٣٩٨
مصباح	بسيط	٢٧٢
وأقداح	»	٣٣٩
بالراح	»	٣٣٩
مجروح	»	٣٤٣
ضاحى	»	٣٥٦
الشحيح	وافر	١٩٥
الفلاح	»	٢٦٣
راح	»	٣٠٦
بالرواح	»	٣٦٦
باحا	كامل	٢٧٦
الجوانح	مجزوء الكامل	٣٥٥
الفصح	منسرح	٣٣٢
السطوح	خفيف	٩٧
	(الدال)	
قعودا	طويل	٩٦
المسهدا	»	٢٦١
ويزيد	»	٨٩
وأذود	طويل	١١٣
وتزيد	»	٢٧٣
يد	»	٢٧٣
يحمد	»	٣٠٦
صيود	»	٣٦٤
والعهد	»	٣٧٣
ممرد	»	٧٣
وحدى	»	٨٠
توسد	»	٩٨
غد	»	١٧٩
لقاعد	»	١٢٥
والزند	»	٢٣٠
القصد	»	٢٥٦
اليد	»	٣٢٦
التجلد	»	٣٢٦
ودادى	»	٣٣٨ ، ٣٤٧ ، ٣٩٨
الزند	»	٣٤٣
مبدد	»	٣٤٤
بسرمد	»	٣٤٤
لم تهتد	»	٣٦٢
يجدى	»	٣٦٥
الجد	»	٣٦٦
الحمد	»	٣٧٥
وجنود	»	٣٩٩
تجد	مديد	٣٦٠
يستبد	»	٣٦٦
الخلد	»	١٧٧
وزاد	مجزوء المديد	٢٦٦
بعدى	»	٢٨٤

القافية	البحر	الصفحة
أحدا	بسيط	١٤١ ، ٢٢٥
أحد	»	٢٢٢
تتقد	»	٣٣٥
يعد	»	٣٤٦
البلد	»	١٩٣
القد	»	١٩٦ ، ١٩٩
بالسدد	»	٢١٠
لم يبد	»	٢١١
السند	»	٢٧٢
وحد	»	٣٢٧
كالورد	»	٣٣٢
الجود	»	٣٦٧
محدود	»	٣٦٩
ومعقود	»	٣٦٩
لإسعاد	»	٣٨٢
صيخود	»	٣٩٧
جلدا	مخلع البسيط	٣٨٩
وحدى	»	٣٣٢
حديد	»	١٧٧
تقود	»	١٧٧
العبيد	»	٢٢٢
لحد	»	٧٥
أبو الوليد	»	١٨٣
دعد	»	٢١٧
معادى	»	٣٦٦
أرادى	»	٣٨٢
أودا	كامل	٣٦٢
يتأبد	»	٣٥٦
يغمد	»	٢٣٠

القافية	البحر	الصفحة
محمد	كامل	٢٢١
العاهد	»	٢٦٠
متعبد	»	٣٠٥
تدرى	»	٣٤٦
لهاد	»	٣٧٤
لم يغمد	»	٣٧٥
زبرجد	»	٣٩٠
مسود	مجزوء الكامل	٢٨٠
الأسد	رجز	٨١
يوحدا	»	٣٨٤
المتجرد	مجزوء الرجز	٣٤٣
بليد	مجزوء الرمل	١٧٨
الجياد	سريع	٣٩١
جلد	»	٧٣
مخلد	»	٣٨٨
مسجد	»	١٠٠
عيد	سريع	١٧٣
تجدى	»	٢٧٠
الأوتاد	»	٣٧٨
يفيدا	خفيف	١٦٤
وأجودا	»	٢٠٥
العباد	»	٣٠٩
العواد	»	٣١٠
وادى	»	٣٧٣
عبد الحميد	»	٣٨٤
الجاحد	متقارب	٣٤٦
سعيد	قوما	٤٠٣

القافية	البحر	الصفحة
	(الذال)	
تنبذ	طويل	٢٠٠
	(الراء)	
هدير	طويل	٢٧٧
جدير	»	٣٠٣
يصير	»	٣٠٤
حمر	»	٣٣٤
فالعبر	»	٣٤٠
عسير	»	٣٤٩
خصر	»	٣٥٥
الحناجر	»	٣٥٦
سارا	»	٩٨
السوارا	»	٩٩
منكرا	»	١٣٩
نكرا	»	١٦٥
وقرقرا	»	١٩٩
شهرا	»	٢٢٨
قسرا	»	٢٤٥
يتذكرا	طويل	٢٦٥
العطرا	»	٢٧٣
ظهرا	»	٢٩١
وقيصرا	»	٣٣١
الخمرا	»	٣٣٨
مصر	»	٣٤
يمطر	»	٦٢
جبر	»	٦٦
الصهر	»	٧٤
تجور	»	٨٦

القافية	البحر	الصفحة
يتمرمر	طويل	٩١
القطر	»	٩٨
النسر	»	١٦٤
الجهر	»	١٦٥
والستر	»	١٩٥
قدر	»	٢٧٢
كفر	»	٢٧٤
البدر	»	٢٧٤
تنشر	»	٣٦٩
عذر	»	٣٧٧
حناجره	»	٣٩٩
بكر	»	٣٩
حشرى	»	٩٠
والخمر	»	١١٠
النشر	»	١١٠
الدهر	»	١٦٦
وقار	»	١٧٥
البرابر	»	١٨٣
تاجر	»	١٨٣
والخطر	»	١٩٣
شاطر	»	٢٢٣
والهجر	»	٢٥٩
المزامر	»	٢٦٠
الصبر	»	٢٧٦
الهواجر	»	٢٧٦
بذاكر	»	٢٧٦
الذكر	»	٢٧٧
الديار	مديد	٤٠١
وحضر	»	٢٦٥

القافية	البحر	الصفحة
دارا	مجزوء المديد	١٩٩
وقارا	»	٢٧١
نارا	»	٢٧٢
ليسار	»	٢٦٦
شعر	»	٢٧٥
جفارا	بسيط	٥٧
تعتصر	»	٥٩
عطر	»	١٠٣
نصروا	»	١١٥
ظفروا	»	١٨٦
النار	»	٢٣٠
والزير	»	٢٤٩
الذكر	»	٢٨٨
قدروا	»	٣٠٦
صبروا	»	٣٠٧
كدر	»	٣٠٧
وضرار	»	٣٥٦
أسفار	»	٣٥٧
نار	»	٣٥٨
عمر	»	٣٧٥
القمر	»	٣٩١
الكفر	»	٦٠
النار	»	٦١
للسارى	»	٦٢
جارى	»	٦٥
الدهر	»	٦٨
الثرثار	»	١١٥
وأبشار	»	١٢٣
زوارى	»	١٦٦

القافية	البحر	الصفحة
الخبر	بسيط	٢٠٢
العبر	»	٢٢١
تقدير	»	٢٢٨
مأمور	»	٢٣٧
الجارى	»	٢٧١
قار	»	٢٧١
بدينار	»	٢٧١
مكار	»	٢٧١
النار	»	٢٧٢
تهدار	»	٢٧٧
والعبر	»	٢٨٩
القار	»	٣٤٤
الخصر	»	٣٥٣
البشر	»	٣٦٠
مأجور	»	٣٦٨
الدهارير	»	٣٨١
والبصر	»	٣٨٩
أدرى	»	٣٩٢
الحجر	مخلع البسيط	٣٩٦
شكرى	»	٣٠٤
القرار	وافر	١٧٥
الإزار	»	٢٠٠
النشور	»	٢٥٠
الوقار	»	٢٥٧
السرور	»	٢٩٧
الإبار	»	٣٨٣
غفورا	»	٢٢٧
اعتذارا	»	٣٠٨
بشرا	»	٣٩٤

القافية	البحر	الصفحة
الأمير	وافر	٢٣٢
خيار	»	٣٤٦
بقبر	»	٧٥
بنى بشير	»	١١٥
الأمور	»	١١٩
الصغير	»	١١٩
وجار	»	١٨٩ ، ١٩٢
والقرار	»	١٩٤
بالنهار	»	٣٢٧
للذكور	»	٣٤١
البصر	مجزوء الوافر	٢٥٣
الجوارا	كامل	٣٦٢
فيصبر	»	٨٥
صوار	»	٣٧٤
يقدر	»	٨٣
النار	»	٨٥
كأشهر	»	٨٩
المكثر	»	٨٩
الأنصار	»	١٠٥
ضار	»	١٢٠
الصافر	كامل	١٢٤
الدار	»	١٦٤
فافخر	»	١٩٢
الفجار	»	٢٣٠
الأقدار	»	٣٠٨
لجار	»	٣٥٩
الأبصار	»	٣٨١
أفخر	مجزوء الكامل	٣٦٣
نظير	»	٣٦٤
المصاير	مجزوء الكامل	١٣٤
الذكور	»	٢٥٣
المطير	»	٢٦٢
والسدير	»	٢٧٨
المنير	»	٢٨٧
بالعبير	»	٢٨٧
تحصر	رجز	٢٠١
المرر	»	٤٠٠
سفر	»	١٠٨
يجر	»	٣٨١
الجلنار	مجزوء الرجز	٣٨٩
عمرا	سريع	٣٦٢
خلار	»	١٩٩
بجر	»	٣٠٣
أمير	»	١٠٥
بتصوير	»	١٧٣
والحور	»	١٧٣
الخمار	»	٣٣٢
القطر	»	٣٣٦
ستر	»	٣٥٨
للتزائر	»	٣٧٤
عنبر	»	٣٨٨
شرر	منسرح	٢٧٥
بأنبار	»	٣٢٨
الأحرار	خفيف	٢٠٩
دار	»	١٩٩
الشطار	»	٢٢٣
جهارا	»	٣٧٧
نهار	»	٣٣٠

القافية	البحر	الصفحة
نسر	خفيف	٣٦٢
اعورار	»	٣٨٩
الغبار	»	٢٧١
بإزار	»	٢٧٤
والأكوار	»	٣٢٨
الإزارا	متقارب	٢٩٠
بنى الأصفر	»	١٩٥
المشير	»	٢٨٧
الأحجار	كان كان	٤٠١
	(السين)	
أنفسا	طويل	٣٥٦
تلبسا	»	٣٥٥
فارس	»	١٩٥
المعاطسُ	»	٣٨٠
دارسُ	»	٣٥٣
حابسُ	»	٣٦٠
بسطا	بسيط	٣٩٥
وإيناس	»	٣٦٥
النواقيس	»	٣٩٠
انقباض	مخلع البسيط	٢٥٥
بالبوس	»	٣٣٣
نواس	وافر	٢١١
بالنفوس	»	٢٨٦
بلا مساس	»	٣٧١
إياس	كامل	٢٠٧ ، ٣٧٦
أوسى	»	٢٠٨
جلوسى	»	٢٤٠
ناسى	»	٣٧٦
خمسا	مجزوء الكامل	٣٦٦
كاسا	هزج	٢٧٩
وأكواسا	»	٣٨٥
عباس	»	٢٥٨
إبليس	مجزوء الهزج	١٦٨
بوس	رجز	٣٧٧
بالأخس	»	٢٩٨
تهويس	مجزوء الرجز	٢٣٨
جلس	سريع	٣٣٣
تسخطوا	»	٢٢١
وعبس	خفيف	٢٠٤
وأنس	»	٢٠٥
وكس	»	٢٠٦
براسى	»	٢٥٩
والفرس	مواليا	٤٠١
	(الصاد)	
تنغيصا	بسيط	١٢٧
تشخصا	سريع	٢٥٥
	(الضاد)	
نهوض	طويل	٣٥٥
بعض	»	٢٠
عرض	بسيط	٣٤٤
غضا	كامل	٣٠١
قراض	سريع	٢٥٥
	(الطاء)	
سناط	رجز	١٩٧

القافية	البحر	الصفحة
	(العين)	
فتشجعا	طويل	٢٢٣
سلعا	»	٣٢٩
ستقلع	»	٥١
الخروع	»	٥٣
البراقع	»	٥٦
قناع	»	٣٣٧
يتوجع	»	٣٦٥
يوشع	»	٣٧٥
الأصابع	»	٣٨١
فدع	بسيط	٢٢٤
ينتفع	»	٣٠٨
منخلع	»	٣٠٨
خضع	»	٣٥٧
للجوع	»	٣٦٦
لفاعا	وافر	٣٥٩
نستطيع	»	٣٥٧
تراعى	»	١٢٦
المضاع	»	٣٧٥
الأرفع	كامل	٥٨
الأصبع	»	٥٨
الساعى	»	٢٢٩
الساطع	سريع	٣٧٨
الخداع	خفيف	٣٧٨
أوسع	متقارب	٣٠٧
	(الفاء)	
وقف	طويل	١٨٤
المتلهف	طويل	٨٢
تشرف	»	١٠١
ونقذف	»	١١٠
ابن طريف	»	٣٦٠
الأنفا	بسيط	٣٥٥
وإيجاف	»	١٠٩
المطارف	»	١٢٧
أجواف	»	٢٧٢
الصياريف	»	٣٨٧
الأنف	»	٣٨٩
ظرف	مخلع البسيط	٢٨٥
الضعاف	وافر	١٢٥
لطيف	»	٣٤٤
خفيفا	كامل	٣٤٤
شنفا	»	٣٨٤
قصف	»	٣٣٧
اكتنفا	رجز	٣٨٠
الألف	»	٣٨١
النصف	سريع	٣٣٥
أصداف	منسرح	٢٧٣
بوقاف	»	٣٣٣
الحجف	متقارب	١٢٩
	(القاف)	
عقيق	طويل	٢٧٤
رقيق	»	٣٦٦
وتحمقوا	»	٥٧
فيخلق	»	٨١
تعتق	»	٨٩
واثق	»	١٧١

القافية	البحر	الصفحة
ينطق	طويل	٢٩٤
بالمعازق	»	٣٥
بصادق	»	١٩٩
الحمق	مديد	١٩٢
سبق	»	٣٦٤ ، ٣٦٦
البواشيق	بسيط	٣٣٢
آفاق	»	٣٥٧
وذاقوا	وافر	٣٥٥
الرقيق	»	٢٦٠
باق	»	٢٧٩
مائق	كامل	٢٢١
بتلاق	»	٢٥٥
الفائق	»	٢٧٣
بفرق	»	٢٩٦
تخلق	»	٣٠٩ ، ٣٧٠
وتلهوق	»	٣٧٣
رق	»	٣٨٥
رقيق	رجز	٢٩٧
سائق	»	٣٨٧
مرموق	»	٣٩٧
والمائق	سريع	٣٦٥
مشتاق	»	٢٥٥
حلق	مجزوء السريع	٢٨٥
السوق	منسرح	١٩٨
طرق	خفيف	٢٣٦
التصفيق	»	٢٦٢
الراووق	»	٢٧٣
عميقاً	»	٥١ ، ٢٦٧

القافية	البحر	الصفحة
	(الكاف)	
الفلكا	طويل	٢٧٧
بمالك	»	٨٥ ، ٨٦
الشوابك	»	٣٥٥
المليك	بسيط	٣٧٦
المليك	وافر	١٧٤
حذرك	مجزوء الوافر	١٠٢
من ملك	مجزوء الرجز	١٧٤
الحمد لك	»	٢٤١
الملك لك	»	٣٥٤
لعلك	مجزوء الرمل	١٧٥
الفلك	منسرح	٢٧٤
أراك	خفيف	٣٧٦
لذاكا	متقارب	٢٤٠
	(اللام)	
يترحلا	طويل	١٢١
عقالا	»	٢٦٨
الأبطالا	»	٣٨٧
طفلا	بسيط	١٠٢
مثلا	»	٢٢٨
صحلا	»	٢٥١
فضلا	»	٣٨٧
أقلا	مجزوء المديد	٣٤٣
الأغلالا	كامل	٦٠
خيالا	»	١١٠
ظلالا	»	١٦٨
وكالا	»	٢٨١
حويلا	»	٢٩٤

القافية	البحر	الصفحة
الأبطالا	كامل	٣٨٣
مشكولا	»	٣٩٢
غزالا	وافر	٥٠
رحالا	»	٥٩
العقولا	»	٢٧٣
يطولا	»	٢٧٧
مجهولا	سريع	٢٢٩
وجلالا	خفيف	٣٧٧
جميلا	متقارب	٨٤
أفعل	طويل	٣٤
تفعل	»	٨٦
رسول	»	٨٨
أفضل	»	٨٩
ويجذل	»	٩٠
يتهيل	»	٩١
موكل	»	٩٤
جميل	»	٩٥
الجهل	»	٢٠٢
تتآكل	»	٢٦٣
ومفصل	»	٢٦٣
مثل	»	٣٦٩
ذوابل	»	٣٧٤
أكسل	»	٣٨١
القتل	»	٢١
معول	»	٧١
بجيل	»	٨٨
مهل	»	٨٨
فضل	»	٨٨
عقلى	»	٩٨

القافية	البحر	الصفحة
الرجال	طويل	١٠٠
المتفضل	»	١٠٣
طائل	»	١٢٧
النجل	»	١٦٧
محول	»	١٩
البعل	»	٢٧٧
الهطل	»	٢٨٠
مثال	»	٢٨٨
الرسائل	»	٣١١
فحومل	»	٣٢٦
برحيل	»	٣٣٠
الفال	»	٣٥٦
الرحل	»	٣٦٠
المنازل	»	٣٨٠
هيكل	»	٣٩٢
أجل	مديد	١٩٧
مأمول	بسيط	٢٩
والجبل	»	٤٦
جمل	»	٣٤٠
الفصل	»	٣٦٩ ، ٣٧٠
هلال	»	٦٣
والكفل	»	٧٢
حال	»	١٧٢ ، ٣٠٩
الحجل	»	٢٧٨
البالى	»	٣٢٩
أمل	»	٣٥٤ ، ٣٦٨
والبزل	»	٣٦٧
مثل	»	٣٦٨
جدال	مخلع البسيط	٤٠٣

القافية	البحر	الصفحة
السؤال	وافر	١٣٧
الحجول	»	٢٠٣
دمول	»	٢٠٣
المميل	»	٣٢٧
الوصال	»	٣٧٢
وتسفل	كامل	٥٨
وأطول	»	٦٣
موكل	»	١٠٦
جليل	»	٢٢٣
نهشل	»	٣١٢
تقتل	»	٣٥٩
الأخوال	»	٥٧
الأنفال	»	٥٨
مبلول	»	٥٩
وطلول	»	٧٦
واصل	»	٨٧
قفول	»	٩٠
سبيل	»	٩٥
وحلال	»	٣٢٧
غوال	»	٣٤٥
حمال	»	٣٥٢
المنهل	»	٣٥٧
بالعقل	»	٣٧٢
الأفحل	»	٣٩١
احتيالى	مجزوء الكامل	٣٧٢
المتصل	رجز	٣٨١
كاهل	»	٣٨٢
العمل	»	٣٨٠
الحمل	منسرح	٢٨٨

القافية	البحر	الصفحة
بالحامل	منسرح	١١٩
العاجل	سريع	٣٠٢
المصلى	خفيف	٤٠٠
عطبول	»	٢٩٥
ذهول	متقارب	١٩٨
	(الميم)	
العلم	طويل	١٩٢
المناسما	»	٥٤
لهازما	»	٥٥
الجماجما	»	٥٥
الدما	»	٣٦٣
وتوأما	»	٣٧٤
تهدما	»	٣٩٧
العمائم	»	٤٥
لائم	»	٤٧
مقسم	»	١٠٩
معدم	»	٣٠٥
نائم	»	٣٦٠
يدوم	»	٣٨٧
دم	»	٣٨٩
يظلم	»	٢٠
المصالم	»	٤٨
للخراطم	»	٥٥
عارم	»	٥٥
المطاعم	»	٥٦
التنسم	»	١١٤
أم حكيم	»	١٢٦
ظالم	»	١٣٨

القافية	البحر	الصفحة
بدرهم	طويل	٢٠٣
مجرم	»	٢٠٩
ملوم	»	٢١١
بسالم	»	٢١٨
فالمتثلم	»	٣٢٦
الصوارم	»	٣٨٠
ألم	مديد	٣٦٦
ظلاما	بسيط	٣٦٩
والخدم	»	٣٠٧
الحرم	»	٥٧
ومعتصم	»	١٢٨
تسليمى	»	١٨٨
بمهدوم	»	١٨٨
سنم	»	٣٥٧
تهمى	»	٣٥٨
الأقوام	»	٣٨٢
ملثوم	»	٣٨٣
حاكم	مخلع البسيط	٢٥٣
اللوم	»	٣٦٩
المقاما	وافر	١٣٧
وصاما	»	٣٠٨
السلام	»	١٩٠ ، ٣٨٠
حرام	»	٣٨٣
الأحلام	»	٥٦
وسلمى	»	١٠٢
الحرام	»	١٧٢
للغلام	»	١٧٦
الكلام	»	١٧٦
إمام	»	٢٢٩

القافية	البحر	الصفحة
والسلام	وافر	٢٦٠
عظامى	»	٢٧٠
الرخام	»	٢٧٨
اللثام	»	٣٠٦
الحرام	»	٣٣٢
درهما	كامل	٢١٦
يكرم	»	٨٥ ، ٨٦
يارامى	»	٢٥٣
المعلم	»	٢٦٤
الأعمام	»	٣٤٢
صميم	رجز	٣٨٧
تحتكم	مجزوء الرجز	٢٠٦
تلتقم	»	٢٠٦
شتم	»	٢٩٩
السقم	رمل	٣٣٠
لا يسهم	سريع	٣٧٨
تسلم	خفيف	٣٧٢
شمما	»	٣٣٦
المظلوم	»	١١٧ ، ٣٧٧
الختام	»	٢٧٥
تحريم	»	١٧٤
أم حكيم	»	٢٦٨
الأحلام	»	٣٧٧
أعجما	مجزوء الخفيف	٣٣٤
العلم	متقارب	١٩٢
صائم	»	٦١

(النون)

القافية	البحر	الصفحة
تلين	طويل	٢١٢

القافية	البحر	الصفحة
ويغتن	طويل	٣٧٠
مكان	»	٣٦
صليني	»	٨٩
سنان	»	١٦٦
بدين	»	٢٧٠
بجزان	»	٣٥٧
داني	»	٣٦٧
بدنا	مديد	٢٣٧
آذريون	مجزوء المديد	١٩٦
ياسمين	»	١٩٦
أصبهاني	»	١٩٦، ٢٦٩
زمنا	بسيط	١٠١
سكنا	»	١٠١
إنسانا	»	١٢١
مدفونا	»	١٣٥
ومرجونا	»	١٤١
رهبان	»	١٧٤
ضغنوا	»	١٩٧
الحزن	»	١٣٥
وسوسان	»	١٩٨
برهان	»	٢٣٧
عيني	»	٢٥٣
رامين	»	٢٥٤
اثنان	»	٣٠٨
أعطاني	»	٣٤٢
راجعونا	مخلع البسيط	٤٠٢
ترانا	وافر	٣٥
الكاشحينا	»	٧٣
أربعونا	»	١٢٣

القافية	البحر	الصفحة
أجمعينا	وافر	١٣٨
مارونا	»	٢٦٢
الأندرينا	»	٢٦٤
وقاصرينا	»	٢٦٥
آخرين	طويل	٣٨٢
عاني	»	١٦٩
اليماني	»	١٩٦
فينا	كامل	٦٤
النشوان	»	٥٥
السلطان	»	٥٥
الألوان	»	٦١
بالمأمون	»	٢٢٧
مكان	»	٣٦٨
وزينا	مجزوء الكامل	٢٥٩
عدن	رجز	٣٧٠
المساكين	»	٢٥٤
راجعونا	مجزوء الرجز	٣٧٠
حسن	منسرح	٣٨٩
جيرون	خفيف	١٠٥
يهون	»	٢٣٩
يصطلونا	»	٣٣٧
يلهينا	»	٣٥٨
حزين	»	٢٥٩
بالتمني	»	١٠٥
القيان	»	١٦٦
أجفاني	»	٢٣٩
المنون	»	٢٦٤
يلتقيان	»	٣٦٠

القافية	البحر	الصفحة
كارهونا	متقارب	١١٢
تحذرونا	»	١١٣
	(الهاء)	
بارقه	طويل	٧٩
هوالكه	»	٢٩٦
تاركه	»	٢٩٦
مالكه	»	٣٤١
همومها	»	٤٧
حينها	»	٩١
غريمها	»	٩٣
نونها	»	١٩٥
حلومها	»	٣٥٥
طلاقها	»	٣٦٩
دانيه	مديد	٣٣١ ، ٣٧١
الشجرة	»	٣٩٠
قعيده	مجزوء المديد	٢٢٤
وحاجه	»	٢٨٩
وصلوه	»	١٧٨
يديه	»	٤٠٠
شاربه	بسيط	٢٩١
كالبه	»	٣٨٨
فينعاها	»	٨٦ ، ٢٥٩
مواليها	»	٢٤٦
مجريها	»	٣٩٣
نواصيها	»	٣٩٧
ومكاها	مخلع البسيط	٣٣٣
الفلاة	وافر	٢٨٩
موكبها	مجزوء الوافر	١٠٦

القافية	البحر	الصفحة
وسنامه	كامل	٣٥٢
بعلها	»	١٠٧
جريالها	»	٢٧٢
فأحالها	»	٣٠٣
قالها	»	٣٠٨
فرجامها	»	٣٢٦
تنساها	»	٣٣٨
هلالها	»	٣٤٢
متتالية	مجزوء الكامل	١٧٠
فتاة	»	١٧٦
الزكية	»	٢٢٥
فراشه	»	٣٧٢
ثيابها	»	٧٢
وطارقه	رجز	٧٦
وغسله	»	١٢٤
ودمنه	»	٢٩٨
والده	»	٣٩٩
عنقها	»	٣٨٥
زانيه	مجزوء الراجز	١٧٣
ثمره	رمل	٢٠٦
تأويله	سريع	١٢٨
ذكته	»	١٧٧
كده	»	٢٣٩
مقلته	»	٢٨٨
أجزائها	»	٣٤٣
كالذهبه	مجزوء السريع	٣٩٠
كذبه	منسرح	٣٤٥
أدلالها	متقارب	٣٩٩
أمسه	»	٣٦٦

القافية	البحر	الصفحة
	(الياء)	
تماديا	طويل	٤٦
باقيا	«	٤٧
هيا	«	٨٣
المراميا	«	٨٣
باديا	«	٩٢
صافيا	«	٩٣
فؤاديا	«	٩٣
ورائيا	«	٩٨
دعائيا	«	٩٩
ليا	طويل	١٠١ ، ٣٨١
الدنيا	«	٣٣١
بشماليا	«	٣٥٩
كفانيا	«	٣٨٧
دينا	مجزوء المديد	٢٨٦
الدنيا	مخلع البسيط	٢٩٥
عليا	وافر	١٣٥
هيا	كامل	٨٥
راسيا	سريع	٢٨٧

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

تقديم ٥

مقدمة المؤلف ١٥

سبيلنا فى البحث ١٦ – حرية البحث ١٨ – المثالية الكمالية ١٩ – الدراسات المختلفة فى هذا البحث ٢٢

الكتاب الأول

الشعر الأموى

تمهيد ٢٩

العصبية القبلية ٣١ – العصبية والخلافة ٣٩ – العصبية والردة ٤٠ – صراع بين الزبيرية والأموية ٤٢ – العصبية والخوارج ٤٣ – العصبية والعصر الأموى ٤٤ – هشام ابن عبد الملك ٤٩ – الوليد بن يزيد ٥٠ – مروان بن محمد بن الحكم ٥١

نظرات فى الشعر القبلى ٥٢

هجاء البخل ٦١ – الفخر القبلى ٦٢ – المفاخرة بالأيام ٦٥ – الشاعر وتعدد الخصومات ٦٦

الفنان الجديدان – الغزل – السياسة ٦٩

الغزل ٧١ – الغزل الجاهلى ٧١ – المرأة العربية فى الجاهلية ٧٨ – الغزل الأموى ٧٩

جميل بن معمر ٨١

العاشق الطفل ٨٣ – طبيعة الحب عند جميل ٨٣

الجاهلية والقصص الغرامى ٩٢

غزل البادية المصطنع ٩٥ – غزل الحجاز الحضرى ٩٧ – العاشق الحضرى ومناورته ١٠٠ – الغزل السياسى ١٠٤ – غزل المقدمة أو غزل العراق ١٠٨

الشعر السياسى ١١٢

الأخطل ١١٤ – أنصار ابن الزبير ١١٦

الخوارج ١٢٠

حروب الخوارج وشعرهم ١٢٢ – القعدة ١٢٥

الشيعة ١٢٨

آراء الشيعة ١٣٣ – شعراء الشيعة ١٣٣ – الشيعة والبدع ١٣٦ –

صفحة

المرجئة ١٣٩

الكتاب الثانى

الشعر العباسى فى العصر الأول

تطور الشعر ١٤٥ – التوليد ١٤٦ – الخلية البشرية ١٥١ – قوانين الوراثة ١٥٢ – الاستثناءات ١٥٤ – نظرية الوراثة ١٥٤ – نظرية الحركات الانتقالية ١٥٥ – الصفات المكتسبة ١٥٦ – شيعة النفس ١٥٦ – التناقض الخلقى ١٥٧

التوليد ١٥٨

رأى المحدثين ١٥٨ – لكل أمة عقلها ومزاجها ١٥٩ – التوالد ١٦٠ – آثار التوليد بالتدريج ١٦٢

الأثر العام للتوليد ١٦٤

الأثر الخاص للتوليد أو أثر التوليد فى نفوس الشعراء ١٧٢

أثر التوليد فى الحس ١٧٦ – أثر التوليد فى المزاج وفى طبيعة النفس ١٧٧ – التوليد والنفسية السوداء ١٧٨

الشعوبية ١٨٠

وثبة الموالى على العرب ١٩٠ – حظ العصبية العربية من القوة أو الضعف ٢٠٠ – الشعوبية المعتدلة أو التسوية ٢٠٢ – بحور المفاخرة ٢٠٣ – الشعوبية تنتصر ٢٠٧ – العصبية القبلية فى العصر العباسى ٢٠٨

الشعر السياسى والفرق الدينية ٢١٣

الشعر السياسى فى العصر العباسى ٢١٣ – الشيعة والعصر العباسى ٢١٤ – الشعراء ٢١٦ – بشار ٢١٨ – ديك الجن ٢١٩ – دعبل ٢١٩

المعتزلة ٢٢٦

الصوفية ٢٣٢

الفرق بين الزهد والتصوف ٢٣٤

الصوفية فى القرن الثانى والثالث ٢٣٥

ذو النون ٢٣٩ – رابعة العدوية ٢٤٠ – الشعر الصوفى ٢٤١

الفرق الحلولية ٢٤٢

صفحة

الغزل	٢٤٥
كلمة عن الرق ٢٤٥ – الرق فى الجاهلية ٢٤٥ – الإسلام والرق ٢٤٦	
الغناء والموسيقا	٢٤٨
القيان ٢٥٠ – القيان فى صدر الإسلام ٢٥٠ – القيان فى العصر الأموى ٢٥١ – الغزل العباسى ٢٥٦ – العباس بن الأحنف ٢٥٨	
الفنون الجديدة	٢٦١
الخمريات ٢٦١ – خمريات الأمويين ٢٦٢ – الوليد بن يزيد ٢٦٣ – الخمر عند الجاهليين ٢٦٤ – خمريات العباسيين ٢٦٩ – أبو نواس والسلف ٢٧٠ – أثر الفلسفة اليونانية ٢٧٩ – الغلمانيات ٢٨٢ – الزهد ٢٩٤ – النظم التعليمى ٢٩٨ – الصناعة ٣٠٠ – الألغاز ٣٠١ – المدح ٣٠٢ – رواج المدح فى العصرين والمقابلة ٣٠٥	
تدوين العلوم	٣١١
الفلسفة اليونانية وأثرها ٣١٢ – الثقافة الفارسية ٣١٢ – تدوين الكيمياء ٣١٣ – تدوين التاريخ ٣١٥ – تدوين الشعر ٣١٦ – تدوين البلاغة ٣١٦ – تدوين النحو ٣١٦	
أثر الفلسفة اليونانية	٣١٨
البلاغة ٣١٨ – فى النحو ٣١٨ – فى علم الكلام ٣١٨	

الكتاب الثالث

المقارنة الفنية بين الشعر الأموى والعباسى

ما الشعر ٣٢٣ – الثورة على القديم ٣٢٦ – النزعة إلى الجديد والثورة على القديم فى العصر العباسى ٣٢٨ – فلسفة أبى نواس ٣٣٠	
أثر الفلسفة اليونانية فى الشعر العباسى	٣٤١
الحكم اليونانية ٣٤٦	
مقارنة الأسلوب فى الشعر الأموى والعباسى	٣٤٧
البديع ٣٥١ – البديع فى العصر الجاهلى ٣٥٥ – البديع فى العصر الأموى ٣٥٩ –	
العصر العباسى	٣٦٢
البديع فى شعر بشار ٣٦٢ – البديع فى شعر مسلم بن الوليد ٣٦٧ – البديع فى شعر أبى نواس ٣٧٠ – بديعيات أبى تمام ٣٧٣	
مقارنة النحو فى الشعر الأموى والعباسى	٣٧٩
الشواذ والأخطاء النحوية فى عصر بنى أمية ٣٨٠ – الشواذ والأخطاء النحوية فى الشعر العباسى ٣٨٤	

صفحة

اختلاف اللغات وأثر ذلك فى الشعر الأموى ٣٨٦
الخيال فى الشعر الأموى والعباسى والتشبيهات الجديدة ٣٨٨
الواقعية فى الشعر العباسى ٣٩٦
بحور الشعر واستعمالها فى العصرين ٣٩٨
شعراؤنا الفنانون ٣٩٨ – أوزان وفنون جديدة ٤٠٠
أما بعد وأما قبل ٤٠٤

المراجع :
مراجع عربية ٤٠٩
مراجع أجنبية ٤١٨

الفهارس :
١ – الأعلام ٤٢١
٢ – شعوب وفرق وقبائل ٤٣٥
٣ – الأماكن ٤٤١
قوافى الشعر ٤٤٥

رقم الإيداع	١٩٨٠ / ٣٢١٠
الترقيم الدولى	ISBN٩٧٧ – ٢٤٧ – ٧٣٣٠ – ٤٥ – ٦

١ / ٧٩ / ٢٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)